المخطوط العربي

مجلّة علميّة نصف سنويّة تُعنى بالمخطوطات وتحقيقها
وتاريخ العلوم عند العرب

العدد (٦) النصف الثاني ٢٠٢٣

تصدُرُ عن وزارة الثّقافة - الهيئة العامّة السّوريّة للكتاب

رئيس مجلس الإدارة
الدكتورة لبانة مشوّح
وزيرة الثقافة

المشرف العام والمدير المسؤول
نايف الياسين

رئيس التحرير
محمد قاسم

هيئة التحرير
مزيد إسماعيل نعيم
محمد شفيق البيطار
عبد الناصر عساف
إياد الطباع
هبة المالح

التدقيق اللّغوي
محمد قاسم
أمينة سر المجلة
ياسمين الناصر
الإشراف الطباعي
أنس الحسن
الإخراج الفني
عبد العزيز محمد

المراسلة باسم السيد رئيس التحرير
Emai: syrbook.dg@gmail.com

السعر : ٢٥٠٠ ل.س أو ما يعادلها

كنوز لا تنضب ٢
الدكتورة لُبانة مشوّح وزيرة الثقافة

مِنْ رموز نُسّاخ المخطوطات ٤
رئيس التحرير

ما شاع حقًّا مِن الأخطاء اللّغويّة ٦
د. محمّد شفيق بن خالد البَيْطار

تخطيط المدن الإسلامية... مدينة المهدية مثالاً ٢١
د. مها الشَّعَّار

أثر أبي بكر الخُوَارزميِّ (ت ٣٨٣ هـ) في يتيمة الثَّعالبيِّ (ت ٤٢٩ هـ) ٣٥
د. محمَّد قاسم

منهج ابن جِنِّي (ت ٣٩٢ هـ) في كتابه (الفَسْر) ٤٦
د. إبراهيم محمد المحمود

التعليل الصوتي لظاهرة الاشتقاق عند ابن جني (ت ٣٩٢ هـ) ٥٧
د. منى محمد طعمة

جهود القدماء في ضبط المعرّب ٦٤
د. سكينة محمود موعد

أغراض التأليف في الأمثال العربية القديمة، ومقاصده ٧٤
د. نسرين عبيد

الرَّحّالة مُحيي الدِّين بيري رئيس... رحلاتُهُ ونشاطُهُ البحريُّ ٨٦
د. عبَّاس مرهج فرج

عبدُ الوَهَّابِ الزّنجانيُّ (ت٦٥٥ هـ)،وكتابه «الكافي في شرح الهادي» ٩٢
د. ساجد الخليف الصالح

الفراهيدي شاعرًا ١٠٨
بيان الصفدي

نظرةٌ في كتاب «الزَّاهر في معاني كلماتِ النَّاسِ» ١١٦
د. ليال سعيد أبو العزّ

أفلاك القمر وحركته مِن « هيئة الأفلاك » ١٢٦
د. مصطفى موالدي – أ. ديالا عتو

التربية والتعليم في التراث العربي الإسلامي ١٥٠
نبيل تللو – سوزان أبو حمزة

شكري فيصل المجمعيُّ المحقِّقُ، والأستاذُ الجامعيُّ المرموق ١٦٥
د. محمّد عطا موعد

آخر الكلام: مِن التّصحيف والتّحريف في مطبوعة «الحُجَّة» لأبي عليٍّ الفارسيِّ (ت ٣٧٧ هـ) ١٧٥
د. محمَّد قاسم

الدكتورة لُبانة مشوّح
وزيرة الثقافة

كنوز لا تنضب

لا شك في أن فضل الحضارة العربية الإسلامية كبير على نهضة أوروبا وخروجها من عصر الظلمات إلى عصر الأنوار. لم تكن تلك الحضارة مجرّد امتداد لما سبقها، ولم تتقوقع في نمط حضاري قائم ومحدّد، بل انفتحت على كلّ اللغات، ونهلت من كل المعارف، وتعمّقت في كل الأنماط الحضارية، لتخرج بنسيج فريد لا يشبه ما سبقه، ويؤسس لعصور من الإبداع المعرفي. وهذا ما أغنى الفكر الإنساني، وحفّزه على المزيد من الابتكار والإبداع، لتنتقل البشرية بخطا متسارعة إلى العلوم الحديثة.

لم يكتف العلماء العرب والمسلمون بنقل التراث العلمي والمعرفي للحضارات التي تقدّمت عليهم في التاريخ من آشورية وبابلية ومصرية وهندية وصينية إلى حضارة الإغريق واليونان، بل أضافوا إلى تلك العلوم والمعارف؛ فابتكروا الصفر والنظام العشري والترقيم، وكانوا سباقين في اكتشاف نظرية التطور والجاذبية، وقاسوا سرعة الضوء، وقدّروا زوايا الانعكاس والانكسار ومحيط الأرض وأبعاد الأجرام السماوية، وابتكروا المناظير والمجاهر والآلات الفلكية. ووضعوا أسس علوم الكيمياء، وكانوا رواد علم الجبر، وأول من اخترع هندسة القطع المكافئ وعلم حساب المثلثات. وكان الخُوَارِزْميُّ في كتابه «الجبر والمقابلة» أول من شرح الأساليب الحسابية لحل قضايا جينية عن طريق المحاسبة ثنائية الاتجاه.

كان للمستشرقين أثرٌ حقيقي وفاعل في إبراز عظمة هذه الحضارة، وانكبّ مؤرخو العلوم في الغرب على دراسة منجزات العلماء العرب والمسلمين عبر البحث والتنقيب في بطون مئات المخطوطات العربية كاشفين جواهر مكنوناتها وناهلين من معين كنوزها الثمينة الذي لا ينضب. ولعل أحد أهم من درس إنجازات العلماء العرب في مجال الطب تحديداً الطبيب والمؤرّخ لتاريخ العلوم في المشرق الفرنسي لوسيان لوكلير الذي أفرد لتاريخ الطب العربي مؤلَّفاً يقع في نحو خمسمئة صفحة، وصف فيه العلوم في الحضارة العربية والإسلامية بأنها «النشاط البشري الأنبل والأسمى»، مؤكداً أنها «أبهى تجليات الحضارة في مواجهة البربرية والظلامية».

وللحديث بقية...

مِنْ رموز نُسَّاخ المخطوطات

رئيس التحرير

فَطِنَ عُلَمَاءُ العربيَّة ونَقَلَةُ نُصُوصِها إلى خُطُورة النَّسْخ وما قد يَنْجُمُ عنه من تصحيف يُؤدي بمعاني الكلام ويطمس صباحة وجهه، ولهذا ما اصطنعوا وسائلَ جمَّةً تصونُ الكلامَ وتَعْصِمُهُ مِنْ غائلة التَّصحيف وتشابه الحروف وتدانيها.

وكان أوَّل ما اتّخذوه لهذه الغاية التّلقّي والتَّلقُّف من أفواه العلماء، ونبذ التعويل على الصُّحُف، قال قائلهم:

مَنْ يأخذ العلمَ عن شيخ مشافهةً ... يكنْ عن الزَّيْف والتَّصحيف في حَرَم

ومَنْ يكنْ آخذًا للعلم عن صُحُف ... فعلْمُهُ عنْدَ أهْل العِلْم كالعَدَم

وقال أبو نُوَاس في رثاء خَلَف الأحمر يذكرُ تَصَوُّنَهُ عن النَّقْل من الصُّحُف:

أوْدَى جِمَاعُ العلْم مذ أوْدَى خَلَفْ ... راويةٌ لا يَجْتَني من الصُّحُفْ

وكان يقال: لا تأخذوا القرآن من المُصْحَفِيِّنَ، ولا العِلْمَ من الصُّحُفِيِّنَ.

وثاني ما أتَوْهُ الإعجامُ والتَّقييدُ والضَّبْطُ، قال الأوزاعيّ: نُوْرُ الكتاب إعْجَامُهُ. وضوابط الإعجام والتقييد شيءٌ أَصَّلَهُ علماء الحديث، ومن حقلهم فاض على حقول العربية المختلفة، وهو فَنٌّ أرادوا به ظهورَ الحروف وبيانَها والنَّأْيَ بها عن التَّداخل والتَّراكب والتَّشابك والتَّشابه، فوضعوا «ح» صغيرة تحت الحاء في الكلمة مَنْبَهَةً على إهمالها، ووضعوا «.» نقطة تحت الدَّال اليابسة مَنْبَهَةً على أنَّها دالٌ لا ذالٌ، ووضعوا ثلاث نُقَط تحت السّين حتّى لا تختلط بالشّين المُعْجَمَة، ودائرةً صغيرةً تحت الصّاد المُهْمَلَة حتّى لا تلتبس بالضَّاد، ونقطتَي التَّاء بعضَهما فوقَ بعض بدل تجاورهما، نحو: فنُركوا، خشيةَ اختلاطها بـ فنزلوا.

وفي بعض الكلمات التي تُقْرَأُ بالإهمال والإعجام معًا قد يُنقط الحرف من أعلى ومن أسفل معًا، نحو «التشميت» و«التسميت»، أي تشميت العاطس، يضعون فوق الشّين نقطاً ثلاثاً وتحتها كذلك، إشارة إلى جواز القراءتين.

وممّا يتّصل بهذا القَطْعة، أي الهمزة، وهي صورة رأس عين تُوضع فوق ألف القطع، أو على الواو والياء المُصَوَّرَتَيْن بدلًا من الألف، أو في موضع ألف قد حُذفت صورتها مثل ماء وسماء. وفي الرَّسم القديم كثيراً ما تُهمل كتابتها، فتلتبس «ماء»، بكلمة «ما»، و«سماء» بالفعل «سما».

والمدَّة، وهي السَّحْبة التي في آخرها ارتفاعٌ، قد تردُ في المخطوطات القديمة فيما لم يَجْرِ به قلمُنا الآنَ، نحو «مآ» التي نرسمها الآن «ماء».

والشّدّة، وهي رَأْسُ الشّين، نجدُها في النُّسَخ القديمة فوق الحرف حينًا، وتحته إذا كانت مقرونة بالكسرة حينًا آخر. والشّدّة في الكتابة المغربيَّة ترسم كالعدد (٧) شديدة التَّقويس.

وتخفيف الحرف يُرمز إليه بالحرف (خ) أو بـ (خف) مَنْبَهَةً على أنَّهُ مُخَفَّفٌ غيرُ مُشَدَّد.

وإذا أراد النَّاسخ أنْ يحذف شيئًا ممّا كتب فلا يشطبه ولا يُضَبِّبُ عليه، بل يكتب في أوَّله «من» وفي آخره «إلى»، أي إنَّ ما بين «من» و«إلى» يُحذف. وإذا أراد تقديم كلمة على أُخرى بعد ما كتبهما كتب فوق الكلمتين (م – م)، يُريد: «مؤخَّر ومقدَّم».

وإذا استراب الناسخ في بعض ما يكتب رسم فوقه علامة التمريض، وهي صاد ممدودة «ص»، يُشير إلى أنَّ العبارة

صحيحـةٌ في نقلهـا، خَطَأٌ في نفسها، وتُسَمَّى هـذه العلامة أيضًا علامة التَّضبيب؛ لكونِ الحَـرْفِ مُقْفَلًا بها لا تستقيم بها القراءةُ، ولا يقوم بها معنى، كضَبَّةِ الباب يُرْتَجُ بها.

ووضعوا علامة التثليث اللّغويّ، وهي (ث) فوق الكلمة التي فيها حرف يُقْرَأ بالحركات الثّلاث كالسّمّ والذّروة.

وأجروا الحرف (ض) علامة على ما بُيِّضَ في الأَصْلِ المنقولِ عنه، وهو موضع يُبَيِّضُهُ المُصَنِّفُ على أَنْ يعود لتسويده أو إتمامه، ثمّ تحولُ حوائلُ بينه وبين العودة إلى ما أَجَّلَهُ، فيَبْقَى مَوْضِعُهُ بياضًا.

وجعلوا رأس العين (ء) إشارةً إلى «لعلَّه كذا»، و«ظ» إشارةً إلى كلمة «الظّاهر»، و«ك» إشارةً إلى «كذا في الأَصْلِ».

ورسم الناسخ فوق «أحمّ» مِنْ قَوْلِ الشّاعر:

ومَنْ يَرْفِدُ المَوْلى إذا جاء غارمًا ومَنْ يحملُ العبْءَ الثَّقيلَ إذا أَحَمّْ

ح و ج ، أَيْ إنَّها تُروى بالوجهين: أحمّ وأجمّ، وكتب تحتها تفسيرها هكذا:

أي قُدِّرَ، وهذا تفسيرها بالحاء، وأمّا بالجيم فتفسيرُها: دنا وحَانَ.

ومِن طريف حديث الرُّموز في النُّسخ العتاق أنَّ في الرُّواة التَّابعين الثِّقات رَجُلَيْن:

أحدهما أبو الجَوْزَاء ربيعة بن شيبان السَّعْديّ.

والآخر أبو الجَوْزاء أوس بن عبد الله الرَّبَعيّ.

قـال الحافـظ السُّيوطيُّ: ذكـر أبو عليّ الغسَّانيّ أَنَّ عبدَ الله بن إدريسَ قال: لمَّا حدَّثنـي شُعبةُ بحديث أَبي الجَوْراء، عن الحسن بن عليّ رضي الله عنهما، كتب تحته: حُورٌ عين؛ لئلَّا أَغْلَطَ فأقرأه: أبو الجَوْزاء، بالجيم والزّاي، لشَبَهِه به في الخَطِّ.

وقال أبو نصر إسماعيل بن حمّاد الجوهريّ: السَّعْتَر: نَبْتٌ، وبعضهم يكتبُهُ بالصَّاد، في كتب الطِّبِّ؛ لئلَّا يلتبسَ بالشَّعير.

ومِـن طريـف ما قد يجـرُّه الجهلُ بما يصطلحُـه النُّسَّاخ الصـورة التي وَقَعَ عليهـا هذا البيت في ضرائـر الشعر لابن عصفور، وارتشاف الضَّرَب لأبي حيَّان، والدّرّ المصون للسَّمين الحلبيِّ:

أَمْهَر منها حَيَّةً ونينانْ [كذا]

وهـو مِـن شواهد النُّحاة على زيـادة «مِن» دون أَنْ تُسبق بنَفْيٍ، أَيْ أَمْهَرَها. ومِن علامـات النُّسَّاخ أَنْ يرسموا دائرة في وسطها نقطة عند تمام الشِّعر، والبيت المستشهد به، هو:

أَمْهَرَ منها لَجْبَةً وتَيْسا

اللَّجْبَة: العَنْزَةُ القليلة اللبن.

جعل النَّاسِخُ عَقِبَ البيت هذه العلامة: ⊙ دائرة في وسطها نقطة، فاجتهد ناشرو الكتب في ضمّها إلى «تيسا»، وجعلوا منها «نينان»، وهو الحُوتُ!

ومِـن حرصِ العلماء علـى أداء نصوصهم أَنَّهم لم يكتفوا بضبـط القلم، بل لجؤوا إلى ضبط العبـارة، وهو أَنْ يصف الكاتـبُ حـروف الكلمة التي هي مَظِنَّةُ التَّصحيف يتغيَّا نَفْيَ الاشتباه بأخواتها التي توافقها في الرَّسم، نحو قولهم: العَتْبُ: بالعَيْنِ المهملة والتَّاءِ الفوقيَّة والباء الموحَّدة، وبذلك لا تَتَصَحَّفُ بكلمة «الغيث».

على الجملة ما اصطنعه النُّسَّاخُ والعلماءُ من رموز يعصمون بها ما هو مَظِنَّةُ التَّصحيف والقراءة على غير وَجْهِه فيما يكتبـون = كثـيرٌ يفوتُ المتتبِّعَ حَصْرُهُ، وفي الحَقِّ أَنَّ هذه الوسائل الموضوعـة لتقييد النُّصوص وضبطها منتزعة من علماء الحديث، فهم الذين أَصَّلُوا هذا الفَنّ، وشادوا بنيانه، واصطنعوا من أجله كُلَّ ما يَتَصَوَّنُ به، وأَنَّ علماء اللُّغة والأدب وسائر فنون التُّراث مَدِيْنُوْنَ لعلماء الحديث في الإفادة من هذه الضَّوابط والرُّموز التي تُؤَدَّى بها نصوصُهم أداءً مرضيًّا عنه. على أَنَّ بعض هذه الرُّموز مِمّا اصطنعه النَّاسخُ مِنْ عِنْدِ نَفْسِه اصطناعًا قَدَّرَ فيه عِصْمَةَ نَصِّه وسَلَامَتَهُ.

ما شاع حقًّا مِن الأخطاء اللّغويّة أو قارَبَ الخطأ، أو كان غيرُه أَوْلى

د. محمّد شفيق بن خالد البَيْطار *

هـذه عُجالَـةٌ في الألفاظ والتّراكيب الّتي يكثُرُ الخطأُ فيها، أو هي قريبةٌ مِن الخطأ، أو غيرُها أولى منها، جُمعَـت ممّـا كتبَـه النّاس أو نطقوا بـه؛ ولم تستوعِبْ كلَّ ما يقـعُ الخطأُ فيه ولو كان غـيرَ شائع، فذلك لا مَطْمَـحَ إليـه بعدَمـا صُنِّفَت فيه الكُتُبُ مِـن القرون الهجريّـة الأُولى إلى عصرنا هذا، وبلـغَ بعضُهاً مئات الصّفحـات لاحتوائهـا ما يُخطِئُ فيه النّاس كثيرًا أو قليلًا، وإنّما جُمِع هُنا بقَدْرِ الطّاقة ما يَكثُرُ فيه الخطأُ حقًّا، فتكون قراءتُه وتذكُّرُه أهونَ.

وهـي تتعلّـق بالكتابةِ والنُّطْق نَحْوًا أو تركيبًا أو صرفًـا أو لُغةً ضَبْطًا ودقّةَ استعمالٍ أو ألفاظًا دخيلةً أو مُعَرَّبـة، ولم يُثْبَـتْ شيءٌ من أخطاء الإملاء لأنّها من بابٍ آخَـرَ، ولأنّها ممّا يجب ألّا يخفى على أيِّ أحدٍ يعـرف القـراءة والكتابة جيّـدًا، ولأنّ الخطأَ فيه عَيْبٌ على مَن تجاوزَ التّعليـمَ الأساسيّ، وعارٌ كبيرٌ على مَن تقدَّمَ في التّعلُّم أكثر.

ورُتِّبَـت جميعًـا في جدولٍ واحـدٍ بحسَبِ الجُـذور اللّغويّة، عسى أن يكـونَ الرُّجوعُ إلى الخطـأ أيْسَرَ، واستُثْنِـيَ من ذلك: الحـروفُ المُفْرَدة (أجَلْ، إلّا، إنّ، ب، ك...) والضّمائـر (هو، هي) والألفاظ الدّخيلة والمُعرَّبـة (أكاديميّة، بالون، بيانـو، بيتزا...)، فأُثْبِتَتْ على هَيْئَتِها؛ وكانَـت الجداولُ قد جُعِلت في ستّة أعمـدة: الأوّل للجـذر، والثّاني للخطأ أو ما قارَبَـه أو ما غَيرُه أَوْلى، والثّالث للصّـواب أو البديل، والرّابع لنـوع الخطـأ، والخامس للتّعليـل، والسّادس للملحوظات؛ ثـمّ اكْتُفِـيَ بالأعمدة الثّلاثـة الأولى، وتُرِكَت الثّلاثـة الأخـيرةَ تخفيفًا وثقةً باجتهاد الحريص علـى الإتقان، وإنْ أُشِيرَ أحيانًـا إلى شيءٍ مِن التّعليل في عَمُودِ الصّواب.

هذا، وإنّ بعضَ ما أُثْبِت في هذا الجدول قد أجازه بعضُ النّاس أو الجهات اللّغويّة، بحُجّة الشّيوعِ أو غيرهـا من الحُـجج، وبعضها يُلتَمَسُ لصحّته وجهٌ ما، ولكنّهُ أُثْبِتَ تـجنُّبًـا لتَراخي مَن تَراخى وتَرَخُّص مَن تَرَخَّصَ، وطلبًا للُّغة الأعلى أو الأسلوب الأرقى، فمَن شاء أخَذَ به ومَنْ أبى فذلك شأنُه؛ وقد قيل: مَنْ تتبَّعَ الرُّخَصَ هَلَكَ وفُتِن، ومَن تـجنّبَها سَلِمَ وأَمِن؛ وأرجو أن تكونَ فائدةُ هذا المجموعِ عامّةً.

* أستاذ الأدب الجاهليّ في قسم اللُّغة العربيَّة وآدابها في جامعة دمشق، وعضوٌ عاملٌ في مجمع اللُّغة العربيَّة بدمشق.

ما شاع حقًّا مِن الأخطاء اللّغويّة
أو قارَبَ الخطأ أو كان غيرُه أَوْلى

الجذر	الخطأ أو ما قارَبَه	الصّواب أو البديل أو الأعلى
أ ث ر	**أثّر عليه**	أثّر فيه
أجَلْ	–**أجَلْ** (في الجواب عن سؤالٍ مُثْبَت أو مَنْفيّ)	–(**نعم**) في الرّدّ على سؤالٍ ليس فيه نفْيٌ (أَفَعَلْتَ كذا / هل فعلْتَ كذا) –(**بلى**) في الرّدّ على سؤال فيه نفْيٌ (أَلَمْ تفعَلْ كذا / أَلَسْتَ كذا) **و(أجَلْ) للرّدّ على كلامٍ تقريريّ ليس فيه سؤال؛ تقول: فعلَ فلانٌ كذا، فيُرَدّ عليك عند المُوافقة والإيجاب بـ: (أجَلْ)، وعند المُخالَفةِ والنّفي بـ: (لا).**
أخطبوط	**أَخْطَبوط**	أُخْطُبوط
أ خ و	–**أُخْوَة** (جمع أخٍ)	–**إِخْوة** **و(أُخْوَة)**: لغةٌ ضعيفة.
أ ر ب	قطّعَه **إرَبًا**	قطّعه **إرْبًا إرْبًا**
أكاديمية	–**أكاديميّة** دمشق –**أكاديميّة** الآداب / الهندسةِ / الشّريعةِ... إلخ. –**أكاديميّة** اللّغة الـ... / الهندسةِ الـ... / أصولِ الدّين... إلخ. –**أكاديميّة** التّرجمة	–**جامعة** دمشق –**كلّيّة** الآداب / الهندسةِ / الشّريعةِ ... إلخ. –**قسم** اللّغة الـ... / الهندسة الـ... / أُصول الدِّين ... إلخ. –**معهد** التّرجمة
أ ك د	–أنا **متأكِّد** / أنا **أكيد** –**تأكّدْ** بنفسك	–أنا **واثق** / على ثقة / مُوقِنٌ / على يقينٍ –تَحَقَّقْ بنفسك / تَحَرَّ بنفسِك / تيقَّنْ بنفسِك.
إلا	**إذا** كان كذا ... **إلا** أنّ كذا ...	إذا كان كذا ... فإنّ كذا ... / صحيحٌ أنّ كذا ... إلّا أنّ كذا ...
إنّ	–حتّى **أنّ** – مِن حيثُ **أنّ** ...	–حتّى **إنّ** – مِن حيثُ **إنّ** ...
أولمبياد	**أولمبياد**	**سِباق، مُسابَقة، مُنافَسة**

ب	-بارَكَ الله **بك** -**بآن** واحد / **بوقت** واحد -**بإمكاني** كذا / أنا **بانتظار** / أنا **بصِحّة** جيّدة / جادٌّ **بكلامي...** -يبدو **بأنّ** الأمرَ كذا	-... فيك. -في آنٍ ... / في وقت ... -في إمكاني... / أنا في انتظار / أنا في صِحّة جيّدة / جادٌّ في كلامي... -يبدو أنّ...
ب أ س	لا بأس **في** كذا	**بكذا**
بالون	**بالون**	**نُفّاخة**
ب د د	-**لا بُدّ (لا بُدَّ مِن)** أنّ زيدًا أكرمَ عَمرًا	-**لا شكَّ (رَيْبَ)** في أنّ زيدًا أكرمَ عَمرًا ومعنى **(لا بُدَّ مِن)**: لا مَفَرَّ مِن
ب د ل	كذا بدلٌ / بديلٌ **عن** كذا	-... مِن كذا / لِكذا
ب ذ ل	يبذِل	يبذُل
ب ذ ر	بِذْر، بِذْرة	بَذْر، بَذْرة
ب ر ر	**برّرَ** له كذا / **مُبَرِّر** / **مُبَرَّر**	**سوَّغَ** له كذا / **مُسوِّغ** / **مُسوَّغ**
ب ز ر	**بِزْر، بِزْرة**	**بَزْر، بَزْرة**
ب ش ر	**باشَرَ بالشَّيْءِ**	**باشَرَ الشَّيْءَ**
ب ع ث	**البِعْثة**	**البَعثة**
ب ع ض	-(ضرب / رأى... إلخ) **بعضُهم البعض**. -(أعجبَ / اصطدمَ... إلخ) **ببعضِهم البعض**.	-... **بعضُهم بعضًا / أحدُهم الآخَرَ**. - **بعضُهم ببعضٍ / أحدُهم بالآخَر**.
البيانو	**البيانو**	**البيان**
بيتزا	**بيتزا**	**شَطيرة / فَطيرة**
ت خ م	**تُخْمة** (انظر: و خ م)	
ترسانة	-**تَرْسانة / تِرْسانة**	-**مُستَوْدَع الأسلحة / مَصْنَع السُّفُن** وربّما أُطلِقَ على **(الأسلحةِ)** نفسِها.
ت س ع	**تُسْع**	**تُسُع**
تشرين	**تِشرين**	**تَشرين**
تِكْنيك	-**تِكْنيك**	-إذا أُريدَ شيءٌ مُخْتَرَعٌ مُبتَكَرٌ قِيل: **آلة / جهاز / اختراع / ابتكار**. وإذا أُريدَت الطريقةُ أو المهارة... قِيل: **طريقة / مَهارة / أسلوب / خُطّة**...

تِلسكوب	تِلسْكوب / تليسْكوب	مِقْراب / مِنْظار
ت و ق	تاقَ لِكذا	تاقَ إلى كذا
ت و و	-بدأ **للتّوّ**	-بدأ **الآن** / بدأ **قبل قليل** و(**التَّوَّةُ**): السّاعة.
ث ق ب	**ثُقْب**	**ثَقْب**
ث ل ث	**ثُلْث**	**ثُلُث**
ثمّ	-**وثُمَّ** فعَلَ كذا -**ومِن ثُمّ** كان كذا -أكلَ كثيرًا ومِن **ثُمّ** مَرِض	-**ثُمَّ** فعَلَ كذا -**ثُمّ** كان كذا / وبعدها كان كذا. -أكل كثيرًا ومِن ثَمَّ مَرِض (ثَمَّ: بمعنى **هُنا**).
ث م ن	**ثُمْن**	**ثُمُن**
ج د د	كنْ **أكثر جدّيّة**	كن **جادًّا أكثرَ**
ج ع ب	**جُعْبَة**	**جَعْبَة**
ج ل ط	**جَلْطة**	**جُلْطة**
جِلّ	**الجِلّ / الجِلي / الجيلي**	**الهُلام**
ج ه د	-**جَهْد** (إذا أريد الطّاقة)	-**جُهْد** و(**الجَهْد**): التّعَب.
ج ه ز	-الشيءُ **جاهز** -الإنسان **جاهز**	-**مُجَهَّز / مُعَدّ / مُهيَّأ / مُنْجَز** -**مُستعِدّ / مُتَهيِّئ** و(**الجاهِز**) و(**المُجْهِز**): الّذي يُسْرِعُ إلى الجريح فيقتلُه.
ج و ل	**التّجوُّل**	**التَّجْوال**
ح د ب	مِن كلّ **حَدْبٍ**	**حدَب**
ح د ث	تحدّث **معه**	تحدّث **إلَيْه**
ح ز ق	الحازوقة	الفُوَاق
ح ص ل	-**حَصَل** الأمرُ -**يَحْصَل** على كذا	-**جرى / حدَثَ / وَقَع** -**يحصُل**...
ح ض ر	**يَحْتَضِر**	**يُحْتَضَر**
ح ك م	تحكّم **بكذا**	تحكّم **في** كذا

ح م ص	-**حَمَّصَ** الخبزَ ونحوَه -**مِحْمَصَة** (آلة تحميس الخبز والبذور ونحوه) -مَحْمَصة (مكان بيع ما يُحمَّس)	-**حَمَّسَ**... -**مِحْمَسَة** -مَحْمَسة
ح م ل	-**تَحَمّل** (بمعنى صبر) -**مَحْمَل** الجِدّ	-**احتمل** -**مَحْمِل**...
ح م م	**حِمَم** بركانيّة	**حُمَم**
ح و ج	-احتاج وقتًا -أنا في حاجة **لكذا**	-احتاجَ **إلى** وقتٍ / **أرادَ وقتًا** / **طلَبَ وقتًا** -... **إلى** كذا
ح و ل	أنا قادمٌ **حالا**	**في الحال** / **مِن فَوْري**
ح ي ث	-جلستُ حيث **أنّه** جالسٌ -ندِمَ **حيثُ** أخطأ (إذا أُريد التّعليل)	-حيثُ **إنَّه**... -**لأنّه** أخطأ
ح ي و	كنْ **أكثر حيويّة**	كن **حيويًّا** / **نشيطًا** أكثرَ
خ ب ر	**مَخْبر** التّحاليل وغيرها	**مُخْتَبر**
خ ث ر	**خَثْرة** دَمٍ	**خُثْرَة** دَمٍ
خ د م	**استخدمَه** (لغير البشَر)	**استعمله**
خ ر ج	خرج **عن** السّيطرةِ / الدّولةِ	**على** السّيطرة / الدّولة
خ ر د	**خُردة وخُرْدَوات**	**نُفايَة، نُفايات/ مُهْمَل، مُهْمَلَة، مُهمَلات**
خ ر ف	**خاروف**	**خَرُوف**
خ ز ع	**خُزْعةٌ**	**خُزاعَة** / **خِزْعةٌ** (القِطعة من اللّحم ونحوه)
خ ص ص	-**خِصّيصًا** -الكتاب (المحفظة... إلخ) **خاصّتي** -**وبالأخصّ (وبالخصوص)** كذا	-**خِصِّيصَى** (وهو ممنوع من الصّرف) / **خاصّةً** -... **الخاصُّ بي** / **الخاصَّةُ بي** - **وأخُصُّ** كذا / **ولا سيّما** كذا
خ ط أ	-جواب **خاطئ** / إجابة **خاطِئَة**	-جوابٌ **خَطَأٌ** / إجابةٌ خَطَأٌ و(**الخاطئ والخاطئة**): مُرتَكِبا الخَطِيئة.
خ ط ر	-**يَخْطِر** بباله كذا	-**يخطُر** و(يخطِر) صواب ولكنّه يختلط بـ(يخطِر) بمعنى اختالَ في مِشيته.
خ ط ط	-**خِطّة** (إذا أريد التّدبير والتّرتيب)	-خُطّة و(**الخِطّة**): القطعة المُخْتَطّة مِن الأرض.

خ ف ض	**أخفَضَ** الصّوتَ / أخْفِضِ الصَّوْت	خَفَضَه / اخْفِضْه
خ ل د	**خَلَدَ** إلى النّوم، يَخْلُد، اخْلُدْ	أَخْلَدَ...، يُخْلِد، أَخْلِدْ
خ ل ل	-فعَلَ **من خلال كذا** فعْلَ (أن يفعلَ) كذا -تبيّنَ **من خلال كذا** أنّ كذا -كان كذا **خِلالَ** سنةِ / كان كذا **خلال** القرن العشرين	-استطاع **بكذا** فعْلَ (أن يفعلَ) كذا -تبيّنَ **من كذا** أنّ كذا -كان كذا **في** سنة / كان كذا **في** القرن العشرين **و(خِلال)**: ظرفُ مكان
خ ل و	**يتخلُّون** عن كذا	يتخلَّون عنه
خ م س	**خُمْس**	**خُمُس**
خ ي ر	**خَيار**	**خِيار**
د ب ب	**مُدَبَّب (المُسَنَّن المُحدَّد)**	**مُذَبَّب**
د ح ل	**مِدْحَلة**	**مِدْحاة**
د ل ف ن	**دِلْفين**	**دُلْفين**
د ه ش	**انْدَهَش**	**دُهِش**
ذ ب ب	مُدَبَّب (المُسَنَّن المُحدَّد)	مُذَبَّب
ذ خ ر	المكتبة العربية **تذخر** بالكتب	تزخر
ذ ك ر	-**تَذْكَرة** -**مُذَكَّراتُ** فُلان	-**تَذْكِرة / بطاقة** -**مُذَكِّراتُه**
ذ و ت	-الشّيء **ذاته**	-الشيء **نفسه / عينه** و(**ذات**): ليست من ألفاظ التّوكيد.
رادار	**رادار**	**كَاشِف / كشّاف / راصِد**
ر أ ب	**مِرْآب**	**مَرْبِض**
ر أ ي	-**تَرُون** / أن **تَرُوا** / لم **ترُوا** -ما **رأيك بكذا**؟	-تَرَوْن / أنْ تَرَوْا / لم تَرَوْا -ما **رأيُك في** كذا؟
ر ب ط	-**يربِط** العُقْدةَ ونحوَها	-**يربُط** العُقْدةَ (للشّيء المادّيّ) و(**يربط**) للشّيءِ المعنويّ: يربِطُ على قلبِه.
ر ب ع	**رُبْع**	**رُبُع**
ر ض خ	**رضَخَ** له	**أذعَن** له / **خضع** له

ر غ م	-**على الرّغم من (بالرّغم من / برغم)** كذا كانَ كذا (مثلًا: على الرّغم من قلّة الطعام أكلَ الجميع) -فعل كذا **على الرّغمِ من (بالرّغم من / برغم)** أنّ كذا	-**إنّ** كـذا، **ولكـن** كذا / **صحيـحٌ أنّ** كذا، **ولكن** كذا (إنّ الطعام قليل ولكـنّ الجميع أكلُوا / صحيح أنّ الطّعامَ قليل ولكنّ...) -فعل كذا **معَ (على)** أنّ كذا **و(الرَّغْـمُ والرُّغْـم والرِّغْم)**: الـتّراب، والكُرْه والإكراه والذُّلّ والهوان.
ر ق و	**تُرْقُوة**	**تَرْقوة**
ر ك ز	-**ركّزَ** على كذا **تركيزًا**، وهو **مُركِّزٌ** -**المركَز** الأوّل / الثاني / الثالث ... -**مَرْكَزُ** كذا	-**تَنَبَّهَ** على (أو: إلى) كـذا **تنبُّهًا**، وهو **مُتَنَبِّهٌ / انْتَبَـهَ** علـى كذا **انتباهًـا**، وهو **مُنتَبِـهٌ / تيقّظَ** لكـذا **تيقُّظًـا**، وهـو **متيقِّظٌ ويَقِـظٌ / حدّق** فيه **تحديقًا**، وهو **مُحدِّق / دقّـق** فيه **تدقيقًا**، وهو **مُدقِّـق / حصَرَ فكرَه** فيه **حَصْرًا**، وهو **حاصرٌ فِكْرَه** ... (بحسب السّياق؛ إذا لم يكن المرادُ غَرْزَ شيءٍ). -**المَرْتَبَـةَ / المَقـام** / (لِمـكان الشـيءِ في التّرتيب). -**مَقَرُّ** كذا
ر و ع	-هدِّئْ مِن رَوْعِك (أي: قلبِك)	-... **رُوعك** **والرَّوْع**: الفزَع
ر و ق	**راقَ لي** / لا **يروقُ لي**	**راقَني** / لا **يَروقُني**
ز ه ر	كوكب **الزُّهْرة**	**الزُّهَرة**
ز و ل	**لا زال** يفعل... (إذا كان المراد حتّى الآن)	لا يَزال يفعل
س ب ب	**تسبّب بكذا**	**سبَّب** كذا
س ب ع	**سُبْع**	**سُبُع**
س د د	-**سَدَّد** الكرةَ -**سدّدَ** على كذا	-**ركل** ... (إذا كان بالقَـدَم) / **رمـى** ... (إذا كان باليَد). -**ركل نحـوَ** كـذا (بالقَـدَم) / **رمـى نحـوَ** كذا (باليَد).
س د س	**سُدْس**	**سُدُس**

س ل م	–**استلمَ** الشّيْءَ **يستَلِمُه** (بمعنى يأخذه)	–تسلَّمَه، **يتسلَّمُه** **و(استلمه)**: قبّلَه أو لَمَسَه بيده وقبّلها.
سندويشة	**سندويشة**	**شطيرة** / **لِفافة** / **شَبّابة** (على التّشبيه بآلة العزف)
س و ف	–**سوف** أفعل الآن –**مِسافة**	–**سأفعل** الآن **(السين للقريب، وسوف للبعيد)** –**مَسافة**
س ي ح	–**مساحة** (للمكان الّذي يَسيحُ فيه الإنسان وغَيرُه، أي يذْهَبُ ويسير)، وأصلها اللغويّ: (سيح).	–**مَساحة** **و(المِساحة) لِمِهنة العامل في مَسْح الأرض وقياسِها، وأصلها اللّغويّ (مسح).**
سينما	**سينما**	**دار العَرْض**
ش ذ ذ	**يشَذّ** / **يشُذّ**	**يشِذّ**
ش ر ف	**شارف على** النهاية	**شارَفَ النّهايةَ** / **أشرف على** النّهاية
ش ر ك	–**اشترك بكذا** –**شاركه كذا** –**تشارَكْنا الشيءَ**، نتشارك	–**اشترك في** كذا –**شاركه في** كذا –**تشاركنا فيه**، نتشارك
ش ع ع	–**شعّت** الشّمس / النّارُ	–**أشعّت** الشمسُ / النّارُ **و(شعّ) الشيءُ: تفرّق وانتشر.**
ش ق ل ب	**شَقْلَبَه** / **تشقلبَ** / **شقلَبةً**	**قلّبَه** / **تقلّبَ** / **تقلُّبًا**
ش ك ك	**شكَّ به**	**شكّ فيه**
ش ك ل	–فعل كذا بشكلٍ كُلّيّ / **جُزئيّ** / **تدريجيّ**... إلخ	–فعل كذا **فِعْلا كُلّيًّا** / **جُزئيًّا** / **تدريجيًّا**... أو: فعل كذا **كُلّيًّا** / **جُزئيًّا** / **تدريجيًّا**... (باستعمال المفعول المطلق أو نائبه)
ش م ل	–**شَمَلَ** يشمُلُ كذا (بمعنى: يعُمّ) –**شَمَلَه يشمَل**	–**شمَلَ يشمَلُ** / يشمُل و(**يشمُله**) أيضًا: أخذه نحو الشّمال.
ش ن ن	**يَشِنُّ** الهجوم	يَشُنّ...
ش ه و	–**الشّهيّة** (لِشَهوة الطّعام)	–**الشّاهيَة** **و(الشّهيّة)**: مؤنّث الشّهيِّ مِمّا تشتهيه.
شُورْت	**شُورْت**	**تُبّان** / **سراويلُ قصيرٌ**
ش و ش	**مُشَوَّش**	**مُضطَرِب** / **مختلط** / **غير صافٍ** / **غير نقيّ** (بحسَبِ السّياق)

ش و ق	-اشتاق لَه -شيءٌ شيِّق	-... إليه -... شائق و(الشّيِّق): المُشتاق.
ش ي أ	أشياءٌ، أشياءً، أشياءٍ	أشياءُ، أشياءَ، أشياءَ (ممنوع من الصّرف)
شيبس	شيبس	رقائق / شرائح
ص ح ح	صَحّة الإنسان وغيره	صِحّة...
ص د ق	أَصْدِقني (أصْدِقوني) القَولَ	اصْدُقني (اصْدُقوني) القَولَ
ص ع د	صعَد يصعِد	صعِد يصعَد
ص م م	-صمّمَ الشّيءَ	-صَنَعَه / أنشأه / وَضَعَه و(التّصميم): المُضِيُّ والثّبات.
ص و ب	صوّب على كذا	رمى...
ص و ر	-فعل كذا بصورة كُلّيّة / جُزئيّة / تدريجيّة... إلخ	-فعل كذا فعْلًا كُلّيًّا / جُزئيًّا / تدريجيًّا... أو: فعل كذا كُلّيًّا / جُزئيًّا / تدريجيًّا... (باستعمال المفعول المطلق أو نائبه)
ض ر ر	اضطُرّ لكذا	إلى كذا
ط ب ع	بالطّبع (في الجواب عن سؤال، وانظر: أجل)	نعم
ط ب ق	طابق (لطبَقة من البناء)	طابَق
ط ر ق	-طُرُق (إذا أُريد جمع طريقة) -فعل كذا بطريقة جيّدة مثلًا: جلس بطريقةٍ جيّدة / أكل بطريقة جيّدة...إلخ	-طرائق وطُرُق (جمع طريق؛ وجمع طُرُق: طُرُقات) -فعل كذا فعلةً جيّدة (فعلا جيّدًا) جلس جلسةً جيّدة / أكلَ أكلًا جيّدًا... إلخ (باستعمال المفعول المطلق أو نائبه).
ط ق م	-طاقَمُ العَمَل -طَقْمُ قَهوة / شاي / مَتّة... إلخ -طَقْمٌ (ألبسة)	-فريق... / جماعة (مجموعة)... -عُدّةُ (أدواتُ) (آنيةُ) (مجموعةُ) قهوةٍ... إلخ -بِزّةٌ
ط ل ب	طلب منه كذا	طلب إليه...
ط و د	مِنْطاد	مُنْطاد
ط و ل	أطلتَ بغيابك	أطلتَ غيابَك

ع ب ث	**عَبِثَ يَعْبَثُ**	**عَبَثَ يعبثُ**
ع ب ر	-فعل كذا **عَبْرَ** كذا / كان كذا **عبرَ** كذا (نظر عبر النّافذة / كتب بحثَه **عَبْرَ** بابَيْن / صنع الآلةَ **عَبْرَ** تفكيرٍ وجهد / مرّ الإنتاجُ **عَبْرَ** مراحل...)	**مِنَ** النّافذة / كتب بحثَه في بابَيْن / صنع الآلةَ **بعدَ** تفكيرٍ وجهد / مرّ الإنتاجُ **بمراحل**...
ع ب و	**عُبْوَة**	**عُبُوَّة**
ع ت م	**عَتْمة**	**عَتَمة**
ع ج ز	**عَجِزَ** عن كذا	**عجَزَ**...
ع د د	**مُعِدّات** العمل	**مُعَدّات**
ع ذ ر	-**اعذُرْني** -أعتذر **منك** لِكذا	-**اعذِرْني** -أعتذرُ **إليْكَ مِن** كذا
ع ش ر	**عُشْر**	**عُشُر**
العطف	هذا كتابُ وقلمُ ومِمْحاةُ ومِبْراةُ زيدٍ	هذا كتابُ زيدٍ وقلمُه ومِمْحاتُه ومِبْراتُه / هذا الكتاب والقلم والمِحاةُ والمِبراةُ لِزَيْد
ع ق ر	-**عَقار** (أصل الدّواء) -**عِقار** (الأرض أو الدّار ونحوهما)، **عِقارات** (للجمع).	-**عَقَّار** -**عَقار**، **عَقارات**.
ع ل و	-**تعالُوا** -**تعالا** -**تعالي**	-**تعالَوْا** -**تعالَيا** -**تعالَيْ**
ع م د	-**عَمِدَ** إلى كذا -**عامود**	-**عمَد** -**عَمُود**
ع م ل	-**عمليّة** -**عمليّة جراحيّة** -عمليّة القراءة / عمليّة الكتابة / عمليّة البيع / عمليّة الشّراء... إلخ -**عُمْلَة**	-**عَمَل** / **مُهِمّة** -**جِرَاحة** / **عمَل جِراحيّ** -القراءة / الكتابة / البيع / الشّراء... إلخ -**نُقود**
ع ن د	-عندما يُلِحّ **فلا** شيءَ يَرُدُّه -عندما يلحّ **فإنّه**...	-عندما يُلِحّ **لا** شيءَ يَرُدُّه / أو: **إذا** ألحَّ... **فلا** شيءَ... -عندما يُلِحّ **يكونُ**... / أو: **إذا** ألحّ **فإنّه**...
ع ن ن	-أرخى له **العَنان**. -**عِنان** السّماء	-أرخى له **العِنان**. -**عَنان** السّماء

ع ن و	**عُنْوَة**	**عَنْوة**
ع ن ي	**عانى** مِن كذا	**عانى كذا**
ع ي ش	–**عاشَ ظرفًا** قاسيًا/	–عايَشَ ظرفًا... /عاشَ عيشةً... / عانى ظرفًا... / شَهِدَ ظرفًا... / **مرَّ بظرف**... (**عاش**): فعلٌ لازِمٌ.
غ د ر	**يغدُر**	**يغدِر**
غ ر ب	**غَرُب** (لغياب الشّمس والقمر ونحوهما)	**غَرَبَ**
غ ط ط	**يغُطُّ** في النّوم	**يغِطّ**...
غ م ق	لونٌ **غامق**	لونٌ **داكن** / **كثيف** / **شديد** /
فاتورة	**فاتورة**	**قسيمة** / **قائمة** / **كَشْف** /
ف ت ر	فترة طويلة	**مُدّة** طويلة
ف ج أ	**تَفاجأَ**	**فُوجِئَ**
ف ج ل	**فِجْل**	**فُجْل**
ف ر د	فعل كذا **بمُفْرَده**	... **وحْدَه**
ف ر ط	**فرّط بكذا**	**فرّط في** كذا
ف ر ق	–**فِرَق** (إذا أريد جمع فريق)	–فُرقاء و(**فِرَق**): جمع فِرْقة.
ف س ح	**أَفْسَحَ** / **أَفْسِحْ**	**فَسَح** / **افْسَحْ**
ف ش ل	–**فَشِل** (إذا أُريد: لم ينجح)	–أخفَق و(**فَشِل**): ضَعُف.
ف ط ر	**فِطْر** (للّذي يؤكَل)	**فُطْر**
ف ع ل	أبطلَ **مفعولَ** كذا	أبطل **تأثيرَه** / **عمَلَه**
ف ق ر	**فَقَرة**	**فِقْرة**
ف ق ع	**فُقَاعة**	**فُقّاعة**
ف ق م	**فَقْمة**	**فُقْمَة**
ف ك ر	–**فكّر بكذا** –**مُفَكِّرة**	–**فكّر في** كذا –**مُذَكِّرة**
ف ه م	**فهِمْتُك**	**فهِمْتُ عنكَ** / **مِنْكَ** / / فهمتُ **قَصْدَك** / **مُرادَك** / **كلامَك**

ف و ت	فَوّتَ الأمرَ	فاتَهُ الأمرُ / ضيّعَ الأمْرَ
ف و ر	أنا قادمٌ فَوْرًا	... مِن فَوْري
فيلم	-فِيلم	-مَرئيّ / شريط مُسَجَّل / تسجيل -فِلْم
ق د م	تقدّم للأمام	... إلى الأمام
ق ر ف	مُقْرِف	مُقَزِّز
ق ص ر	قُصار الأمر	قُصارى الأمر
ق م ش	قِماش	قُماش
ق م ع	قِمْع	قَمَع
ق و م	قُامَ بالتّجوال / قام بالكتابة / قامَ بالتّنظيف ... إلخ.	تجوّل / كتَب / نظّفَ ... إلخ.
ق و م	تقييم كذا	تقويمُ كذا (سواءٌ أكانَ لإعطاءِ الشّيْءِ قيمةً أم لإزالة الاعوجاج، والسّياق يبيّن المُراد).
ك	أنا كطالبٍ / كمعلّمٍ / كطبيبٍ / أفعل كذا	أنا الطّالبُ... إلخ / أنا طالبًا... إلخ.
كابتن	كابتن	قائد
كاميرا	-كاميرا / كاميرة	-آلة تصوير -كَامِرة / كَمِرَة
ك ب ر	-كبُرَ (بمعنى صار أكبرَ سِنًّا)	كَبِرَ و(كَبُرَ) صار أكبرَ حجمًا أو عِظَمًا.
ك ث ر	فعله أكثرَ مِن مرّة	... غَيْرَ مَرَّةٍ / غَيْرَ ما مَرّة / مَرّاتٍ عدّة
ك د م	كَدَمة	كَدْمة
ك ر ر	كرّرَ تِكْرارًا	تَكرار (المصادر الّتي على وزن تفعال تكون بفتح التاء إلّا: تبْيان وتلْقَاء)
كشك	الكُشْك	مَحَلّ / دُكّان / كُوخ / مَتْجَر صغير
ك ف ف	كَفّة الميزان	كِفّةُ الميزان
ك ن س	يكنِسُ المكانَ	يكنُس
ك و د	بالكاد فعل كذا	لم يَكَدْ يفعل كذا / فعل كذا بصعوبة
كوكتيل	كوكتيل	مَزيجٌ / خَليطٌ
ك ي ف	كيفيّة فِعْلِ كذا	كيفَ يفعل كذا
ل ب ق	-لَباقة -لَبِق	-لُطْف / ظَرْف -لطيف / ظريف
ل ج ن	لِجْنة، لُجْنة	لَجْنة

ل ز م	-**التزمَ بالأمر** -أكثر من **اللّازم**	-**الْتزَمَ الأمرَ / تقيّدَ بالأمر** -... **الضَّروريّ / المطلوب / المُراد**...
ل ع ب	-**لَعِبَ** دَورًا / **لعِبَ** مُباراةً. -**لُعْبة** (إذا أُريد بها نوعُ اللّعب أو هَيئَتُه مثل: اللّعب بالكُرة)	-**أدّى** دَوْرًا؛ **كان لـه** دَوْرٌ / **خاضَ** مُباراةً **(لَعِبَ:** فعلٌ لازمٌ**)** -**لَعْبَة** **ولُعْبَة** (ما يُلْعَب به: دُمْية، كُرَة، ...)
ل ف ف	**لُفافة** طعام / تبغ / قُماش...	**لفافة**
ل ق ح	**لقاح / لُقاح** (لما يُلَقَّح به الأطفال وغيرُهم)	**لَقاح**
ل ق ي	**الْتَقى به / التقيتُ به**	**الْتَقاه / التقيتُه**
ل و م	أنا **المُلام**	**المَلُوم**
مايو	**مايو / مايوه**	**تُبّان، سراويلُ قصير**
مايونيز	**مايونيز**	**ثُوميّة**
م ر ج	**مُرْجان**	**مَرْجان**
م ر خ	**المَرّيخ**	**المِرِّيخ**
م ر ر	-**مرّر** الشيءَ **لي** -فعله **للمرّة الأُولى** / الثّانية ...	-**مرِّرْهُ إليّ** -فعله **أوَّلَ مَرّةٍ / ثانيَ مرّةٍ**...
م س ح	-**مساحة** (للمكان الّذي يَسيحُ فيه الإنسان وغيرُه، انظر: س ي ح). -**مَساحة** (مِهْنةُ مَن يعمل في مَسْح الأرض وقياسِها).	-**مَساحة**؛ وهي من الأصل اللّغويّ (س ي ح) لا من (م س ح) -**مساحة**؛ وهي من الأصل اللّغويّ (م س ح) لا من (س ي ح).
م س ك	-**أمسكه** (إذا أُريدَ بعد التّتبُّع والمُلاحَقة)	-**أمسك به** **وأمسكه** (بلا تتبُّع)
مع	-**تعامل** زيد **مع** عمرو (**تشارَك معه / تشاجر معه**..) -تساهل **معه** / تهاون **معه**	-**عاملَ** زيدٌ عَمْرًا / **تعامل** زيدٌ وعَمْرٌو **(تشارَكا / شاركَه / تشاجَرا / شاجَرَه)** -تساهلَ **له** / تهاونَ **له**
م ع ن	**أمعنَ النّظرَ**	**أمعنَ في النّظر**
مكروسكوب	**مكروسكوب / ميكروسكوب**	**مِجْهَر**
مكروويف	**مكروويف**	**مِحْمَسَة / مِسْخَنة / سخّان**
م ل أ	-**مَليْءٌ** بالمتاعب	-**مملوءٌ** بالمتاعب **و(المَليء)**: الغنيّ.

م ل ك	-**أملكُ بَصَرًا / سَمْعًا**... إلخ -**تمالَكْ أعصابَك**	-أَتَمَتّعُ ببصَرٍ / **بسَمْعٍ**... إلخ -**تمالَكْ / املِكْ أعصابَك / اضْبِطْ أعصابَك**
م ن ذ	حدث كذا **منذ** زمن (إذا انتهى حدوثه)	**قبلَ زمن**
منطاد	انظر (ط و د)	
م ن ي	-**تمنّى** أن ينجح	-**رجَا أن**... و(**التّمنّي**): لِما لا يكون.
ميداليّة	**ميداليّة**	**قلادة**
م ي ز	-**ميزة** (لِما يميّز الشَّيْء) -**يتميّزُ** الشيءُ **عَن** الشيء	-**مَزيّة** -**يتميّـزُ** الشّـيءُ **مِن** الشّيء / **يختلـفُ** الشيءُ **عن** الشّيء
ن ب ع	**نَبْع**	**يَنْبوع**
ن ح و	**نَحَويّ**	**نَحْويّ**
ن د ب	-**النّدْب / النَّدْبة / النُّدْبة** (أثَر الجرح).	-**النَّدَب / النَّدَبة** و(**النُّدْبة**) النّداءُ بـ (وا) للتّفجُّع ونحوه.
ن س م	-**نَسَمة** هواء	-**نَسْمة** هواء و(**النّسَمة**) للنّاس.
ن ض ج	**نَضَجَ ينضُج**	**نَضِجَ يَنْضَج**
ن ط ق	**مَنْطقةٌ** من الأرض أو الشَّيء	**منْطَقة**
نظر	أنا **بانتظار** كذا	**في** انتظار
نَعَمْ	**نَعَـمْ** (في الجواب بالإيجـاب والموافقة عن سؤال فيه نفيٌ: ألَـمْ تَفعَل؟ / ألَسْت ...؟)، وانظر (أجل)	**بَلى**
ن غ م	**نَغَمة**	**نَغْمة**
ن ف ي	**نفايات**	**نُفايات**
ن و ي	**نَوايا** (جمع نيّة)	**نِيّات**
ه ل ك	**يـهلَك**	**يـهلِك**
هلوكبتر	**هلوكبتر**	**مِروحيّة / حوّامة**
ه م م	-**أهمُّ** بكذا -**مَهَمّة** (لِما يُـهِمُّ الإنسانَ ويعزِمُ على فِعله) -**هامّ** (لِما يُثيرُ اهتمامَ الإنسان ويعزم عليه)	-**أَهُمُّ** بكذا. -**مُهِمّة**؛ والجمعُ (مُهِمّات). و(**المَهَمّة**) مصدر ميميّ. -**مُهِمّ**. و(**الهـامّ**) مـا يَـهُمُّ الإنسـانَ، أي يُقلِقُـه ويُحزِنه؛ و(**الهامّ**) أيضًا مَن عزَمَ على فعل شيءٍ ولم يفعلْه.

هنا	–هنالك أشياء في البيت	–في البيت أشياء لأنّ الشيءَ الواحد لا يكون في مكانَين، (هنالك) مكان، و(في البيت) مكان أيضًا.
هو / هي	–ها هو الرَّجُل / ها هي المرأة –هَوِيّة / هُوِيّة	–ها هو ذا الرّجُل / ها هي ذي المرأة –هُوِيَّة
هو / هي	ما هو المطلوب / ما هي النتيجة	ما المطلوب / ما النتيجة
ه و ل	–عدد هائل / مَهُول	–عدد كبير و(الهائل: المُخيف)
و	–بل وكذا –ستكون ومن دون شكّ كذا –يهجم وبشراسة –أنتم لم تفعلُ (تأكلُ / تَبْكُ)	–بل كذا –ستكون من دون شكّ كذا –يهجم بشراسة –لم تفعلوا (تأكلوا / تبكوا)؛ لأنّ الجزمَ بحذف النّون.
واو	واو!	رائع!
و ج ب	لا يجب عليك أن تكذب	لا يجوز أن تكذب
و ج د	–هنا يوجد كذا –لا يوجد شيء مهمّ	–هنا كذا / هنا تجد كذا –لا أجدُ شيئًا مهمًّا / لا شيءَ مهمًّا / ما مِن شيءٍ مُهِمّ
و خ م	تُخْمة	تُخَمة
وحد	على حدا	على حدَةٍ
و س ط	– وَسْطَ البَحْر / السّاحة / البيت... (بمعنى: داخل). – وَسَطَ القَوْم / الأشجار / الأعمدة... (بمعنى: بَيْنَ)	–وسَطَ البحر... –وَسْطَ القوم...
و ش ك	–على وَشَكَ أنْ... –أَوْشَكَ على الانتهاء	–على وَشْكِ أنْ... –أَوْشَكَ أنْ ينتهي
و ص ل	وصلني كذا	وصل إليّ.../ تلقَّيْت / جاءني
و ق ت	في الوقت الحاليّ	في هذا الوقت
و ق ف	تَوقّفَ عن كذا / توقَّفْ... (إذا كان المراد الكفّ عن أمرٍ ما)	كَفَّ... / اكفُفْ (كُفَّ)...
و ك ل	وَكَلَ له كذا	وَكَلَ إليه...
ي	أنتِ لم تَفْعَلِ (تأكُلِ / تبكِ)	أنتِ لم تفعلي (تأكلي / تبكي)؛ لأنّ الجزمَ بحذف النّون.

تخطيط المدن الإسلامية
مدينة المهدية مثالاً

د. مهـا الشـعار*

أولاً–مقدمة:

تعددتْ أسباب بناء مدن جديدة في العهود الإسلامية، فمنها ما بُني ليكون مستقراً للجيوش العربية (الكوفة، الفسطاط)، ومنها ما بُني ليكون مقرّاً للوالي الجديد (واسط)، ومنها ما بُني ليكون حضرة للخليفة (بغداد، الزهراء، الزاهرة، القاهرة)، وقد أجرى الباحثون والمهتمّون بعمارة المدن الإسلامية دراسة كثيرٍ مِنْ هذه المدن، غير أن مدينة المهدية – عاصمة الفاطميين في المغرب العربي– المنتصبة على شاطئ البحر المتوسط شرق الجمهورية التونسية أثارت اهتمامي لما جمعتْ من شروط مميزة في تخطيط المدن لم تُدرس من قبل دراسةً ضافيةً، لذا أفردتُ هذه المقالة للتحدث عن هذه المدينة وأساليب تخطيطها اعتماداً على المخطوطات العربية التي تناولتْ ظروف نشأتها.

* أستاذة في معهد التراث العلمي العربي–جامعة حلب.

ثانياً–نشأة الدولة الفاطمية في المغرب العربي:

قامت الدولة الفاطمية في شمال إفريقيا (ومركزها مدينة رقادة قرب مدينة القيروان) عام ٢٩٧هـ/ ٩١٠م، وكان عبيد الله الذي تلقب بالمهدي أول خلفائها، وكان قد خرج بالخفاء خوفاً من بطش العباسيين به من مدينة سَلَمْيَة في سورية قاصداً المغرب بعد أن أخبره دعاته أن الأمر قد استتب له هناك، ولا سيَّما أنه قد «زال ملك بني الأغلب من إفريقية، وملك بني مدرار من سجلماسة، وملك بني رستم من تاهرت، وملكَ المهدي جميع ذلك، فلما قرب من رقادة[١] تلقاه أهلها وأهل القيروان وأبو عبد الله، ودانت له أهل البلاد، واستعمل العمال عليها»[٢].

ثالثاً–موقع المدينة:

المهديّة مدينة بالبلاد التّونسيّة استمدّت اسمها من مؤسسها عبيد اللّه المهدي (حكم ٢٩٧–٣٢٢هـ/ ٩١٠–٩٣٤م)، وتقع على مسافة ٢٠٠ كيلومتر جنوبي مدينة تونس.

بُنيتْ مدينة المهدية على لسان صخري ممتد في البحر، متصل باليابسة من طرفه الغربي فقط حسب ما ذكر الحميري في مخطوطته **الروض المعطار في خبر الأقطار**: «المهدية: مدينة محدثة بساحل إفريقية، كان يقال لتلك الناحية: جمة، بناها عبيد الله، وهو سماها المهدية نسبها إلى نفسه، وكان ابتداء بنيانها في سنة ثلاثمئة، وبين المهدية والقيروان ستون ميلاً، والبحر قد أحاط بها من جهاتها الثلاث، وإنما يُدخل إليها من الجانب الغربي»[٣].

خارطة توضح موقع مدينة المهدية.

وقع اختيار عبيد الله المهدي على هذا الموقع بعد أن عاين المناطق المحيطة بمدينة القيروان باحثاً عن مكانٍ حصين ليكون مقرًّا لحكمه ونقطة انطلاق لجيشه الغازي. «خرج عبيد الله المهدي بنفسه في سنة ثلاثمئة إلى مدينة تونس، فاجتاز قرطاجنة وغيرها، ومر على جميع السواحل يرتاد موضعاً على ساحل البحر، يتخذ فيه مدينة تحصنه وتحصن بنيه من بعده، وقد كان عنده علم حدثاني بقيام قائم على ذريته، فأقام يلتمس ذلك مدة، فلم يجد موضعاً أحسن ولا أحصن من موضع المهدية، فبناها هنالك، وجعلها دار مملكته»[٤].

توفر في الموضع الذي اختاره المهدي الحصانة المطلوبة للمدينة، وقد وضح ياقوتٌ الحَمَوِيُّ ذلك في

---

١ – **رقادة**: بلدة في إفريقيا بينها وبين القيروان أربعة أيام، أكثرها بساتين، ولم يكن في إفريقيا أطيبُ هواءً ولا أعدلُ نسيماً وأرقُّ تربةً منها، من دخلها لا يزال مستبشراً من غير سبب.

ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله، **معجم البلدان**، دار صادر، بيروت، ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م، مج٣، حرف الراء، باب الراء والقاف وما يليهما، مادة «رقادة»، ص ٥٥.

٢ – **المقريزي**، تقي الدين أحمد بن علي (٧٦٦–٨٤٥هـ/ ١٣٦٥–١٤٤١م)، **اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا**، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، ٢٠٠٩م، ج١، ص٦٦.

٣ – **الحميري**، محمد بن عبد المنعم، **الروض المعطار في خبر الأقطار**، تحقيق إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت، ط٢، ١٩٨٤م، ص ص٥٦١–٥٦٢.

٤ – **التيجاني**، أبو محمد عبد الله بن محمد بن أحمد، **رحلة التيجاني**، قدم لها حسن حسني عبد الوهاب، الدار العربية للكتاب، ليبيا – تونس، ١٩٨١م، ص٣٢١.

مخطوطته **معجم البلدان**: «وقال بعض أهل المعرفة بأخبارها في سنة ٣٠٠ خرج المهدي بنفسه إلى تونس يرتاد لنفسه موضعاً يبني فيه مدينة خوفاً من خارج يخرج عليه، وأراد موضعاً حصيناً حتى ظفر بموضع المهدية، وهي جزيرة متصلة بالبر كهيئة كفٍّ متصلة بزند، فتأملها فوجد فيها راهباً في مغارة، فقال له: بم يُعرف هذا الموضع؟ فقال: هذا يسمى جزيرة الخلفاء، فأعجبه هذا الاسم، فبناها، وجعلها دار مملكته»[٥].

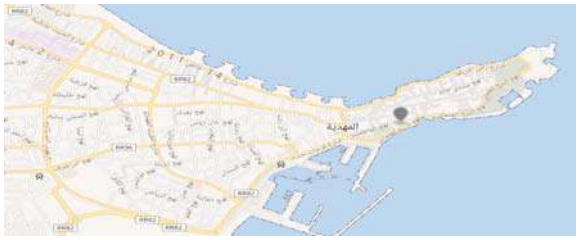

خارطة لمدينة المهدية.

صورة جوية لمدينة المهدية.

رابعاً–شروط تخطيط المدينة:

وضع ابن خلدون شرطين أصلين يجب مراعاتهما أثناء إنشاء المدن، وهما **دفع المضار، وجلب المنافع**، «**الأصل الأول**: دفع المضار، وهي نوعان: **أحدهما:** أرضية، الحماية من المضار الأرضية، ودفعها يكون بإدارة سياج الأسوار على المدينة ووضعها في مكان ممتنع، إما على هضبة مستوعرة من الجبل، وإما باستدارة بحر أو نهر بها، حتى لا يوصل إليها، إلا بعد العبور على جسر أو قنطرة، فيصعب منالها على العدو، ويتضاعف تحصينها.

ثانيهما: الحماية من الآفات السماوية، ودفعها باختيار المواضع الطيبة الهواء.

الأصل الثاني: جلب المنافع والمرافق، وذلك بمراعاة أمور: أحدها: الماء، كأن يكون البلد على نهر، أو بإزائه عيون عذبة. الثاني: طيب مرعى السائمة وقربه. الثالث: قرب المزارع الطيبة، لأن الزرع هو القوت. الرابع: الشجر للحطب والخشب. الخامس: قربه من البحر لتسهيل الحاجة القصية من البلاد النائية»[٦].

عدنا إلى المخطوطات العربية وإلى ما أورده الجغرافيون العرب عن تخطيط مدينة المهدية لدراسة مدى مراعاة المهدي للشروط التي ذكرها ابن خلدون والواجب التنبه إليها أثناء إنشاء المدن:

١–زيادة مساحة المدينة بردم البحر:

قاس المهدي مساحة مدينته، فوجدها صغيرة لا تكفي لتكون عاصمة لحكمه، وبما أن موقعها الحصين أثار إعجابه، ولم يرغب بتغيير الموقع، لذا قام بخطوة **تُعد الأولى من نوعها في الحضارة العربية/ الإسلامية**، ألا وهي ردم البحر لاكتساب مساحة إضافية من البر، أي أن يبني جزيرة اصطناعية. «كان اتساع المهدية في أول بنائها من الجوف إلى القبلة قدر غلوة سهم[٧]، فاستصغرها المهدي عند ذلك، فردم من

٥ – **ياقوت الحموي، معجم البلدان**، مج٥، حرف الميم، باب الميم والهاء وما يليهما، مادة «المهدية»، ص ص٢٣٠–٢٣١.

٦ – **ابن خلدون**، ولي الدين عبد الرحمن (٧٣٢–٨٠٨هـ)، **مقدمة ابن خلدون**، حقق نصوصه وخرج أحاديثه وعلق عليه عبد الله محمد الدرويش، دار البلخي، دمشق، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٠م، ط١، ج٢، ص ص ١٥–١٧.

٧ – **غلوة سهم**: الغلوة هي قدار رمية سهم أبعد ما يُقدر عليه، وهي وحدة طول كان العرب والمسلمون يتعاملون بها وتساوي ٢٣٦,٧٧م تقريباً.
فاخوري، محمود **وخوام**، صلاح الدين، **موسوعة وحدات القياس العربية والإسلامية**، مكتبة لبنان ناشرون، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م، مادة «غلوة»، ص١٤٣.

البحر مقدارها، وأدخلـه في المدينة فاتسعت، والجامع الأعظـم الآن والدار المعروفة في القديم بدار المحاسبات من جملة ما ردم من البحر»[٨].

موقع الجامع الكبير في الجزء المردوم من مدينة المهدية.

الغريب أن المصادر العربية اكتفت بذكر هذه المعلومة فقـط، دون ذكـر أيّ تفاصيل عـن المراحـل أو العمليات التـي أمر المهدي القيام بها للحصول على أراضٍ جديدة مستحصلة من البحر، ولا سيَّما أن هذه الفكرة الجديدة المثيرة للاهتمام يُعَدُّ المهدي أول من قام بها.

بعد البحث مطولاً في المصادر والمراجع عما كُتب عن عمليـة اصطناع الجزر في البحر في الحضارات القديمة التي يمكن أن يكون المهدي قد استمد هذه الفكرة منها، لم نعثر على مبتغانا، وبالعودة إلى المراجع الإلكترونية وجدنـا معلومـات شحيحـة جداً تذكـر أنه منـذ مئات السنـين بنـى شعـب لاو في جـزر سليمـان الواقعـة في المحيط الهادي نحـو ٨٠ جزيرة اصطناعية في بحيرة، ووضـع أجـزاء مـن الشعـاب المرجانيـة والصخـور في المـاء، قطعـة بقطعـة، واستغـرق هذا الأمـر قروناً، وأنـه على مـر التاريخ، سعى البشـر إلى إنشاء أراض جافـة داخل البحيرات والأنهـار والمحيطات، من أجل تزويدهـا بالسكان بعد ذلك[٩]، لكـن من غير الممكن أن يكون المهدي قد عرف شعب لاو أو سمع بهم.

٨ – **التيجاني، رحلة التيجاني**، ص ٣٢٣.

٩ – **جريدة الغد الأردني**، لماذا يتجه العالم بقوة نحو «عصر الجزر الاصطناعية»؟، ٢٠٢٢-٠١-١١، https://alghad.com/

منزل تقليدي على جزيرة اصطناعية في لاو لاجون في جزر سليمان.

وقـد اختصـت المواقـع الإلكترونيـة بالحديث عن الجـزر الاصطناعيـة المبنيـة حديثـاً (هولنـدا، جـزر دبي، مطـار كانساي الدولي في أوسـاكا باليابان، ...) لكون هـذه العملية المعقدة تحتـاج إلى تقنيات متطورة وتكاليف عالية جداً لم تكن متوفرة قديماً.

تُعرف الجزيرة الاصطناعية بأنها جزيرة بناها الناس بدلاً من تشكيلهـا بالوسائل الطبيعية. تضمنت الجـزر الاصطناعيـة المبكـرة هيـاكل عائمـة في الميـاه الراكـدة، أو خشبية أو هياكل صخرية أقيمت في المياه الضحلة[١٠]، وللقيام بعمل جزيرة اصطناعية يجب أن يكون هناك أساس لبناء الجزيرة عليه، أي يلزم وجود أساس قائـم مثـل صخور أو جـزر أخـرى أو شعاب مرجانيـة، ويلزم نقل كمية كبيرة من الرمال إلى الموقع

10 - Artificial Island, https://encyclopedia.pub/entry/28719

الـذي سيتم إنشاء جزيرة به، لذا تُحضر سفن وآليات مـن أجـل وضـع أساس للجـزر الاصطناعيـة لجمع الرمال مـن قاع الميـاه باستخدام أنابيـب كبيرة أعلى الآليـات وتصفيها من المياه، ثم تضـخ أعلى الصخور أو الشعـاب المرجانية أو التكوينـات القائمة أيًّا كانت، وتُستخـدم آليات لشفط الرمـال من المياه الضحلة، ثم تُصَفَّـى بإعادة ضخهـا في موقع المشروع بهدف صنع أرضية صالحة للعمل، وتُقَوَّى عن طريق ضغط التربة، لمنع تميعها، أو هبوط مستواها[١١].

مـا تحدثنـا عنه هو ما يتم عملـه في الوقت الحاضر لبنـاء الجـزر الاصطناعيـة باستعمال آليـات وتقنيات متطورة جـداً من المؤكد أنها لم تكن موجودة في عصر المهـدي، فكيـف استطاع المهـدي القيام بهـذه العملية الصعبـة في ذلـك الوقـت، وضمـن استقـرار الجزيرة الاصطناعية التي بناها؟

بالبحـث في المصـادر العربية عن المنشـآت البحرية التي بُنيت في فترة زمنية قريبة من عهد المهدي، اهتدينا إلى مشـروع مينـاء مدينـة عـكا الـذي رغـب أحمد بن طولون عندما استولى على سورية عام ٢٦٤هـ / ٨٧٧م في بنائـه، وكلف أبا بكـر البناء الشامـي المقدسي هذه المهمـة، وقـد فصلنـا مراحل بنـاء ميناء عـكا في مقالة سابقة في مجلة المخطوط العربي[١٢].

ويبـدو أن المهدي انطلق من مينـاء عكا قاصداً مصـر بعد أن أوهم متتبعيه أنـه يقصد اليمن[١٣]، فيكـون بذلـك قـد اطلـع علـى مينـاء عـكا، وسمع بتفاصيل بنائه، فاستفاد منها في ردم البحر معتمداً علـى الجـرف الصخري الممتـد في البحـر كأساس لكسـب المزيد مـن اليابسـة بغية توسيـع مدينته المهدية.

٢-تحصين المدينة:

كان حمايـة المدينـة وتحصينهـا الهاجس الأكـبر عنـد المهـدي باعتبارهـا قاعـدة لحكمـه الناشـئ، وقد بلغـت المدينـة من المنعـة إلى حد أن المقدسـي شبهها في مخطوطتـه **أحسـن التقاسيـم في معرفـة الأقاليـم** بمدينـة القسطنطينيـة التـي استعصـى فتحهـا علـى الجيوش الإسلامية مدةً طويلـة، فيقول واصفاً مدينة المهديـة: «ومن أحب أن ينظر إلى القسطنطينية فلينظر إليهـا، ولا يتعـنَّ إلى بلـد الـروم، فإنها علـى عملها في جزيرة يُدخل إليها من طريق واحد مثل الشراك»[١٤].

ولتأمين هذه الحماية اتخذ المهدي تدابير عدة:

أ-**السـور الحجري**: أُحيطـت المدينة بسور حجري ضخـم لا تـزال آثـاره ماثلـة للعيـان في جـزء طويل منه بناحيـة الشمـال، وقد بلغـت سماكتـه ٨,٣٠ أمتار، مما جعـل بالإمـكان أن يسـير عليـه الحرس وهـم راكبـون خيولهـم «عليها سور عال محكـم كأعظم ما يكون يمشي عليه فارسـان»[١٥]، ونجد وصفاً مشابهـاً لهذا الوصف عند المقدسي عند حديثه عن مدينة الرقة الواقعة على نهر الفرات وسورها، إذ يقول: «الرقة قصبة ديار مضر على الفرات بحصن عريض يسير على متنه فارسان»[١٦].

وكان الجـزء الغربـي مـن المدينـة المتصـل بالبر هو أكـثر الأجزاء ضعفاً برأي المهـدي، لأنه يمكن من خلاله

١١ - **كيف يتم إنشاء الجزر الاصطناعية؟ وما سبب وجودها؟**، ١٣/ ٦/ ٢٠١٧، https://www.argaam.com

١٢- **الشعـار**، مهـا، «المخطوطـات العربيـة وتأريـخ المشاريـع الهندسية»، **مجلـة المخطوط العربي**، الهيئة العامة السورية للكتاب، وزارة الثقافة، دمشق، سورية، العدد ٢، ص ص ٧٢-٨٩.

١٣ - **سرور**، محمد جمال الدين، **قيام الخلافة الفاطمية في بلاد المغرب**، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٩٥م، ص٢٥.

١٤ - **المقدسي**، شمس الدين (ت٣٨٠هـ)، **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**، علق عليه ووضع حواشيه محمد أمين الضناوي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٢م، ص ١٨٣.

١٥ - **ياقوت الحموي**، **معجم البلدان**، مج٥، حرف الميم، باب الميم والهاء وما يليهما، مادة «المهدية»، ص٢٣٠.

١٦ - **المقدسي**، **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**، ص١٢٨.

اختراق المدينة من قبل الأعداء، لذا كان الجزء الغربي من السور الذي يضم أبواب المدينة أول قسم بُني منه، ذكر التيجاني قائلاً: «أول ما ابتنى منها سورها الغربي، الذي فيه أبوابها، وعندما وضع أول حجر منه وهو حاضر أمر ناشباً كان بين يديه أن يوتر قوسه، ويقف على ذلك الحجر، ويرمي سهمه، ففعل الرامي ذلك، فانتهى السهم إلى المصلى، ووقع قائماً على نصله، فقال المهدي: إلى ذلك الموضع ينتهي صاحب الحمار[١٧] –يعني أبا يزيد– فقدر أن وصل أبو يزيد إلى ذلك الموضع ولم يتجاوزه، وأمر المهدي بقياس مسافة هذه الرمية. فكانت مئتي ذراع وثلاثة وثلاثين ذراعاً[١٨]، فقال المهدي: هذا منتهى ما تقيم المهدية في أيدينا من السنين»[١٩].

ب–**الأبواب الحديدية**: كان يسد فتحة المدخل بابان مصنوعان بالكامل من الحديد، كل باب بمصراعين، وقد اختلف المؤرخون في وزن كل مصراع، فمنهم من قال إن المصراع الواحد وزنه مئة قنطار، ومنهم من قال وزنه ألف قنطار، ونجد هذا التباين بالأرقام عند ياقوت الحموي نفسه، فيذكر في موضع «وحصنها بالسور المحكم والأبواب الحديد المصمت، وجعل في كل مصراع من الأبواب مئة قنطار، ولها بابان بأربعة مصاريع»[٢٠]، ثم يورد في موضع آخر قول أبي عُبيد البكري: «وقال أبو عبيد البكري: جُعل لمدينتها بابا حديد لا خشب فيهما، كل باب وزنه ألف قنطار»[٢١]، وقد أشار التيجاني إلى هذا التباين، «فكان وزن كل مصراع مئة قنطار، وفي كثير من نسخ المؤرخين ألف قنطار»[٢٢].

فإذا كان وزن المصراع الواحد ١٠٠ قنطار، فهذا يعني أن المصراع الواحد وزنه نحو ٤٥٠٠ كغ[٢٣]، أو ٤٥٠٠٠ كغ إذا كان ١٠٠٠ قنطار.

وارتفاعه نحو ثلاثين شبراً[٢٤]، أي ما يعادل ٧,٤٠م، ووزن كل مسمار من المسامير التي وضعت لتثبيت الباب ٦ أرطال[٢٥]، أي بلغ وزن المسمار الواحد نحو ٢,٧٠ كغ، «وجُعل لمدينتها بابا حديد لا خشب فيهما، كل باب وزنه ألف قنطار، وطوله ثلاثون شبراً، كل مسمار من مساميره ستة أرطال»[٢٦]. إن الأرقام السابقة إن دلت على شيء فإنها تدل على مدى ضخامة البابين ووزنهما الكبير.

ويبدو أن المهدي قد استمد فكرة صنع هذين البابين من بابين شبيهين لهما، إذ ذكر ابن حوقل أثناء حديثه عن بابي سور المهدية، فقال: «لها سور من حجارة،

١٧ – **صاحب الحمار**: في سنة ٣٣٢هـ/٩٤٣م، قامت ثورة أبي يزيد الخارجي النكّاري، الملقّب بصاحب الحمار. وبعد أن استولى هذا الثائر عنوة على مدينة القيروان، انتقل فضرب الحصار على المهدية (من جمادى الثانية سنة ٣٣٣ إلى صفر سنة ٣٣٤)، وقد كانت أسوار المهديّة وتحصيناتها سبباً في نجاة المدينة من هلاك كان يبدو محقّقًا.

١٨ – أي نحو ١١٦,٥م باعتبار أن **الذراع**: وحدة طول تعادل ٠,٤٩٣٢٧م ≈ 50سم.

فاخوري، محمود و**خوام**، صلاح الدين، **موسوعة وحدات القياس العربية والإسلامية**، مكتبة لبنان ناشرون، 1422هـ/ 2001م، مادة «ذراع»، ص١٢٤.

١٩ – **التيجاني، رحلة التيجاني**، ص٣٢١.

٢٠ – **ياقوت الحموي، معجم البلدان**، مج٥، حرف الميم، باب الميم والهاء وما يليهما، مادة «المهدية»، ص٢٣٠.

٢١ – **ياقوت الحموي، معجم البلدان**، مج٥، حرف الميم، باب الميم والهاء وما يليهما، مادة «المهدية»، ص٢٣١.

٢٢ – **التيجاني، رحلة التيجاني**، ص٣٢٢.

٢٣ – **القنطار**: وحدة وزن، اختلف العرب بمقدارها، لذلك اعتمدنا قيمة القنطار في مصر أقرب البلاد لتونس، وتعادل ٤٥ كغ.

فاخوري، محمود و **خوام**، صلاح الدين، **موسوعة وحدات القياس العربية والإسلامية**، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م، مادة «قنطار»، ص٢١٠.

٢٤ – **الشبر**: وحدة طول، وتعادل ٢٤,٦٦سم.

فاخوري، و **خوام**، **موسوعة وحدات القياس العربية والإسلامية**، مادة «شبر»، ص١٣٧.

٢٥ – **الرطل**: وحدة وزن، اعتمدنا قيمة الرطل في مصر أقرب البلاد لتونس وتعادل ٥٠غراماً.

فاخوري، و **خوام**، **موسوعة وحدات القياس العربية والإسلامية**، ص٢١٠.

٢٦ – **ياقوت الحموي، معجم البلدان**، مج٥، حرف الميم، باب الميم والهاء وما يليهما، مادة «المهدية»، ص ص٢٣٠–٢٣١.

وله بابـان ليس لهما فيما رأيتُه مـن الأرض شبيه ولا نظيرٌ غـير البابين اللذين على بابي سـور الرافقة[٢٧]، وعلى مثالهما عُملا، ومثل شكلهما اتخذا»[٢٨].

إن مـا ذكـره ابـن حوقـل والمقدسي يفتـح باباً للتسـاؤل، هل زار عبيد الله مدينتي الرقة والرافقة المتجاورتـين، فأعجب بالسور الضخم الذي يسير عليه فارسان لسمكه الكبـير والأبواب الحديدية، فصنع مثيلاً لهمـا في مدينته المهدية، أم إن أحدهم وصفهما له، فحفظ الوصف وطبقه في المهدية.

أكـد الإدريسـي في مخطوطتـه **نزهـة المشتـاق في اخـتراق الآفاق** أنه «يحيـط بالمهدية سور حسن مبني مـن الحجـارة، وعليها بابان من حديد لفـق بعضه على بعضـ من غير خشـب، وليس يُدرى في معمـور الأرض مثلهما صنعةً ووَثاقةً، وهما من عجائبها الموصوفة»[٢٩].

أمـا عن **تقنية صنع البابـين** فقد عانى الحرفيون في عملهم لأسباب عدة:

• **تثبيـت المسامـير**: كانـت الأبواب تصنـع عادة من الخشب، ثم تُكسى بصفائـح حديدية لزيادة قوتها، فكانت المسامير التي تدق بها الصفائح الحديدية تدخل في الخشب فتثبـت بشـكل قـوي، لكـن في حالـة أبـواب مدينـة المهدية المصنوعـة من الحديـد المصمت لم تكـن المسامير الحديدية تثبت في الأبواب لعدم وجود الخشب، فأمر المهدي بوضعها في مكانهـا، ثم أشعلت نيران عظيمة تحت الباب مما أدى إلى التحام المسامير مع الصفائح الحديدية، وثبتت مكانها.

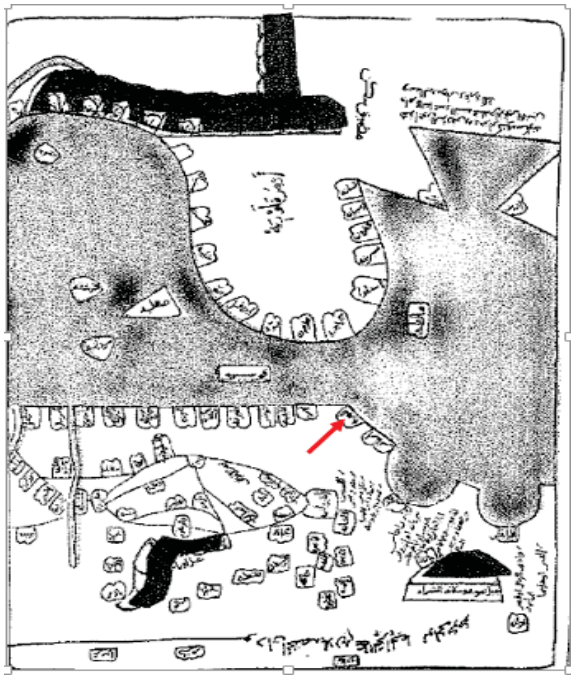

مدينة المهدية في مخطوطة **صورة الأرض** لابن حوقل.

«وأمـر بعمل بـاب الحديـد للمدينة فجُعـل صفائح مصمتـة، ثم أُثبتت فيها المسامـير فبقيت تتقلقل، فقال للصنـاع: ما عندكم في هـذا؟ فقالوا: لا نـدري، فأمرهم بتسميرهـا كذلك، ثم أمـر بإيقاد النار تحـت الباب كله حتى التهب، واتصلت المسامير بالصفائح، فعادت كلها قطعة واحدة، فكان ذلك مما عُدَّ من معارف المهدي»[٣٠].

• **وزن الأبـواب**: لم يكـن العمـال قادريـن علـى معرفة وزن الأبواب لثقلها الكبير، فعندما سأل المهدي عـن وزن كل مصـراع عجز الصناع عـن الإجابة لعدم وجـود ميزان قادر على قياس مثل هذا الوزن الثقيل، فأمر أن يوضع مصراع الباب في سفينة، ويحدد مقدار غوصها في الماء، ثم أخرج المصراع من السفينة، وأعيد ملؤها بالرمال والحجارة حتى غاصت بالمقدار السابق نفسـه، وبوزن الرمـال والحجارة أمكـن التوصل إلى وزن المصراع الواحد.

٢٧- **الرافقة**: بلد متصل البناء بالرقة، وهما على ضفة الفرات، وبينهما مقدار ثلاثمئة ذراع، وعلى الرافقة سوران بينهما فصيل، وهي على هيئة مدينة السلام، ولها ربض بينها وبين الرقة، وبه أسواقها. **ياقوت الحموي، معجم البلدان**، مج ٣، حرف الراء، باب الراء والألف وما يليهما، مادة «الرافقة»، ص١٥.

٢٨ – **ابن حوقل النصيبي**، أبو القاسم، **صورة الأرض**، منشورات مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، ١٩٩٢م، ج١، ص٧٣.

٢٩ – **الإدريسي**، محمد بن محمد بن عبد الله، **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ١٤٢٢هـ / ٢٠٠٢م، مج١، ص٢٨٢.

٣٠ – **التيجاني**، **رحلة التيجاني** ص ٣٢١.

يحدثنا التيجاني عن ذلك قائلاً: «ولما تم الباب على هذه الصفة أحب اختبار وزنه، فكلهم أخبره أن لا سبيل إلى ذلك لإفراط ثقله، فأمرهم أن يضعوا إحدى مصراعيه على ظهر سفينة، ففعلوا ذلك، ونظر إلى منتهى غوص السفينة في الماء، ثم أُنزل، وشُحنت السفينة بالرمل والحجارة إلى أن وصل منها ما وصل أولاً، واستخرج الرمل منها، فوزن على كرات، فكان وزن كل مصراع مئة قنطار، وفي كثير من نسخ المؤرخين ألف قنطار»[٣١].

• **فتح الأبواب وإغلاقها**: لم تنته المصاعب التي اعترضت صناع الأبواب، فلقد تسبب الوزن الثقيل للباب بمشكلة كبيرة في فتحه وإغلاقه، إذ لم يكن باستطاعة مئة رجل أن يقوموا بمثل هذه المهمة مجتمعين، فتفتق ذهن المهدي عن فكرة عجيبة، وهي أن يجعل مسار الباب على الزجاج، فبات بإمكان رجل واحد القيام بما عجز عنه مئة رجل، «ولما علموا قدره وحاولوا تركيبه صعب عليهم فتحه وإغلاقه فلم تكن المئة من الرجال تستطيع ذلك، فأمر المهدي أن يكون مداره على الزجاج، فهان أمره، وعاد الرجل الواحد يتولى منه ما كانت المئة تعجز عنه»[٣٢].

من الصعب تخيل باب حديدي يعجز مئة رجل عن تحريكه لفرط ثقله يتحرك بسهولة ويسر على الزجاج الذي لا بد أن ينسحق تحت الوزن الكبير للباب، لكن الأرجح أنه كان يقصد به معدن البلور (المها-المرو[٣٣]، وهو معدن مألوف يوجد في كثير من الصخور، والبلور الخالص شفاف ولا لون له، ويتألف من ثاني أكسيد السيليكون (SIO_2)، ويُعد من أكثر المعادن صلابة، ولا يؤثر التآكل فيه بالسرعة التي يؤثر بها في معظم المواد الصخرية[٣٤]، وقد عُرف البلور منذ أقدم العصور، فقد ذكر أرسطو «أنه صنف من الزجاج إلا أنه أصلب»[٣٥].

مما سبق يبدو أن مسار الباب على الأرض صُنع من البلور الشفاف الصُّلْب (لذلك سماه زجاجاً)، ولا بد أن يكون قد لُبِّسَ أسفل الباب بقطعة بلورية مما خفف الاحتكاك بينهما، فأصبح بإمكان شخص واحد أن يفتح ويغلق الباب الثقيل بسهولة.

ج-**الدهليز**: كان على الداخل إلى المدينة بعد عبوره الأبواب الحديدية أن يسير عبر دهليز (رواق) معقود السقف، وبذلك يبقى الداخل إلى المدينة محجوزاً ضمن هذا الدهليز الذي بلغ طوله ٣٣ متراً، وعرضه ٥,١٠ أمتار، ريثما يتم التأكد من حسن نواياه، وبقي هذا الرواق المسمّى «السقيفة الكحلاء» قائماً حتى اليوم[٣٦]، ذكره ياقوت الحموي «ولها بابان بأربعة مصاريع لكل باب منها دهليز يسع خمسمئة فارس»[٣٧].

إن التدابير السابقة التي اتخذها عبيد الله لتحصين مدينته تؤكد أنه قدّر الشرط الأول، وهو دفع الضرر.

مدينة المهدية.

باب البحر- المهدية.

٣١ - **التيجاني، رحلة التيجاني**، ص ٣٢١.

٣٢ - **التيجاني، رحلة التيجاني**، ص ٣٢٢.

٣٣ - **الشعار**، مها، «مواد البناء النادرة في المؤلفات العربية»، **كتاب أبحاث المؤتمر السنوي الرابع والثلاثين لتاريخ العلوم عند العرب** المنعقد في جامعة حلب ١٧-١٩ شعبان ١٤٤٠هـ / ٢٣-٢٥ نيسان ٢٠١٩م، منشورات معهد التراث العلمي العربي بجامعة حلب، نشر في ١٧ حزيران ٢٠١٩، ص ص٢٩٧-٣٣٠. (نشر إلكتروني).

٣٤ - **ويكيبيديا الموسوعة الحرة**، مادة «مرو (معدن)»، https://ar.wikipedia.org

٣٥ - **ابن عوض المغربي**، أحمد، **قطف الأزهار في خصائص المعادن والأحجار ونتائج المعارف والأسرار**، تحقيق بروين بدري توفيق، سلسلة خزانة التراث، ص٧٩.

٣٦ - **الموسوعة التونسية المفتوحة**، http://www.mawsouaa.tn/wiki

٣٧ - **ياقوت الحموي، معجم البلدان**، مج٥، حرف الميم، باب الميم والهاء وما يليهما، مادة «المهدية»، ص٢٣٠.

٣- تأمين الطعام والمياه للمدينة:

لّما بُنيت المدينة على لسان صخري قاحل ممتد في البحر لا ماء فيه ولا زرع، كانت الخطوة التالية تأمين الطعام والمياه العذبة لسكان المدينة تكفيهم في أوقات السلم وفي أوقات الحصار، فأمر المهدي ببناء مخازن عظيمة لتخزين الطعام، وجباب وصهاريج لتخزين المياه العذبة «شرع في حفر الأهراء[٣٨] بداخل المدينة، وبنى الجباب والمصانع[٣٩]، واختزنت الأهراء بالطعام، وملأ الجباب بالماء، ثم أمر بحفظها، ولم تفتح إلا في أيام أبي يزيد، ولولا ذلك لما أطاقوا الحصار»[٤٠].

بلغ عدد المصانع الضخمة الحافظة للماء ٣٦٠ مصنعاً، وقد جُلبت المياه العذبة لملء المصانع من قرية ميّانش القريبة من المهدية عبر قناة لتصل إلى صهريج مبني في الجامع الكبير، وقد نصب على هذا الصهريج دواليب (نواعير) لرفع الماء إلى قصر المهدي.

ذكر ياقوت الحموي «وجعل فيها من الصهاريج العظام، وأهل تلك النواحي يسمونها مواجل، ثلاثمئة وستين موجلاً غير ما يجري إليها من القناة التي فيها، والماء الجاري الذي بالمهدية جلبه عبيد الله من قرية ميّانش، وهي على مقربة من المهدية في أول أقداس، ويصب في المهدية في صهريج داخل المدينة عند جامعها، ويُرفع من الصهريج إلى القصر بالدواليب، وكذلك يسقي أيضاً من قرية ميانش من الآبار بالدواليب يصب في محبس يجري منه في تلك القناة»[٤١].

ومَيّانِش «قرية من قرى المهدية بإفريقية صغيرة، بينها وبين المهدية نصف فرسخ، قال لي رجل من أهل المهدية: لا يكون فيها اليوم ثلاثون بيتاً، وفيها ماء عذب إذا قصر الماء بالمهدية استجلبوه منها، وذكر أبو عبيد البكري أن المهدي لما بنى المهدية استجلب الماء من ميّانش إلى المهدية في قناة صنعها، فكان يستقي من آبار ميّانش بالدواليب إلى برك، ويخرج من تلك البرك في قناة إلى صهريج في جامع المهدية، ويستقي من ذلك الصهريج بالدواليب إلى القصر»[٤٢].

لم تذكر المصادر حجم تلك الصهاريج، لكن يمكن أن نتعرف عظم حجمها بالعودة إلى ما ذكر القزويني أن كل صهريج كان يكفي احتياجات أهل المدينة يوماً كاملاً، وبذلك تؤمن الصهاريج المياه للمدينة طوال السنة ريثما يحل موسم المطر مرة أخرى، «وشرب أهلها من الصهاريج، ولهم ثلاثمئة وستون صهريجاً على عدة أيام السنة، يكفيهم كل يوم صهريج إلى تمام السنة، ومجيء مطر العام المقبل»[٤٣]، ويؤكد الإدريسي أن «شرب أهلها من المواجل، وآبارها غير عذبة»[٤٤].

٤-ميناء المدينة:

كما حصن المهدي الجزء الغربي من المدينة المتصل بالبر، كان لا بد له من تحصينها من الجهات الثلاث المطلة على البحر، فأمر بحفر ميناء المدينة، فنُقِرَ في الصخر الصلد ليسمح برسو السفن، وأقام على طرفيه برجين يصل بينهما سلسلة حديد ضخمة تعيق دخول أيّ سفينة معادية؛ ولا سيَّما أن الإمبراطورية البيزنطية تقع على الطرف الآخر من البحر مواجهة للمدينة، فكان

٣٨ - **الأهراء**: الهُرْءُ: بيت كبير ضخم يجمع فيه طعام السلطان، والجمع «أهراء»، والمُرَاد بها هنا المخازن التي يُجْمَع فيها الطعام. **مجموعة من المؤلفين، المعجم الوسيط**، مجمع اللغة العربية، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ط٤، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م، حرف الهاء، مادة « الهُرْء»، ص٩٨٣.

٣٩ - **مصنع (صهريج)**: مخزن يبنى تحت الأرض لتخزين المياه فيه.

٤٠ - **التيجاني، رحلة التيجاني**، ص ٣٢٣.

٤١ - **ياقوت الحموي، معجم البلدان**، مج٥، حرف الميم، باب الميم والهاء وما يليهما، مادة «المهدية»، ص٢٣٠.

٤٢ - **ياقوت الحموي، معجم البلدان**، مج٥، حرف الميم، باب الميم والياء وما يليهما، مادة «ميانش»، ص٢٣٩.

٤٣ - **القزويني**، زكريا بن محمد بن محمود، **آثار البلاد وأخبار العباد**، دار صادر، بيروت، الإقليم الثالث، ص٢٧٦.

٤٤ - **الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، ص٢٨٢.

يُسمح للسفن المسالمة القاصدة المدينة بالدخول، وذلك بإنزال السلسلة الحديدية حتى تدخل السفينة، ثم يعاد رفعها مرة أخرى كما ذكر ياقوت الحموي: «ومرسى المهدية منقور في حجر صلد يسع ثلاثين مركباً، على طرفي المرسى بُرجان بينهما سلسلة حديد، فإذا أُريد إدخال سفينة أرسل حراس البرجين أحد طرفي السلسلة حتى تدخل السفينة، ثمّ يمدونها كما كانت تحبيساً لها»[٤٥]، ويؤكد القزويني هذا الكلام مع اختلاف في عدد المراكب التي يستوعبها الميناء، فيقول: «ومرساها منقورة في حجر صلد تسع مئتي مركب، وعلى طرف المرسى برجان بينهما سلسلة حديد إذا أريد إدخال سفينة أرسل الحراس أحد طرفي السلسة لتدخل الخارجة، ثم يمدها»[٤٦]، ولا ندري سبب الاختلاف الكبير في عدد السفن (من ٣٠ إلى ٢٠٠)، فكلما زاد العدد وجب أن يكون الميناء أكبر وأطول، فهل زِيْد الميناء فيما بعد؟

لم نجد ما يشير إلى هذه الزيادة، ولم يذكر أي مصدر آخر أي رقم يمكن على أساسه تقرير أي الرقمين أصح، إذ اكتفت المصادر الأخرى بذكر نقر الميناء في الصخر الصلد دون الدخول في التفاصيل، «وأمر المهدي بحفر مرسى المدينة، وكان حجراً صلداً، فنقر نقراً وجعله حصناً لمراكبه الحربية، وأقام على فم هذا المرسى سلسلة من حديد يُرفع أحد طرفيها عند دخول السفن، ثم تُعاد كما كانت تحصيناً للمرسى من دخول مراكب الروم»[٤٧].

هذا الأسلوب في تحصين ميناء المدينة الذي يشابه كثيراً أسلوب المقدسي في حماية مرسى مدينة عكا يؤكد لنا أن المهدي كان على اطلاع تام بتفاصيل بناء ميناء عكا وحمايته.

٤٥ – **ياقوت الحموي، معجم البلدان**، مج٥، حرف الميم، باب الميم والهاء وما يليهما، مادة «المهدية»، ص٢٣١.

٤٦ – **القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد**، ص٢٧٦.

٤٧ – **التيجاني، رحلة التيجاني**، ص ٣٢٢.

ساعد هذا الميناء على انتعاش اقتصاد المدينة، وأصبحت مركز تبادل تجاري مدّةً طويلة من الزمن بفضل البضائع التي كانت تجلبها السفن، ثم تخرج محملة ببضائع أخرى، كما ذكر الإدريسي: «المهدية مدينة لم تزل ذات إقلاع وحط للسفن التجارية القاصدة إليها من بلاد المشرق والمغرب والأندلس وبلاد الروم وغيرها من البلاد، وإليها تجلب البضائع الكثيرة بقناطير الأموال على مر الأيام، وقد قل ذلك في وقتنا هذا، ومدينة المهدية كانت مرسى وفرضة القيروان، ...، وكانت فيما سلف المسافر إليها كثير، والبضائع إليها مجلوبة من سائر البلاد والأقطار، والأمتعة والمتاجر بها نافقة وفيها بائعة، والهمم على أهلها موقوفة وإليهم راجعة»[٤٨].

ومن الأماكن التي ذكرت المصادر أنها كانت تزود المهدية بالفاكهة جزيرة المُنستِير القريبة من المهدية، وفيها كان يُدفن موتى مدينة المهدية الذين كان يُحمل جثمانهم بقوارب حتى يصلوا إلى تلك الجزيرة، فيدفنوا فيها، ويعود أهل الموتى إلى المهدية «وإنما يُجبى إليها شيء من الفواكه من قصور المنستير، وبينهما في البحر ثلاثون ميلاً، والمنستير قصور ثلاثة يسكنها قوم متعبدون والأعراب، لا تضرهم في شيء من شجرهم ولا من عمارتهم، وبهذا المكان أعني المنستير يدفن أهل المهدية موتاهم في الزوارق إليها، فيدفنونهم بها، ثم يعودون إلى بلدهم، وليس بالمهدية جبّانة تُعرف في وقتنا هذا»[٤٩].

٥–مدينة زويلة:

ولجعل المدينة مقصداً للناس أمر المهدي ببناء الأسواق، ورتبها بحيث يكون كل سوق مختصًّا ببضاعة معينة، مما جذب الناس إليها خاصة بعد السيل الذي أصاب مدينة رقادة القيروان، وتسبب

٤٨ – **الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، ص٢٨٢.

٤٩ – **الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، ص٢٨٢.

بغرق البيوت والأملاك «لما كمل سور المدينة وقصورها أراد عبيد الله الانتقال إليها، فثقل ذلك على أوليائه وجنده، وصعب عليهم استبداله بالموضع الذي استوطنوه، فقال لهم: إن صعب ذلك عليكم فنحن ننتقل ونترككم هاهنا، ونجري عليكم الأرزاق والصلات وعما قليل ستنتقلون إلينا مسارعين، قال المؤرخون فلم يكن بعد ذلك إلا زمان يسير حتى أرسل الله السماء بأمطار غزيرة أخربت مساكن رقادة، وأهدمت دورها، وأهلكت خلقاً عظيماً من أهلها، فخرج الناس في الأخبية والفازات، وكتبوا إلى المهدي يسألونه الانتقال إلى المهدية، فأجابهم إلى ذلك، فانتقلوا إليها وتمت عمارتها»[٥٠].

ولتوفير المزيد من فرص العمل لجذب الناس للسكن في المدينة، أمر المهدي ببناء دار للصناعة عدها المؤرخون من عجائب الدنيا، «وابتنى دار الصناعة، وهي من عجائب الدنيا، وأخذ عبيد الله في بناء قصوره بها، فبنى قصره الكبير المعروف به الذي كانت به طيقان الذهب، وبنى ابنه أبو القاسم بإزائه قصره المعروف به أيضاً وبينهما فسحة، وبشرقي قصر عبيد الله حيث كان هي دار الصناعة الآن»[٥١].

لكن وجود الناس بكثافة في المدينة أفقد المهدي الإحساس بالأمان، لذا دبَّر تدبيراً جديداً، وهو بناء مدينة أخرى قريبة من مدينة المهدية، حفر فيها الآبار، وزودها بصهاريج المياه لتجميع ماء المطر فيها، وجعلها سكناً للصناع والتجار، وكان له تدبير خفي من وراء هذا الفعل، «وارتحل إليها، وأقام بها، ثم عمر فيها الدكاكين، ورتب فيها أرباب المهن كل طائفة في سوق، فنقلوا إليها أموالهم، فلما استقام ذلك أمر بعمارة مدينة أخرى إلى جانب المهدية، وجعل بين المدينتين قدر طول ميدان، وأفردها بسور وأبواب وحفظة، وسماها زويلة، وأسكن أرباب الدكاكين من البزازين وغيرهم بحرمهم وأهاليهم، وقال: إنما فعلت ذلك لآمن غائلتهم، وذاك أن أموالهم عندي وأهاليهم هناك، فإن أرادوني بكيد وهم بزويلة كانت أموالهم عندي فلا يمكنهم ذلك، فإن أرادوني بكيد وهم بالمهدية خافوا على حرمهم هناك، وبنيتُ بيني وبينهم أسواراً وأبواباً، فأنا آمن منهم ليلاً ونهاراً لأني أفرق بينهم وبين أموالهم ليلاً، وبينهم وبين حرمهم نهاراً، وشرب أهلها من الآبار والصهاريج»[٥٢].

إن ما فعله عبيد الله ببناء زويلة يذكرنا بما فعله الخليفة المنصور بمدينته بغداد عندما زاره بطريق من بطارقة الروم، وطاف بالمدينة، فسأله المنصور عن رأيه بالمدينة، فأجابه: «رأيتُ بناء حسناً ومدينة حصينة إلا أن أعداءك فيها معك، قال: من هم؟ قال: السوقة، يُوافي الجاسوس من جميع الأطراف، فيدخل الجاسوس بعلة التجارة والتجار هم بُرُد الآفاق، فيتجسس الأخبار، ويعرف ما يريد، وينصرف من غير أن يعلم به أحد، فسكت المنصور، فلما انصرف البطريق أمر بإخراج السوقة من المدينة، وتقدم إلى إبراهيم بن حُبيش الكوفي وخراش بن المسيب اليماني بذلك، وأمرهما أن يبنيا ما بين الصراة ونهر عيسى سوقاً، وأن يجعلاها صفوفاً، ورتب كل صف في موضعه، وقال: اجعلا سوق القصابين في آخر الأسواق فإنهم سفهاء، وفي أيديهم الحديد القاطع، ثم أمر أن يُبنى لهم مسجد يجتمعون فيه يوم الجمعة ولا يدخلوا المدينة»[٥٣].

حاولنا معرفة مقدار البعد بين المهدية وزويلة اعتماداً على كلمة الميدان التي ذكرها، إلا أننا لم نجد

٥٠ – **التيجاني، رحلة التيجاني**، ص٣٢٢.

٥١ – **التيجاني، رحلة التيجاني**، ص ٣٢٢.

٥٢ – **ياقوت الحموي، معجم البلدان**، مج٥، حرف الميم، باب الميم والهاء وما يليهما، مادة «المهدية»، ص٢٣١.

٥٣ – **ياقوت الحموي، معجم البلدان**، مج٤، حرف الكاف، باب الكاف والراء وما يليهما، مادة «كرخ بغداد»، ص٤٤٨.

لـدى العرب وحدة طـول تسمى ميداناً، لكـن بالعودة إلى قـول التيجـاني «وأنـزل المهـدي جنـده وخاصتـه فيهـا، وابتنى لعامـة الناس المدينة الأخـرى المسماة بزويلـة، وهي إحـدى المدينتين، وبينهمـا **غلوة سهم**، وجعـل الأسـواق والفنـادق فيهـا، وأدار بهـا خنادق متسعـة تجتمـع بها ميـاه الأمطـار، فكانـت كالربض لمدينـة المهدية»[٥٤]، يمكننـا القول: إنّ زويلـة كانت تبعد عـن المهديـة بمقـدار ٢٣٦,٧٧م تقريبـاً، ويؤكـد كلام الإدريسـي هذا البعد؛ إذ يقـول: «وبين هاتين المدينتين أعنـي المهدية وزويلة فضاء كبير يسمى الرملة مقداره أشف من رمية سهم»[٥٥].

ويؤكـد القزوينـي أن المهـدي أحـاط مدينـة زويلة بسـور، وجعـل فيـه أبوابـاً كمـا فعـل بمدينـة المهدية تمامـاً زيـادة في الحرص والتحصين، «ثـم أمر بعمارة مدينـة أخـرى إلى جانـب المهدية، وجعل بـين المدينتين طول ميـدان، وأفردها بسور وأبـواب وسماها زويلة، وأسكن أربـاب الصناعات والتجـارات فيها، وأمر أن تكـون أموالهـم بالمهديـة وأهاليهـم بزويلـة. قـال: إن أرادوني بكيـد بزويلـة فأموالهـم عنـدي بالمهدية، وإن أرادوني بالمهدية خافوا على أهاليهم بزويلة، فإني آمن منهـم ليلاً ونهـاراً»[٥٦]، وكذلـك الإدريسـي الذي ذكر «لهـذه المدينة أسوار عاليـة حصينة جداً تطيف بها من سائـر جهاتهـا ونواحيها البرية والبحريـة، وجميعها مبني بالحجر، وفيها فنادق كثيرة وحمامات جمة»[٥٧].

انتعشت مدينـة زويلة بنشاط سكانهـا، فأصبحت مدينة تسر ساكنيها «المهدية في حين تأليفنا لهذا الكتاب مدينتان إحداهما مدينـة المهدية والثانية مدينة زويلة، ومدينـة المهدية يسكنها السلطان وجنوده وبها قصره الحسن البناء العجيب الإتقان والارتقاء، ...، وبمدينة زويلة الأسـواق الجميلة والمباني الحسنـة والشوارع الواسعة والأزقة الفسيحة، وأهلها تجار مياسير نبلاء ذوو أذهان ثاقبة وأفهـام ذكية وجل لباسهم البياض، ولهـم همـم في أنفسهـم وملابسهـم، وفيهـم الجمال، ولهم معرفة زائـدة في التجارات، وطريقتهم حميدة في المعاملات»[٥٨].

ذكرهـا ابن حوقـل، فقال: «كثـيرة القصور نظيفة المنازل والـدور، حسنة الحمامـات والخانات، خصبة رفهـة الفواكه والغلات، طيبـة الداخل، نزهة الخارج، بهية المنظر»[٥٩].

وذكرهـا الحميري أثنـاء حديثه عن مدينـة المهدية أن «ربضهـا يعـرف بزويلـة فيـه الأسـواق والحمام ولم تـزل ذات إقلاع وحط، وهي مدينـة حسنة مقصد للسفـن الواردة من المشرق والمغـرب والأندلس وبلاد الـروم وغيرهـا، وإليهـا تجلـب البضائـع الكثـيرة بقناطير الأموال، وهي نظيفة المنازل، وديارها حسنة، وحماماتهـا جليلـة، وبهـا خانـات، وهي بهيـة المنظر داخلاً وخارجاً، وأهلها حسان الوجوه، نظاف الثياب، وشرب أهلها من المواجل، وآبارها غير عذبة، ولم يكن بها من قبل جنات ولا بساتين ولا نخل ولا فاكهة إلا ما جلب إليها»[٦٠].

بقي الوضع على حاله إلى أن قام أبو يزيد بثورته، وبـدأ يفتح المدن القريبة من المهديـة، فأمر أبو القاسم القائـم بن المهـدي الذي تـولى الحكم بعد وفـاة والده بحفر خنـدق يمتلئُ من مـاء المطر ليكون حـدًّا فاصلاً بـين المدينتـين، «ولهـذه المدينة مـن جهة خنـدق كبير تستقر بـه مياه السمـاء»[٦١]، وقد ذكـر التيجاني هذا

٥٤ - **التيجاني، رحلة التيجاني**، ص ٣٢٢.
٥٥ – **الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، ص٢٨٢.
٥٦ – **القزويني ، آثار البلاد وأخبار العباد**، ص٢٧٦.
٥٧ – **الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، ص٢٨٢.
٥٨ – **الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، ص٢٨٢.
٥٩ – **ابن حوقل، صورة الأرض**، ص٧٣.
٦٠ – **الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار**، ص ص ٥٦١– ٥٦٢.
٦١ – **الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، ص٢٨٢.

الخنـدق في معرض حديثه عن أبي يزيـد الذي حاصر المدينة «وأقام المهدي ساكناً بمدينة المهدية مدة حياته، ثـم مـات بهـا سنة اثنتـين وعشريـن وثلاثمئـة، فولّى ابنـه أبا القاسـم القائم، ففي آخر دولتـه ثار عليه أبو يزيـد مخلد بن كيـداد النـكاري، فمـا زال يفتتح المدن ويخـرب البـلاد إلى أن افتتـح القيروان وهـزم جيش القائـم الأعظـم، وأقبـل يريد حصـار المهديـة، وكتب إلى أهل البـلاد الداخلين في طاعتـه يستنفرهم لحصار المهدية، وذلك سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمئة، فعلم القائم بذلك، فأمر بحفر خندق حول أرباض المهدية وزويلة، ووصل أبـو يزيد في جيوشه فأحـاط بالمهدية، وزحف إلى المهدية، فوصل إلى خندقها، واقتحم الماء بمن معه، فوصل المـاء إلى صدور خيلهم، وجيوش القائم في ذلك كلـه متقهقرة عنه، ووصل أبو يزيد في تلك الخطرة إلى مصلى المهدية، فلم يبق بينه وبين المهدية إلا رمية سهم حسبما أنذر به المهدي عند بناء سورها»[٦٢].

يمكن استنتاج عمق الخنـدق وعرضه ومقطعه من تحليل كلام التيجاني[٦٣]:

بمـا أن الحصـان استطـاع النـزول في الخنـدق والخـروج منه، فهذا يعني وجـود ميول متدرجة على الجوانـب، مما يعني أن مقطع الخنـدق كان على شكل شبـه منحرف، وبفرض أن ميل جوانبه ½ وهو أعظم ميل يستطيع الحصان السير عليه دون أن ينزلق، وبما أن متوسط ارتفاع الحصان[٦٤] نحو ١٫٥م، والماء بلغ صـدر الفرس عندما خاض في الخنـدق، فيمكن القول: إنَّ عمق الماء في الخندق وصل إلى نحو ١٫٢٥م.

نستنتـج ممـا سبق أن عبيـد الله المهـدي كان ذا فكـر هندسـي مبدع، اطلـع على تجارب مـن سبقه، وأفـاد منهـا حين أراد بنـاء مدينته، فـردم البحر في خطوة تُعـد الأولى في الحضارة العربية الإسلامية، وطبـق أساليـب تحصينيـة (الأسـوار، والأبواب الضخمـة) نُفِّذَت في مـدن أخرى كالرقـة والرافقة، (سلسلة الحديـد في الميناء) في مدينة عكا، كما اتبع خُطـا الخليفة العباسي المنصور بإخراج العامة من المهديـة وإسكانهـم في مدينـة زويلة القريبـة منها، ويكون بذلك ضمن الشرط الأول (دفع المضار) الذي ذكـره ابن خلدون، كمـا ضمن الشـرط الثاني (جلب المنافـع والمرافـق) بتأمـين الاحتياجـات المعيشيّة كلّها (الطعام، والمياه العذبة) لسكان المدينة.

المصادر والمراجع

- **ابـن حوقـل النصيبي**، أبـو القاسـم، **صورة الأرض**، منشـورات مكتبة الحيـاة، بـيروت، لبنان، ١٩٩٢م.
- **ابـن خلـدون**، ولي الدين عبـد الرحمن (٧٣٢-٨٠٨هـ)، **مقدمـة ابن خلدون**، حقق نصوصه وخرج أحاديثـه وعلـق عليـه عبـد الله محمـد الدرويش، دار البلخي، دمشق، ١٤٢٥هـ / ٢٠٠م، ط١.
- **ابـن عوض المغربي**، أحمـد، **قطـف الأزهار في خصائـص المعادن والأحجـار ونتائج المعارف والأسـرار**، تحقيـق برويـن بـدري توفيـق، سلسلـة خزانة التراث.
- **الإدريسـي**، محمد بن محمد بـن عبد الله، **نزهة المشتاق في اخـتراق الآفاق**، مكتبـة الثقافة الدينية، القاهرة، ١٤٢٢هـ / ٢٠٠٢م.
- **التيجاني**، أبو محمد عبد الله بن محمد بن أحمد، **رحلة التيجـاني**، قدم لها حسن حسنـي عبد الوهاب، الدار العربية للكتاب، ليبيا –تونس، ١٩٨١م.

٦٢ – **التيجاني، رحلة التيجاني**، ص ص٣٢٤– ٣٢٥.

٦٣ – **الشعار**، مها، **المشروعات المائية في سورية في العصور**، الهيئة العامة السورية للكتاب، وزارة الثقافة، دمشق، سورية، ٢٠١٨م ص ١٨١.

٦٤ – **غلوب**، قبلان، **الحصان العربي الأصيل**، جروس بروس، طرابلس، لبنان، ١٩٨٩، ص ٣٧.

– **الحميري**، محمد بن عبد المنعم، **الروض المعطار في خبر الأقطار**، تحقيق إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت، ط٢، ١٩٨٤م.

– **سرور**، محمد جمال الدين، **قيام الخلافة الفاطمية في بلاد المغرب**، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٩٥م.

– **الشعار**، مها، «المخطوطات العربية وتأريخ المشاريع الهندسية»، **مجلة المخطوط العربي**، الهيئة العامة السورية للكتاب، وزارة الثقافة، دمشق، سورية، العدد ٢، ص ص ٧٢–٨٩.

– **الشعار**، مها، **المشروعات المائية في سورية في العصور**، الهيئة العامة السورية للكتاب، وزارة الثقافة، دمشق، سورية، ٢٠١٨م.

– **الشعار**، مها، «مواد البناء النادرة في المؤلفات العربية»، **كتاب أبحاث المؤتمر السنوي الرابع والثلاثين لتاريخ العلوم عند العرب** المنعقد في جامعة حلب ١٧–١٩ شعبان ١٤٤٠هـ / ٢٣ –٢٥ نيسان ٢٠١٩م، منشورات معهد التراث العلمي العربي بجامعة حلب، نشر في ١٧ حزيران ٢٠١٩، ص ص٢٩٧–٣٣٠. (نشر إلكتروني).

– **غلوب**، قبلان، **الحصان العربي الأصيل**، جروس بروس، طرابلس، لبنان، ١٩٨٩.

–**فاخوري**، محمود وخوام، صلاح الدين، **موسوعة وحدات القياس العربية والإسلامية**، مكتبة لبنان ناشرون، ١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م.

– **القزويني**، زكريا بن محمد بن محمود، **آثار البلاد وأخبار العباد**، دار صادر، بيروت.

–**مجموعة من المؤلفين، المعجم الوسيط**، مجمع اللغة العربية، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ط٤، ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م.

– **المقدسي**، شمس الدين (ت٣٨٠هـ)، **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**، علق عليه ووضع حواشيه محمد أمين الضناوي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٢م.

–**المقريزي**، تقي الدين أحمد بن علي (٧٦٦–٨٤٥هـ / ١٣٦٥–١٤٤١م)، **اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا**، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، ٢٠٠٩م.

– **ياقوت الحموي**، شهاب الدين، **معجم البلدان**، دار صادر، بيروت،١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م.

المراجع الإلكترونية:

– **جريدة الغد الأردني**، لماذا يتجه العالم بقوة نحو «عصر الجزر الاصطناعية»؟ ١١ / ١ / ٢٠٢٢م، https://alghad.com/

– **كيف يتم إنشاء الجزر الاصطناعية؟ وما سبب وجودها؟**، ١٣ /٦ / ٢٠١٧، https://www.argaam.com

– **الموسوعة التونسية المفتوحة**، http://www.mawsouaa.tn/wiki

–**ويكيبيديا الموسوعة الحرة**، مادة «جزيرة اصطناعية»، https://ar.wikipedia.org

– **ويكيبيديا الموسوعة الحرة**، مادة «مرو (معدن)»، https://ar.wikipedia.org

– Artificial Island. https://encyclopedia.pub/entry/28719

أثر أبي بكر الخُوَارزمِيِّ (ت ٣٨٣ هـ) في يتيمة الثَّعالبيِّ (ت ٤٢٩ هـ)

د. محمَّـــد قاســـم

وُلِدَ أَبُو بَكْرٍ مُحَمَّدُ بْنُ الْعَبَّاسِ الخُوَارزمِيُّ في خُوَارزمَ[١] التي وصفها بأنَّها[٢] «عُشُّهُ الذي فيه دَرَجَ، وبَيْتُهُ الذي منه خَرَجَ، وأنَّها مقطعُ سُرَّته» سنة ٣٢٣ هـ، وأَصْلُهُ مِنْ طَبَرِسْتانَ، ويُقالُ لهُ: الطَّبَرْخَزْمِيُّ؛ لأنَّ أباهُ من خُوارزمَ، وأُمَّهُ من طَبَرستانَ.

فارقَ مسقطَ رأسه في ريعانِ شبابه وحُميّا صِبَاهُ، وهو قَوِيُّ المعرفة، حَسَنُ ديباجَةِ الشِّعْر.

ولم يَـزَلْ يَتَقَلَّـبُ في العالَمينَ، فدخَلَ مُدُنَ العراق والشَّام، يشافـهُ العُلماءَ، ويتلقَّفُ من أفواهِ الرُّواةِ والشُّعراءِ، ويستفيدُ من الفُضلاءِ، حتى استوى فَرْدَ الدَّهرِ في الرِّوَايةِ والشِّعرِ.

ولَقِـيَ سيـفَ الدَّولة، وخَدَمَهُ، واستفَادَ من يُمنِ حَضرته، ورجالاتِ بلاطه. ومضى علـى غُلوائه في الاضطرابِ والاغترابِ، وشَرَّقَ بعد أَنْ غَرَّبَ، وورد بُخارى، وصَحِبَ أَبَا عَلِيٍّ البَلعَمِيِّ، فلم يَحمَدْ صُحبَتَهُ، وفارقَهُ وهَجاهُ بقوله[٣]:

إنَّ ذا البَلْعَميَّ والعَيْنُ غينٌ ... وهو عَارٌ على الزَّمانِ وشَينُ

إن يَكُنْ جَاهِلًا بخُفَّيْ حُنينٍ ... فهو الخُفُّ والزَّمـانُ حُنَـيْنُ

ووافـى نَيسابُـورَ، فاتَّصلَ بالأميرِ أبـي نصرٍ أحمدَ بنَ عليٍّ الميـكالِيِّ، واستكثَرَ من مدحِه، ونـادَمَ نجلَهُ كثيرًا، وداخلَ أبا الحسنِ مُحمَّدَ بنَ إبراهيمَ القزوينيَّ، وأبا منصورٍ البَغَويَّ، وأبا الحسينِ الحَكَميَّ، فارتفقَ بهم، وارتزقَ.

١- خُوَارزم: أَوَّلُهُ بينَ الضَّمَّة والفتحة، والألِفُ مُسْتَرَقَّةٌ مُخْتَلسةٌ لَيستْ بألف صحيحة، هكذا يتلفَّظُونَ بِهِ، وهكذا يُنشَدُ قولُ اللَّحَّام:

مـا أهـــلُ خُوَارزم سُـــلالةَ آدَم ... ما هُـمْ، وحَـــقِّ الله، غيـرُ بهائـــم

والنَّحوُ الفَارسيُّ يُهملُ نُطقَ الوَاوِ الواقعَةِ بَيْنَ الخَاءِ والألف؛ قالَ أَبُو بكرٍ النَّحْوِيُّ البُستيُّ يهجو الخُوَارزميَّ:

وعاوٍ عَوَى من أهلِ خَارزمَ خِيفَةً ... كذا الكلبُ عندَ الخوفِ مُجتَهِدًا يَعوي

فلو نُطِقَت الواو لانكسرَ البيتُ.

معجم البلدان ٢ / ٣٩٥ – ٣٩٨، وترجمة أبي بكرٍ في اليتيمة ٣٣٦٨ – ٣٤٨٣. وبيتُ أبي بكرٍ البُسْتيِّ في اليتيمة ٣٧٩٥.

٢- رسائله ٢٢٩.

٣- اليتيمة ٣٧٩٥.

ثُمَّ قصدَ سِجستانَ، وتمكَّنَ من واليها أبي الحسين طاهرِ بْنِ مُحمَّدٍ، ومَدَحَهُ، وأصابَ صلتَهُ، ثُمَّ هَجَاهُ وأوحشَهُ، حتى أطَالَ سَجنَهُ، وكتبَ في هذه النَّكبة قصيدةً إلى الأميرِ أبي نصرٍ أحمدَ بن عليٍّ الميكاليِّ، منها :

كتـابي، أبَا نصـرٍ، إليـكَ وحـالتي ... كحـالِ فَريسٍ في مخالبِ ضَيْغَمِ
أرقُّ من الشَّكوى، وأدجَى من النَّوَى ... وأضعفُ من قلبِ المحبِّ المتَيَّمِ
وقعـتُ بفَخِّ العُـرفِ في يَـدِ طاهـرٍ ... وقـوعَ سُـلَيكٍ في حبائلِ خثعمِ
ومـا كنـتُ في تركيـكَ إلا كتـاركٍ ... يقينًا وراضٍ بعـدهُ بالتَّـوَهُّمِ

ثُمَّ خرجَ من ضيقِ الحَبسِ، فنهضَ إلى غَرْشِستانَ، وكانتْ حَالُهُ مع صَاحِبِها الشَّارِ كحالِهِ مع صاحب سِجِسْتان طاهرٍ، فقال :

ألا أبلـغْ بَنِـي شـارٍ كـلامـي ... ومَنْ لـم يَلقَهُـمْ فهوَ السَّعيدُ
عـلامَ ابتعتُـمُ فـرسًا عتيـقًا ... ولَيـسَ لديكُـمُ عـلفٌ عتيـدُ
وفيـم حبسـتُمُ في البيـتِ بَـازًا ... يحيـصُ الطَّيـرُ عنهُ أو يحيدُ
فـلا قَرْنَصتُمُـوهُ فعلتُمُـوهُ ... ولا خلَّيتُـمُ عنـهُ يصيـدُ

ثُـمَّ عـادَ نيسابُورَ، وأقامَ فيهـا إلى أن وُفِّقَ التَّوفيقَ كُلَّهُ بقصدِ حَضرَةِ الصَّاحبِ أصبهانَ، فَأنجحَتْ سَفرتُه، وربحَـتْ تجارتُـهُ، وحصـلَ في جُملَةِ نُدمائِـهِ المختصِّينَ بِهِ، فلـمْ يَخْلُ من طَلِّ إحسانِـهِ ووَابلِهِ، وتزوَّدَ مـن كتابِهِ إلى حَضرةِ عَضُدِ الدَّولةِ بشيرازَ ما كان سببًا لارتياشِهِ ويسارِهِ.

ولَمَّا انقلبَ عنها بالغَنيمَةِ الباردَةِ إلى نَيْسابُورَ استوطَنَها، وابتَنَى بها دارًا، واقتَنَى بها ضياعًا وعَقَارًا.

ثُـمَّ عـادَ شِـيراز، فوَرَدَ منها عَلَلًا بعد نَهَلٍ، وأجرَى لَهُ عَضُدُ الدَّولَةِ عنـدَ انصرافِهِ رَسْمًا يصلُ إليهِ في كلِّ سنةٍ بنَيسابُورَ مع المَالِ الذي كان يُحملُ من فارسَ إلى خُرَاسَانَ.

ولمْ يَزلْ حَسنَ الرُّوَاء، يُقيمُ للأدبِ سُوقًا يُدرِّسُ ويُملي ويَشعُرُ ويَروي.

وكان يَتعصَّـبُ لآلِ بُوَيْـهِ تَعَصُّبًا شديدًا، ويَغُضُّ من سُلطَانِ خُرَاسَانَ، ويُطلقُ لسانَهُ بما لا يُذعِنُ ولا يعترفُ بِهِ، إلى أن كانت أَيَّامُ تَاشٍ الحَاجِبِ، ورجَعَ من جُرْجَانَ إلى نَيْسابُورَ مُنهزمًا، فشمتَ بِهِ، وجَعَلَ يَقُولُ : قُبحًا لهُ وللوَزِيرِ أبي الحُسَينِ العُتبيِّ.

فأُبلِـغَ العُتبِـيُّ أبياتًا مَنسوبَةً إلى الخُوَارزميِّ في هِجَائِـهِ لَمْ يكُنْ قالَهَا، فكتب إلى تَاشٍ في أخذِهِ ومُصَادَرَتِهِ وقَطعِ لسانِـهِ، وإلى أبـي المُظَفَّرِ البرغشيّ في معناه، وكَانَ يَلي البنـدَرَةَ بنيسابُورَ إذْ ذاكَ، فتَوَلَّى حَبسَهُ وتَقييدَهُ، وأَخَذَ خطَّهُ بمئتَيْ ألفِ درهَم، واستخرَجَ بَعضَ المَالِ، وأَذِنَ لَهُ في الرُّجُوعِ إلى مَنزلِهِ مع المُوَكَّلِيْنَ بِهِ ليَحملَ البَاقِيَ، فاحتَالَ عليهِمْ يَومًا، وشغلهم بالطَّعَامِ والشَّرَابِ، وهربَ مُتنكِّرًا إلى حَضْرَةِ الصَّاحِبِ بِجُرجَانَ.

وتجلَّتْ عنهُ غُمَّةُ الخَطب، وعادَ إليه ما كانَ لهُ منَ المَبَارِّ والأحبية.

ثُـمَّ اتَّفقَ مقتـلُ أبي الحُسين العُتبيِّ، وقيامُ أبي الحَسـنِ المُزَنيِّ مقامَهُ، وكانَ من أشدِّ النَّاسِ حُبًّا للخُوَارزميِّ، فاستدعاهُ، وأكرمَ مثوَاهُ، وأمَرَ بردِّ ما أُخذَ منه عليه.

ثُـمَّ حَسُنـتْ حَالُهُ، ونظَـرَ إليه وُلَاةُ الأمـرِ بنَيْسابُورَ بعَـيْنِ الحِشمَةِ والاحْتشَـامِ، والإكرَامِ والإعظَـامِ، فارتفعَ مقدَارُهُ، وطابَ عيشُهُ.

ولَمْ يَـزَلْ كذلـكَ إلى أَنْ بُلِيَ بمُساجَلَةِ بديع الزَّمَـانِ ومُنَاظَرته، وأعَانَ البديعَ عليه قومٌ من الوُجُوه والعليَة كَانُوا مُستوحشينَ منه جدًّا، فلاقَى من سلاطَةِ البديع وقُوَّةِ عارضَته ما لَمْ يَكُنْ في حسابِه يومًا، حتى أنفَ مِنْ تلكَ الحَالِ، فانخَزَلَ انخزَالًا شديدًا، وكُسفَ بالُهُ، وانخَفَضَ طَرفُهُ، حتى لَقِيَ ربَّهُ في سنة ثلاث وثمانينَ وثلاثمئة.

هـذه أهـمُّ مَحَطَّاته التي تقلَّبَ فيها كما رصدَها أبو منصُورٍ في ترجمَته، وقَدْ كانَت الدُّنيا مُقبلَةً عليه حِيْنًا مُدبرَةً عنهُ حِيْنًا آخرَ.

ويظهرُ من هذه التَّرجمة ما يَكشفُ طِبَاعَ شخصيَّة أبي بَكر، ويُفَسِّرُ مَوْقفَ أبي مَنصُورٍ منهُ.

الخُوارزمـيُّ ذُو طَبـعٍ حَادٍّ سَرِيْعُ الغَضَبِ والعطَبِ إمَّا أنْ يكونَ لهُ ما يُريـدُ وإمّا أن يُطلِقَ لِسَانَهُ غَيْرَ هَيَّابٍ، ولا آبهٍ؛ قالَ فيه بَلَدِيُّهُ أبو سعيد الشَّبيبيُّ[٤]:

أبـو بكـرٍ لـهُ أدَبٌ وفضـلٌ ... ولكـنْ لا يَـدُومُ عـلى الإخـاءِ

مَـوَدَّتُـهُ إذا دامَـتْ لخـلٍّ ... فمِـنْ وَقْـتِ الصَّبَـاحِ إلى المَسـاءِ

وقال فيه أبو الحسن عُمَرُ بنُ أبي عُمَرَ السِّجْزِيُّ النُّوقَانيُّ[٥]:

مـاتَ أبـو بكـرٍ وكـانَ امـرَأً ... أدهَـمَ فـي آدَابـهِ الغُـرِّ

ولَـمْ يكـنْ حُـرًّا، ولكنَّـهُ ... كـانَ أميـرَ المنطـقِ الحُـرِّ

وهو شديدُ الوَقيعة في النَّاس، يتلَذَّذُ في كشفِ العُوَارِ والخَطَلِ؛ فقد سمعَ أبو منصورٍ هذا الخَبَرَ[٦]:

كانَ أبو الطَّيِّب قاعدًا تحتَ قولِ الشَّاعر:

وإنَّ أحـقَّ النَّـاسِ باللَّـومِ شاعرٌ ... يَلُوْمُ على البُخلِ الرِّجـالَ ويَبخَـلُ

وإنَّما أعرَبَ عن عَادَته وطريقَته في قَوله:

بَليتُ بـلَى الأطلالِ إنْ لَمْ أقفْ بها ... وقـوفَ شَحيحٍ ضاعَ في التُّربِ خاتمُهْ

فحَضَرْتُ عندَهُ يومًا بحلبَ وقد أُحْضِرَ من صِلاتِ سيفِ الدَّولة، فصُبَّ بين يَدَيه على حصيرٍ قد افترَشَهُ، ووُزِن

٤- اليتيمة ٣٤٨٥، ووفيات الأعيان ٤ / ٤٠٢.

٥- اليتيمة ٣٤١٦.

٦- اليتيمة ٢٦٥. وحَكَى الثَّعَالبيُّ أخبَارًا عنه أرَادَ منها ذَمَّ المُتَنَبِّي والغَضَّ منه ٢٦٧، ٢٦٨، ٢٦٩، ٢٧٠.

وأُعيدَ في كيسٍ، وإذا بقطعةٍ كأصغرِ ما يكُونُ من ذلكَ المالِ قد تَخَلَّلَتْ خِلَلَ الحَصيرِ، فأَكَبَّ عليهَا بمجامعه يَنقُرُها، ويُعالِجُ استنْقَاذَها منه، ويَشتغلُ بذلكَ عن جُلسائِه حتى توصَّلَ إلى إظهَارِ بَعضِها، فتَمَثَّلَ ببَيتِ قَيسِ بنِ الخَطِيمِ:

تَبَـدَّتْ لَنَـا كالشَّـمْسِ بين غَمَامَـةٍ ... بَدَا حَاجِبٌ منها وضَنَّت بحاجِبِ

ثُمَّ استخرَجَها، وأمرَ بإعادَتِها إلى مكانِها من الكيسِ، وقال: إنَّها تُحضِرُ المَائِدَةَ.

وعَلَّقَ أبو بكرٍ على قَولِ أبي الطَّيِّبِ في رثاءِ أُختِ سَيفِ الدَّولَةِ[٧]:

يَعلَمُـنَ حيـن تُحَيَّـا حُسنَ مَبسِمِها ... ولَيـسَ يَعلَـمُ إلَّا اللهُ بالشَّـنَبِ

«لَوْ عَزَّاني إنسَانٌ عن حُرمَةٍ لي بمثلِ هذَا لأَلحَقتُهُ بها، وضَرَبتُ عُنُقَهُ على قَبرِها».

وقالَ أبو بكرٍ في رَجُلٍ وَافَى نيسابُورَ، وادَّعَى أنَّهُ نَجلُ نَصرٍ الخُبزَأرُزِّيِّ[٨]:

يَقُـولُ : نَصـرٌ أبـي، فقلـتُ لَهُـمْ : ... عِنـدِي بهـذا شَـهَادَةٌ حَسَـنَهْ

نَعَـمْ، ولكـن أُمُّـهُ حَمَـلَتْ ... مـن بَعـدِ ما مَـاتَ شَـيخُها بسَـنَهْ

وهَجَا الصَّاحِبَ مُسْبِغَ النَّعمَاءِ عَلَيه[٩] :

صَـاحِبُنَـا أحـوَالُـهُ عَالِيـهْ ... لكنَّمَـا غُرْفَتُـهُ خَالِيـهْ

وإذا عَرَفـتَ السِّـرَّ مـن دائِـهِ ... لَـمْ تَسـأَلِ اللهَ سِـوَى العَافِيـهْ

وقـالَ في أبـي الحَسَنِ البَدِيهِيِّ وقد جَرَى ذِكـرُهُ بين يَدَيه[١٠] : «إنَّهُ كَانَ لا يَرجِعُ مـن البَدِيهَةِ التي انتَسَبَ إليها وتَلَقَّبَ بها، إلَّا إلى لَفظَةِ الدَّعوَى، دُونَ حقيقَةِ المَعنَى » .

وحين رَثَى أبا سَعيدٍ الشَّبيبيَّ أظهَرَ عِتابَهُ عَلَيهِ، ونَصَّ على ما كَانَ من آثَارِهِ القبَاحِ عِندَهُ[١١]:

ومـن عَجَـبِ اللَّيَـالي أنَّ خَصمـي ... يَبِيـدُ، وأنَّ حُـزني لا يَبِيـدُ

وأنَّ النِّصـفَ مـن عَينـي جَمُـودٌ ... وأنَّ النِّصـفَ مـن قَلبـي جَلِيـدُ

إذا سُـفِحَتْ عليـهِ دُمُـوعُ عَينـي ... نَهَـاهَا الهَجـرُ منـهُ والصُّـدُودُ

وآثَـارٌ لـهُ عِنـدِي قِبَـاحٌ ... يُجَمَّـشُ بينهـا الرَّأسُ الحديـدُ

فنِصْـفٌ مـن مَدَامِعِهـا سَـخِينٌ ... ونصـفٌ مـن مَدَامِعِهـا بَرُودُ

فمـن هـذا رأَى في النَّـاس مِثـلي ... أُرِيـدُ من المُنَـى مـا لا أُرِيـدُ

٧- اليتيمة ٤٠٧.

٨- اليتيمة ١٨٨٦.

٩- اليتيمة ٢٦٤٥.

١٠- اليتيمة ٢٧٧٠.

١١- اليتيمة ٣٤٥٧ - ٣٤٥٨.

ومـن نَكَـدِ المَنِيَّـةِ فَقَـدُ حُـرٍّ ... تَـخَـالَـفَ فيـه إخـوَانِي الشُّـهُودُ
فـذا هَنَّـا وقـالَ: مَضَـى عَـدُوٌّ ... وذَا عَـزَّى وقـالَ: مَضَـى وَدِيـدُ
بكيـتُ عليـك بالعيـن التـي لـم ... تَـزَلْ من سُـوءِ فعلِكَ بي تَجُـودُ
فقـدْ أبكيتنـي حَيًّـا ومَيْـتًا ... فقُلْ لي: أيُّ فعلَيكَ الرَّشِيدُ؟!
فهـا أنـا ذَا المُهَنَّـا والمُعَـزَّى ... وهـا أنـا ذَا المُبَاغِضُ والـوَدُودُ
وهـا أنا ذَا المُصَـابُ بكَ المُعَافَـى ... وهـا أنـا ذَا الشَّقِيُّ بـكَ السَّعِيدُ

ورَوَى أبو منصُورٍ عن أبي بَكرٍ أنَّهُ تَحَكَّكَ وهُوَ حَدَثٌ بأبي الحَسَنِ اللَّحَّام، فقالَ فيه[١٢]:

رأَيـتُ للَّحَّـامِ فـي خَلقِـه ... للشِّـعرِ تطبيقًا وتَجنِيسا
نخـوةَ فِرعَـونَ، ولكنَّـهُ ... جَانَسَ في حَملِ العَصَا مُوسى
وتِيْـهَ إبليـسَ لكنَّـهُ ... خَـالَـفَ في السَّـجدَةِ إبليسا

وأرادَ بذلكَ فتحَ بابٍ إلى مُهَاجَاتِه، فلَمْ يُجِبهُ، وجَرَى على قَضيَّةِ قَولِ المُتَنَبِّي:

وأغْيَـظُ مَـنْ نَـادَاكَ مَـنْ لا تُجِيْبُـهُ

وقـالَ في الشَّبِيبِـيِّ[١٣]: كانَ الشَّبِيبيُّ في أيَّـامِ شبابِهِ بخُوَارِزمَ يَقُولُ شِعْرًا غَلِيظًا جَاسِيًـا كأشعَارِ المُؤَدِّبِينَ، فلمَّا عَاشَرَ النَّاسَ، ولَقِيَ الأفاضِلَ لَطُفَ طَبعُهُ، ورَقَّ شِعرُهُ.

وكانَ أبُـو القَاسِـمِ أحمَدُ بنُ أبي ضِرغَامٍ، أحدُ شُعَرَاءِ خُوَارِزمَ المُفْلِقِينَ يُهَاجِـي أبا بكرٍ الخُوَارِزمِيَّ ويُبَارِيهِ في عُنْفُوانِ شَبَابِه[١٤].

ومِمَّا هَجَا بِهِ أبو بكرٍ الصَّاحِبَ[١٥]:

لا تَحْمِـدَنَّ ابـنَ عَبَّـادٍ وإنْ هَطَلَـتْ ... كَفَّاهُ بالجُودِ حتى أَخجَلَ الدِّيمَا
فإنَّهـا خَطَـراتٌ مِـن وَسَـاوِسِهِ ... يُعْطِي ويَمنَـعُ لا بُخلًا ولا كَرَما

وبلغَ الصَّاحِبَ ذلك، فلَمَّا بَلَغَهُ خَبَرُ مَوْتِه أنشَدَ:

أقـولُ لرَكـبٍ مِـن خُرَاسَـانَ قَافِـلٍ ... أَمَـاتَ خُـوَارِزمِيُّكُمْ قِيْلَ لي: نَعَمْ
فقلـتُ: اكتُبُوا بـالجِصِّ من فَوقِ قبرِهِ ... أَلَا لَعَنَ الرَّحْمَنُ مَنْ كَفَرَ النِّعَمْ

هـذِهِ لُمَـعٌ مِـن هِجَاءِ أبي بكرٍ لصُـدُورِ عَصـرِهِ وشُعَرَائِهِ تَصدُرُ عن طَبعٍ نَزِقٍ هَجَّاءٍ حديـدِ اللِّسانِ قويِّ

١٢- اليتيمة ٣١٦٣.
١٣- اليتيمة ٣٤٨٤.
١٤- اليتيمة ٣٥٠٩.
١٥- وفيات الأعيان ٤ / ٤٠٢، وغُرَر الخَصَائص الوَاضِحة ١ / ١٥٠ – ١٥١.

الجَنَانِ جرَّ عليه نكباتٍ منها حبسُه ومصادرتُه والأَمْرُ بقَطْعِ لِسَانِه، واتِّقَاءُ النَّاسِ مَعَرَّةَ مقوَلِه وإنِ اعترفُوا بفَضلِه وعلمِه.

وقد عَدَّ غيرُ واحدٍ من المُحدَثِينَ[١٦] الثَّعالبيَّ في جُملَةِ تلاميذِ أبي بكر، فهذا مُحَقِّقُ «الأمثال المُوَلَّدة» يَرَى[١٧] أنَّ أبا منصُورٍ كَانَ من مُلازِمِي أبي بكرٍ الذين يعرِفُونَهُ، وتلاميذِه الذين يُشَافِهُونَهُ، سَمِعَ منهُ، وأَخَذَ عنهُ، وقَرَأَ عليه.

وقَدْ رَأَيْتُ أَبَا مَنصُورٍ يَنصُّ عَلَى اثنين مِنْ تَلَامِيذِ أَبِي بَكْرٍ:

الأَوَّلُ: أبو سَعدٍ عَبدُ الرَّحمنِ بنُ مُحَمَّدِ بنِ دُوْسْتَ.

قالَ فيه[١٨]: «تخرَّج من مجلسِ الخُوَارزميِّ، ثُمَّ خَلَفَهُ في تَدريسِ الأَدَبِ بَعدَ وَفَاتِه».

الثَّاني : أبو نصرٍ أحمدُ بنُ عليِّ بنِ أبي بكرٍ الزُّوزَنيُّ.

قال فيه[١٩]: «استكثَرَ من أبي بكرٍ الخُوارزميِّ، وأخذَ عنهُ الفصاحَةَ حتى كادَ يحكيه».

وقد تَبَايَنَ مَوْقِفُ الثَّعالبيِّ مِنَ الخُوَارزميِّ في مواضعِ ذِكرِه في اليتيمة، وهما من طبيعتَينِ مُختلفَتَيْنِ اختلَافَ المَاءِ والنَّارِ، فأبُو مَنصُورٍ أكثَرُ حنكَةً ودَهَاءً في مُصانَعَةِ الصُّدُورِ ووُلَاةِ الأَمرِ لا يُصَادِمُ أحدًا، ولا يَقعُدُ عن إرضاءِ كُلِّ مَنْ دَفَعَتهُ الأيَّامُ إلى العيشِ تَحتَ سَمَائِه، حَسَنُ التَّأَتِّي، ذو صدرٍ واسعٍ رحيبٍ لا يكادُ يَستغلِقُ على أحدٍ.

وعلى إعجَابِ الثَّعالبيِّ بفضلِ أبي بكرٍ وإفَادَتِه منه لم يكُنْ مُنصفًا حين أدرَجَهُ في جُملَةِ بَابِ «غُرَرِ فُضَلَاءِ خُوَارزم» من القسمِ الرَّابعِ الذي يَشْتَمِلُ على مُلَحِ أشعَارِ خُرَاسَانَ وما وَرَاءَ النَّهر، على حينِ أفرَدَ البَابَ الخَامسَ من هذا القسمِ لخَصمِه بَدِيعِ الزَّمَانِ الهَمذَانيِّ، ووَقَفَهُ على محاسنِه، وكَذَا أفرَدَ الباب الثَّامنَ لصاحبِه أبي الفضلِ عُبيدِ اللهِ بنِ أحمَدَ الميكَاليِّ من القسمِ نفسِه، والخُوَارزميُّ لا يَقِلُّ فضلًا وعلمًا عنهما، بل لا يَصِحُّ أَنْ يُلَزَّ أبُو الفَضلِ الميكَاليُّ مَعَهُ، ولا يَنهَضُ إليه، بل أين هوَ منهُ؟ فلَمْ يَخْلُ توزيعُ الرِّجَالِ على الأبوَابِ هُهُنَا من هَوًى مَالَ بأبي مَنصُورٍ إلى الهَمذَانيِّ إعجَابًا بعلمِه، وإلى الميكَاليِّ رَدًّا لأياديه البَيضَاءِ التي طوَّقَتهُ.

إنَّ أَبَا بَكْرٍ الخُوَارزميَّ أَحَدُ مَصَادِرِ الثَّعالبيِّ عن شُعَرَاءِ الشَّام وحلبَ؛ قالَ أبو منصورٍ[٢٠]: «وكانَ أبو بكرٍ الخُوَارزميُّ في رَيْعَانِ عُمُرِه، وعُنفُوَانِ أمرِه، قد دَوَّخَ بلَادَ الشَّام، وحَصَلَ في حَضرَةِ سَيفِ الدَّولَةِ بحلبَ في مجمعِ الرُّوَاةِ والشُّعَرَاءِ، ومَطرَحِ الغُرَبَاءِ والفُضَلَاءِ، فأَقَامَ فيها ما أَقَامَ مَعَ أبي عَبْدِ اللهِ بْنِ خَالَوَيْه، وأبي الحَسَنِ

١٦- مقدّمة تحقيق آداب المُلُوك ٦، ٧، ومؤلَّفات الثَّعالبيِّ ٩.

١٧- مقدّمة تحقيق الأمثال المُوَلَّدة ٨.

١٨- اليتيمة ٤٠١٤.

١٩- اليتيمة ٤٠٥٩.

٢٠- اليتيمة ٢٨ – ٢٩.

الشِّمشَاطيِّ ... = بَينَ علْمٍ يدرُسُهُ، وأدبٍ يَقتَبسُهُ، ومَحَاسِنِ ألفاظٍ يَسْتَفيدُها، وشَوَارِدِ أشعَارٍ يَصيدُها، وانقَلَبَ عنها وهُوَ أَحَدُ أفرَادِ الدَّهرِ، وأُمَرَاءِ النَّظمِ والنَّثرِ.

وكان يقـولُ : مـا فَتَقَ قَلبي، وشَحَذَ فَهمي، وصقلَ ذهني، وأرهَفَ حَدَّ لِسَاني، وبَلَغَ هذا المبلَغَ بي، إلَّا تلكَ الطَّرَائفُ الشَّاميَّةُ واللَّطَائفُ الحَلَبيَّةُ التي عَلِقَتْ بحفظي، وامتَزَجَتْ بأجزَاءِ نفسي، وغُصنُ الشَّبَابِ رَطيبٌ، ورِدَاءُ الحداثة قشيبٌ. **ومـا كانَ أكـثرَ ما يُنشِدُني ويُكتِبُني ممَّا يَضِـنُّ به على غَيري من تلكَ الغُـرَرِ التي تجري مجرى السِّحرِ، والمُلَحِ التي يَقطُرُ منها ماءُ الظَّرفِ.** وأنَا أكتُبُها في أمَاكنها من أبوَابِ القسمِ الأوَّلِ، بمشيئة الله تَعَالَى» اهـ

فحين تَرجَمَ الثَّعالبيُّ لأبي طالبٍ الرَّقِّيِّ قالَ[٢١]: لَمْ أجِدْ ذِكرَهُ إلَّا عِنْدَ أبي بكرٍ الخُوَارزميِّ، وسمعتُهُ يقولُ: إنَّهُ أَحَدُ المُقِلِّينَ المُحسنينَ، الذينَ يُطبِّقُونَ المفصَلَ في أغراضِهم، ويَنظمُونَ الدُّرَّ المُفَصَّلَ في مَعَانيهم وألفاظِهم، ثُمَّ أنشَدَني لَهُ قولَهُ:

ولقـد ذَكَرتُـكِ في الظَّـلامِ كأَنَّـهُ ... يومُ النَّوى وفـؤَادُ مَنْ لَمْ يَعْشَقِ

وكـأَنَّ أجـرَامَ السَّـمَاءِ لَـوَامعًا ... دُرَرٌ نُـثِرنَ على زُجَـاجٍ أزرَقِ

وقـالَ أبـو منصورٍ[٢٢]: «وكُنـتُ أحسَبُ أَنَّني استَغْرَقتُ شعـرَهُ لجَمْعي فيه بين **لُمَعِ أنشدَنيهـا وأنسخنيها أبُو بكرٍ الخُوارزميُّ** أوَّلًا، وبينَ ديوانِ شعرِه المجلوبِ من بغدادَ، وهُوَ أوَّلُ ما رَأَيتُهُ ممَّا أنفَذَهُ أبُو عَبْدِ اللَّهِ بنُ حَامدٍ الخُوَارزميُّ من بغدادَ إلى أبي بكرٍ، وبينَ المُجَلَّدَةِ بخَطِّ السَّرِيِّ التي وقعت إليَّ من جِهَةِ أبي بكرٍ، وفيها زياداتٌ كثيرةٌ على ما في الدِّيوَانِ» اهـ

ويُعَـدُّ الخُوارزمـيُّ أيضًا من مَصَادِرِه عن شُعَرَاءِ الصَّاحبِ، فقد سَمِعَـهُ الثَّعالبيُّ يَقولُ[٢٣]: إنَّ مَوْلانا الصَّاحبَ منَ الوزَارةِ في حِجرِها، ودَبَّ ودَرَجَ في وَكرِها، ورضع أفَاوِيقَ دَرِّها وورثها من أبيه.

وذكر الثَّعالبيُّ فصلًا من كتابٍ للصَّاحبِ إلى ابن العميدِ صَدَرَ جوابًا عن كتابِهِ إليه في وَصفِ البحرِ، ثُمَّ قال[٢٤]: «وكانَ أبـو بكـرٍ الخُوارزمـيُّ يحفظُهُ، وكثيرًا مـا كانَ يَقرَؤُهُ، ويَعجَبُ السَّامعُـونَ من فَصَاحَتِـهِ، ولَمْ أَرَهُ يَحفَظُ من الرَّسائلِ غَيرَهُ» اهـ

وقالَ أبو منصورٍ[٢٥]:

سَمِعْتُ أَبَا بَكْرٍ يَقُولُ :

أنشَدَني الصَّاحبُ نُتفَةً لهُ منها هذا البيتُ:

لَئِـنْ هـو لَمْ يَكفُفْ عَقَـارِبَ صُدغِـهِ ... فقولُوا لـهُ: يَسمَح بتِريَاقِ رِيقِهِ

٢١- اليتيمـة ٦٧١. وانظـر مـا رَوَاهُ أَبُو مَنصُورٍ من أشعَارِ أهلِ الشَّامِ وأخبَارِهم عـن أبي بكرٍ الخُوَارزميِّ في اليتيمة ٧١، ١٩١، ١٩٣، ٢٢٦، ٢٢٨، ٢٣٠، ٢٦٦، ٦٥٠، ٦٤٧، ٦٥٠، ٦٥٢، ٦٧٤، ٦٨٩.

٢٢- اليتيمة ١٣٢٨.

٢٣- اليتيمة ٢٤٣٩.

٢٤- اليتيمة ٢٥٩٠.

٢٥- اليتيمة ٢٦٣٩ – ٢٦٤٠.

فاستَحسَنتُهُ جِدًّا حتى حُمِمْتُ من حَسَدِي لهُ عَلَيه، ووَددتُ لَوْ أَنَّهُ لي بألف بيتٍ من شعري.

قالَ مُؤَلِّفُ الكتَاب: فَأنشدتُ الأميرَ أبَا الفَضل عُبَيدَ الله بنَ أحمَدَ الميكَاليَّ هذا البَيتَ، وحكيتُ لهُ هذه الحِكَايَةَ في المُذَاكرَة.

فقالَ لي : أَتَعرِفُ من أَينَ سَرَقَ الصَّاحِبُ معنى هذا البيت ؟

فقُلتُ : لا والله.

فقالَ : إنَّما سَرَقَهُ من قَول القَائل، ونَقَلَ ذكرَ العَين إلى ذكرِ الصُّدغ:

لدَغَتْ عينُكَ قلبي إنَّما عَيْنُكَ عَقرَبْ

لكنِ المَصَّةَ من رِيـ قكَ تريَاقٌ مُجَرَّبْ

فقُلتُ : لله دَرُّ مَولانَا الأمير! فقد أُوتِيَ حظًّا كثيرًا مِنَ التَّخَصُّص بمعرفَة التَّلَصُّص اهـ

وقال أيضًا[٢٦]:

«سمعتُ أبا بكرٍ الخُوارزميَّ يقولُ : أنشدني الصَّاحِبُ هذه القوافيَ ليلةً، وقَالَ : هل تَعرِفُونَ نَظيرًا لمَعنَاهَا في شعرِ المُحدَثِينَ؟

فقلتُ : لا أَعرِفُ إلَّا قَوْلَ البُحتُريِّ:

ومِنْ عَجَبِ الدَّهرِ أَنَّ الأميـ رَ أصبَحَ أكتَبَ من كَاتِبِهْ !

فقَالَ : جَوَّدتَ وأحسنتَ ! وهكذا فليكنِ الحِفظُ» اهـ

يعني قَولَ الصَّاحِب:

بَدَا لَنَا كالبَدرِ في شُرُوقِه

يَشكُو غَزَالًا لَجَّ في عُقُوقِه

يا عَجَبًا والدَّهرُ في طُرُوقِه

مِنْ عَاشِقٍ أحسَنَ مِنْ مَعْشُوقِه

رَوَى أبو منصُورٍ عَنْ أبي بكرٍ أشعارًا وأخبارًا[٢٧] عَنْ عَضُدِ الدَّولة والمُهَلَّبيِّ الوزيرِ والمُفَجَّع البصريِّ وأبي مُحَمَّد الخَازِنِ وأبي سَعيدٍ الرُّستُميِّ وعَبْدَانَ الأصبَهَانيِّ وأبي العَلاء الأسَديِّ وأبي القاسم الزَّعفَرَانيِّ.

بَدَا أبو مَنصُورٍ مُجلًّا لأبي بَكرٍ الخُوَارزميِّ في أكثرِ مَوَاضعِ ذكرِه، ففي معرض الثَّنَاء على حَضرَة الصَّاحب ذَكَرَ[٢٨] أنَّها جَمَعَتْ أبَا الحَسَنِ السَّلاميَّ وأبا بكرٍ الخُوَارزميَّ، وفي الثَّنَاء على أُسرَة آل ميكَالَ قَالَ[٢٩]: «وما ظَنُّكَ بقومٍ مَدَحَهم البُحتُريُّ... وانخَرَطَ في سِلكِهم أبو بكرٍ الخُوَارزميُّ وغيرُهُ من أعيَانِ الفَضلِ وأفرادِ الدَّهرِ».

٢٦- اليتيمة ٢٦٠٠.

٢٧- اليتيمة ١٥٢٩، ١٥٤٨، ١٨٧٧، ٢٤٧٠، ٢٤٩٢، ٢٦٦٨، ٢٧٢٧، ٢٧٣٢، ٢٧٤٣، ٢٧٦٤، ٢٧٩٢.

٢٨- اليتيمة ٢٤٣٧.

٢٩- اليتيمة ٣٨٣٤.

وهـو يعتَـدُّ بمـا يرويه عن الرَّجُلِ، قـالَ[٣٠]: «سَمِعتُ أبـا بَكرٍ الخُوَارزمِيَّ يقـولُ عندَ إنشادِ هـذهِ الثَّلجيَّات : كُلُّ الثَّلجيَّاتِ عيَالٌ على قولِ الصَّنوبريِّ :

ذَهِّـبْ كُؤُوسَـكَ يـا غُـلا مُ؛ فـإنَّـهُ يَـومٌ مُـفَضَّـضْ»

ويُلمعُ[٣١] إلى ما كَانَ منهُ في إنجَاحِ بَعضِ أُولي الأَدَبِ والنَّسبِ، فحينَ فارَقَ المَأمُونيُّ الرَّيَّ، وقَدِمَ نَيسَابُورَ أشَارَ عليـهِ أبُـو بَكرٍ بعَمَلِ قَصيدَةٍ في الشَّيْخِ أبي مَنصورٍ كثيرِ بنِ أحمَدَ يَسأَلُهُ فيها تقريرَ حَالِهِ عندَ الأميرِ صَاحِبِ الجَيشِ أبي الحسنِ بنِ سَيمَجُورَ، فعملَها، وأوصَلَها أبو بَكرٍ، وشَيَّعَها من الكلامِ بما أوقَعَها موقعَها.

وقـالَ أبـو مَنصُورٍ[٣٢]: ابْنُ فَارِسٍ في الجَبلِ كابنِ لَنْـكَكَ بالعِرَاقِ، وابْنِ خَالَويهِ بالشَّـامِ، وابنِ العَلَّافِ بفَارِسَ، وأبي بَكرٍ بخُرَاسَانَ.

وقـالَ فيـهِ أيضًـا[٣٣]: باقِعَةُ الدَّهـرِ، وبحرُ الأدَبِ، وعَلَمُ النَّـثرِ والنَّظمِ، وعَالِمُ الفضلِ والظَّـرفِ، كانَ يَجمَعُ بينَ الفَصاحَةِ العَجيبَةِ والبَلَاغةِ المُفيدَةِ، ويُحاضِرُ بأخبارِ العربِ وأيَّامِها ودَوَاوينِها، ويُدَرِّسُ كتبَ اللُّغَةِ والنَّحوِ والشِّعرِ، ويتكلَّمُ بكُلِّ نادرَةٍ، ويأتي بكُلِّ فقرَةٍ ودُرَّةٍ.

وهُوَ مُحتَفٍ بما يهتزُّ لهُ من مُطربِ القَولِ، فحينَ أنشَدَ قَولَ السَّرِيِّ:

مَقـدُودَةٌ خَرَطَتْ أيـدِي الشَّـبَابِ لَهَا حُقَّينِ دُونَ مَجَـالِ العِقدِ من عَـاجِ

قـالَ[٣٤]: عَهـدِي بأبي بَكـرٍ الخُوارزمِيِّ يُجَنُّ على هذا الوَصـفِ جُنُونًا ! وأنشَدَ للقاضـي التَّنُوخِيِّ، ثُمَّ قَالَ[٣٥]: وعَهدِي بأبي بَكرٍ الخُوارزمِيِّ يَستَظرِفُهُ.

وحينَ أتى على بابةِ التَّضمينِ في شعرِهِ قالَ[٣٦]: لُمَعٌ من تضميناتِهِ التي كانَ لهُ فيها نِيقَةٌ، وطَرِيقَةٌ أنيقةٌ، يَضَعُها في مَوَاضِعِها، ويُوقِعُها في مَوَاقِعِها، ويُفصِحُ بها عَنِ اتِّسَاعِ رِوَايَتِهِ وكَثرةِ محفوظاتِهِ.

علـى أَنَّ كُلَّ هـذا الإجلَالِ للشَّيخِ لَمْ يَمنعْ أَبـا مَنصُورٍ من نَقدِهِ والنَّصِّ على ما زَلَّت فيه قَدَمُهُ، من ذلكَ أَنَّهُ أَنشَدَ لهُ :

لَقَـدْ هَـانَ مَـنْ أمسَـى ببلَـدَةِ غَيْـرِهِ «وقد ذَلَّ مَنْ بَالَتْ عَلَيهِ الثَّعالبُ»

٣٠- اليتيمة ٢٦١٢.

٣١- اليتيمة ٣٢٩٤.

٣٢- اليتيمة ٢٨٨٦.

٣٣- اليتيمة ٣٣٦٨.

٣٤- اليتيمة ١٤٠٦.

٣٥- اليتيمة ١٨١٩.

٣٦- اليتيمة ٣٤٢٣.

ثُـمَّ قـال[٣٧]: هذا من سَقَطَاتِه وعُـرَرِه الوَاقِعَةِ في غُرَرِه؛ فإنَّ فيه سُوءَ أَدبٍ، وهُـوَ بالتَّقريعِ أشبَهُ منهُ بالتَّقريظِ، ولَيسَ ممَّا يُخَاطَبُ بِه المُلوكُ.

وعَلَّقَ على قوله في الصَّاحِبِ وقد اعتلَّ[٣٨]:

نَعَـوا لِيَ نَفْـسَ المَجْـدِ سَـاعَةَ أخبَرُوا ... بما يَشتَكي من سُقمِه ويُمـارِسُ

زَلَّ فيه أقبَحَ زلَّة؛ فإنَّ في لفظة « النَّعي » ما فيها من الطِّيرَة، إذ هي ممَّا يَقَعُ في المَرثِيَةِ لا في العِيَادَة.

وعَلَّق على قَولِه في الصَّاحِبِ[٣٩]:

وظَرِيـفٍ كـأنَّ فـي كُـلِّ فعـلٍ ... من أفَـاعِيـلِـه عَـرَائِـسَ تُجلَى

هذا من سَقَطَاتِه المُنكَرَة؛ فإنَّ الكُبَرَاءَ والمُحتَشمينَ لا يُوصَفُونَ بالظَّرف؛ إذْ هو من أوصَاف الأحدَاث والفتيان والشُّبَّان والإخوَان. ولم يَرتَض بالفَرطَة في هذه اللَّفْظَة حتى شَبَّهَ أفَاعِيلَهُ بعَرَائِسَ تُجْلَى، فلو مَدَحَ مُخَنَّثًا لما زَادَ !

ونَصَّ على ما حَلَّهُ من نَظم أبي الطَّيِّب، وهو قوله[٤٠]: «ولقد تَسَاوَتِ الألسُنُ حتى حُسِدَ الأبكَمُ، وأُفسِدَ الشِّعرُ حتى أُحمدَ الصَّمَمُ»، وهو قَولُ أبي الطَّيِّب:

ولا تُبَـالِ بشِـعرٍ بَعْـدَ شَـاعِرِه ... قد أُفسِدَ القَولُ حتى أُحمِدَ الصَّمَمُ

أو ما استَرَقَهُ منه، نحو[٤١]:

وتَسـكُنُ دَارَهُـمْ وكذاكَ سـكنَى الـ ... ـحِجَارَةِ والـزُّمُـرُّدِ في الجبالِ

وهو قَولُ أبي الطَّيِّب:

ومـا أنـا مِنـهُمُ بالعَيـشِ فِيهِـمْ ... ولـكِنْ مَـعـدِنُ الـذَّهَـبِ الـرُّغَـامُ

ونَحوُ[٤٢]:

قـد ظَلَمنَـاكَ بحُسـنِ الظَّـ ... ـظَـنِّ يـا بَـعْـضَ الأنَـامِ

وهو قَولُ أبي الطَّيِّب :

وصِـرتُ أشُـكُّ فيمَـنْ أصطَفِيـه ... لِـعِـلمِـيَ أنَّـهُ بَـعـضُ الأنَـامِ

ولمَّا يَزَلْ أبو بَكرٍ مَهيبًا إلى أن رَمَاهُ بَدِيعُ الزَّمَانِ الهمَذَانيُّ بحَجَر، وبُلِيَ بمُنَاظَرَتِه ومُسَاجَلَتِه، فهبَّتْ رِيحُ البَدِيعِ الحَافِظِ، وعَلا أمرُهُ، وأخمَلَ ذِكرَ الخُوَارزميِّ الذي لَمْ يَكُن في حُسبانِه يَومًا أنَّ أحَدًا منَ الأُدَباءِ والكُتَّابِ والشُّعَرَاءِ

٣٧- اليتيمة ٣٤٤٤.

٣٨- اليتيمة ٣٤٤٤.

٣٩- اليتيمة ٣٤٤٥.

٤٠- اليتيمة ٣٨٥.

٤١- اليتيمة ٢٩٣ - ٢٩٤.

٤٢- اليتيمة ٢٩٦.

يَنبَري لمُبَارَاته، ويَجترئُ على مُجَارَاته، فانخَزَلَ انخزَالًا شديدًا، ولَمْ يَتَجرَّم الحَولُ الذي ناظَرَ فيه البَديعَ حتى خَانَهُ عُمُرُهُ، ونَفَذَ قَضَاءُ الله فيه.

وعلى الجُملَة أبو بَكر الخُوَارزميُّ عَالمٌ شَاعرٌ رَاويَةٌ غزيرُ الحفظ وَاسعُ الاطِّلاع اشتَغَلَ بالتَّدريس، فتخرَّجَ به طائفةٌ من الأعيان كأبي سَعد بن دُوْسْتَ، وأبي نصر الزُّوزَنيِّ وغيرهما. وهو نَزِقٌ ذو طَبع حَادٍّ هَجَّاءٌ لا يُمسكُ لسَانَهُ عن الصُّدُور والوُزَرَاء ووُلاة الأمر والشُّعَرَاء، فكَثُرَ خُصُومُهُ المُستَوحشُونَ منه المُتَرَبِّصُونَ به الدَّوائرَ . وقد كانَ أبو بَكر أَحَدَ مَصَادر الثَّعَالبيِّ في مَحَاسن شُعَرَاء الشَّام ومَحَاسن شُعَرَاء حَضرَة الصَّاحب بْن عَبَّاد، وقد تَكَثَّرَ أبو مَنصور من الرِّوَايَة عنهُ، وهو يُفاخرُ بأَنَّهُ أقرَأَهُ وأكتَبَهُ ما ضَنَّ به على غيره، وظَهَرَ أَنَّ الثَّعالبيَّ والخُوَارزميَّ من طبيعتَيْنِ مُتغايرتَيْنِ تَغَايُرَ المَاء والنَّار، فالأَوَّلُ رَحيبُ الصَّدر لا يَكَادُ يُغضبُ أَحَدًا من الصُّدُور والأَعيَان الذين تَقَلَّبَ في دُولهم حَسَنُ التَّأَتِّي، والثَّاني ضَيِّقُ العَطَن سَريعُ الغَضَب والعَطَب، وخُصُومُهُ بالجُملَة .

وبانَ أَنَّ إجلالَ الثَّعالبيِّ للخُوارزميِّ في مواضعَ لم يمنعهُ من نَقده حينَ زَلَّتْ قَدَمُهُ، ولم يكن مُنصفًا حين أدرَجَهُ في جملة باب غُرَر فُضَلاء خُوارزمَ، على حين أفرَدَ خَصمَهُ البديعَ ببَاب على حياله، وفَعَلَ مثلَ هذا مع أبي الفَضل الميكاليِّ، والخُوارزميُّ لا يَقِلُّ عنهما علمًا وفَضلًا، بل أين الميكاليُّ منهُ؟

المصادر

– آداب الملوك لأبي منصورٍ الثَّعَالبيِّ (ت ٤٢٩ هـ)، تحقيق جليل العطيَّة، دار الغرب الإسلاميّ ، بيروت، ط٢، ٢٠٠٥م.

– الأمثال المولَّدة لأبي بكرٍ الخُوَارزميِّ (ت ٣٨٣ هـ)، تحقيق محمد حسين الأعرجيّ، المجمَّع الثَّقافيّ، أبو ظبي، ط٢ ، ٢٠٠٣م.

– رسائل الخُوَارزميِّ، تحقيق موفّق فوزي الجبر، دار التّكوين، دمشق ، ط١، ٢٠٠٦م.

– غُرر الخصائص الواضحة وعُرر النَّقائص الفاضحة للوطواط (ت ٧١٨ هـ)، تحقيق محمد عبد الله قاسم ، دار القلم ، دمشق ، ط١، ٢٠١٨م.

– مؤلَّفات الثَّعالبيِّ المطبوعة والمخطوطة والمفقودة والمنسوبة إليه ضِلَّةً، محمد جبّار المعيبد و هلال ناجي، مركز الملك فيصل للبحوث والدّراسات الإسلاميّة ، الرِّياض، ط١، ٢٠٠٩م.

– مُعجم البُلدان لياقوت الحَمَويِّ (ت ٦٢٦ هـ)، دار صادر، بيروت، ط٢، ١٩٩٥م.

– وفيات الأعيان لابن خَلِّكان (ت ٦٨١ هـ)، تحقيق إحسان عبَّاس، دار صادر، بيروت، ١٩٧٨م.

– يتيمة الدَّهر في محاسن أهل العصر لأبي منصورٍ الثَّعالبيِّ (ت ٤٢٩ هـ) نُسختي المحقَّقة المُعَدَّة للطَّبع.

منهج ابن جِنِّي (ت ٣٩٢ هـ) في كتابه (الفَسْر)

د. إبراهيم محمد المحمود*

ابن جِنِّي

أبـو الفتح عثمان بن جِنِّـي الأزديُّ الموصليُّ النَّحْويُّ اللُّغويُّ: وُلد في الموصل عام (٣٢٠ هـ)، وتوفّي في بغداد عام (٣٩٢ هـ) في أصحّ الأقوال.

أقـام مدةً في الموصل مسقط رأسه، ثم تحـوّل إلى حلب التي حضر فيها مجالس جمعته بشاعر العربية أبي الطَّيِّب المُتَنَبِّي، فواسِط، إلى أن انتهى به المقام في بغداد.

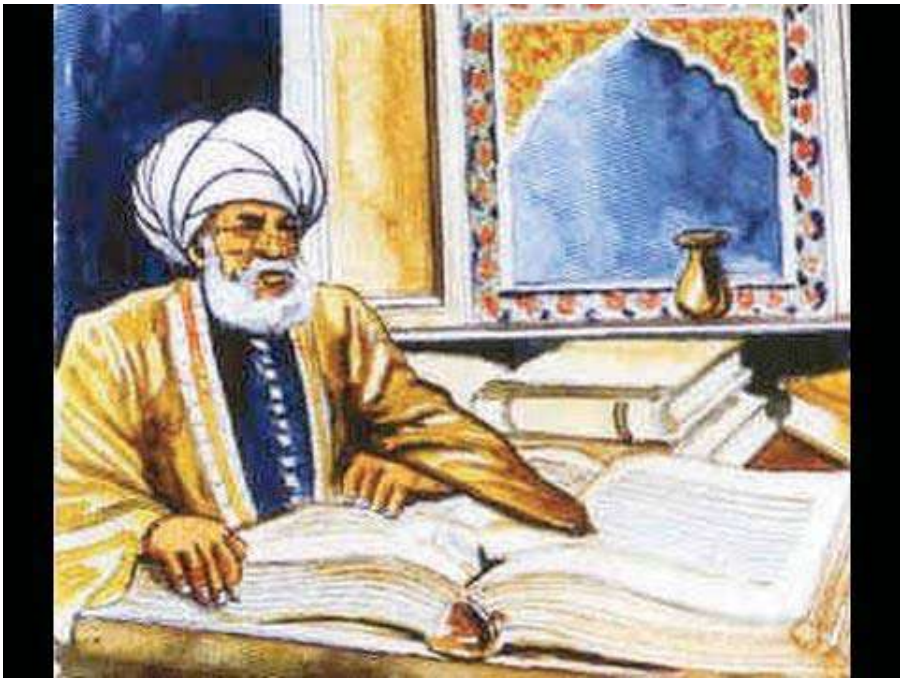

١- باحثٌ في التُّراث العربيّ وتحقيق نصوصه.

وابـن جِنِّـي كما ذكـر ياقـوتُ[١] (ت ٦٢٦ هـ) «**من أحـذق أهـل الأدب وأعلمهم بالنَّحْـو والتَّصْريف، وصنَّف في ذلك كتبًا أبزَّ بها على المتقدِّمين، وأعجزَ المتأخِّريـن، ولم يكن في شـيء من علومه أكمل منه في التَّصْريـف، ولم يتكلّـم أحـدٌ في التَّصْريـف أدقّ كلامًا منه**».

وقـال الباخَرْزيُّ[٢] (ت٤٦٧ هـ): «**ليس لأحد من أئمَّـة الأدب في فتح المُقْفَلات، وشـرح المشكلات ما له، فقـد وقع عليها من ثمرات الإعـراب، ولا سيَّما في علـم الإعراب، ومَـنْ تأمَّل مصنَّفاتـه وقفَ على بعض صفاته**».

وكان المُتَنَبِّـي يقـول في صاحبـه أبي الفتـح: «**هذا رجـلٌ لا يعرف قَـدْرَه كثيرٌ مـن الناس**[٣]». و«**ابن جِنِّي أعرفُ بشِعْري منِّي**[٤]».

تَلْمَذ ابن جِنِّي لغير عالم من علماء العربية، وقد ذكر غيرَ واحد منهم في مصنفاته لعلّ من أهمِّهم على الإطلاق أبـا عليٍّ الفارسيّ الحسن بن أحمـد بن عبد الغفَّار (ت ٣٧٧ هـ)، وقـد لازمه ابـن جِنِّي أربعين سنـة أخذ عنه علمًـا جمًّا، وروى عنه، وهـذَّب (تَذْكِرَته). قال القفطي (ت ٦٤٦ هـ)[٥]: «**صَحِبَ أبا علـيٍّ الفارسيّ، وتَبِعَه في أسفاره، وخلا به في مقامه، واستملى منه، وأَخذ عنه، ووقف أبو عليٍّ على تصانيفه واستجادها**».

من آثار ابن جِنِّي المطبوعة:

الألفـاظ المهمـوزة، وعقـود الهمـز، والتَّصريـف الملوكـي، وتفسير أبيـات معاني ديـوان المُتَنَبِّي (الفتح الوهبي على مشـكلات المُتَنَبِّي)، وتفسير أُرجوزة أبي نُواس، والتَّمـام في تفسير أشعار هُذيـل (قطعة منه)، والتَّنبيه على شـرح مشكلات الحماسة، والخاطريّات، والخصائص، وسِـرُّ صناعـة الإعـراب، والعَروض، وعقود اللُّمع، وعلل التثنية، والفَسْر، واللُّمع، والمُبْهِج في تفسـير أسمـاء شعـراء الحماسـة، والمُحْتَسَـب في تبيين وجوه شواذّ القراءات والإيضاح عنها، ومختار تذكرة أبي علـي الفارسي وتهذيبها، والمذكّر والمؤنَّث، والمقتضـب من كلام العرب في اسم المفعول من الثلاثي المعتل العين، والمُنْصِف، وغير ذلك.

الفَسْر
(شرح ابن جِنِّي الكبير ديوان المُتنبِّي)

الفَسْـر[٦]: شرح عظيم من شروح ديوان المُتنبِّي أحمد بن الحسين بن الحسن بن عبد الصمد الجُعْفِيِّ الكِنْـدِيِّ الكُـوفِيّ (ت ٣٥٤ هـ)، وسِفْـرٌ جليـلٌ اكتنز

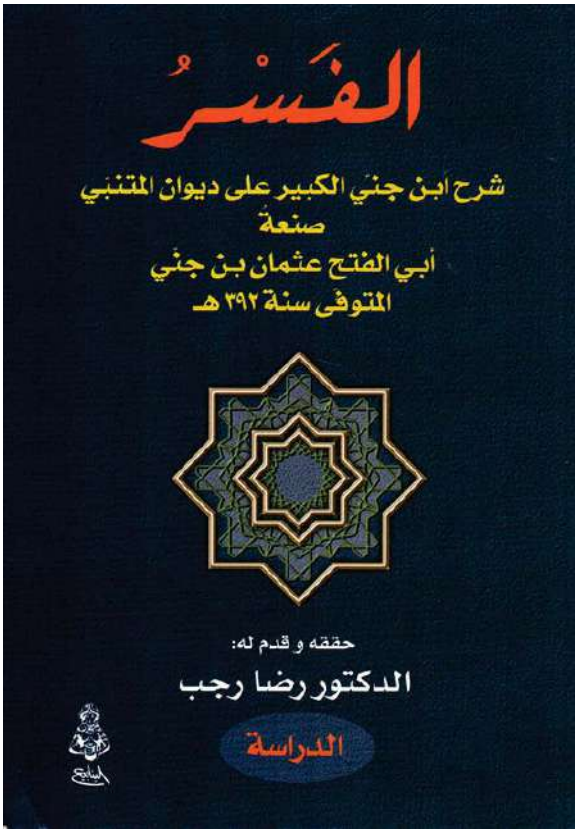

١- معجم الأدباء ٤ / ١٥٨٥.
٢- دمية القصر ٣ / ١٤٨١، وعنه في معجم الأدباء ٤ / ١٥٨٧.
٣- المصدر نفسه ٤ / ١٥٨٨.
٤- إشارة التعيين ٢٠٠.
٥- في إنباه الرواة له ٢ / ٣٣٦.

٦- حققـه د. رضـا رجـب، وطبـع في دار الينابيـع في دمشـق عام ٢٠٠٤م، وفي مقدمة محققه ترجمة ضافية لابن جِنِّي. وقد حقَّق الفسر قبل ذلك د. صفاء خلوصي، وطبع في بغداد عام ١٩٧٨م.

بعلوم العربيَّة، وشكَّل مادَّة تلقَّاها كلُّ من شرح شعر شاعر العربيَّة، فهو البذرة التي نمت في كتب من جاء بعد أبي الفتح، وتصدَّى لِشَرْح ديوان شاعر العربية أبي الطَّيِّب.

وإنَّ أهمَّ ما يميّز هذا الشَّرح من غيره قراءةُ الشَّارح الدِّيوان على الشاعر نفسه، هذا الاتصال المباشر بين الشارح والشاعر أعطى الفسر قيمة كبيرة بين الشروح الأخرى، بل إنَّ شرَّاح المُتَنَبِّي اتكؤوا على الفسر، ونهلوا منه، واتَّصلوا به اتصالًا وثيقًا، أذكر منهم: أبا العلاء المعرّي (ت ٤٤٩ هـ) في اللَّامع العزيزي، والواحدي (ت ٤٦٧ هـ) في شرحه، والتِّبريزيَّ (ت ٥٠٢ هـ) في المُوضح، وابن المستوفي (ت ٦٣٧ هـ) في النِّظام، وصاحب التِّبيان في شرح الدِّيوان (ابن عَدْلان ت ٦٦٠ هـ، أو غيره)، وغيرهم، بل إن الحركة النقديَّة التي قامت على شراح ديوان المُتَنَبِّي، ومنها كتاب «المآخذ على شُرَّاح ديوان أبي الطَّيِّب المُتَنَبِّي» لابن مَعْقِل الأزدي (ت٦٤٤هـ)= تناولت أوَّل ما تناولت شرح ابن جِنِّي (الفسر)[٧]. وأثر فَسْر ابن جِنِّي في الخالفين لا يقتصر على زمنٍ بعينه، بل إنَّه ممتدٌّ إلى يوم النَّاس هذا.

وإن مما يميز شرح ابن جِنِّي حبَّه للمتنبي وإعجابه الكبير بشعره، وقد صرّح بذلك في غير موضع من (الفسر)، وحبّر في ذلك سطورًا في مقدمته، بل في غير كتاب من كتبه، فذكر أبو الفتح في كتابه (تفسير أرجوزة أبي نواس) أنّ المُتَنَبِّي «**قريعُ دَهْره في الشِّعر، ونسيجُ وَحْده، لا يختلف اثنان ممَّن يُوثَق بفهمه ومعرفته وجَوْدة نقده الشِّعرَ؛ في رصانة لفظه، ومُخترَع كثير من معانيه. ولو تَنَاسبَ شعرُه لَلَحِقَ الصَّدرَ من المُحدَثين، وجاوَزَ كثيرًا منهم**[٨]». وقال في (المحتسب): «**ولا تَقُلْ ما يقولُه مَن ضعفَتْ نَحيزَتُه، وركَّت طريقتُه: هذا شاعرٌ مُحْدثٌ، وبالأمس كان معنا، فكيف يجوزُ أن يُحتجَّ به في كتاب الله جلَّ وعزّ؟ فإنَّ المعاني لا يرفعُها تقدُّم، ولا يُزْري بها تأخُّر**»[٩].

ومما قاله في مقدمة (الفسر): «**لم أرَ شاعرًا كانَ في معناه، ولا مُجْريًا إلى مداه، ولقد كان من الجدِّ فيما يُعانيه، ولزوم طريق أهل العلم فيما يقولُه ويحكيه؛ على أسَدٍّ وتيرة، وأحسنِ سيرة، وإنْ كان في بعض ألفاظه تعسُّفٌ عن القَصْد في صناعة الإعراب من ارتكاب شاذٍّ أو حَمْلٍ على نادر، فعن غير جهل كانَ منه، ولا قُصور عن اختيار الوجه الأعرف له**[١٠]». وقد مضى ابن جِنِّي[١١] بعد هذا الذي ذكره في مقدمته ليفرد صفحات يدافع فيها عن أبي الطَّيِّب، ويردَّ عنه ما يكيل له الناسُ من عداوات وتهم كونه متأخِّرًا مُحدَثًا، وقد تمثَّل ابن جِنِّي بما تعرَّض له كبار الشُّعراء قبل المتنبِّي.

وقد كان لهذه المحبة والتقدير، وما أولاه أبو الفتح لشاعر العربية أثرٌ بيّنٌ في منهجه في (الفسر) على ما سيأتي بيانه.

اختار ابن جِنِّي في فسره الترتيب الألفبائي[١٢] لقصائد أبي الطيب، وقد تبعه في ذلك غير شارح من شراح الديوان، منهم أبو العلاء المعريّ في (اللَّامع)، والتِّبريزيُّ في (الموضح)، وصاحب (التبيان في شرح

٧- ومن الكتب التي تناولت الفسر بالنقد كتاب قَشْر الفسر لأبي سهل الزوزني (ت ٤٣٩ هـ)، والتجنِّي على ابن جِنِّي لابن فورَّجة (ت بعد ٤٥٥ هـ)، وغير ذلك.

٨- تفسير أرجوزة أبي نواس ٤٠-٤١.

٩- المحتسب ١ / ٢٣١.

١٠- الفسر ١ / ٣.

١١- انظر: الفسر ١ / ١٠ وما بعدها.

١٢- الفسر ١ / ١٧.

الديـوان)، في حـين التزم غـيره من الشـراح الترتيب التاريخـي للقصائـد كما هو الحـال في (معجز أحمد)، وشـرح الواحدي. وقـد فصَّل أبو الفتـح في منهجه في ترتيبـه القـوافي نفسهـا مبتدئًـا بالهمـزة وضروبهـا ومخارجها، جاعلًا الأقـوى أولًا مؤخِّرًا الأضعف[١٣]، ومقدِّمًا في كل قافية القصائد التي قيلت في سيف الدولة على غيرها مما نظم في غيره[١٤].

وقد ذكر ابن جِنِّي أن غايته من تفسير شعر المتنبي «**فَسْـر معانيـه، وإيـراد الأشبـاه فيـه، وإيضـاح عَويص إعرابه، وإقامة الشَّواهد على غريبه**[١٥]». وقـد حمله هذا الذي تعهده في مقدمته على الاستفاضة في الحِجـاج عن صاحبه والتوسع في الدفاع عما ورد في شعره من ظواهر لغوية.

ومـن خصائـص (الفسر) دون غـيره من شروح شعـر المتنبـي أن قـراءة ابـن جِنِّـي الديـوان علـى صاحبه، خلافًا لما ذكره ياقوت، وما جرى بينهما من حـوارٍ ونقاشٍ أفضـى إلى مسائل مهمَّـة؛ كان له أثر بـيّن في منهـج أبي الفتح؛ إذ قـال[١٦]: «**وأذكر ما كان شَجَـرَ بينـي وبينه وقت قراءتـي ديوانَه عليه إلى سـوى ذلـك ممَّا أُحضِـره من تلخيـص وإيضاح، وشاهـد ونظـير يكونـان سببًـا للإفصـاح، وأَزُمُّ شـاردَ لفظه، وأميّـز ما تداخل لقـوَّة الصَّنعة من بعضـه في بعضـه، وأشـرح جميعَ مـا يلتبس من شعـره، وأقرُّ كُلًّا بإذن الله في مقرِّه، ولا أدع مُشكِلًا من إعرابه إلاَّ فسَّرته، ولا معنًى من دقيق معانيه إلَّا أثرته، ليكون هذا الكتاب قائمًا بنفسه ومتقدِّمًا في جنسه**».

ولعـلَّ جانبًـا كبـيرًا مـن أثـر المتنبِّي في فسـر أبي الفتـح يظهر مـن خـلال المناقشات التـي كانت تجري بينهما ومـا يتَّفقان عليه من وجوه إنشاد غير قليل من أبيـات أبي الطَّيِّـب. وأمثلة ذلك كثـيرة، منها: مناقشة ابـن جِنِّـي المتنبّـي في استعمالـه «ذا» و«ذي» في شعره كثـيرًا[١٧]، ومناقشتـه في «ذِهْيُـوط» و«هذَيَـوْط»[١٨]، وكذلـك توافقهما على غـير روايةٍ من روايـات أبياته، ومن ذلك رواية «تفدِّي» بالتاء في قول أبي الطَّيِّب يمدح سيفَ الدَّولة[١٩]:

تُفَدِّي أَتَمُّ الطَّيْرِ عُمْرًا سلَاحَهُ
نُسُورُ المَلَا أَحْدَاثُها وَالقَشَاعِمُ

و«تُفَـدِّي» بالتـاء، وفاعلـه «أتمُّ» أراد بذلك جماعة النُّسـور، ولذا أنَّث الفعل حملًا علـى المعنى، وتقديره: تفـدّي النسـورُ سلاحَه. قال ابـن جِنِّـي[٢٠]: «**إلى هذا كان يذهـب، وعليـه توافقنـا وقت القـراءة**». وقد ذكـر التِّبريزي في (الموضـح) أنَّ «أتمّ» تقع على القليل والكثـير، ولـذا حسُن تأنيـث «تفدِّي». علـى أن رواية التذكـير في البيـت أشـهـر، حتى إنَّ صاحـب (المعجز) ذكـر أنَّ الأظهـر في العربيَّة «يفدِّي» بالياء؛ لأنَّ فاعله «أتمُّ»، وهو مذكَّر. والكلامُ محمولٌ على الظَّاهر.

وإذا ما قلَّبت الفسر فإنك واجدٌ كثيرًا من المناقشات التي جرت بـين الرجلَين، ممَّا كان له أثر عظيم في منهج ابـن جنِّي في توجيه الأبيـات على نحوٍ مبنيٍّ على سلامة المعـاني، فكثيرًا ما تقـف على قول له من مثـل: «**سألته**

١٣- الفسر ١ / ١٩-٢٠.
١٤- الفسر ١ / ١٧.
١٥- الفسر ١ / ٣-٤.
١٦- الفسر ١ / ١٧-١٨.

١٧- انظر الفسر ٣ / ٢٠.
١٨- الفسـر ١ / ١٦٦. وذِهْيُـوط: اسـم مـكان. انظـر: معجـم ما استعجم ٦١٨، ومعجم البلدان ٣ / ٩.
١٩- ديوانـه ٣٧٥. والبيت في: اللامـع ١١٧٤، والمعجز ٣ / ٤٢١، والموضـح ٥ / ١٠، والتبيـان ٣ / ٣٧٩، مرويًّـا بالياء، ووافـق ابـن الإفليلـي في شرحه ديوان المتنبـي ٢ / ٢٤٦ رواية ابن جِنِّي. والمقصود بأحداث النُّسور والقَشاعم: أصاغرُها وأكابرُها.
٢٠- الفسر ٣ / ٣٩٣.

وقت القراءة عن معنى هذا البيت[٢١]»، ولا يخفى أن لفهم المعنى وسلامته أهمية عظيمة في التَّوْجيه النَّحْويّ.

ولعلَّ من المهم هنا الإشارة إلى إنشاد المتنبِّي البيت على غير وجه، كأن تأتي كلمة تحتمل الرَّفع والنَّصب، وهـذا الأمر كان ابن جِنِّي يتلقَّاه غالبًا بالقبول، فيوجّه ما يُنشـد على ما تقتضيه قواعـد الصناعة، ومن شأن ذلـك أن يعـدِّد الوجوه ويستدعي النظائـر، وهذه سمة ظاهـرة في منهـج ابن جني في (الفسـر). فممَّا جاء من ذلك توجيهه[٢٢] قول أبي الطيب[٢٣]:

نُورٌ تَظَاهَرَ فِيكَ لَاهُوتِيَّةٌ
فَتَكَادُ تَعْلَمُ عِلْمَ مَا لَنْ يُعْلَما

فقد كان أبو الطيب ينشده بنصب «لاهوتية» ورفعه، فالنصب على أنَّه مصدر أو حال من الضمير، وأنكر الواحدي ما ذهب إليه أبو الفتح[٢٤]، وعدَّ ذلك خطأً في الرِّواية واللَّفظ؛ لأن النور لفظ مذكر ولا تؤنَّث صفتُه. والرفع على أنه فاعل «تَظَاهَر». وذكر أبو العلاء في (اللامع) وعنه التِّبريزي في (الموضح) في أوجه النصب: التمييز.

وقد دفعته هذه الكلمة التـي استعملها أبو الطَّيِّب، وهـو صاحـب استعمـالات؛ إلى تأصيلهـا، مـع أنَّه لم يعرفهـا في كلام العـرب علـى درايتـه بكلامهـم وعلـوّ كعبـه في هذا الباب. وقـد افترض افتراضًـا، إن كانت عربيَّة[٢٥]، أن تشتقّ من «لاه»، ثم لحقته الألف واللام، وصار عَلَمًا لله عزّ وجلّ[٢٦].

٢١- انظر الفسر ٢ / ٦٦٣.

٢٢- انظر: الفسر ٣ / ٤٤٣، وعنه بحروفه في الموضح ٥ / ٧٣.

٢٣- ديوانـه ٩. والبيـت في: اللامـع ١٣٠٨، والمعجـز ١ / ٥١، والواحدي ٢٠، والموضح ٥ / ٧٣، والتبيان ٤ / ٣١.

٢٤- في شرحه ديوان المتنبي، وعنه في التبيان.

٢٥- ذُكـر في التبيـان أن اللاهـوت لفظ عـبراني، ويعنـون به الله، وكذلك الناسوت يعنون به الناس.

٢٦- انظر: اللسان (لـوه). وذكره الزَّبيدي في التاج (لهت)، وهو ممَّا استُدرك بناء على ادِّعاء بعضهم أصالة التَّاء. قال: وفيه نظر.

وقـد لا يكتفي ابـن جِنِّي بالرِّوايـة التي جاءت على لسـان صاحبـه، بـل إنَّه أجـاز في مواضـع وجهًا غير الَّذي أنشده أبو الطَّيِّب، كتوجيه قوله يخاطب كافورًا الإخشيديّ[٢٧]:

لَوِ الفَلَكُ الدَّوَّارُ أَبْغَضْتَ سَعْيَهُ
لَعَـوَّقَهُ شَـيْءٌ عَـنِ الدَّوَرَانِ

قال ابـن جِنِّـي[٢٨]: «**كذا قرأتـه عليـه؛ «الفَلَكُ» بالرَّفع، والوجْهُ النَّصْب؛ لأنَّ «لو» تقتضي الفعلَ، فيجـب أن تُضْمِرَ له فعلًا تنصبه به، ويكون الفعل الـذي نصب (سعـي) المضـافَ إلى ضميره – وهو «أَبْغَضْتَ»– تفسيرًا للمضمر، كما تقول: لو أخاك أكرمتَ غلامَه لجازاك عنه، وقد يجوز فيه الرَّفْعُ لا بالابتداء، ولكنْ تُضْمِرُ له فعلًا يرفعه في معنى بهذا الظَّاهر، ويكون الظَّاهرُ تفسيرًا له ودليلًا عليه، كما يُروى بيت ذي الرُّمَّة**[٢٩]:

إِذَا ابْنُ أَبِي مُوْسَى بِلَالٌ بَلَغْتَه
فَقَامَ بِفَأْسٍ بَيْنَ وُصْلَيْكِ جَازِرُ

كأنَّه قـال: إذا بُلِغَ ابنُ أَبي موسى، ثُمَّ فسَّره بـ «بَلَغْتَه»، والوجه النَّصب، وتقديرُ الفعل النَّاصب للفَلَـك، كأنَّه قـال: لو كَرِهْـتَ الفَلَـكَ، أو نحو ذلك؛ لأنَّك قد تقول: أنا أكره زيدًا، وأنت تعني فِعْلَه».

وقـد ذكـر التِّبريـزي في (الموضـح) أن اختيـار النَّحويـين النصـبُ، وليـس الرَّفع بخطـأ. ويجوز أن يُضمَـر للفلك فعلُ ما لم يُسـمّ فاعله، ويفسِّره ما بعده.

٢٧- ديوانـه ٤٧٤. والبيت في: اللامـع ١٤٢٥، والمعجز ٤ / ١٣٣، والموضح ٥ / ٣٨٨، والتبيان ٤ / ٢٤٧.

٢٨- الفسـر ٢ / ٧٢٣-٧٢٤، وعنه في: الموضح بحروفه، والتبيان باختصار مواضع منه.

٢٩- ديوانه ١٠٤٢. والبيت في: الكتاب ١ / ٨٢، وكتاب الشِّعر ٤٩١ ومصادر محققه، والخصائص ٢ / ٣٨٠، والفسر ١ / ٢٦١، ٣ / ٢٤١، وأمـالي ابن الشجري ١ / ٤٩، وغيرها كثير. والوِصْل بالكَسْر والضَّمِّ: مُلْتَقَى كلِّ عَظْمَيْن.

وقد روي بيت ذي الرُّمَّة: «ابنَ أبي موسى بلالًا»، بالنصب. والنَّصب والرَّفع بعد إن وإذا الشَّرطيتين من المسائل الخلافيَّة بين المدرستين، وممن بسط ذلك صاحب (التِّبيان) بعد نقله كلام أبي الفتح دون عزو.

وأمَّا تقدير أبي الفتح **إذا بُلِغ ابنُ**.. فضعَّفه ابن إيَاز[٣٠] من حيث القياس؛ لأنَّه أضمر ما يرفع، وفسَّره بما ينصب، وحقُّ المفسِّر أن يكون مجانسًا لما فسَّره.

ومن أمثلة اعتداد ابن جِنِّي برأي المتنبي وأثر ذلك في منهج الفسر خاصة الخبر الذي أورده ابن جِنِّي[٣١]؛ إذ قال: «**وممَّا استدللْتُ به على حصافة لفظه، وصحَّة صنعته، ودقَّة فكره= أنَّني سألتُه يومًا عن قوله**[٣٢]:

وَقَدْ عَادَتِ الأَجْفَانُ قَرْحًا مِنَ البُكَا
وَعَادَ بَهَارًا فِي الخُدُودِ الشَّقَائِقُ

فقلت: «أَقَرحى» ممالٌ أم «قَرْحًا» مُنَوَّنٌ، جمعُ قَرْحة؟ فقال: قَرحًا مُنوَّن، ثمّ قال: ألا ترى أنَّ بعده:

... ...

وَعَادَ بَهَارًا فِي الخُدُودِ الشَّقَائِقُ

يقول: كما أنَّ بهارًا جمع بهارة، وإنَّما بينهما الهاء، فكذلك «قَرْحًا» جمعُ قَرحة، وإنَّما بينهما الهاء؛ يوفِّق بذلك بين أجزاء الكلام، فليت شعري هل يصدر ذلك عن فكرٍ مدخولٍ أو رويَّةٍ مشتركة؟ وإنَّني لأعجب ممَّن يجهل فضلَه أو يستجيز تجاهلَه، وهو الذي يقول[٣٣]:

إِذَا كَانَ شَمُّ الرَّوْحِ أَدْنَى إِلَيْكُمُ
فَلَا بَرِحَتْنِي رَوْضَةٌ وَقَبُولُ

فأيُّ مُحْدَثٍ يتعالى لفظُه في عذوبة إلى أن يقول: «فلا برحتني»؟ وهل هذه الفصاحة والطَّلاقة إلَّا نورٌ من عند الله عزَّ وجلَّ استودعَهُ قلبَهُ؟ وما تُرى يكون أحسن من قوله في سيفِ الدَّولةِ رضي الله عنه[٣٤]:

نَهَبْتَ مِنَ الأَعْمَارِ مَا لَوْ حَوَيْتَهُ
لَهُنِّئْتَ الدُّنْيَا بِأَنَّكَ خَالِدُ

فهذا هو المدح الموجَّه، لأنَّه كرَّ آخرَه على أوَّله بقوله: لهنِّئت الدُّنيا».

فقارئ هذا النَّصِّ الَّذي أثبته ابن جِنِّي في مُفتتَح (الفسر) يلمح إعجاب أبي الفتح بأبي الطَّيِّب وإجلاله مكانتَه، ولولا ذلك ما تصدَّى لتأليف هذا الشَّرح، وخصّ شعر هذا الشَّاعر كاملًا كما خصَّ أرجوزة أبي نواس، وكذلك شعر هُذيل، فضلًا عن جهده العظيم في (التَّنْبيه على شرح مشكلات الحماسة).

وقد تضمن منهج ابن جِنِّي في (الفسر) الدِّفاع عن المتنبي ليس في مسائل العربية فحسب، بل إن مُنافحته عن صاحبه شملت جوانب متعددة، كنفي السرقة والإلحاد وغير ذلك مما رُمِيَ به شاعر العربية.

ومن سمات منهج ابن جِنِّي في (الفسر) أنه لم يتناول شرح أبيات أبي الطيب بيتًا بيتًا، بل إنه تجاوز الأبيات المفهومة التي لا تحتاج إلى كثير عناء في فهمها والوقوف على مرادها، سواء أكان ذلك في باب المعاني أم كان في باب الصناعة والإعراب. وقد نص في مقدمته على هذا النَّهج الذي أراده؛ إذ قال[٣٥]: «**وأشرح**

٣٠- في قواعد المطارحة له ٣٩٠.

٣١- الفسر ١ / ٦-٨، وعنه ملخَّصًا في الموضح ٣ / ٤٥٦-٤٥٧.

٣٢- ديوانه ٦٨. والبيت في: اللامع ٨٣٨، والموضح ٣ / ٤٥٦، والتبيان ٢ / ٣٤٢، والمآخذ ١ / ١٣. والبَهار: زهر أصفر. وقد رأى ابن معقل في (المآخذ) أنَّ المتنبي أراد بالتنوين المبالغة في المعنى، أو تحسين الألفاظ؛ لأنَّ ذلك أحسن في الذّوق، وأعذب في السَّمع.

٣٣- ديوانه ٣٤٧. والبيت في: اللامع ٩٣٩، والموضح ٤ / ١٦٩، والتبيان ٣ / ٩٦، والمآخذ ١ / ١٤.

٣٤- ديوانه ٣١٤. والبيت في: الموضح ٢ / ٩٣، والتبيان ١ / ٢٧٧، وأمالي ابن الشجري ٣ / ١٣٦، ٢٣٩.

٣٥- الفسر ١ / ١٨.

جميعَ ما يلتبسُ من شعره، وأقرُّ كُلًّا بإذن الله في مقرِّه، ولا أدعُ مُشكلًا من إعرابه إلّا فسَّرتُه، ولا مَعْدِنًا من دقيق معانيه إلّا أثرتُه». ففي قصيدته التي رثى بها والدة سيف الدولة على سبيل المثال أورد الأبيات من التاسع إلى الخامس عشر[٣٦] غُفلًا من أي شرح، والأمثلة لهذه السمة كثيرة جدًّا.

ومن السمات البارزة لمنهج ابن جِنّي في (الفسر) أيضًا أن العقلية النحوية اللغوية غلبت على أسلوب الرجل، وهو من هو في باب العربية، وقد بدا ذلك جليًّا في كثير من مواضع الكتاب؛ إذا أطلق ابن جِنّي العنان لتوجيهاته التي سخرها للدفاع عن ظواهر وردت في شعر صاحبه، وحشد لها الحشود من الوجوه والنظائر والشواهد مما جعل غيره ممّن جاء بعده يرى في ذلك مطعنًا على أبي الفتح أو غمزًا من قناته؛ إذ إن أثر قريحته اللغوية التي عُرف بها لم تبرحه في مواطن كثيرة. وقد حمل ذلك غير واحد ممن اعتنى بشعر المتنبي على نقد شرح ابن جِنّي، كأبي الفضل العروضي (ت بعد ٤١٦ هـ)، وابن فورجة (ت بعد ٤٥٥ هـ) في كتابيه: (الفتح على أبي الفتح) و(التجني على ابن جِنّي). وقد نقل الواحدي (ت ٤٦٨ هـ) في شرحه كلام الرجلين مقرونًا بكلام ابن جِنّي، مقدِّمًا لقول أبي الفتح على قولي العروضي وابن فورجة في أكثر المواضع.

هذا وقد صرّح الواحدي في غير موضع من شرحه بأن ابن جِنّي لم يفهم معنى بيت أبي الطيّب[٣٧]. وقد ذكر في مقدمة شرحه[٣٨] أن ابنَ جِنّي «**مِنَ الكِبارِ في صَنْعَةِ الإعراب والتَّصريف، والمُحْسِنينَ في كلٍّ واحدٍ منهما بالتَّصْنيف؛ غيرَ أنَّهُ إذا تكلَّم في المَعَاني تبلَّدَ حمارُه، ولجَّ به عثارُه، ولقد استُهدف في كتاب (الفَسْر) غَرَضاً للمَطَاعن، ونُهْزَةً للغامز والطَّاعن؛ إذْ حَشَاهُ بالشَّواهد الكَثيرة التي لا حاجةَ لهُ إليها في ذلك الكتاب، والمسائلِ الدقيقة المُسْتغنَى عنها في صَنْعَةِ الإعراب، ومن حقِّ المصنَّفِ أنْ يكونَ كلامُهُ مقصورًا على المقصودِ بكتابه، وما يتعلَّقُ به من أسبابه، غيرَ عادلٍ إلى ما لا يُحتاجُ إليه، ولا يُعرَّجُ عليه. ثم إذا انتهى به الكلامُ إلى بيانِ المعاني عادَ طويلُ كلامه قصيرًا، وأَتَى بالمُحالِ هُرَاءً وتقصيرًا**». ولا يخلو كلام الواحدي من تجنٍّ ومُغالاة في حق أبي الفتح.

ومن أمثلة تأثر ابن جني بالعقلية النحوية في (الفسر) أنه حَدَّ الفعل المضارع في أثناء تعليقه على بيت المتنبِّي[٣٩]:

إِذَا كَانَ مَا تَنْوِيْه فِعْلاً مُضَارِعًا
مَضَى قَبْلَ أَنْ تُلْقَى عَلَيْهِ الجَوازِمُ

قال أبو الفتح[٤٠]: «**المضارعُ: ما كان في أوَّله إحدى الزَّوائد الأربع، مثل: أَقُومُ وتَقومُ ونَقومُ ويقومُ. يقول: إذا نَوى فعلًا أوقعه قبل فَوْته أَنْ يقالَ: لم يَقُمْ، فيدخلُ في حيِّز ما لم يُفْعَلْ. ولفظُ المضارع يصلح للزَّمانَيْن: الحال والاستقبال، وإنَّما أراد هنا الاستقبال حتَّى يصحَّ المعنى؛ ألا ترى أنَّ الفعل الحاضر لا يجوز أَنْ يُنوَى به، ولا أَنْ يُؤْمرَ به، ولا يُنهى عنه**». وإذا تتبع المرء مسائل العربية في (الفَسْر) خرج بسِفْر جليل غنيّ بالفوائد والنُّكت التي قد لا يقع عليها في مظانّها.

٣٦- الفسر ٢ / ٦٧٠.

٣٧- انظر على سبيل المثال لا الحصر: شرح الواحدي ٦٣٧، ٦٧٨، ٦٩٧، ٧٠٦، ٧٢٢، وغير ذلك كثير.

٣٨- شرح الواحدي ٤.

٣٩- ديوانه ٣٧٦. والبيت في: اللامع ١١٧٦، والمعجز ٣ / ٤٢٤، والموضح ٥ / ١٢، والتِّبيان ٣ / ٣٨٢.

٤٠- الفسر ٣ / ٣٩٥.

وقد اشتمل حِجَاج أبي الفتح في توجيه نصوص (الفسر) على أدلَّة وبراهين مستندة إلى ما بناه أسلافه من أئمة العربية بطريق السَّماع، فاحتجَّ بآيات القرآن الكريم وقراءاتها، ووسَّع دائرة الاحتجاج بالحديث النَّبوي الشَّريف في مسائل العربيَّة، واستدلّ بما اطَّرد في كلام العرب: شعرهم ونثرهم، حتى لو خالف ذلك المسموعُ القياسَ. أمَّا شعرهم فكان ضمن دائرة الاحتجاج إلَّا فيما ندر، وأمَّا نثرهم فاحتجَّ بلهجاتهم واختار أفصحها، فضلًا عن احتجاجه بأمثالهم وما اشتُهر من أقوال فصحائهم.

ولست هنا في معرض التمثيل لأدلة السماع التي اشتمل عليها الفسر؛ لأن ذلك سيطول، إلا أنني سأخص احتجاج ابن جِنِّي بالحديث النَّبويّ الشَّريف؛ لأن أبا الفتح كان ممن وسَّع دائرة الاحتجاج بالحديث حين ضيَّقها كثير من النُّحاة ولا سيَّما المتأخرين منهم كابن الضَّائع وأبي حيَّان.

وقد استشهد ابن جِنِّي بتسعة وأربعين حديثًا في (الفسر)[٤١] جلُّها لمسائل لُغويّة ونحويَّة وصرفيَّة. ولعلي أكتفي بمثالين لذلك، أما المثال الأول فقد ورد في شعر أبي الطَّيِّب المُتنبِّي استعمال لفظ «بُحَيْرة» مصغَّر بحر في قوله يمدح عليّ بن إبراهيم التَّنُوخيّ[٤٢]:

لَوْلَاكَ لَمْ أَتْرُكِ البُحَيْرَةَ وَالـ
ـغَوْرُ دَفِيءٌ وَمَاؤُهُ شَبِمُ

وهو شيءٌ وقع في كلام العامَّة، وليس من الفصيح؛ إذ البحرُ مذكَّر، واستدل ابن جِنِّي[٤٣]، وقد تلطَّف في توجيه ما اتَّفق لصاحبه؛ بأنَّ «**البُحَيْرة قد لَزِمَ هذا الموضع، فوجبَ اتِّباعه؛ لأنَّه صار عَلَمًا، وفي الحديث: (وَغَاضَتْ بُحَيْرَةُ سَاوَةَ)[٤٤]، يجوز أن يكونوا أرادوا الجُمَّةَ وكثرةَ الماء، فأنَّثوا لذلك، والوجه ما بدأت به**».

فقد استجازوا تصغير بُحَيْرَة سَاوَة؛ لأنَّها عَلَم، وهم يتسمَّحون في الأعلام ويجترئون على مخالفة القياس فيها، نحو العبَّاس، فهو معرَّف بالعَلَميَّة، ولا وجه لدخول «ال» عليه، ولكنَّهم أجازوه؛ لأنَّهم يغتفرون في الأعلام ما لا يغتفرون في غيرها.

على أنَّ «بُحَيْرة» في (معجم البلدان)[٤٥] ليس تصغير «بَحْر»، لأنّ تصغيره «بُحَيْر»، ولكنَّهم أرادوا بالتَّصغير حقيقة الصّغر، ثم ألحقوا به التَّأنيث على معنى أنَّ المؤنث أقلُّ قدرًا من المذكَّر. أو شبَّهوه بالمتَّسع من الأرض. والبَحْرة: المتَّسع من الأرض والبلدة.

وأما المثال الثاني لاحتجاج أبي الفتح بالحديث النبوي الشريف؛ فهو تأنيث المُلْك المراد به السُّلطان في قول المُتنبِّي[٤٦]:

وَأَرْدِيَةٌ خُضْرٌ وَمُلْكٌ مُطاعَةٌ
وَمَرْكُوزَةٌ سُمْرٌ وَمُقرَبَةٌ جُرْدُ

فقد ذكرَ أبو الفتح[٤٧] تأنيث «السُّلطان» عن المبرّد[٤٨]؛ فجعله جمع «سَليط» كما تقول: هذه رُغْفان، ومثّل بحديث النَّبيِّ عليه الصَّلاة والسَّلام: (**مَا كَانَتْ**

٤١- فهرس الحديث في الفسر ٥ / ٣٤٣-٣٤٥.

٤٢- ديوانه ٧٨. والبيت في: اللامع ١٢٣٦، والمعجز ١ / ٣٣٥، والتبيان ٤ / ٦٦. البُحيرة: بحيرة طبرية. الغَوْر: موضع بالشام. شَبِم: بارد. عن التبيان. ورواية البيت في المصادر السالفة: «وماؤُها».

٤٣- الفسر ٣ / ٤٩٥.

٤٤- الحديث في: النهاية ٣ / ٧٥٥. وسَاوَة: مدينة حسنة بين الرَّيّ وهَمَذان. انظر: معجم البلدان ٣ / ١٧٩.

٤٥- في معجم البلدان ١ / ١٣٠. وانظر: التبيان ٤ / ٦٦.

٤٦- ديوانه ١٨٧. والبيت في: اللامع ٣٦٠، والمعجز ٢ / ٣٦١، والواحدي ٣٠٢، والموضح ٢ / ٢٤٣، والتبيان ١ / ٣٨٢. وفي اللامع والواحدي والموضح: أنَّه أراد بالملك المَلْكة. المركوزة: الرماح. المقربة: الخيل المُدْناة من البيوت. وذكر أبو العلاء في (اللامع) أنه أراد بالأردية الخضر: السيوف.

٤٧- الفسر ١ / ١٠١٠.

٤٨- انظر: البلغة ٨٣.

نُبُوّةٌ إِلَّا تَنَاسَخَتْهَا مُلْكُ جَبْرِيّةٍ)[٤٩] دليلاً على تأنيث الملك، أي: تجبّرت الملوك فيما بعد.

هذا، ولم يذكر الحديث بهذا اللفظ أحدٌ إلّا ابن جنّي فيما وقفت عليه. على أنَّه ذكر في كتابه (المذكّر والمؤنّث) أنّ السُّلطان من المؤنث الّذي لا يجوز تذكيرُه[٥٠]، وفي موضع آخر من الكتاب نفسه أجاز تذكيره وتأنيثه[٥١]. وهو كما قال. إلّا أنَّ التَّذكير أفصحُ وأكثرُ، وقد ذكر الفرّاء[٥٢] أنَّ العرب تقول: قضت به عليك السُّلطانُ، وقد أخذت فلاناً السُّلطانُ. وقال أبو حاتم[٥٣]: سمعت مَن أثق به يقول: أتيت سلطانًا جائرةً. وأمَّا في القرآن فمذكّر كلُّه.

ومن خصائص منهج ابن جني في (الفسر) أنه كان يشرح الألفاظ الغريبة. وفي تفسيره للألفاظ كان يكثر من نقول أهل اللغة، كأبي زيد وثعلب وابن الأعرابي والأصمعي وغيرهم كثير، ويشقق معاني الكلمات، ويستولدها من جذورها مع تحرّي الضبط، ويذكر مفرد الكلمات إن كانت مجموعة، وجمعها إن كانت مفردة، وغير ذلك مما يستعين به في تبيين كلام صاحبه وتأصيل مفرداته. فأمَّا ما احتجَّ به لذلك من منثور كلام العرب فكان مصدره لهجاتهم وما اشتهر من أقوالهم وأمثالهم، وما يميِّز أبا الفتح من غيره في هذا الباب اتِّصاله ببعض الأعراب ممّن يوثق بعربيَّتهم، فضلاً عن علمه ودرايته أحوال هذه اللُّغة الشَّريفة.

ويحشد ابن جني كذلك في سياق تأصيله وتوجيهه لظواهر العربية في توجيه أبيات أبي الطيب؛ الأشعار والأرجاز، بل إنه يشير أحيانًا إلى روايات أخرى للشاهد. فكان (الفسر) ميدانًا رحبًا للاستشهاد بأبيات الشِّعر العربيّ، وقد شكّل شعر عصر الاحتجاج مادة ثرَّة في هذا الباب، ولم يمنع ذلك ابن جنّي في بعض المواضع أن ينظر إلى شعر الطَّائيّين أبي تمَّام والبحتريّ، وبعض المولَّدين ممَّن لا يحتجّ بشعرهم في مسائل العربيَّة.

ومن أمثلة حشد ابن جنّي للشواهد الشعرية في (الفسر) ما أورده حجاجًا لقول أبي الطَّيِّب من قصيدة يمدح بها طاهر بن الحسين[٥٤]:

حَمَلْتُ إِلَيْهِ مِنْ لِسَانِي حَدِيقَةً
سَقَاهَا الحِجَا سَقْيَ الرِّيَاضَ السَّحَائِبِ

حيث فصل بين المضاف «سَقْي»، والمضاف إليه «السَّحائب»؛ بالمفعول الذي هو «الرِّياض»؛ إذ أنشد ابن جنّي سبعة شواهد لهذه الظَّاهرة[٥٥] جُلّها من كتاب سيبويه. وهذه الشواهد تؤكِّد أنَّ المتنبي جارٍ على عرقٍ له في هذا الفصل[٥٦]، وإن كان ضرورة يلُزُّ إليها ضيقُ المقام. وليس حشد الشواهد الشعرية مقصورًا على القضايا النحوية، بل إن ذلك يشمل فنون العربية لغة وإعرابًا ومعانيَ وبلاغةً...

هذه جملة مختصرة من خصائص منهج ابن جني في (الفسر) لخَّصَتْ أشياءَ مما تميّز به هذا

٤٩- لم أجده بهذا اللفظ، وهو بمعناه في: سنن الدارمي ٢ / ١٥٥، برقم (٢١٠١). وروايته في مصنف ابن أبي شيبة ١٩ / ٢٤٩، برقم (٣٥٩٤١): (وإنَّه واللهِ ما كانتْ نبوَّةٌ إلَّا تناسخَتْ حتَّى تكون ملكاً وجَبْريَّة).

٥٠- المذكر والمؤنث له ٤٥.

٥١- المصدر نفسه ٧٢.

٥٢- في المذكر والمؤنث له ٧٤. وفي: المذكر والمؤنث لابن التستري ٥١، ٨٣، والبلغة ٨٢؛ أنَّ التذكير في السلطان أعلى.

٥٣- في المذكر والمؤنث له (تحقيق الضامن) ٢٣٤.

٥٤- ديوانه ٢١٢. والبيت في: اللامع ١٦٢، والموضح ١ / ٣٧٣، والتبيان ١ / ١٥٨، والمآخذ ١ / ٣٨. الحِجَا: العَقْل.

٥٥- الفسر ١ / ٥٢٧-٥٢٩.

٥٦- نقل أبو حيّان الأندلسي في الارتشاف ١٨٤٦ أنَّ الكوفيين أجازوا الفصل بين المضاف والمضاف إليه بغير الظرف وحرف الجر؛ في الشعر، وفي الكلام. وقد سلك المُتَنَبِّي هذه الطريقة.

السِّفْر الجليل ولم توفِّه حقَّه، وإن على رأس خصائل هذا الكتاب أنه الأصل الذي دار في فلكه جُلُّ الشروح التي جاءت بعده، ووزّعتْ مادَّتَه بين صفحاتها، وأن مؤلِّفه عَلَمٌ من أعلام العربية وفارسٌ من فرسانها المجَلِّين، وقد قدّم علمَه الجمّ في شرح شعر صاحبه أبي الطيّب، فحاورَه وناقشَه وناظرَه، واحتجَّ له، وفَسَرَ معاني أبياته، فقدّم للعربية والمشتغلين فيها موسوعةً ما يزال أهل هذه اللُّغة الشريفة اللطيفة ينهلون من مَعِينها إلى يوم الناس هذا.

فهرس المصادر والمراجع

١. **ارتشاف الضَّرَب من لسان العرب** لأبي حيّان الأندلسي، تحقيق د. رجب عثمان محمّد، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط١، ١٩٩٨م.

٢. **إشارة التعيين في تراجم النحاة واللغويين** لعبد الباقي اليماني، تحقيق د. عبد المجيد دياب، مركز الملك فيصل للبحوث والدِّراسات الإسلامية، الرياض، ط١، ١٩٨٦م.

٣. **أمالي ابن الشجري**، تحقيق د. محمود محمد الطّناحي، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط١، ١٩٩٢م.

٤. **إنباه الرواة على أنباه النُّحاة** للقفطي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصريّة (مصوّرة عن دار الفكر العربي، القاهرة، ط١، ١٩٨٦م)، بيروت، ٢٠٠٩م.

٥. **البُلْغة في الفرق بين المذكر والمؤنث** لأبي البركات بن الأنباري، تحقيق د. رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٩٦م.

٦. **تاج العروس من جواهر القاموس** للزَّبيدي، طبعة الكويت، ١٩٦٥م – ٢٠٠١م.

٧. **التِّبيان في شرح الديوان** المنسوب لأبي البقاء العكبري، تحقيق مصطفى السَّقّا وصاحبَيْه، دار المعرفة، بيروت.

٨. **تفسير أرجوزة أبي نواس في تقريظ الفضل بن الربيع** لابن جِنّي، تحقيق محمد بهجة الأثري، مجمع اللغة العربية، دمشق، ط٢، ١٩٧٩م.

٩. **الخصائص** لابن جِنّي، تحقيق محمد علي النجار، دار الكتب المصريّة، ١٩٥٢م.

١٠. **دُمْية القَصْر وعُصْرة أهل النَّصر** للباخَرزيّ، تحقيق د. محمد ألتونجي، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٩٩٣م.

١١. **ديوان ذي الرّمّة**، تحقيق د. عبد القدوس أبو صالح، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق، ١٩٧٢م.

١٢. **ديوان أبي الطَّيِّب المُتَنَبِّي**، تحقيق د. عبد الوهاب عزّام، لجنة التأليف والترجمة والنشر.

١٣. **ديوان أبي الطَّيِّب المُتَنَبِّي بشرح الواحدي**، تصحيح فريدرك ديتريصي، نشرة برلين، ١٨٦١م.

١٤. **سنن الدّارمي**، تحقيق فؤاد أحمد زمرلي، وخالد السبع العلمي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٤٠٧هـ.

١٥. **شرح ديوان أبي الطَّيِّب المُتَنَبِّي (معجز أحمد)** لأبي العلاء المعري، تحقيق د. عبد المجيد دياب، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٦م.

١٦. **شرح شعر المتنبي لابن الإفليلي**، تحقيق د. مصطفى عليّان، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٩٩٢م.

١٧. **الفسر** لابن جِنّي، تحقيق د. رضا رجب، دار الينابيع، دمشق، ط١، ٢٠٠٤م.

١٨. **قواعد المطارحة** لابن إياز البغدادي، تحقيق د. عبد الله بن عمر الحاج إبراهيم، مكتبة العبيكان، الرياض، ط١، ٢٠١١م.

١٩. **الكتاب** لسيبويه، تحقيق عبد السلام هارون، عالم الكتب، بيروت.

٢٠. **كتاب الشعر** لأبي علي الفارسي، تحقيق د. محمود محمد الطناحي، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط١، ١٩٨٨م.

٢١. **الكتاب المصنَّف** لابن أبي شَيْبة، تحقيق محمد عوامة، دار القبلة، جُدَّة، ط١، ٢٠٠٦م.

٢٢. **اللَّامع العزيزي شرح ديوان المتنبِّي** لأبي العلاء المعرِّي، تحقيق محمد سعيد المولوي، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلاميَّة، الرِّياض، ط١، ٢٠٠٨-٢٠١٢م.

٢٣. **لسان العرب** لابن منظور، دار صادر، بيروت، ط٣، ١٩٩٤م.

٢٤. **المآخذ على شُرَّاح ديوان أبي الطَّيِّب المُتَنَبِّي** لابن مَعْقِل الأزدي، تحقيق د. عبد العزيز المانع، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض، ط١، ٢٠٠١م.

٢٥. **المُحتسَب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها** لابن جِنِّي، تحقيق علي النجدي ناصف، وعبد الفتاح إسماعيل، ود. عبد الحليم النجار، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، ١٣٨٦هـ.

٢٦. **المذكر والمؤنث** لابن التُّسْتُرِي، تحقيق أحمد عبد المجيد هريدي، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط١، ١٩٨٣م.

٢٧. **المذكر والمؤنث** لابن جِنِّي، تحقيق د. طارق نجم عبد الله، دار البيان العربي، جدّة، ط١، ١٩٨٥م.

٢٨. **المذكر والمؤنث** لأبي حاتم السجستاني، تحقيق د. حاتم الضّامن، دار الفكر، دمشق، ط١، ١٩٩٧م.

٢٩. **المذكر والمؤنث** للفراء، تحقيق د. رمضان عبد التواب، مكتبة دار التراث، القاهرة، ط٢، ١٩٨٩م.

٣٠. **معجم الأدباء** لياقوت الحموي، تحقيق د. إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٩٩٣م.

٣١. **معجم البلدان** لياقوت الحموي، تحقيق صلاح سالم المصراتي، دار الفكر، بيروت، ط١، ١٤١٨هـ.

٣٢. **معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع** للبكري، تحقيق مصطفى السَّقَّا، عالم الكتب، بيروت، ط٣، ١٤٠٣هـ.

٣٣. **المُوضِح في شرح شعر أبي الطَّيِّب المُتَنَبِّي** للخطيب التِّبريزي، تحقيق د. خلف رشيد نعمان، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط١، ٢٠٠٠م.

٣٤. **النهاية في غريب الحديث والأثر** لابن الجزري، تحقيق د. محمود محمد الطناحي، وطاهر أحمد الزاوي، المكتبة العلميّة، بيروت، ١٩٧٩م.

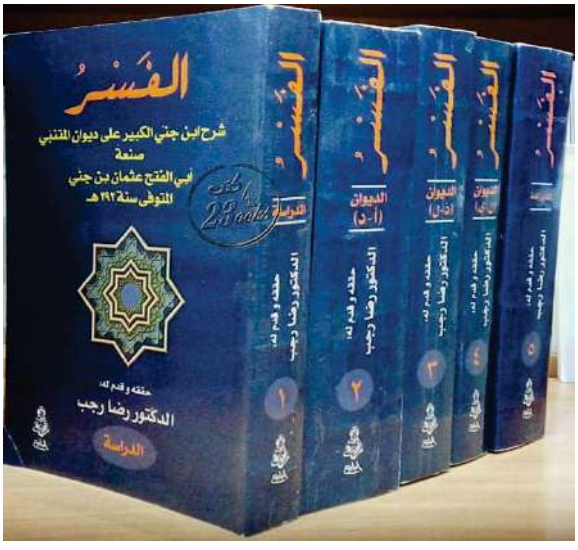

التعليل الصوتي لظاهرة الاشتقاق عند ابن جني (ت ٣٩٢ هـ)

د. منى محمد طعمة*

لم يحظَ بحثٌ باهتمام علماء اللغة قديمًا وحديثًا كالذي حظيَ به مبحث الاشتقاق؛ لأنه الخاصية التي يتألق بها علم العربية وينفرد، وهو سر نمائها وتوليد ألفاظها وحيويَّتها وثرائها الذي يفي بحاجات المجتمع اللغوية المتجدِّدة والمتغيِّرة.

واحتكم اللغويُّون قديمًا إلى الاشتقاق للتثبت من أصالة اللفظ وعربيَّته وسلامته من الدخيل، فكان الاشتقاق معيارًا ومقياسًا توزن به الكلمات، وقد قال السيوطي في ذلك:

«إن منفعة الاشتقاق لصاحبه أن يسمع الرجل اللفظة فيشكُّ فيها، فإذا رأى الاشتقاق قابلًا لها أنِسَ بها، وأزال استيحاشه منها، وهذا تثبيت للغة»[١].

والاشتقاق لغة: مأخوذ من (شقَّ) والشين والقاف أصل واحد صحيح يدل على انصداع في الشيء، ثم يُحمل عليه، ويُشتق منه على معنى الاستعارة[٢].

وفي الاصطلاح: (اقتطاع فرع من أصل يدور في تصاريفه حروف ذلك الأصل، وقيل: هو أخذ كلمة من أخرى بتغيير ما مع التناسب في المعنى.

وهو من خواص كلام العرب، فإنهم أطبقوا على أن التفرقة بين اللفظ العربيِّ والعجمي بصحة الاشتقاق)[٣].

وتأصيل مصطلح الاشتقاق يفضي إلى أنَّ جانبًا من المشتقات المنتزعة من الأصل تُحمل بالتأويل والاستعارة والمجاز لتقارب المعنى الدلالي الأصلي.

وعليه فإن باب الاشتقاق واسع للتجديد والتوليد مع الحفاظ على البنية اللغوية الأصلية.

وللاشتقاق أصناف متعددة، يعدها العلماء أربعة وهي: الاشتقاق الأصغر، والكبير، والأكبر، والكُبَّار.

أما الاشتقاق الأصغر أو ما يسمى «بالاشتقاق الصرفي» فهو أكثر الأنواع ورودًا في كتب اللغويين، وبه تتصرَّف الألفاظ بعضها من بعض.

وأما الاشتقاق الكبير فيعتمد على فكرة التقاليب وتناوب مواضع الحروف.

والنوع الثالث وهو الأكبر، ويسميه بعضهم الإبدال اللغوي، وهو اتفاق الألفاظ في حرفين واختلافهما في الثالث.

* أستاذة فقه اللغة واللسانيات في قسم اللغة العربية وآدابها في جامعة دمشق.

١- الاقتراح في علم أصول النحو: السيوطي ٤٤.

٢- المقاييس (شقَّ) ٥١٩.

٣- الكليات (١ / ١٧٩)، وانظر كتاب الاشتقاق والتعريب: عبد القادر المغربي ٩٤.

والنـوع الرابع وهـو الاشتقاق الكُبَّـار أو النحت، وهو نـوع من الاختصـار، فالعرب تنحـت من كلمتين كلمة واحدة مع مناسبة دلالية بين اللفظين[٤].

ويصنف كثير من علماء العربية الأوائل الاشتقاق في بابين فقط، وهما: الاشتقاق الأصغر والاشتقاق الأكبر.

ولعلَّ أبرز من اشتغـل بمبحث الاشتقاق من علماء العربية الأوائل وأولع فيه وبرع العالم اللغوي عثمان بن جني (ت٣٩٢هـ).

وسنقـف في هـذا المبحـث علـى جهـوده في التعليل الصوتـي لظاهـرة الاشتقـاق، ونبـين حججـه في ذلك مـن خـلال الأمثلـة والشواهـد التـي ساقهـا في كتابه الخصائص، وثمة مباحث أكثر من أن تحصى تناولت التصريـف عند ابن جني وتعليلاته الصوتية، ومبحث الاشتقاق عنده، لكـن يرمي هذا البحث إلى تأصيل علم الصـوت عند ابـن جني من خـلال ظاهـرة الاشتقاق، وبيـان القيمـة الصوتية للحـرف الواحـد التي تحكم اشتقاق الكلم، وتبرز دلالته التركيبية.

أولع ابن جنـي بمبحث الاشتقاق في كتبه ولا سيما كتـاب (الخصائص) الواسع الذي يشتمل على أبواب كثـيرة تصـل إلى مئـة واثنـين وستـين بابًـا، ولا يكاد يخلـو باب من هذه الأبواب من الاشتقاق والتصريف، فيطالـع الناظر في الباب الأول «باب القول على الفصل بـين الكلام والقول»[٥] حديثًا عـن تقاليب مادة (قول) و(كلـم)، ومنهـج الاشتقـاق الأكـبر، وفائـدة تقليـب الحروف، وكذا البـاب الأخير من الخصائص المعنون بـ «بـاب المستحيل وصحـة قياس الفـروع على فساد الأصـول»[٦]، يتحـدث فيه عـن اشتقاق مـواد متعددة منها «هرت، مرمريس، قدد».

وهـذا يجـري في أبـواب كتابـه التـي يعلِّـل فيهـا الظواهـر الصرفيـة من إبـدال وإعـلال وقلب وغيرها تعليلًا صوتيًا.

وكأن ابـن جني يرى أن خصائص العربية اللازمة لها تتـوزَّع بين الصوت والصـرف والاشتقاق، إذ إن غالـب مباحث الكتاب تدور حول هذه الأصول الثلاثة، فتضافـر علمي الصوت والصرف عنـد ابن جني كان نابعًا من استقراء لمعادن المعاني المطروقة والمسموعة، فـإذا بخفة الحـروف وثقلها تغـدو معيـارًا صوتيًا في ظواهر الإعلال والإبدال والإدغام والعدول.

وإذا بالاشتقـاق الأكبر يغـدو أساسًا في فهم المعنى والتوليد اللفظي الدلالي.

انطلـق ابـن جنـي مـن الدلالـة المحوريـة للصوت والقيمـة التعبيرية للحرف الواحد، والموقعية الخاصة التـي يؤديهـا كل صوت أو حـرف في الكَلِم، حين تُقلَّب حـروف الكلم في الاشتقـاق، ليصـل إلى تأصيل المعنى وبيان الدلالة المستقاة من الأصل.

وقـد قسَّـم ابن جنـي الاشتقـاق إلى نوعـين (كبير وصغـير)، ويقـول في ذلـك: «الاشتقـاق عنـدي علـى ضربـين: كبير وصغـير، فالصغير ما في أيـدي الناس وكتبهـم، كأن تأخـذ أصـلًا مـن الأصـول، فتتقـرَّاه فتجمع بين معانيه، وإن اختلفت صيغه ومبانيه، وذلك كتركيـب (س ل م) فإنَّـك تأخذ منه معنـى السلامة في تصرفه، نحو: سلم ويسلم، وسالم، وسلمان، وسلمى، والسلامـة، والسليـم: اللّديـغ...، فهذا هـو الاشتقاق الأصغـر، وأمـا الاشتقـاق الأكبر فهـو أن تأخذ أصلًا من الأصـول الثلاثية فتعقد عليه وعلـى تقاليبه الستة معنىً واحدًا، تجتمع التراكيب الستة وما يتصرف من كل واحـد منهـا عليه، وإن تباعد شـيء من ذلك عنه رُدَّ بلطف الصنعة والتأويل إليـه، كما يفعل الاشتقاقيون ذلك في التركيب الواحد»[٧].

٤- انظر: المزهر للسيوطي (٢ / ٣٤٥)، ودراسات في فقه اللغة: د. صبحي الصالح (١٧٣).

٥- الخصائص (١ / ٥).

٦- الخصائص (٣ / ٣٤٠).

٧- الخصائص (٢ / ١٣٣، ١٣٤).

إن ابن جني لم يذكر من أنواع الاشتقاق إلا نوعين: الصغير والكبير، وقد ذكر أن هذين النوعين عنده، وكلمة «عندي» الواردة في حديثه تلمح إلى أن ثمة علماء لهم تقسيمات أخرى للاشتقاق غير تقسيمه.

فقد أورد بعض العلماء الإبدال اللغوي باسم الاشتقاق الأكبر، والنحت باسم الاشتقاق الكُبَّار كما ذكرنا سابقًا، ولم يعدهما ابن جني من أنواع الاشتقاق، مع أنه أكثر من ذكر الإبدال اللغوي القائم على تجانس الحروف وتباعدها وقلبها المكاني لكنه لم يعده من باب الاشتقاق، وكذلك ذكر ألفاظًا من الكلمات المنحوتة المسموعة، ولم يدخلها في باب الاشتقاق، وربما يعود ذلك لمعنى الاشتقاق القائم على التوليد وتصريف الكلم واشتقاق بعضه من بعض، ورد المتباعدات من الكلمات المتصرفة بلطف الصنعة إلى الأصل الواحد، وأما الإبدال فهو تغير حرف في الكلمة لمقاربة في المخرج أو الصفة أو تجانس بينهما أو تباعد، وهذا لا يخرج الكلم عن الأصل، ولا يولد لفظًا جديدًا ومعنىً اشتقاقيًا محدثًا مستفادًا من الأصل، إذ إن صوت الكلمة المبدل لم يؤثر في الدلالة والمبنى.

وأما النحت فهو نوع من الاختصار وليس التكثير المراد من التوليد الاشتقاقي، وما يمكن أن يشتق من فعلين أو اسمين كلمات مقيدة مخصوصة محصورة تتضاءل فيها أصوات اللفظين، ويكثّف اللفظان ليدلا على مدلول واحد، ولذلك أخرجهما ابن جني من أقسام الاشتقاق عنده.

وسنقف على نوعي الاشتقاق عند ابن جني:

أما النوع الأول وهو الاشتقاق الأصغر أو الصرفي فقد جعله ابن جني مفتاحًا لأبواب كتابه، وتأصيلًا لمواده اللغوية ومباحثه الصرفية، وأمثلته أكثر من أن تحصى، ومن الشواهد على ذلك قوله في (باب القول على اللغة ما هي): وأما تصريفها ومعرفة حروفها فإنها فُعْلَة من لَغَوْت، أي: تكلّمت، وأصلها: لُغْوَة، ككُرَة، وقُلَة، وثُبَة...، وقالوا فيها: لُغَاتٌ، ولُغُون، ككُرات، وكُرُون، وقيل: منها لَغِيَ، يَلْغَى، إذا هذى، ومصدره: اللَّغَا[٨].

وكذا قوله: «وقال الأصمعي: يقال: جُعْشُوش، وجُعْسُوس، وكل ذلك إلى قَمَاءٍ وقِلَّة وصِغر، ويقال: هم من جعاسيس الناس، ولا يقال بالشين في هذا، فضيق الشين مع سعة السين يؤذن بأن الشين بدل من السين، نعم، والاشتقاق يعضد كون السين - غير معجمة - هي الأصل، وكأنه اشتق من الجَعْس صفة على فُعْلُول، وذلك أنه شبَّه الساقط المُهين من الرجال بالخُرْءِ لذلِّه ونَتْنه»[٩].

وهذا المثال الذي قدمه ابن جني ويتحدث فيه عن القلب والإبدال ساقه مع حديث الاشتقاق الصرفي الذي يتخذ مقياسًا لبيان أصل الكلام، وقد اتخذ من صوتي السين والشين وما فيهما من اختلاف المخارج والصفات أساسًا للحكم على الأصل الدلالي الأقوى، فالشين صوت شجري من وسط اللسان محصور بين أقصى اللسان وطرفه، فهو ضيق في المخرج مع انتشاره في الحنك الأوسط، واجتماعه مع الجيم في كلمة واحدة وإن كان الحاجز الحلقي (العين) إلا أن تقارب الحرفين المتفقين في المخرج سيجعل اللفظ ثقيلًا، والمعنى شديدًا قويًا، والمراد خلافه، لذلك كان حرف السين هو الأقوى في القياس الدلالي للكلمة، فالسين من طرف اللسان الأمامي، وهي بذلك أخف من الشين، فلا حاجز يفصلها عن مقدم الفم، وفيها من الصفير ما يجعلها أخف من تفشي الشين، ولذلك استخدمت لخفتها ودنوها من مقدم الفم للدلالة على المعنى المراد من (جُعْسُوس) وهو الساقط الدنيء الخفيف الذليل.

انظر كيف يفسِّر المعنى بخفّة اللفظ وثقله، ويجعل الميزان الصوتي معيارًا لاشتقاق الكلم وبيان دلالته الأصلية، ويمضي ابن جني في تشقيق الألفاظ وبيان

٨- الخصائص (١ / ٣٣).
٩- الخصائص (٢ / ٨٦).

مشتقاتها، وغايته العناية بالأصل والوصول إلى المعنى الأساسي الذي تولدت منه المشتقات صوتيًا، وإثبات أن الفروع مهما امتدت فهي آخذة من الأصل بوشائج لا تنفك عنها.

وصحيح أن الاشتقاق الأصغر الصرفي معروف عند علماء العربية قبل ابن جني وأمثلته أكثر من أن تحصى عندهم، لكن الربط الدقيق بينه وبين المباحث الصوتية عند ابن جني لا يكاد يضارعه فيها أحد بمثل هذا الحذق والدقة وبيان العلة الصرفية الصوتية الدلالية المتلازمة بينها.

وأما النوع الثاني من الاشتقاق عنده فهو الاشتقاق الكبير الذي لقبه بالأكبر وابتدع هذا التلقيب، إذ قال: «هذا موضع لم يسمِّه أحد من أصحابنا غير أن أبا علي -رحمه الله- كان يستعين به، ويخلد إليه، مع إعواز الاشتقاق الأصغر، لكنه مع هذا لم يسمه، وإنما كان يعتاده عند الضرورة ويستروح إليه، ويتعلل به، وإنما هذا التلقيب لنا نحن..»[١٠].

وقد لقي هذا الاشتقاق اعتراضًا ونقدًا من علماء العربية قديمًا وحديثًا.

إذ وصف ابن جني بالتكلف والغلو فيه، ورآه آخرون ميدانًا واسعًا للإبداع.

طبق ابن جني الاشتقاق الأكبر القائم على تقاليب الأصل الثلاثي على أمثلة معدودة لا تكاد تتجاوز أصابع اليد الواحدة، لكنه ترك الباب مفتوحًا لمن يعمل فكره في أصول الثلاثي وإمكانية إعادة التراكيب الستة المتصرفة من التقاليب إلى معنى أصيل واحد أو ما يقرب إلى هذا الأصل بالتأويل ولطف الصنعة.

وانطلق ابن جني في نظريته الاشتقاقية من القيمة الصوتية للحرف الواحد وللحروف مجتمعة، وجعل من موقعية الحرف وتضامه مع الحروف محورًا أساسيًا لدلالة المشتقات وإشمامها معاني إضافية تتصل بالأصل.

١٠- الخصائص (٢ / ١٣٣).

وفكرة التقاليب وحدها لم تكن من إبداع ابن جني، بل سبقه إليها الخليل بن أحمد الفراهيدي في معجمه العين، وكذلك من تابع نهج الترتيب الصوتي للمعاجم كابن دريد والأزهري والقالي وغيرهم، لكن العلماء قبله لم يعيدوا هذه الأصول إلى معنىً واحد، بل اكتفوا بإيراد التقاليب ومعانيها المتعددة، ولذلك يعد ابن جني أول من أسس لهذا الاشتقاق، واصطلح تسميته بـ «الأكبر»، ولكنه لم يدَّع سريانه في جميع الأصول اللغوية، ويقول في ذلك: «واعلم أنا لا ندعي أن هذا مستمر في جميع اللغة، كما لا ندعي للاشتقاق الأصغر أنه في جميع اللغة، بل إذا كان ذلك الذي هو الذي في القسمة سدس هذا أو خمسه متعذرًا صعبًا، كان تطبيق هذا وإحاطته أصعب مذهبًا وأعز ملتمسًا. بل لو صحَّ من هذا النحو وهذه الصنعة المادة الواحدة تتقلب على ضروب التقلب كان غريبًا معجبًا، فكيف به وهو يكاد يساوق الاشتقاق الأصغر، ويجاريه إلى المدى الأبعد؟»[١١].

وإذا تفحّصنا المواد اللغوية التي ساقها ابن جني في باب الاشتقاق الأكبر وهي: (ج ر ب)، (ق س و)، (س م ل) فإننا نجد أنه جعل تقليب (ج ر ب) أين وقع مفضيًا للقوة والشدة[١٢]، وتقليب (ق س و) يحمل معنى دالًّا على القوة والاجتماع[١٣]، وتقليب (س م ل) يحمل معنى جامعًا للإصحاب والملاينة[١٤]، ولعل هذه المعاني الجامعة للتقاليب مستقاة من معاني أصوات الحروف الأقوى في الجذور والأبعد مخرجًا.

فمادة (ج ر ب): الجيم أبعد الحروف في الكلمة، فهي من وسط اللسان، والباء شفوية، والراء من طرف اللسان، والجيم والراء فيها من الشدة والجهر والقلقلة ما يمنحها قوة دلالية للكلمة، وكذا الراء

١١- الخصائص (٢ / ١٣٨، ١٣٩).
١٢- المصدر السابق (٢ / ١٣٥).
١٣- المصدر السابق (٢ / ١٣٦).
١٤- المصدر السابق: (٢ / ١٣٧).

فجهرها وتكرارها ووصلها مع حرفين شديدين مقلقلين مجهورين من شأنه أن يزيد التقليب قوة وشدة، وفي هذا إمساس للفظ شبه المعنى؛ لأن دلالة أصوات الحروف على الحدث والفعل باب عظيم واسع ونهج معروف عند علماء العربية.

يقول ابن جني: «فأما مقابلة الألفاظ بما يشاكل أصواتها من الأحداث فباب عظيم واسع، ونهج متلئبٌ عند عارفيه مأموم، وذلك أنهم كثيرًا ما يجعلون أصوات الحروف على سمت الأحداث المعبر بها عنها فيعدلونها بها ويحتذونها عليها، وذلك أكثر مما نقدره وأضعاف ما نستشعره»[١٥].

وأما تقاليب (ق س و)، فالقاف أغور حروف الكلمة، فهو من أقصى اللسان، وفيه من القوة ما ليس لحروف العربية، فهو صوت فيه الجهر والشدة والاستعلاء والقلقلة، وهذه الصفات تجعل صوت القاف بمعانيه يسيطر على محور الكلمة، فالسين المهموسة الرخوة المستفلة المتمتعة بالصفير تقوى بموقعها مع صوت غاية في القوة، وكذا الواو مدية كانت أم شفوية فيها امتداد، وتغدو باجتماعها مع القاف آخذة بقوة منها، ويقول ابن جني في ذلك: «حروف اللين هذه إذا وقف عليهن ضعفن وتضاءلن ولم يفِ مَدُّهُنَّ، وإذا وقعت بين حرفين تمكن»[١٦].

فثقل الحرف وقوة صوته في الكلمة له دلالة معنوية كبيرة تشير إلى قوة الحدث «وقد يحتمل للقوة ما لا يحتمل للضعف»[١٧].

والتقليب الثالث (س م ل)، فحروف هذا الأصل الثلاثة حروف خفيفة، السين من طرف اللسان والميم حرف شفوي واللام من حافة اللسان الجانبي، وهي حروف من مقدم الفم تتجاوز وسط اللسان، وكلما تباعد المخرج عن الحلق بدت الحروف أخف وأسهل نطقًا.

والسين حرف مهموس رخو مستفل منفتح، فيه من الصفير ما يضعفه، والميم واللام حرفان متوسطان مجهوران مذلقان مستفلان منفتحان، ويصنفان من الأحرف المائعة، والميم الساكنة فيها من الغنة ما يلينها ويخفيها، واللام فيها من الانحراف ما يجعلها مصاحبة للحروف المرتبطة معها، وخفة أصوات هذه الكلمة (س م ل) وسرعة النطق بها ستفضي إلى معنى دلالي فيه من الملاينة والضعف ما يشير بقوة إلى صلة المبنى بالمعنى، وقد جاء في (باب تصاقب الألفاظ لتصاقب المعاني): «هذا غور من العربية لا يُنتصف منه ولا يكاد يُحاط به، وأكثر كلام العرب عليه، وإن كان غُفلًا مسهوًّا عنه: وهو على أضرب: منها اقتراب الأصلين الثلاثيين... ومنها التقديم والتأخير على ما قلنا في الباب الذي قبل هذا في تقليب الأصول، نحو (ك ل م) و(ك م ل) و(م ك ل) ونحو ذلك...»[١٨].

إن ابن جني يؤسس للدرس الصوتي في مبحث الاشتقاق وغيره من مباحثه اللغوية، ويجعل من القيمة الصوتية للحرف والمقطع خفة وثقلًا مفتاحًا للولوج إلى المعنى، وكذلك تجاذب الأصوات وميلها وقلبها المكاني له مدلولاته المتعددة، وهذا هو الأساس الذي بنى عليه ابن جني فكره اللغوي، وأقام عليه كتابه الخصائص وسائر كتبه، ولا ينفك يثبت تلازم التعليل الصوتي للظواهر الصرفية والنحوية والدلالية، ويقدم أمثلة موضحة لفكره الثاقب وعنايته الرائدة بالدرس الصوتي في مباحثه عامة، وفي مبحث الاشتقاق الأكبر الذي استنبطه ولقبه وأعاد فيه المشتقات إلى معنى دلالي واحد، وربما اتكأ فيه على أصوات الطبيعة والمحاكاة لما يجري فيها، إذ إن الأصوات المسموعات قد تكون أصلًا للغات عامة، ومنها تشققت الكلمات ونمت، فتوليد الكلم بعضه من بعض وصوغ الأسماء والأفعال من حكاية صوت

١٥- الخصائص (٢ / ١٥٢)، باب إمساس الألفاظ أشباه المعاني.
١٦- الخصائص (٣ / ١٢٤).
١٧- الخصائص (٢ / ٦٩).
١٨- الخصائص (٢ / ١٤٥، ١٤٦).

طبيعي مذهب متقبل عند ابن جني، بل ينجذب فكره بقوة إليه، ويقول في ذلك: «وذهب بعضهم إلى أن أصل اللغات كلها إنما هو من الأصوات المسموعات كدويِّ الريح، وحنين الرعد، وخرير الماء، وشحيج الحمار، ونعيق الغراب، وصهيل الفرس، ونزيب الظبي، ونحو ذلك، ثم ولدت اللغات عن ذلك فيما بعد، وهذا عندي وجه صالح، ومذهب متقبل، واعلم فيما بعد، أنني على تقادم الوقت دائم التنقير والبحث عن هذا الموضع فأجد الدواعي والخوالج قوية التجاذب لي مختلفة جهات التغول على فكري..»[١٩].

ومذهب ابن جني في الاشتقاق الأكبر وتأصيل نشأة اللغات من الأصوات المسموعات قد تعرض لكثير من النقد، ولكنه لم يدَّع أن مذهبه يسري على مواد اللغة كلها، بل إنه يرسم أصولًا لغوية، ويحد حدودًا صوتية وقف عليها من إنعامه النظر في هذه اللغة الشريفة التي حدها بأصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم، فقال في ختام مبحث الاشتقاق: «وقد رسمت لك منه رسمًا فاحتذه، وتقيَّله تحظَ به، وتكثر إعظام هذه اللغة الكريمة من أجله، نعم، وتسترفده في بعض الحاجة إليه فيعينك ويأخذ بيديك».

ويشير إلى أن المادة الواحدة تُشكَّل على صور مختلفة في الاشتقاق وكأنها لفظة واحدة، ويعقب بقوله: «فإن المعاني وإن اختلفت معنيّاتها آوية إلى مضجع غير مُقضّ، وآخذ بعضها برقاب بعض».

إن ما صنعه ابن جني في الاشتقاق الأكبر وغيره من مباحث كتابه الخصائص من تعليل صرفي يجعله رائدًا في تأصيل البحث الصوتي وتنظيره عند العرب، وما وجِّه من نقد للاشتقاق الأكبر عند ابن جني وتكلّفه في محاولته رد تقاليب الكلمة إلى معنى واحد ربما يعود لتعليله الصوتي الذي شغل فكره وحسه اللغوي القائم على الربط بين صوت الحرف ودلالته، وولعه بقيمة كل صوت، ومعاني الحروف منفردة ومترابطة، وما تحمله من صفات، وموقعها المخرجي الصوتي وتلاقي المعاني على اختلاف الأصول والمباني.

ومن ثم فهو لم يدع أن هذا يسري على مواد اللغة كلها، وبيّن صعوبة تطبيقه على جذور اللغة عامة، وجعل لطف التأويل والمجاز سبيلًا لتقريب المعاني، وهذا جزء أصيل من تعريف الاشتقاق الذي أوردناه سابقًا[٢٠].

وممن انتقد نظريته في الاشتقاق الأكبر قديمًا السيوطي في قوله: «وليس معتمدًا في اللغة، وإنما جعله أبو الفتح بيانًا لقوة ساعده، ورده المختلفات إلى قدر مشترك، مع اعترافه وعلمه بأنه ليس هو موضوع تلك الصيغ، وأن تراكيبها تفيد أجناسًا من المعاني مغايرة للقدر المشترك»[٢١]، ومن المحدثين د. إبراهيم أنيس ود. صبحي الصالح.

وربما كانت المقارنة بين صنيع ابن جني وبين صنيع معاصره ابن فارس في مبحث الاشتقاق الأكبر هي السبب في إلحاق صفة الغلو بعمل ابن جني والاعتدال بعمل ابن فارس.

فابن فارس رد بعض المشتقات إلى أصل وبعضها إلى أصلين، ولكنه لم يتحدث عن الرابط الصوتي بين الأصول المشتقة، ولعل الفكر اللغوي لكلا العالمين مختلف؛ إذ تسيطر فكرة الأصول والفروع على تآليف ابن فارس، ويشغل الصوت والتصريف ذهن ابن جني.

ونورد مثالًا على ما جاء به ابن فارس من اشتقاق مادة (ك ل م) في مواضع متعددة من معجمه مقاييس اللغة.

قال ابن فارس: «كلم: الكاف واللام والميم أصلان، أحدهما يدل على نطق مُفهم، والآخر على جراح».

وجاء في معنى (ك م ل) الكاف والميم واللام أصل صحيح يدل على تمام الشيء.

وفي (ل ك م) اللام والكاف والميم كلمة واحدة هي اللكم: الضرب باليد مجموعة، وقياسه من الخف الملكم، وهو الصلب الشديد.

وفي (م ل ك) الميم واللام والكاف أصل صحيح يدل على قوة في الشيء وصحة.

١٩- الخصائص (١ / ٤٦، ٤٧).

٢٠- انظر صدر البحث.

٢١- المزهر: (٢ / ١٣٦)، وانظر: من أسرار اللغة لإبراهيم أنيس ٥٣، ودراسات في فقه اللغة لصبحي الصالح ٢٠٠.

و (م ك ل) الميم والكاف واللام كلمة تدل على اجتماع ماء.

و(ل م ك) اللام والميم والكاف كلمة واحدة يقال: تلمك الشيء، مثل تلمج، كأنه يتذوقه.

وبعد عرض ما جاء به ابن فارس من معان متعددة لتقاليب مادة (ك ل م) فإننا نجد أن تلك المعاني راجعة إلى القوة والشدة والاجتماع، وهو المعنى الوارد عند ابن جني في حديثه عن المعنى الجامع لتقاليب الكلمة حين قال: « (ك ل م) حيث تقلبت فمعناها الدلالة على القوة والشدة، والمستعمل منها أصول خمسة، وهي: (ك ل م)، (ك م ل)، (ل ك م)، (م ك ل)، (م ل ك)، وأهملت (ل م ك) فلم تأت في ثبت».

ولعل إهمال ابن جني للتقليب الأخير عائد إلى الإبدال الحاصل بين الجيم والكاف، وربما كان لهجة من لهجات العرب في إبدال الكاف جيمًا.

وحين نبحث عن معاني أصوات مادة (ك ل م) فإننا نجد أنها أصوات متعددة المخارج، فالكاف من أقصى اللسان، وهو صوت شديد. واللام من حافة اللسان، وهو صوت مجهور متوسط منحرف وهو أوسع الحروف. والميم حرف شفوي ولا يكتمل نطقه إلا بغنة، ولعل تأثير الحرف الأبعد مخرجًا وهو الكاف على الحرفين المجهورين المتوسطين بين الشدة والرخاوة مع انفتاح واتساع في اللام يجعل معنى القوة والشدة أظهر في هذا الجذر اللغوي.

ولعل نظرية الحس الصوتي عنده لمعاني الحروف هي الدافع لإعادة ابن جني تقاليب الكلمة إلى معنى أصيل واحد.

والمتتبع لمواد المعجم يقف على كثير من المعاني الرابطة بين تقاليب الكلم على نحو ما جاء به ابن جني، ويلتمس جوهر المعاني ودقة الربط بين المبنى الصوتي والمعنى الدلالي وجمالياته التي تثير الذهن، وتحفزه للبحث عن الصلات الخفية بين الدال والمدلول، وتبعده عن كل دلالة اعتباطية ممكنة.

وهذا جوهر الإبداع في الاشتقاق الذي تظهر فيه براعة العربية وتفوقها.

وصحيح أن نظرية ابن جني في الاشتقاق الأكبر ليست معيارية، ولا يمكن تطبيقها على جميع اللغة، إلا أن فيها من السحر وعبقرية الاستنباط وسعة الفكر والتأويل ما يجعلها مقبولة عند كثير من الباحثين، وملهمة لهم لتفسير كثير من الروابط الدلالية بين الأصوات وباعثًا ليكون الاشتقاق أعظم إنتاج عرفه لغويو العرب، وما يزال يؤتي ثمره إلى اليوم[٢٢]، بل يعد فتحًا عظيمًا في ميدان الدرس الصوتي الدلالي المبدع عند العرب.

المصادر والمراجع:

١-مقاييس اللغة: ابن فارس، تحقيق: شهاب الدين أبو عمرو، دار الفكر، ط٢، ١٩٩٨م.

٢-الكليات: لأبي البقاء الكفوي، إعداد: عدنان درويش، محمد المصري، مطبوعات وزارة الثقافة، دمشق ١٩٧٤م.

٣-الاشتقاق والتعريب: تأليف: عبد القادر المغربي، مراجعة د. عبد الإله نبهان، ط٣، ٢٠١٥م، مطبوعات مجمع اللغة العربية.

٤-المزهر في علوم اللغة: جلال الدين السيوطي، تحقيق: محمد أحمد جاد المولى وغيره، مطبعة عيسى البابي، ط٤، ١٩٥٨م.

٥-دراسات في فقه اللغة: د. صبحي الصالح، مديرية الكتب والمطبوعات الجامعية، ط٣، ١٩٨٩م.

٦-الخصائص لأبي الفتح عثمان بن جني، تحقيق: محمد علي النجار، ط١، دار الهدى للطباعة، بيروت.

٧-من أسرار اللغة: د. إبراهيم أنيس، القاهرة ١٩٦٦م.

٨-الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري: ترجمة: عبد الهادي أبو ريدة، ط٢.

٢٢- انظر: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع: آدم متز (١ / ٣٣٠).

جهود القدماء في ضبط المعرّب

د. سكينة محمود موعد*

خالج اللغة العربية منذ القديم كثير من الألفاظ من اللغات الأخرى، وذلك نتيجة قيام علاقات بشرية تمت عن طريق الهجرة أو التجارة أو بطريق المصاهرة أو بحكم الجوار والاختلاط وغير ذلك من الصلات. وهذا التأثر والتأثير بين اللغات قانون اجتماعي إنساني، واقتراض اللغات بعضها من بعض ظاهرة إنسانية طبيعية. ومن هنا نرى أن تسرُّبَ بعض الألفاظ الفارسية والرومية وغيرها إلى العربيَّة أمرٌ طبيعيٌّ، وهو دليل على عمق العلاقات بين الشعوب، ولذلك نرى ألفاظًا معرَّبةً في القرآن الكريم وفي أشعار العرب وغير ذلك؛ فعُرّب عن الفارسية كثير من الكلمات مثل: الدولاب، الكعك، السميد، الجلنار. وعن الهندية: الفلفل والجاموس والشطرنج، وعن اليونانية: القبان والقنطار[1].

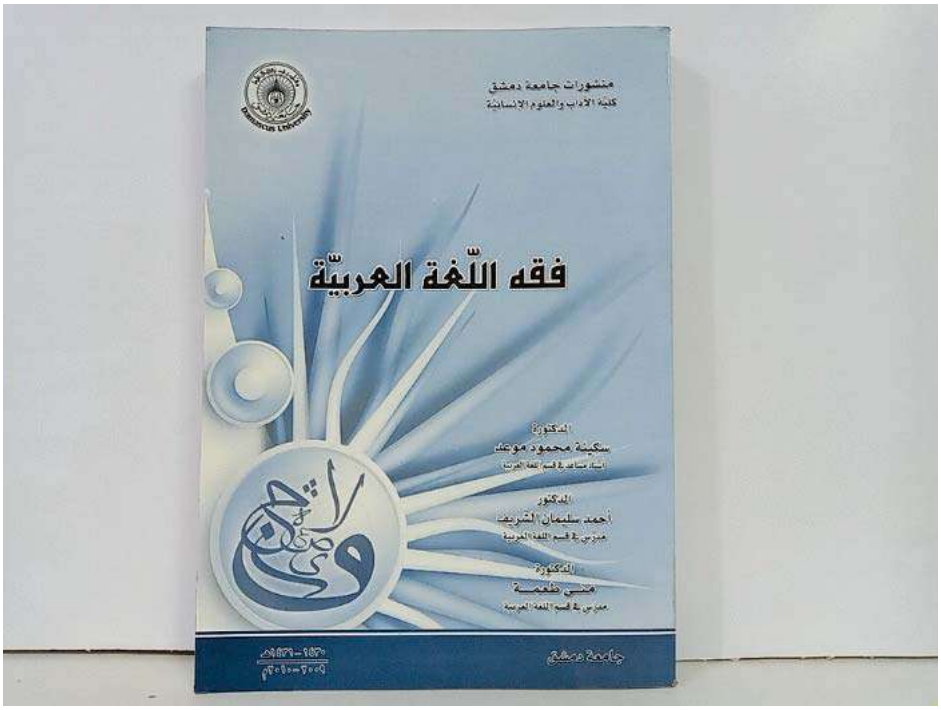

* أستاذة فقه اللُّغة في قسم اللُّغة العربيَّة وآدابها في جامعة دمشق.

١- انظر: كتاب فقه اللغة العربية، د. موعد، د. طعمة، د. الشريف ص٢١١.

مفهوم المعرّب:

الإعراب لغةً: الإبانة والإفصاح، يقال: أعرب الرجل عن نفسه إذا بيّن وأوضح، وأعرب أيضًا: أفصح القول.

واصطلاحًا: المعرَّب لفظٌ استعاره العرب الخُلّص في عصر الاحتجاج باللغة من أمة أخرى، واستعملوه في لسانهم نحو: السندس، الزنجبيل، الإستبرق، الصراط.

ويطلق المعرّب على اللفظ الأجنبي الذي غيّره العرب بالنقص في حروفه أو الزيادة أو القلب مثل: الجورب معرب عن الفارسية كورب. ويشترط أن يكون اللفظ قد ورد في القرآن الكريم أو الحديث النبوي أو كلام العرب الذين يُحتجُّ بكلامهم.

قال الجواليقي في كتاب المعرَّب: «هذا كتاب نذكر فيه ما تكلمت به العرب من الكلام الأعجمي ونطق به القرآن المجيد، وورد في أخبار الرسول عليه السلام والصحابة والتابعين، وذكرته العربية في أشعارها وأخبارها ليعرف الدخيل من الصريح».

قال الزَّبيديُّ: «وأما المعرب فهو ما استعملته العرب من الألفاظ الموضوعة لمعانٍ في غير لغتها».

قال الجوهري: «تعريب الاسم الأعجمي أن تتفوه به العرب على منهاجها، تقول: عرّبته العرب وأعربته»[٢].

فالتعريب هو جعل اللفظ على سمت العربيّة لدى نقله من لفظ أعجمي إلى لفظ عربيّ.

وعلّة التعريب إنما تتأتى من اختلاط العرب بسواهم ممن جاورهم من مثل الرومان والفرس والأحباش، وغيرهم.

وقال أبو حيَّان في الارتشاف[٣]: «الأسماء الأعجمية على ثلاثة أقسام: قسمٌ غيَّرَتْه العربُ، وألحَقَتْه بكلامها، فحُكْمُ أبْنيَتِه في اعتبار الأصلي والزائد والوَزْن حُكْمُ أبنية الأسماء العربيةِ الوَضْع، نحو درهم وبَهْرَج.

وقسمٌ غَيَّرته ولم تُلْحِقْه بأبنيةِ كلامها، فلا يُعْتَبَر فيه ما يُعْتَبَر في القسم الذي قبلَه، نحو آجرّ وسِفْسير.

وقسمٌ تركوه غيرَ مغيَّر. فما لم يُلحقوه بأبنية كلامهم لم يُعَدّ منها. ما ألحقوه بها عُدّ منها. مثال الأول: خُرَاسان لا يثبت به فُعالان، ومثال الثاني: خُرَّم ألحق بسُلّم وكُركُم ألحق بقُمقُم».

مفهوم المعرب والدخيل عند القدماء والمحدثين[٤]:

عند القدماء:

حصل تداخل بين مفهومي المعرب والدخيل عند القدماء، فكانا عند كثير منهم شيئًا واحدًا أو يحملان معنى واحدًا.

قال السيوطي: «ويطلق على المعرب دخيل، وكثيرًا ما يقع في كتاب العين والجمهرة وغيرهما»[٥].

والأمثلة والشواهد على هذا كثيرة فيما لو عدنا إلى المعاجم، ومن ذلك ما جاء في اللسان:

«البُخت دخيل في العربية، أعجمي معرب، وهي الإبل الخراسانية».

«الصولجان العود المعوج، فارسي معرب».

«الجوسق الحصن معرب أصله كوشك بالفارسية، والجوسق القصر».

«الجصّ بفتح الجيم وكسرها، ما يبنى به، وهو معرب».

٢- انظر: المرجع السابق ٢١١-٢١٢، وانظر: المزهر للسيوطي١ / ٢٧٠.

٣- انظر:١ / ١٤٦.

٤- انظر:فقه اللغة العربية ٢١٥، وما بعدها.

٥- المزهر: ١ / ٢٦٩.

«الطاجن المَقْلَى وهو بالفارسية تابه، الطيجن والطاجن يقلى فيه، وكلاهما معرَّب لأن الطاء والجيم لا يجتمعان في أصل كلام العرب».

أما موقف المحدثين من مفهوم الدخيل والمعرَّب فقد اتسم بعدم التسليم والقبول بما نُقل عن السلف إلا قلة منهم كرروا أقوال العلماء القدماء كما وقفوا عليها، وبعضهم صرح بأن الدخيل والمعرَّب شيء واحد كقول الأمير مصطفى الشهابي: «والمعرب في لغتنا كثير، ويسمى الدخيل». وقول د. أحمد عيسى في التهذيب في أصول التعريب: «والمعرب يطلق عليه دخيل»، وقول د. صبحي الصالح «الكف عن استعمال اللفظ المعرب إذا كان له اسم في لغة العرب: إحياءً للفصيح وقتلًا للدخيل».

وأقوال هؤلاء العلماء تدل على عدم التفريق بين المعرب والدخيل، وعلى أنهما شيء واحد.

وهناك من لم يقبل هذا الاضطراب حرصًا على دقة المصطلح، قال د. حسن ظاظا في كتابه كلام العرب «ولكن ما زال الفرق بين المعرب والدخيل في حاجة إلى إيضاح، والغريب أن هذا الإيضاح لم يقلق الأقدمين كثيرًا، فاستعمل جمهورهم المعرب والدخيل بمعنى واحد». ورأى د. حلمي خليل في كتاب (المولد) أن الخلط بين المصطلحات اتسع حتى شمل الدخيل والمعرب والمولد، فقال: «والحقيقة أن كلًا من المصطلحات الثلاثة (الدخيل، المعرب، المولد) له مفهوم محدد، أو ينبغي أن يكون له ذلك حتى لا نقع فيما وقع فيه القدماء وبعض المحدثين من الخلط بين هذه المصطلحات الثلاثة»[٦].

الحاجة إلى التعريب، والدواعي إليه[٧]:

لم يعش العرب بمعزل عن الأمم المجاورة لهم، وهذا شأن الأمم، إذ ليس من أمّة أو من شعب يمكن أن يعيش بمفرده، فلا يُخالط سواه من الشعوب أو الأمم.

ومخالطة العرب للأمم التي جاورتها نتج عنه كثير من الأمور، من أهمّها تأثّرهم بلغات تلك الأمم، وهم أثّروا فيهم أيضًا، وهذا من سنن الله في خلقه.

وقد كانت الفارسية في مقدمة اللغات التي أخذت منها العربية، ومن هذه الألفاظ الفارسية: الإبريق، تاج، جاموس، سرداب، إستبرق، صنوبر، نسرين، لوز، شطرنج، صولجان، دهليز، نارنج، ديباج، زبرجد، دولاب، ليمون، جلّاب (ماء الورد)، الجوسق (القصر)، فالوذج.

وبتأمل هذه الألفاظ نجد أن دافع العربية لاستعارتها هو الاستجابة لمتطلبات التطور الحضاري، وما اتصل من هذه الألفاظ بالرفاهية والترف بدا واضحًا في مسميات الرياحين والحدائق واللبس والحلي وأدوات اللعب، وإضافةً إلى هذه الألفاظ أخذت العربية من الفارسية ألفاظًا لم تكن في حاجة إليها لوجود مقابل لها في العربية، فقد عرفت اللغة العربية آلات كالمُدْية والسكين والسيف وأسمائه. ومع ذلك أخذت لفظة الخنجر، والفرند (السيف) كما أخذت لفظة الهاون للمهراس، والسجنجل للمرآة، والسرو للعرعر، والرصاص للآنُك.

كما أنها لم تكن في حاجة إلى اقتباس لفظة كالطراز أو النموذج وفي العربية: المثل، الشكل، الغرار، فمثل هذا الدخيل ساعد على نشوء ظواهر لغوية في العربية كالترادف والمشترك اللفظي.

أما الألفاظ التي كانت العربية في حاجة أشد إليها

٦- في فقه اللغة العربية، د. مسعود بوبو: ٢٣٨.

٧- انظر: المرجع السابق ٢٤٨-٢٥٠، وفقه اللغة العربيّة ٢١٧-٢١٩.

فهي ألفاظ الحضارة والعلوم والفنون ما عدا علوم الفقه والحديث والتفسير. وقد اتسعت العربية في تعريب مصطلحات العلوم الدخيلة، وبلغت أوجها في عصر المأمون ؛ إذ عُرّبت ألفاظ الطب والطبيعة والكيمياء والفلك والرياضيات والفلسفة، ويُلحظ أن أغلب مصطلحات هذه العلوم قد أُخذت عن اليونانية مع أن صلة العرب لم تكن مباشرة مع اليونان، كما هو الحال مع الفرس؛ ولكن العربية أخذت كثيرًا من الكلمات اليونانية عن طريق السُّريان، ومن هذه المصطلحات:

الألفاظ العلمية: الأسطرلاب (مقياس النجوم)، خارطة، جغرافية، صابون.

الألفاظ الحديثة: الموسيقا، بطاقة، فانوس، كيلوغرام، متر، بيكار.

الألفاظ البحرية: أسطول، قارب، إسفنج، فلين، دلفين، فقمة، سلمون.

الألفاظ الدينية: أسقف، أسطورة، إنجيل، فردوس.

ألفاظ الحلي والنقود: درهم، ياقوت، ألماس، قرط، عقيق.

ألفاظ الطب والأمراض: كوليرا، ميكروب، تراخوما، هستيريا.

أسماء النباتات: الباميا، الملوخية، القرنفل، اللوبياء، الزيزفون.

أسماء الخمر: الخندريس، الإسفنط، الجريال.

مما سلف نرى أن حاجة العربية إلى التعريب أملتها طبيعة الحياة والاستجابة لمتطلبات التطور الحضاري، وليس لقصور في لغتنا وألفاظها.

ومما دعا إليه أيضًا تلك الصلة بين اللغات الساميّة، فهي تنتمي إلى أسرة واحدة.

ولعلّ من أقوى حاجات التعريب اختلاط العرب بسكان البلاد التي فتحوها، وقد ظهرت حاجتهم إليه حين أرادوا نقل علوم تلك البلاد إلى لغتهم كي يفيدوا منها في بناء الحضارة الجديدة.

وكذا كان في كثير من البلدان العربيّة في العصر الحديث بعد خروج المستعمر منها، فلا يخفى ما صنعته فرنسة في الجزائر، وما كان من الجزائر بعد تحرره منه، وحسبك منه تلك البعثات المتتاليات إلى الجزائر من سورية ومصر وسواهما من بلدان الوطن العربي ، إذ تعاقدت مع مئات المعلمين منها؛ لينهضوا بالعربية، ويطمسوا معالم الفرنسة، ولا يخفى ما كان خلال ذلك من جهود عظيمة في مجال التعريب.

ومن الحاجات الماسة إلى التعريب حركة الترجمة التي نشأت في بداية عصر النهضة العربية في العصر الحديث، إذ ترجم كثير من الكتب في علوم مختلفة إلى العربيّة، وهذه الترجمة رافقها حركة تعريب كبرى للمصطلحات العلمية وسواها، وقد تصدّت المجامع اللغوية والمراكز البحثية في الجامعات العربية، ورجالات اللغة الغيارى في كل من مصر وسورية والعراق ولبنان وسواهم لتعريبها.

ولا يخفى دور الصحافة في سورية ولبنان ولا سيَّما في حركة التعريب التي خلّصت العربيّة من كثير من الألفاظ الفرنسية التي درجت على الألسنة خلال مدّة وجيزة.

كيف تُعرف عجمة الاسم[٨]:

قال أئمة العربية: تُعْرف عُجْمَة الاسم بوجوه:

أحدها – النَّقْل بأن ينقُل ذلك أحد أئمة العربية.

الثاني – خروجُه عن أوزان الأسماء العربية، نحو إبْرَيْسَم، فإن مثل هذا الوزن مفقود في أبنية الأسماء في اللسان العربي.

٨– انظر: المزهر١ / ٢٧٠، وما بعدها.

الثالث – أن يكـون أوَّله نون ثم راء، نحو نرْجس، فإنّ ذلك لا يكون في كلمة عربية.

الرابع – أن يكونَ آخرُه زايًا بعد دال، نحو مهندز، فإن ذلك لا يكونُ في كلمة عربية.

الخامس – أن يجتمع فيها الصاد والجيم، نحو الصَّوْلجان، والجصّ.

السادس – أن يجتمع فيه الجيم والقاف نحو المنجنيق.

السابع – أن يكون خُماسيًا ورُباعيًا عاريًا عن حروف الذّلاقة، وهي الباء، والراء، والفاء، واللام، والميم، والنون، فإنه متى كان عربيًّا، فلا بدَّ أن يكونَ فيه شيء منها، نحو سَفَرْجَل، وقُذَعْمل، وقِرْطَعْب، وجَحْمَرش، فهذا ما جمعه أبو حيّان في شرح التسهيل.

وقال الفارابي في ديوان الأدب: القافُ والجيم لا يجتمعان في كلمة واحدة في كلام العرب، والجيم والتاء لا تجتمعُ في كلمة من غير حرف ذَوْلَقيّ، ولهذا ليس الجِبْت من مَحْض العربية، والجيم والصاد لا يَأْتلفان في كلام العرب، ولهذا ليس الجصّ ولا الإجّاص ولا الصَّوْلجان بعربيّ، والجيم والطاء لا يجتمعان في كلمة واحدة، ولهذا كان الطَّاجن والطَّيْجَن مولّدين، لأن ذلك لا يكون في كلامهم الأصلي.

وفي الصحاح: المُهَنْدِز: الذي يقدّر مَجاري القُنيّ والأبنية معرّب، وصيَّرُوا زايه سينًا، فقالوا: مهندس، لأنه ليس في كلام العرب زايٌ قبلها دال.

وقال أيضًا: الجيم والقاف لا يجتمعان في كلمة واحدة من كلام العرب إلا أن تكون مُعَرّبة أو حكاية صَوْت، نحو الجَرْدَقَة وهو الرغيف، والجُرْموق: الذي يُلْبَس فوق الخُفِّ، والجَرَامِقة: قومٌ بالمَوْصِل أصلُهم من العجَم. والجَوْسق: القَصْر. وجلِّق: موضع بالشأم. والجُوالِقُ: وعاء. والجُلاهِق: البُندق: والمَنْجَنيق: التي يُرمَى بها الحجارةُ، ومعناها ما أجْوَدَني. وجَلَنْبَلَقْ: حكاية صوت باب ضَخم في حالة فَتْحه وإصْفاقه، جَلَنْ على حدة وبَلَقْ على حدَة.

وقال الأزهري في التهذيب مُعَقِّبًا على مَنْ قال: الجيمُ والصادُ لا يجتمعان في كلمة من كلام العرب: الصادُ والجيم مُستعمَلان، ومنه جَصَّص الجرْو إذا فَتَحَ عينيه، وجصَّصَ فلانٌ إنَاءَه إذا ملأه. والصَّجُّ ضَرْبُ الحديد بالحديد.

وقال البطليوسي في شرح الفصيح: لا يوجدُ في كلام العرب دالٌ بعدها ذال إلا قليل، ولذلك أبى البصريون أن يقولوا بغداذ بإهمال الدال الأولى وإعجام الثانية، فأما الدَّاذي ففارسي لا حجة فيه.

وقال ابنُ دُرَيد في الجمهرة: لم تَجْمع العربُ الجيم والقاف في كلمة إلا في خمس كلمات أو ست.

وقال ابنُ فارس في فقه اللغة: حدَّثني علي بن أحمد الصباحي قال: سمعتُ ابنَ دريد يقول: حروفٌ لا تتكلمُ العرب بها إلا ضرورة، فإذا اضطرّوا إليها حوَّلوها عند التكلّم بها إلى أقرب الحروف من مخارجها، وذلك كالحرف الذي بين الباء والفاء مثل بور إذا اضطروا قالوا: فُور.

قال ابن فارس: وهذا صحيحٌ لأن بور ليس من كلام العرب، فلذلك يَحتاج العربي عند تعريبه إياه أن يصيِّره فاء.

قال ابنُ دُريد في الجمهرة: قال أبو حاتم: قال الأصمعي: العربُ تجعل الظاء طاء، ألا تراهم سمّوا الناظر ناطورًا، أي ينظر، ويقولون البُرْطُلَة، وإنما هو ابن الظُّلَّة.

وفي مختصر العين: الناظر والناطور: حافظُ الزَّرع، وليست بعربية.

وقال سيبويه أبدلوا العَين في إسماعيل، لأنها أشبهُ الحروف بالهمزة، قالوا: فهذا يدلُّ على أن أصلَه في العجمية إشْمائيل.

وفي شرح أدب الكاتب: التوت أعجمي معرّب، وأصلُه باللسان العجمي توث، وتوذ، فأبدَلت العرب من الثاء المثلثة، والذال المعجمة تاء ثنويّة، لأن المثلّثة والذال مهملان في كلامهم.

وقال أبو حنيفة: توث بالثاء المثلثة، وقوم من النحويين يقولون: توت بتاء ثنوية، ولم يُسْمع به في الشعر إلا بالمثلثة، وذلك أيضًا قليلٌ، لأنه لا يكاد يجيءُ عن العرب إلا بذكر الفرصاد، وأنشد لبعض الأعراب:

لَرَوْضَةٌ من رياض الحَزْنِ أو طَرَفٌ
مـن القُرَيَّـةِ حَزْنٌ غيـرُ مَحْرُوثِ
أَحْلَى وأَشْـهَى لِعَيْني إن مَرَرْتُ به
من كَرْخِ بَغْدَاد ذي الرُّمَّان والتّوثِ

وقال ابنُ درستويه في شرح الفصيح: الجَصّ فارسيٌّ معرب كـجّ، أُبدلت فيه الجيم من كاف أعجميّة لا تُشْبه كاف العرب، والصاد من جيم أعجميّة، وبعضُهم يقول: القَصّ بالفتح، وهو أفصح، وهو لغةُ أهل الحجاز.

وقال الجواليقي في المعرَّب: إن العرب كثيرًا ما يجترئون على الأسماء الأعجمية، فيغيِّرونها بالإبدال، قالوا: إسماعيل، وأصلُه إشْمائيل، فأبدلوا لقُرْب المَخْرج.

قال: وقد يُبْدِلون مع البُعْد من المخرج، وقد ينقلونها إلى أبنيتهم ويزيدون وينقصون.

وقال بعضهم: الحروف التي يكون فيها البَدل في المُعَرَّب عشرة: خمسةٌ يُطَّرد إبدالها، وهي: الكاف، والجيم، والقاف، والباء، والفاء، وخمسةٌ لا يطَّرد إبدالُها وهي: السين، والشين، والعين، واللام، والزاي، فالبدَلُ المطَّرد: هو في كلِّ حرف ليس من حروفهم كقولهم: كُرْبَج الكاف فيه بدلٌ من حرف بَين الكاف والجيم، فأبدلوا فيه الكاف، أو القاف، نحو قُرْبَق. أو الجيم نحو جَوْرب، وكذلك فِرند هو بين الباء والفاء، فمرّة تُبْدَل منها الباء، ومرة تُبْدل منها الفاء. وأما ما لا يطّرد فيه الإبدال فكلُّ حرف وافَق الحروف العربية كقولهم إسماعيل أبدلوا السين من الشين، والعينَ من الهمزة، وأصله إشمائيل. وكذلك قَفْشَليل أبْدَلُوا الشين من الجيم واللام من الزاي، والأصل قفجليز. وأما القاف في أوله فتبدل من الحرف الذي بين الكاف والجيم.

وذكر أبو حاتم أن الحاء في الحُبّ بدل من الخاء، وأصله في الفارسية خب، قال: وهذا لم يذكره النّحويون، وليس بالمتنع.

وقال أبو عبيد في الغريب المصنف: العرب يعرِّبون الشين سينًا يقولون: نيسابور، وهي نيشابور، وكذلك الدَّشْت يقولون دَسْت، فيُبدلونها سينًا.

وفي تذكرة الشيخ تاج الدين بن مكتوم بخطّه: قال نصر بن محمد بن أبي الفنون النحوي في كتاب أوزان الثلاثي: سين العربية شين في العبرية، فالسلام شلام، واللسان لشان، والاسم اشم.

وقال ابنُ سِيدَه في المُحْكم: ليس في كلام العرب شينٌ بعد لام في كلمة عربيةٍ مَحْضَة، الشينات كلّها في كلام العرب قبل اللامات.

ضبط المعرّب لدى القدماء[٩]:

يعد معجم العين للخليل الأساس الذي بنيت عليه المعجمات، وقد ضمّ الأصيل والدخيل من ألفاظ اللغة.

وهذه الألفاظ لم تسق عبثًا، بل وضع لها الخليل عددًا من المعايير، وهي واضحة بيّنة في سياق معجم العين، ومنها:

-أنّ العين لا تأتلف مع الحاء في كلمة واحدة لقرب مخرجيهما إلا أن يشتق فعل من جمع بين كلمتين مثل: حيعلا، كقول الشاعر:

٩- انظر: مقدّمة محقق كتاب المعرّب للجواليقي ص ٢١ وما بعدها.

ألا رب طيف بات منك معانقي
إلى أن دعا داعي الفلاح فحيعلا

يريد: قال حي على الفلاح، أو كما قال الآخر:

فبـاتَ خيال طيفـك لي عنيقًا
إلى أنْ حَيْعَـلَ الداعـي الفَلاحا

أو كما قال الثالث:

أقـولُ لها ودمـعُ العَين جار
ألَـمْ يُحْـزِنْكِ حَيْعلةُ المنادي

فهذه كلمة جُمِعَتْ من (حَيَّ) ومن(على)، وتقول منه: (حيعل) يُحَيْعِل حَيْعَلة، وقد أكثَرت من الحيعلَة، أي من قولك: (حَيَّ على)، وهذا يشبه قولهم: تعَبْشَم الرجلُ وتعَبْقَسَ[١٠].

-لا تجتمع الجيم والقاف في كلمة عربيّة، فمتى جاءتا في كلمة فاعلم أنّها معرّبة، ولم ترد إلاّ في كلمات دخيلة، ليست من العربيّة إنما هي مولّدة، ومنه: القبج، والجوق.

-لا تأتلف الحاء والهاء في كلمة واحدة لتقارب مخرجيهما، قال الخليل: فأقصى الحروف كلها العين ثم الحاء، ولولا بَحَّة في الحاء لأَشْبَهَت العْينَ لقُرْب مَخْرَجها من العَيْن ثم الهاء، ولولا هَتَّة في الهاء وقال مرَّة (ههّة) لأَشْبَهَت الحاء لقُرْب مَخْرَج الهاء من الحاء، فهذه ثلاثة أحرف في حَيِّز واحد بعضُها أرفع من بعض[١١].

-ليس في كلامهم زاي بعد دال إلاّ دخيل، منه: الهنداز، والمهندز، وأبدلوا الزاي سينًا، فقالوا: المهندس.

قال الخليل: المهندس الذي يقدر مجاري القني ومواضعها حيث يحتفر وهو مشتق من الهندزة، فارسي، صُيِّرَت الزاي سينًا؛ لأنه ليس بعد الدال زاي في شيء من كلام العرب[١٢].

١٠- انظر:العين ١ / ٦٠.
١١- انظر: السابق ١ / ٥٧.
١٢- انظر: العين ٤ / ١٢٠.

-لا يجتمع في كلامهم الضاد والكاف، وهما متصلتان، سواء أكانت الضاد متقدّمة أم متأخرة، ولا يحسن اجتماعهما عند الخليل؛ إلاّ بفصل لازم بحرف أو بحرفين أو أكثر، قال الخليل: ألا تَرَى أنَّ الضَّاد والكاف إذا أُلِّفَتَا فبُدِئَ بالضَّاد فقيل: (ضك) كان تأليفًا لم يحسُن في أبنية الأسماء والأفعال إلا مفصولاً بين حَرْفَيه بحرف لازم أو أكثر، من ذلك الضَّنْك والضحك وأشباه ذلك.

وهو جائز في المضاعف نحو الضَّكضاكة من النساء، فالمضاعَفُ جائز فيه كل غَثّ وسَمين من الفصول والأعجاز والصدور وغير ذلك[١٣].

ومن الجدير ذكره أنّ الخليل كان يفرّق بين الأصيل والدخيل من الكلمات، وذلك من منطلق الأصوات ومدى تآلف بعضها مع بعض في بناء اللفظ، ويرجع ذلك لديه إلى التذوّق والحروف، وكذا البناء العام للكلمة في العربيّة.

ويتبيّن أنّ للخليل في معرفة الدخيل من الأصيل ثلاثة معايير يتوصل إليها لدراسة الحروف وخصائصها في أثناء الكلمات، وهي:

-أن يجتمع في الكلمة حرفان لم يألف العرب اجتماعهما.

-أن تكون الكلمة رباعية أو خماسية، وليس فيها حرف من حروف الذلاقة.

-أن تكون الكلمة على مثال خاص لم يبنِ العرب كلامهم على مثله.

وأمّا سيبويه فقد تناول التعريب من جانبين. نظري وتطبيقي.

ففي الجانب النظري كان له فضل السبق في وضع مصطلح التعريب، إذ نصّ عليه في كتابه في باب ما

١٣- انظر: السابق ١ / ٥٦.

أُعرب من الأعجمية، قال: «اعلم أنهم مما يغيرون من الحروف الأعجمية ما ليس من حروفهم البتةَ، فربما ألحقوه ببناء كلامهم، وربما لم يلحقوه.

فأما ما ألحقوه ببناء كلامهم فدرهمٌ، ألحقوه ببناء هِجْرَع. وبَهْرَجٌ ألحقوه بسَلْهَب. ودِينارٌ ألحقوه بدِيماس. ودِيباجٌ ألحقوه كذلك. وقالوا: إسحاق فألحقوه بإعصار، ويعقوب فألحقوه بيربوع، وجوربٌ فألحقوه بفَوْعَل.

وقالوا: آجُورٌ فألحقوه بعاقُول. وقالوا: شُبَارِق فألحقوه بعُذَافِر. ورُسْتَاقٌ فألحقوه بقُرْطَاس. لما أرادوا أن يعرّبوه ألحقوه ببناء كلامهم كما يلحقون الحروف بالحروف العربية.

وربما غيّروا حالَه عن حاله في الأعجمية مع إلحاقهم بالعربية غيرَ الحروف العربية، فأبدلوا مكان الحرف الذي هو للعرب عربيًا غيرَه، وغيروا الحركة، وأبدلوا مكان الزيادة، ولا يبلغون به بناء كلامهم، لأنه أعجمي الأصل، فلا تبلغ قُوَّتُهُ عندهم إلى أن يبلغ بناءهم. وإنما دعاهم إلى ذلك أن الأعجمية يغيِّرُها دخولُها العربية بإبدال حروفها، فحملهم هذا التغيير على أن أبدلوا وغيروا الحركة كما يغيرون في الإضافة إذا قالوا هَنِيٌّ نحو زباني وثقفي. وربما حذفوا كما يحذفون في الإضافة، ويزيدون كما يزيدون فيما يبلغون به البناء وما لا يبلغون به بناءهم، وذلك نحو: آجُرٍّ، وإبريسَم، وإسماعيل، وسراويل، وفيروز، والقَهْرَمَان.

قد فعلوا ذا بما ألحق ببنائهم وما لم يُلحق من التغيير والإبدال، والزيادة والحذف، لما يلزمه من التغيير.

وربما تركوا الاسم على حاله إذا كانت حروفه من حروفهم، كان على بنائهم أو لم يكن، نحو: خراسان، وخُرَّم، والكُركُم.

وربما غيروا الحرف الذي ليس من حروفهم ولم يغيروه عن بنائه في الفارسية نحو: فِرِنْد، وبَقَّم، وآجُر، وجُرْبُز»[١٤].

وأمّا في الجانب التطبيقي فقد عقد أبوابًا للبحث والمعرفة بتلك الألفاظ الأعجمية من خلال تحليلاته الصرفية والصوتية، من مثل: باب الأسماء الأعجمية، وباب ما كان في الأعجمية على أربعة أحرف، وباب اطّراد الإبدال في الفارسية، يقول في هذا الباب: يبدلون من الحرف الذي بين الكاف والجيم: الجيم، لقربها منها. ولم يكن من إبدالها بدٌّ؛ لأنها ليست من حروفهم. وذلك نحو: الجُرْبُز، والآجُرّ، والجورب.

وربما أبدلوا القاف لأنها قريبةٌ أيضًا، قال بعضهم: قُرْبُزٌ، وقالوا: كُرْبَقٌ، وقُرْبَقٌ.

ويبدلون مكان آخر الحرف الذي لا يثبت في كلامهم، إذا وصلوا، الجيم، وذلك نحو: كُوْسَهْ، ومُوْزَهْ؛ لأن هذه الحروف تبدل وتحذف في كلام الفُرْس، همزةً مرةً وياءً مرةً أخرى. فلما كان هذا الآخر لا يشبه أواخر كلامهم صار بمنزلة حرفٍ ليس من حروفهم. وأبدلوا الجيم، لأن الجيم قريبة من الياء، وهي من حروف البدل. والهاء قد تشبه الياء، ولأن الياء أيضًا قد تقع آخرةً. فلما كان كذلك أبدلوها منها كما أبدلوها من الكاف. وجعلوا الجيم أولى لأنها قد أُبدلت من الحرف الأعجمي الذي بين الكاف والجيم، فكانوا عليها أمضى.

وربما أدخلت القاف عليها كما أدخلت عليها في الأول، فأشرك بينهما، وقال بعضهم: كَوْسَقٌ، وقالوا: كُرْبَقٌ، وقالوا: قُرْبَقٌ.

ويبدلون من الحرف الذي بين الباء والفاء: الفاء نحو: الفِرِند، والفُنْدُق. وربما أبدلوا الباء لأنهما قريبتان جميعًا، قال بعضهم: البِرِنْد.

١٤- انظر:سيبويه ٤ / ٣٠٣.

فالبـدل مُطَّرِدٌ في كل حرف ليس من حروفهم، يبدل منه ما قرب منه من حروف الأعجمية.

ومثل ذلك تغييرهـم الحركة التي في زَوْرْ، وآشُوبْ: فيقولـون: زُورٌ وأَشُوبٌ، وهـو التخليط؛ لأن هذا ليس من كلامهم.

وأمـا ما لا يَطَّـرِدُ فيه البدل فالحـرف الذي هو من حروف العـرب، نحو: سين سراويل، وعين إسماعيل، أبدلـوا للتغيـير الذي قـد لـزم، فغيروه لمـا ذكرت من التشبيـه بالإضافـة، فأبدلـوا مـن الشـين نحوهـا في الهمس، والانسلال من بين الثنايا، وأبدلوا من الهمزة العين، لأنها أشبه الحروف بالهمزة.

وقالـوا: قَفْشَلِيْـلٌ، فأتبعـوا الآخـر الأول لقربه في العدد لا في المخرج.

فهـذه حال الأعجميـة فعلى هذا فوجِّهْهـا، إن شاء الله[١٥].

وفي هذه الأبواب وضع سيبويه أصولًا يُعرف فيها الأصيل من الدخيل.

وأمـا الجواليقـي في كتابه (المعـرّب) فقد جمع فيه مـا عرّب من الألفـاظ الأعجمية، مع بيـان اللغات التي أُخذت منها الألفاظ المعرّبة والدخيلة.

وقد سـاق الجواليقي ضوابط للمعـرب، لم يخرج فيها عمّا ذكره الخليل وسيبويه.

وقد تحـدّث عن معرفة مذاهب العـرب في استعمال الأعجمي[١٦]:

وقـال الجواليقـي في المعـرَّب: إن العـرب كثيرًا ما يجترئـون على الأسماء الأعجميـة فيغيِّرونها بالإبدال قالـوا: إسماعيـل وأصلُـه إشْمائيـل، فأبدلـوا لقُـرْب المَخْرج.

قال: وقد يُبْدِلون مع البُعْد من المخرج وقد ينقلونها إلى أبنيتهم ويزيدون وينقصون .

وقـال بعضهـم: الحروف التـي يكون فيهـا البَدل في المُعَـرَّب عشرة: خمسةٌ يُطَّـرِد إبدالها، وهي: الكاف والجيـم والقـاف والبـاء والفـاء، وخمسـةٌ لا يطَّـرد إبدالُهـا، وهي: السين والشين والعين واللام والزاي، فالبـدَلُ المطَّـرِد: هـو في كلِّ حـرف ليس مـن حروفهم كقولهـم: كُرْبَج الـكاف فيه بدلٌ من حـرف بَين الكاف والجيم، فأبدلوا فيه الكاف أو القاف نحو قُرْبَق.

أو الجيـم نحـو جَـوْرب وكذلك فرند هـو بين الباء والفاء، فمرّة تُبْدَل منها الباء، ومرة تُبْدل منها الفاء.

وأمـا مـا لا يطّـرد فيـه الإبدال فـكلُّ حـرف وافَق الحـروف العربية كقولهم إسماعيـل أبدلوا السين من الشين والعينَ من الهمزة وأصله إشمائيل .

وكذلـك قَفْشَليل أبْدَلُوا الشين من الجيم واللام من الزاي والأصل قفجليز.

وأمـا القـاف في أولـه فتبدل من الحـرف الذي بين الكاف والجيم.

وأمّـا الخفاجـي فيعـرّف المعـرّب في مقدّمـة كتابه قائـلا[١٧]: واعلم أنّ التعريب نقل اللفظ من العجمة إلى العربيّـة، والمشهور فيـه: التعريب، وسمّـاه سيبويه: إعرابًا، وهو إمام العربيّة، فيقال حيئنذ: معرّب.

وقد يعرّب لفظ ثم يستعمل في معنى آخر غير ما كان موضوعًا له.

وتكلّـم الخفاجي علـى التغيير الذي يحـدث في بنية المعـرب، وإبـدال الحـرف في الكلمات المعربـة في فصل سمّاه: فصل في تغيير المعرّب وإبداله، يقول: اعلم أنهم قـد يغيّرون الكلمة الأعجميـة، والتغيّر أكثر من عدمه، فيبدلـون الحروف التي ليست مـن حروفه إلى أقربها مخرجًـا، وربما أبعدوا الإبـدال في مثل هذه الحروف،

١٥- الكتاب ٤ / ٣٠٥ - ٣٠٧.

١٦- انظر:المعرَّب ٩٤.

١٧- انظر: شفاء الغليل فيما في كلام العرب من الدخيل ص٣.

وهـو لازم؛ لئلا يدخل في كلامهم ما ليس منه، فيبدلون حرفًا بآخر، ويغيّرون حركته، ويسكّنونه، ويحرّكونه، وينقصون، ويزيدون[١٨].

كمـا عقـد بابًا سمّـاه: بـاب معرفة مذاهـب العرب في استعمـال الأعجمـي، جـاء فيه: اعلم أنهـم كثيرًا ما يجترئون على تغيير الأسماء الأعجمية....

ويقـول الخفاجـي عـن هـذا التغيير: فمـا كان بين الـكاف والجيم يجعلونـه جيمًـا أو كافًـا أو قافًا، كما قالوا: كربـج، وقربق، ويبدلون الباء المخلوطة بالفاء، يقصـد بها الباء الفارسية؛ بالباء أو الفاء، نحو: برند، وفرند، وأصله فرند.

ويبدلـون الشـين سينًـا، نحـو: دسـت في دشـت. وسـروال في شـروال، وإسماعيـل في إشمائيل، لقرب السين من الشين.

ثـم تكلم علـى الحـروف المبدلـة، وعددهـا عشرة، خمسة يطّـرد إبدالهـا، وهي الكاف والجيـم، والقاف والبـاء، والفاء، ممـا ليس في كلامهم، وهـي مخلوطة، وخمسـة لا تطرد، وهي: السين والشين والعين واللام والراء، وكل حرف وافق الحروف العربيّة[١٩].

شـروط النقـل والتعريـب لدى بعـض مجامع اللغة:

ثمـة شروط لا بد مـن مراعاتها عند القيـام بالنقل والتعريب:

١- ألا نلجأ إلى التعريب إلا عند الضرورة.

٢- الكف عن استعمال اللفظ المعرب إذا عثر له على اسم في اللغة العربية.

٣- محاولة إنزال اللفظ المعرب على أوزان العربية.

٤- لا مانع من النحت إذا اضطررنا إليه في تعريب المصطلحات[٢٠].

١٨- انظر: شفاء الغليل، ص ٥.

١٩- انظر: شفاء الغليل، ص ٥.

٢٠- في فقه اللغة: ٣٢١-٣٢٤.

المصادر والمراجع:

-ارتشـاف الضرب من لسان العـرب، لأبي حيان الأندلسـي، تح رجب عثمان محمـد، مراجعة: رمضان عبـد التواب، مكتبة الخانجي بالقاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٨ هـ - ١٩٩٨ م.

- شفـاء الغليـل فيمـا في كلام العـرب مـن الدخيل للخفاجـيّ، صححـه نصـر الهوريني، ومشاركـة مصطفـى أفندي وهبـي، المطبعة الميريـة، أوائل ربيع الثاني ١٢٨٢ه.

- فقـه اللغـة العربيـة، د.سكينـة موعـد، د. منـى طعمـة، د. أحمد الشريف، منشـورات جامعة دمشق، ١٤٣٠-١٤٣١ه=٢٠٠٩-٢٠١٠م.

- في فقـه اللغة العربية، مسعـود بوبو، منشورات جامعة دمشق، ١٤١٤-١٤١٥هـ= ١٩٩٤-١٩٩٥م.

-الكتـاب (كتاب سيبويه)، تح عبد السلام هارون، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧١-١٩٧٩م.

- كتـاب العـين، لأبـي عبـد الرحمـن الخليـل بـن أحمـد الفراهيدي، تح د.مهـدي المخزومي ود.إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال، دون تاريخ.

-المزهر في علوم اللغة العربيّة وأنواعها، للسيوطي، تح محمد أحمد جـاد المولى وعلي البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، دار الجليل، بيروت لبنان، ودار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، دون تاريخ.

- المعـرّب والدخيـل في العربيّـة، دراسـة في تـاج العروس للزَّبيديِّ، د. يحيى إبراهيم قاسم، عالم الكتب الحديث، إربد الأردن، ٢٠١٥م.

- المعـرّب من الكلام الأعجمي على حروف المعجم، لأبـي منصـور الجواليقي، تح د. ف عبـد الرحيم، دار القلم دمشق، ط١، ١٤١٠ه-١٩٩٠م

أغراض التأليف في الأمثال العربية القديمة حتى نهاية القرن السادس الهجري، ومقاصده

د. نسرين عبيد*

الأمثال العربية القديمة–شأنها شأن أي فن نثري أو شعري آخر قبل تدوينه– نُقِلَت شفاهًا مدة طويلة من الزمن قبل أن ييسر الله لها من يجمعها ويصنفها في مؤلفات خاصة بها، ولعل من أهم أسباب التأليف فيها حفظ الأمثال العربية من الضياع واللحن من جهة، بعد امتزاج اللسان العربي بالأعجمي، وتعليم أبناء العرب وتلقينهم اللغة العربية الفصيحة الخالصة من الشوائب من جهة أخرى. وهو أمر بدا واضحاً مع بداية حكم بني أمية؛ فقد عمل الخلفاء على غرس القيم المعنوية والاجتماعية الأصيلة في عقول أبنائهم ووجدانهم، والأمثال خاصة تظهر ثقافة الشعوب بما حملته من دعوات إلى مكارم الأخلاق ومحاسنها. والمثل أقدر على تحقيق الفوائد وجلب المنافع.

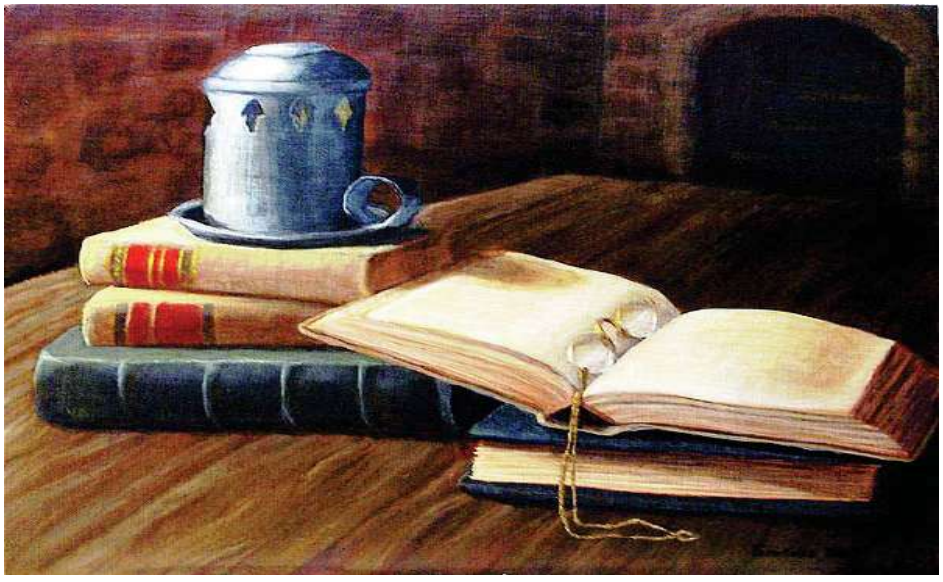

* مدرِّسة في قسم اللُّغة العربيَّة وآدابها في جامعة دمشق.

وقد اعتاد المؤلفون الكشف عن مقاصدهم وأغراض التأليف في الباب الذي يتصدون له في مقدمات مصنفاتهم، وهي في الغالب لا تخرج عما أقره ابن خلدون في مقدمته عن المقاصد السبعة التي ينبغي اعتمادها بالتأليف وإلغاء ما سواها، وجعل منها «أن تكون مسائل العلم قد وقعت غير مرتبة في أبوابها ولا منظمة، فيقصد المطلع على ذلك أن يرتبها ويهذبها ويجعل كل مسألة في بابها»، ومنها «أن يقف الباحث على كلام الأولين... فيجدها مستغلقة على الأفهام، ويفتح الله في فهمها، فيحرص على إبانة ذلك لغيره»، ومنها «أن يعثر المتأخر على غلط أو خطأ في كلام المتقدمين... ويستوثق من ذلك بالبرهان الواضح... ويحرص على إيصال ذلك لمن بعده»، ومنها «أن يكون الفن الواحد قد نقصت منه مسائل أو فصل بحسب انقسام موضوعه، فيقصد المطلع على ذلك أن يتمم ما نقص من تلك المسائل»، ومنها «أن تكون مسائل العلم مفرقة في أبواب من علوم أخرى، فيتنبه بعض الفضلاء إلى موضوع ذلك الفن وجمع مسائله»، أو «أن يكون الشيء من التآليف التي هي أمهات للفنون مطولاً مسهباً، فيقصد المؤلف تلخيص ذلك بالاختصار والإيجاز وحذف المتكرر إن وقع»[1].

وهذه المقاصد أو أكثرها اجتمع عند كثير ممن ألّفَ في الأمثال العربية القديمة، ولا سيما حين بدأ التأليف يأخذ طابع التدقيق والمنهجية مطلع القرن الثالث الهجري.

لكن النظر في مقدمات كتب الأمثال ومجامعها حتى نهاية القرن السادس الهجري قد يشي بدوافع أخرى كانت أسباباً واضحة لدى معظم المصنفين في جمع الأمثال. ومنها:

١ – الوعظ والإرشاد والمنفعة الاجتماعية:

إذ إن قسماً كبيراً من مؤلفات الأمثال العربية القديمة أراد مؤلفوها إرساء مكارم الأخلاق والوعظ والإرشاد، فحرصوا على إذاعة الأخلاق الحميدة وفضح مساوئ السلوك السيئ، فتجتمع تلك الأمثال لتؤدي رسالة تربوية أخلاقية تنهى عن السفه والزلل، وتنبه على العواقب، وتقرب المنافع.

لكن هذا المعنى الوعظي والإرشادي للمثل قد يُحدث تداخلاً بين الأمثال والحكم، فكثير من المصادر القديمة وبعض الدراسات الحديثة دأبت على تعريف المثل بالحكمة والحكمة بالمثل، فالأمثال هي «حكمة العرب في الجاهلية والإسلام»[2] كما وصفها ابن سلام (ت ٢٢٤هـ)، وهي «قصارى فصاحة العرب العرباء وجوامع كلمها، ونوادر حكمها، وبيضة منطقها، وزبدة حوارها»[3].

ولعل هذا التداخل بين المفهومين هو ما أدى إلى ظهور تعبيرات تنعت بالأمثال الحكمية أو الحكم المثلية، فهي نتاج اجتماع بعض خصائص المثل وسمات الحكمة في تعبير واحد، وهو ما دفع بعض الباحثين إلى وضع معايير ومقاييس لتمييز المثل من الحكمة التي تلازمها وظيفة الوعظ أينما حلّت، فالمثل يحتاج إلى شرح واف يعرف به مدلوله لارتباطه في الغالب بحادثة ما، أما الحكمة فهي تنطق بمدلولها منفردة من غير الحاجة إلى الشرح، والمثل اختص بشيوعه وسيرورته بين العامة والخاصة، خلافاً للحكمة التي يقع تداولها غالباً في فئة خاصة من الناس.

ويبدو القاسم بن سلام خير من يمثل هذا الاتجاه في البحث والتصنيف في الأمثال العربية القديمة؛ إذ إنّ اختياره الأمثال كان قائماً على أساس الدعوة إلى

١– ينظر: الفصل الخامس والثلاثون من مقدمة ابن خلدون: ٢ / ٢٧١.

٢– كتاب الأمثال: ٢.

٣– المستقصى في أمثال العرب: المقدمة: ب.

مكارم الأخلاق، منطلقاً في ذلك من دوافع دينية شهدت بها سيرته الذاتية أولاً، ومؤلفاته الأخرى في علم الحديث والتأويل من جهة أخرى، وكثرة استشهاده على معاني الأمثال بالحديث الشريف وآثار الصحابة والتابعين وأقوال الحكماء والعلماء من جهة ثالثة.

وقد بلغ من اهتمامه بهذه النظرة الأخلاقية وتمسكه بها أنه كان يعرض عن ذكر كثير من أخبار الأمثال وقصصها إذا كانت شيئاً مما يسمج ذكره، فيقول في المثل (**إنّه لأَحْمَقُ من دُغَة**)[٤]: «هي امرأة عمرو بن جندب بن العنبر، وذكر ابن الكلبي من حمقها شيئاً يسمج ذكره»[٥].

إن التبويب الذي جاء به ابن سلام على أساس الموضوعات والمعاني الإنسانية جعله في طلائع الكتب التي تدعو إلى إرساء معاني الخير والحق والنفع في المجتمع، ويكفي أن نجيل النظر في أقسام الكتاب التسعة عشر حتى نتيقّن من صحة مذهبه هذا، فجعل القسم الأول –مثلاً– من الكتاب (جماع أبواب الأمثال في صنوف المنطق)[٦]، وقد ضمّ سبعة وعشرين باباً؛ كلها تدعو إلى مكارم الأخلاق، فمنها – مثلاً لا حصرًا –(باب المثل في حفظ اللسان، وما يؤمر به منه للتقوى وسلامة الدين مع الموعظة فيه)[٧]، و(باب الحضّ على صدق الحديث والنهي عن الكذب)[٨]، و(باب إنجاز الموعد والوفاء به)[٩]... وقد بلغ من إصرار ابن سلام على إرساء مثل هذه الأخلاق من الوفاء والصدق وكتم السر واتقاء الإهذار وغيرها أنه استقصى كل ما وقع تحت سمعه أو بصره من جماع هذه الأمثال من جهة، وأنه ألحّ على الأمثال التي تنسب إلى الصحابة والتابعين من جهة أخرى، فينقل كثيراً من أمثال عبد الله بن مسعود، وعمر بن الخطاب، وعبد الله بن عباس... رضي الله عنهم جميعاً، هذا فضلاً عن الأحاديث النبوية الشريفة التي لا يكاد باب يخلو من عدد كبير منها، فمن ذلك قول عبد الله بن مسعود: (**وَالّذي لاَ إِلَـهَ غَيْرُهُ مَا عَلَى الأَرْضِ شَيْءٌ أَحَقُّ بِطُولِ سَجْنٍ مِنْ لِسَانٍ**)[١٠]، فقد جعله ابن سلام من الأمثال المضروبة في حفظ اللسان والحض عليه، قائلاً: «فجعل عبد الله الفم للسان سجناً يمنعه من الجهل والزلل، كما يُحْبَس أهل الدعارة في السجون»[١١].

فكثير من أمثال هذا القسم يدخل في باب الحكمة نفسها، حتى إن ابن سلام نفسه وصفها بالحكمة أيضاً، فقال: «ومنه الحديث الذي يروى أنه في بعض الحكمة (**كَيْفَ تُبْصِرُ القَذَاةَ فِي عَيْنِ أَخِيكَ وَتَدَعُ الجِذْعَ المُعْتَرِضَ فِي حَلْقِكَ**)[١٢]. وبعضها ينسب إلى أكثم بن صيفي حكيم العرب، كقولهم: (**مَنْ لاَحَاكَ فَقَدْ عَادَاكَ**)[١٣]، وهو في مثْل معنى قوله صلى الله عليه وسلم في حديث مرفوع: إن أَوَّلَ ما نهاني عنه ربي بعد عبادة الأوثان شرب الخمر وملاحاة الرجال...»[١٤].

ويبدو القسم السادس من كتابه أوضح الأبواب إشارة إلى اعتماده النفع والخير للناس في تخيره أمثال

٤– مجمع الأمثال: (١٨٧) ١ / ٣٣٦، المستقصى: (٣٠٦) الهمزة مع الياء.

٥– كتاب الأمثال: ٣٦٦، وينظر أمثلة أخرى: ٧٣، ٣٧٤.

٦– كتاب الأمثال: ٣٩–٧٢.

٧– نفسه: ٣٩–٤٠.

٨– نفسه: ٤٦–٤٧.

٩– نفسه: ٧١–٧٢.

١٠– مجمع الأمثال: (٣٧٥١) ٣ / ٢٠٠، المستقصى: (١١٨٠) الميم مع الألف. ولفظه: ما شيء أحقّ بطول سجن من لسان.

١١– كتاب الأمثال: ٣٩٠.

١٢– مجمع الأمثال: (٣٠٩٥) ٣ / ٣٨، ولفظه: القذَى في عينك، المستقصى: (٧٩٥) الكاف مع الياء. يضرب في تعيير الإنسان صاحبه بعيب هو فيه، كتاب الأمثال: ٧٤.

١٣– مجمع الأمثال: (٤٠٧٥) ٣ / ٢٧٩، المستقصى: (١٣٢٠) الميم مع النون. يضرب في النهي عن خلاف الإخوان لما فيه من تكدير الود. الملاحاة: المباغضة من قولهم: لحوت العود: إذا قشرته. اللسان: (لحا).

١٤– كتاب الأمثال: ٧٩، والحديث الشريف ذكره ابن الأثير، ينظر: النهاية في غريب الحديث والأثر: ٤ / ٢٤٣.

العرب؛ إذ جعله في (الأمثال في مكارم الأخلاق)[١٥]، وذكر فيه أحد عشر باباً، منها (باب المثل في الحلم والصبر على كظم الغيظ)[١٦]، و(باب الإغضاء على المكروه واحتمال الأذى)[١٧]، و(باب العفو عند المقدرة)[١٨]...فهذه الأبواب وغيرها تحمل دعوات صريحة من ابن سلام للامتثال بها وإشاعتها بين الناس، فمن ذلك قولهم في المثل: **(مَلَكْتَ فَأَسْجِحْ)**[١٩]، «وهذا يروى عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أنها قالته لعليّ بن أبي طالب رضي الله عنه يوم الجمل حين ظهر على الناس، فدنا من هودجها، ثم كلّمها بكلام، فأجابته: ملكت فأسجح، أي: ظفرت فأحسن، فجهزها عند ذلك بأحسن الجهاز، وبعث معها أربعين امرأة، وقال بعضهم: سبعين، حتى قدمت المدينة»[٢٠]، وجعله المفضل الضبي من كلام (أنس بن الحجيرة)، قاله للملك (الحارث بن أبي شمر الغساني) عندما سأله عن بعض الأمر فأخبره به، فلطمه الحارث...[٢١]. وسواء أكان المثل من قول عائشة أم المؤمنين أم مما استشهدت به في ذلك الموقف فإن مضمونه الأخلاقي الديني واضح، وهو مما شاع عند العرب قبل الإسلام وبعده.

ومما يؤكد أن أبا عبيد قد قصد من تأليفه في الأمثال الوعظ والإرشاد ونفع المجتمع أنه كان يترفع عن ذكر الأخبار المصاحبة لبعض الأمثال أو قصصها إذا كانت مما يخدش الحياء العام، فيكتفي بالإشارة إليها إشارة عابرة سريعة، فمن ذلك قوله في المثل: **(رُبَّ أَخٍ لَكَ لَمْ تَلِدْهُ أُمُّكَ)**[٢٢]، «يقال: إن المثل للقمان بن عادٍ، وكان له أصل سوى الموضع الذي يضعه الناس به، وذلك أن لقمان رأى رجلاً مُستخلياً بامرأة، فاتَّهمه، وقال: من هذا؟ فقالت: أخي، فقال مجيباً لها: **رب أخ لك لم تلده أمّك**»[٢٣]، فأكثر الناس يضربون هذا المثل في إعانة الرجل صاحبه وانصبابه في هواه، وانخراطه في سلكه، حتى كأنه أخوه لأبيه وأمه، وهذا هو المعنى الذي اختاره القاسم بن سلام، لكن أصل المثل الذي أوجزه وفصّلته كتب الأمثال الأخرى يضرب في الاتهام، وقد ذكر الميداني الخبر تامّاً كما رواه المفضل وسواه.

ويستمر ابن سلام في جمع تلك الأمثال وفق هذه النظرة الأخلاقية إلى نهاية الكتاب، من غير أن يغفل أياً من المعاني الإنسانية المتداولة في حياة الناس من الظلم والمعايب كالبخل والجبن والغدر وسوى ذلك من الأخلاق المحمودة والمذمومة التي ورد ذكرها بكثرة في القرآن والأثر والحكمة والمواعظ.

ويبدو أن ظهور الإسلام ونزول القرآن الكريم وضربه الأمثال فيه قد دعّم مكانتها ومهمتها الاجتماعية في الوعظ، ثم جاء الرسول صلى الله عليه وسلم وضرب الأمثال في أقواله وأفعاله، حتى قال الجاحظ (ت ٢٥٥هـ): «ولن تجدوا وصايا أنبياء الله أبداً إلا مُبيَّنة الأسباب مكشوفة العلل مضروبة معها الأمثال»[٢٤].

إن اهتمام المصنفين بنشر الموعظة والنصيحة كان دافعاً مهماً لدى بعضهم لجمع الأمثال العربية القديمة، والوقوف عند الوظيفة الاجتماعية للمثل

١٥- كتاب الأمثال: ١٥٠-١٦٣.
١٦- نفسه: ١٥٠-١٥١.
١٧- نفسه: ١٥١-١٥٣.
١٨- نفسه: ١٥٤-١٥٥.
١٩- مجمع الأمثال: (٣٨٧٩) ٣ / ٢٣٤، المستقصى: (١٢٧١) الميم مع اللام. يضرب في حسن العفو. السَجَحْ: لين الخدِّ، وخدٌّ أسجح: سهل طويل قليل اللحم واسع، والخُلُقُ السجيح: اللين السهل. اللسان (سجح).
٢٠- كتاب الأمثال: ١٥٤.
٢١- ينظر: أمثال العرب: ١١٨.
٢٢- مجمع الأمثال: (١٥٤٦) ٢ / ٣٠، (١٥٦٥) ٢ / ٤٤، المستقصى: (٣٢٩) الراء مع الباء.
٢٣- كتاب الأمثال: ١٧٥.
٢٤- رسائل الجاحظ: ١ / ٩٧.

تدويناً وشرحاً، وهو أمر دفع إليه طبيعة المثل نفسه في معظم الأحيان حين يرتبط مضربه بالنصح والإرشاد.

٢ – تلبية أغراض التعليم:

إذ لم يُخْفِ كثير ممن جمع الأمثال ودوّنها رغبتهم الشديدة في تعليم الناس ما خفي عنهم من معاني اللغة والأدب، وهو أمر عُرف عند المؤلفين في العلوم كلها، ومنها الأدب. وتتخذ الأمثال طابعاً خاصاً بها يجعل الناس أقرب حاجة إلى فهمها للتمثل بها، لأنها ترتبط في الأعمّ الأغلب بحوادث معينة بعيدة في التاريخ، فتغدو الحاجة إلى شرحها أشد من غيرها من شعاب الأدب الأخرى.

ويأتي المفضل بن سلمة (ت ٢٩١هـ) في أوائل من نَهَجَ هذا النهج في التأليف في الأمثال؛ يقول في مقدمة كتابه (الفاخر في الأمثال): «هذا كتاب معاني ما يجري على ألسن العامة في أمثالهم ومحاوراتهم من كلام العرب وهم لا يدرون معنى ما يتكلمون به من ذلك، فبيناه من وجوه على اختلاف العلماء في تفسيره، ليكون من نظر في هذا الكتاب عالماً بما يجري من لفظه ويدور في كلامه»[٢٥].

فقولهم (**النَّقْدُ عِنْدَ الحَافِرَة**)[٢٦] معناه «عند أول كلمة، ويقال: التقى القوم عند الحافرة، أي: عند أول كلمة، ويقال: رجع على حافرته، أي في طريقه الأولى»[٢٧]، ثم لا يدخر المفضل جهداً في حشر الأدلة من القرآن الكريم والشعر العربي وأقوال اللغويين العرب، ليجزم أخيراً أن هذا المثل جرى في الخيل ثم استعمل في غيرها.

وربما أورد المفضل المثل من غير أن يستفيض في شرحه إذا كان مما سهلت ألفاظه وقربت معانيه، ففي المثل (**مَالَهُ ثَاغِيَةٌ ولا رَاغِيَةٌ**)[٢٨]، اكتفى المفضل بشرح (الثاغية) وهي النعجة، ثم فسر (الراغية) وهي الناقة[٢٩]، حاله في ذلك حال معظم من سبقه ومن تلاه في تفسير هذا المثل.

وتبعه في مقصده هذا مؤلف آخر عمل على تعليم الناس ما خفي عنهم أو اختلط عليهم، هو أبو بكر ابن الأنباري (ت ٣٢٨هـ) الذي أقر في مقدمة كتابه أن «معرفة معاني الكلام الذي يستعمله الناس في صلواتهم ودعائهم وتسبيحهم وتقرّبهم إلى ربهم وهم غير عالمين بمعنى ما يتكلمون به من ذلك»[٣٠] من أشرف العلم منزلة وأرفعه درجة وأعلاه رتبة، فصنف كتابه (الزاهر) في شرح «معاني ذلك كله، ليكون المُصَلِّي إذا نظر فيه عالماً بمعنى الكلام الذي يتقرب به إلى خالقه، ويكون الداعي فَهِماً بالشيء يسأله ربَّه، ويكون المُسبِّح عارفاً بما يعظم به سيده»، ثم سيتبع ذلك كله «تبيين ما تستعمله العوام في أمثالها ومحاوراتها من كلام العرب، وهي غير عالمة بتأويله، باختلاف العلماء في تفسيره وشواهده من الشعر»[٣١]، حتى بدا كتابه كأنه كُتب ضُمَّت في كتاب، لما جاء فيه من أقوال وأمثال ومعارف لغوية عامة كان لابن الأنباري فضل التوسع في شرحها، حتى خرج الكتاب عن وصفه الضيق في عدّه كتاباً في الأمثال، ليصبح كتاباً في الشروح اللغوية التي قصدت في منحاها التعليمي خدمة اللغة العربية.

ويأتي متن (الزاهر) ليثبت مقصد ابن الأنباري إلى تعليم الناس ما خفي عنهم من معاني الأمثال، فهو دائب على شرح المثل وذكر أقوال العلماء فيه إن

٢٥– الفاخر: مقدمة المؤلف: ٣٧.

٢٦– مجمع الأمثال: (٤٢١١) ٣ / ٣١٨. المستقصى: (١٥٢٦) الهمزة مع اللام، ولفظه: الحافر. يضرب في تعجيل قضاء الحاجة.

٢٧– الفاخر: ٥٦.

٢٨– مجمع الأمثال: (٣٨٨٨) ٣ / ٢٣٦، المستقصى: (١٢٠٨) الميم مع الألف. أي: ما له شيء.

٢٩– ينظر الفاخر: ٦٣.

٣٠– الزاهر في معاني كلمات الناس: المقدمة: ١ / ٢.

٣١– نفسه: ١ / ٣.

اختلفت، فالمثل (**ما يعرف قَبيلاً من دَبير**)[٣٢]، فيه «قولان؛ قال قوم: معناه ما يعرف الإقبال من الإدبار، أي: ما يعرف ما أقبل به من القبل إلى الصدر مما أدبر عنه، وقال آخرون: معناه ما يعرف الشاة المقابلة من الشاة المدابرة...»[٣٣].

والمثل (**هو يَأْتِيكَ بِالأَمْرِ مِنْ فَصِّه**)[٣٤]، «فيه ثلاثة أقوال؛ قال أبو العباس: معناه يأتيك بالأمر من فصله... وقال أبو جعفر أحمد بن عبيد: معناه من مخرجه الذي خرج منه... ويقال: هو فَصّ الخاتم وفِصّ الخاتم بالفتح والكسر، ويقال: سمعت فص الجندب: صوته»[٣٥].

وتلاهما في هذا المقصد – في كثير من الأحيان – أبو هلال العسكري (ت ٣٩٥هـ) الذي ألف (الجمهرة) عندما لم يَرَ «حاجة الشريف إلى شيء من أدب اللسان بعد سلامته من اللحن كحاجته إلى الشاهد والمثل والشذرة والكلمة السائرة، فإن ذلك يزيد المنطق تفخيماً ويكسبه قبولاً، ويجعل له قدراً في النفوس وحلاوة في الصدور»[٣٦]، فعزم على جمع الأمثال «وتقريب سبلها وتلخيص مشكلها، وذكر أصولها وأخبارها، ليفهمها الغبي فضلاً عن اللقين الذكي»، فألف كتابه الجمهرة «مشتملاً منها على ما لم يشتمل عليه كتاب»، وضمّنه «ملخصة لا يشينها الإهذار، ولا يزري بها الإكثار، ولا يعيبها التقصير والإقلال، منظومة على حروف المعجم، ليدنو مجتناها ويسهل مبتغاها»[٣٧]. إن رغبة العسكري الشديدة في تعليم المتكلم فنًّا من فنون القول لا يمكنه الاستغناء عنه كانت سببًا من الأسباب التي دفعته إلى تأليف كتابه في الأمثال، ولذلك قلَّ أن يذكر مثلاً من غير أن يقف عنده مطولاً شرحاً وتفسيراً ومضرباً، مع ما يلزم ذلك من الاستشهاد بالشعر والنثر، والوقوف على مسائل اللغة والنحو.

٣ – تلبية رغبة بعض الأمراء والوزراء أو إهداءً إليهم:

فقد كان مألوفاً عند كثير من الأدباء والعلماء أن يصنفوا كتباً في علوم مختلفة نزولاً عند رغبة بعض الأمراء أو أرباب الحكم، وهذا أمر شاع مع مطلع القرن الثاني الهجري، فقد أملى المفضل الضبي (ت ١٧٠هـ) كتابه في الأمثال في بغداد زمن المهدي على تلاميذه، وذلك بعد أن رغب الخليفة المهدي إليه بجمع الأمثال التي سمعها من البدو وما صح عنده منها. يقول المفضل: «فكتبت له الأمثال وحروب العرب مما كان فيها، فوصلني وأحسن إليّ»[٣٨]، وجاءت أمثال الضبي موافقة للغاية التي تعهد بتحقيقها أمام الخليفة المهدي، فمعظمها تتعلق بأيام العرب وعاداتهم ومناسباتهم، وترتبط بسير ملوكهم وشيوخهم وفرسانهم وحكمائهم، فوقف عند أيام داحس والغبراء، كيوم الفروق، ويوم ذي حسن، ويوم عراعر[٣٩]، وغيرها من أيام العرب الأخرى. ولم يجد الضبي – في سبيل تحقيق الغرض والمقصد من تأليفه في الأمثال– حرجًا في سرد كثير من قصص الأمثال التي أفرغت الأدب من معظم محتواه الاجتماعي القائم على فكرة: الفن للمجتمع؛ إذ يلفت النظر دورانُ كثير منها حول «العلاقات العاطفية – في الغالب الجنسية – بين المرأة والرجل، وهي كثيراً ما ترد للحكم على

٣٢– مجمع الأمثال: (٣٧٩٦) ٣ / ٢١٣، المستقصى: (١٢٣٦) فصل الميم مع الألف.
٣٣– الزاهر: ١ / ٨٠.
٣٤– مجمع الأمثال: (٤٦٨٧) ٣ / ٤٤٤، ليس في المستقصى. يضرب للواقف على الحقائق..
٣٥– الزاهر: ١ / ٣٢٣.
٣٦– جمهرة الأمثال: ١ / ٩.
٣٧– جمهرة الأمثال: ١ / ١١.
٣٨– تاريخ الرسل والملوك: ١ / ١٧٩ (حوادث عام ١٦٩هـ).
٣٩– ينظر أمثال العرب: ٩٨.

نفسية المرأة وركونها إلى الشهوات»[٤٠]، ومع ذلك رويت هذه الأمثال بتمام قصصها وأخبارها في العصر الإسلامي. وبصرف النظر عن مدى صدق مثل تلك الأخبار المرتبطة بهذا النوع من الأمثال العربية القديمة، ضم كتاب المفضل عدداً كبيراً منها، ويزيد الأمر يقيناً أن ترتبط تلك الأخبار بأعلام حقيقيين نجد لهم ترجمات متعددة في كتب التراجم والأخبار، فالمستوغر الذي ينسب إليه المثل **(إِنَّ المَعَافى غَيْرُ مَخْدُوعٍ)**[٤١]، هو «عمرو بن ربيعة بن كعب بن سعد بن مناة بن تميم، مات في صدر الإسلام، ويقال: إنه عاش إلى أول أيام معاوية، وهو أحد المعمَّرين، إذ عاش (٣٣٠) سنة، وقد ذكر المفضل في خبر هذا المثل أن امرأة المستوغر كانت صديقة لشاب يقال له (عامر)، وكان يأتيها عندما يغيب المستوغر في مجلسه، يساعده في ذلك صديق له»[٤٢].

ومثل هذه العلاقات العاطفية المتحللة من الضوابط الاجتماعية تظهر بوضوح في القصة التي ساقها المفضل في المثل **(نَعَم وتَعَلَّيْتُ)**[٤٣]، «إذا زعموا أن رجلاً كانت له صديقة وكان لها زوج غائب، فكان صديق تلك المرأة يأتيها فيصيب منها، فجاء زوجها ولم يعلم به صديقها...» إلى آخر الخبر[٤٤].

وهذا يعني أنّ الرواة كانوا يبيحون لأنفسهم إطلاق العنان للأخيلة حول ما يمكن أن يسمى تحللاً في العلاقات الجاهلية، دون أن يشعروا بحرج في ذلك.

ووضع أبو الفضل الميداني (ت ٥١٨هـ) أيضاً كتابه (مجمع الأمثال) بعد أن أشار عليه «الشيخ العميد الأجل السيد العالم ضياء الدولة منتخب الملك شمس الحضرة صفيّ الملوك أبو علي محمد بن أرسلان[٤٥]، بجمع كتاب في الأمثال مبرز على ما له من الأمثال، مشتمل على غثها وسمينها، محتوٍ على جاهليها وإسلاميها»[٤٦]، فلما ارتحل الميداني عن سُدَّة ضياء الدولة وعاد إلى وطنه شمر عن ساق الجد في امتثال أمره العالي، وطالع الكتب الكثيرة، وشرع يجمع الأمثال.

وقد حرص الميداني على الوفاء بما ذكره في مقدمة كتابه، فجاءت أمثاله شاملة معظم ما روته العرب، حتى إن الزمخشري (ت ٥٣٨هـ) لما وقع نسخة منه في يده بعد ما ألف (المستقصى) أطال النظر فيه فأعجبه، وندم على تأليفه (المستقصى) لكونه دون (مجمع الأمثال) في حسن التأليف والوضع وبسط العبارة وكثرة الفوائد[٤٧].

وثمة مصنفون آخرون ألفوا كتبهم في الأمثال من أجل إهدائها إلى أحد الأمراء أو الوزراء ممن اشتهرت مجالسهم بتوافد العلماء والفقهاء والأدباء إليها، ومنهم الثعالبي (ت ٤٢٩هـ)، فقد ألف كتابه (التمثيل والمحاضرة) إهداءً إلى «من جمع الله له عزة الملك إلى بسطة العلم، ونور الحكمة إلى نفاذ الحكم، وجعله مبرزاً على ملوك العصر ومدبّري الأرض وولاة الأمر بخصائص من العدل... الأمير السيد الأجل شمس المعالي»[٤٨].

٤٠- أمثال العرب: مقدمة المحقق: ٤٢-٤٣.

٤١- مجمع الأمثال: (١١) ١ / ١٧، المستقصى: (١٤٩٣) الهمزة مع اللام، ولفظه: المعافى... يضرب لمن يُخْدَعُ فلا ينخدع.

٤٢- ينظر تمام القصة في أمثال العرب: ٤٩.

٤٣- ليس في المجمع ولا في المستقصى، جمهرة الأمثال: ٢ / ٢٧٠. يقال ذلك للرجل يفعل الخير ويزيد.

٤٤- ينظر: أمثال العرب: ٥٩.

٤٥- وهو أحد أركان ملك السلاجقة، ممن تقدم وحظي عند السلطان سنجر بن ملكشاه، وارتفعت درجته حتى ترشح للوزارة، وكان حسن النظم والنثر، وجعل منزله مجمعاً للعلماء والفقهاء. توفي عام ٥٣٥هـ. ينظر: التبحير في المعجم الكبير للسمعاني ١ / ١٠٧.

٤٦- مجمع الأمثال: مقدمة المؤلف: ١ / ٩-١٠.

٤٧- ينظر: كشف الظنون: ٢ / ١٥٩٧.

٤٨- التمثيل والمحاضرة: المقدمة: ٥، وشمس المعالي هو قابوس بن وشمكير بن زيار الديلمي، كان فاضلاً أديباً مترسلاً وشاعراً ظريفاً، وله رسائل بأيدي الناس يتداولونها، وهو صاحب جرجان وطبرستان، والملك الخامس من ملوك الدولة الديلمية الجيلية، مات مقتولاً على يد ولده وعسكره عام (٤٠٣هـ). ينظر: معجم الأدباء: ٢ / ٢٥٢، نهاية الأرب في فنون الأدب: ٧ / ١٦٨.

وقد أراد الثعالبي من تأليفه هذا الكتاب أن يثبت ولاءه لهذا الأمير بنيل شرف خدمته بخدمة الأدب، ليتدرج منها إلى خدمة المجلس العالي، فلما اقترن اسم كتابه باسم الأمير شمس المعالي «استصحب الأمان من الزمان، وتعاور المستعيرون انتساخ الكتاب، حتى سار في البلاد، بل طار في الآفاق»[٤٩]. وضم الكتاب ما يجري مجرى الأمثال من كلام الأمير في أثناء رسائله، وكثيراً من شعره في المعاني المختلفة، إلى جانب الأمثال العربية القديمة.

وللثعالبي كتاب آخر أيضاً ألفه ليخدم به «خزانة كتب الأمير السيد أبي الفضل عُبيد الله بن أحمد الميكالي»[٥٠]، وهو كتابه (ثمار القلوب في المضاف والمنسوب)، فقد اتصل الثعالبي بهذا الأمير عندما كان في فيروزآباد، فطلب منه أن يؤلف كتاباً في اللغة، وغاب الثعالبي عن مجلسه زمناً، ثم عاد إليه وقد ألف له كتابيه (فقه اللغة)، و(ثمار القلوب). وكتابه هذا دائرة معارف أودع فيه الثعالبي فنوناً من العلوم والشعر والنثر والتفسير وأمثال العرب وأيامها وأخبارها وأنسابها، ليكون كتابه جديراً بأن يوضع في خزانة كتب الأمير.

وأُلِّفَ (الوسيط في الأمثال) ليُهدى إلى «المجلس السامي الأميني النجبي الخطيري»[٥١]، فقال: «أحببت أن أقوم بشكر ما يسديه، وأظهر من حسن افتقاده وتعهده ما لم يزل دائباً يخفيه، فلم أر شكراً يبقى ببقاء الدهر مع نقص العمر إلا أن أصنف برسمه كتاباً يعرف به، فألفت هذا الكتاب»[٥٢].

٤ – استكمال نقص وتجلية مبهم يراه المصنف فيما سبقه:

يبدو أن البعد الزمني بين نشأة الأمثال من جهة وتدوينها مطلع القرن الثاني الهجري من جهة أخرى جعل الغموض صفة ملازمة لكثير من الأمثال العربية القديمة، وهذا الغموض دفع كثيراً من العلماء إلى العناية بهذه الموروثات الداخلة في كلام الناس وتخاطبهم الشفوي، فسخّر الجامعون معارفهم المتنوعة من أجل تفسير الأمثال وإيضاح ما التبس منها، فضلاً عن رغبتهم في تقييد التراث المثلي، حفظاً له من الضياع والتلاشي.

فأبو عكرمة الضبي (ت ٢٥٠هـ) ألف كتابه في الأمثال لتحقيق هذه الغاية، فقال: «هذا كتاب ألفناه في معاني كلام العرب السائر مما يُحتاج إلى تفسيره لكثرة استعماله، وبيناه بشواهد من الشعر واللغة، وفسرنا ذلك ونسبنا إلى كل عالم قوله»[٥٣].

وألَّفَ الزمخشري (ت ٥٣٨هـ) (المستقصى في أمثال العرب) بغية «استكشاف غوامضها والغوص على مشكلاتها، لكونها قصارى فصاحة العرب العرباء وجوامع كلمها ونوادر حكمها وبيضة منطقها وزبدة حوارها»[٥٤]، وقد أراد أن يجمع إلى شرح الأمثال غاية أخرى، وهي تعليم من يدعي أنه عالم ويقرئ الناس الكتب بعد أن «كثر من انتدب نفسه لتدريس قوانين العربية وإقراء الكتب، من لو رجعت إليه في معنى أسير مثل لفتل أصابعه

٤٩– التمثيل والمحاضرة: ٥.

٥٠– ثمار القلوب في المضاف والمنسوب: المقدمة: ٢. وأبو الفضل الميكالي هو عُبيد الله بن أحمد بن علي بن إسماعيل بن محمد بن ميكال، ينتهي نسبه إلى فيروز بن يزدجرد بن بهرام جور، وكان أوحد خراسان في زمانه أدباً وفضلاً ونسباً، وكان حسن الخلق مليح الوجه والشمائل كثير القراءة دائم العبادة سخي النفس. توفي عام (٤٣٦هـ). وله تصانيف كثيرة، منها: المنتحل، ومخزون البلاغة، وديوان رسائله، وديوان شعره. ينظر: فوات الوفيات: ٢ / ٤٢٨، يتيمة الدهر: ٤ / ٣٥٤، زهر الآداب: ١٢٦.

٥١– بَحَثَ محقق الكتاب د. عفيف عبد الرحمن عن ترجمة لهذا الفاضل، لكن جل ما وجده أنه كان أحد الفضلاء الذين ضمهم مجلس السلطان ملكشاه الرصد زمن خلافة المقتدي بالله، وربما كان هو نفسه النظام الذي كان وزيراً للسلطان السلجوقي جلال الدين ملكشاه وأبيه ألب أرسلان. ينظر: مقدمة المحقق (الوسيط في الأمثال): ٢٢.

٥٢– الوسيط في الأمثال: مقدمة المؤلف: ٣١.

٥٣– أمثال أبي عكرمة: ٢٣.

٥٤– المستقصى: ٢.

سـدراً، ولاحمـرت ديباجتـه نشـوراً... فافتُضِـحَ وتكشّف عواره»[٥٥].

وألف أبو عبيد البكري (ت ٤٨٧هـ) (فصل المقال في شرح كتاب الأمثال) عندما تصفَّح كتاب (الأمثال) لأبي عُبيـد القاسم بن سلام، فرآه «قد أغفل تفسير كثير من تلك الأمثال، فجاء بهـا مهملة، وأعرض أيضاً عن ذكر كثـير من أخبارهـا، فأوردها مرسلـة»، فذكر «من تلك المعاني ما أشـكل»، ووصل «من تلـك الأخبار بأمثالها ما فُصل»، وبيّن «ما أهمل»، ونبّه على «ما ربما أجمل، من أبيات كثيرة غير منسوبة نسبها، وأمثال جمة غير مذكورة ذكرها، وألفـاظ عدة من الغريب فسّرها»[٥٦]، فقـد حرص البكري علـى التفصيل عندما يختصر ابن سلام، ولا سيما مـا تعلق منه بالمعاني والأخبار، وتمم النقص في الأشعـار غير المنسوبة، وشـرح ما استغلق من المعاني والألفاظ.

لكـن البكـري لديـه دافـع آخـر إلى تأليفـه (فصل المقـال)، وشـت بـه مؤلفاتـه في العلوم الأخـرى؛ فقد كانـت مؤلفـات المشـرق العربـي بالنسبـة إلى العـرب الوافديـن إلى الأندلـس مثـلاً يحتذى وكوكبـاً لامعاً في سمائهـم، لذلـك اشتغـل كثـير منهـم بكتـب المشارقة شرحـاً ومعارضـة ورداً واختصـاراً، إلى جانـب مـا ألفـوه في العلوم المختلفة، فلعل البكـري أراد أن يحذو حـذو ابن سلام في التأليف في الأمثال. ومما يرجّح هذا الدافع أن البكري ألف كتاباً شرح فيه (أبيات الغريب المصنـف)[٥٧] للقاسم بن سـلام، وألف كتابين آخرين شـرح فيهمـا كتـاب (الأمـالي) لأبـي علي القـالي، هما (التنبيـه على أوهـام أبي علي في أماليـه)، و(اللآلي في شرح أمالي القالي).

وألّـف أبو هـلال العسكـري (ت ٣٩٥هـ) (جمهرة الأمثـال) – فضـلاً عن رغبتـه في تأسيس علـم الأمثال وتدوينـه – لِعَيـبٍ مـا وجـده في مـا صنفـه حمـزة الأصبهـاني (ت نحو ٣٥١هـ) قبلـه، فقد اشتمل كتابه الجمهـرة على ما لم يشتمل عليه كتاب يعرفه، وضمّنه «ملخصة لا يشينها الإهذار، ولا يُزري بها الإكثار، ولا يعيبها التقصير والإقلال»[٥٨]، وميز «ما أورده حمزة الأصبهاني من الأمثال المضروبة في التناهي والمبالغة، وهـي الأمثال على أفعل مـن كذا»، فأورد منها «ما كان عربيـاً صحيحاً»، ونفى «المولَّـد السقيم»، ليتبرأ كتابه «مـن العيب الذي لزم كتاب حمـزة في اشتماله على كل غثٍّ من أمثال المولَّديـن وحشوة الحضريين، فصارت العلماء تلغيه وتسقطه وتنفيه»[٥٩].

٥ – التأريخ والتدوين:

يرى الجاحـظ (ت ٢٥٥هـ) أنه «لولا الكتب المدونة والأخبـار المخلّـدة والحكـم المخطوطـة التـي تحصّن الحسـاب وغـير الحسـاب لبطـل أكـثر العلـم، ولغلب سلطـان النسيـان سلطان الذكـر. ولو كُلِّـف عامة من يطلب العلـم ويصطنع الكتب ألا يـزال حافظاً لفهرس كتبه لأعجزه ذلك، ولكُلِّف شططاً، ولشغله ذلك عن كثير ممـا هو به أولى»[٦٠]، فالتدويـن «يثبت الحفظ، ويذكي القلـب، ويشحذ الطبع، ويجيـد البيان، ويُكسِب جميل الذكر وجزيل الأجر، وهو مخلدة إلى آخر الدهر»[٦١].

وتبدو رغبة التأريخ والتدوين لفن الأمثال –فضلاً عن غرض الوعظ والإرشاد– دافعاً قويـاً عند القاسم بـن سـلام (ت ٢٢٤هـ)، «فالأمثـال حكمـة العـرب في الجاهليـة والإسـلام، وبهـا كانـت تعارض كلامهـا، فتبلـغ بهـا ما حاولـت من حاجاتهـا في المنطـق بكناية

٥٥– المستقصى: ٣.
٥٦– ينظر: فصل المقال: ٢.
٥٧– ذكـره البكري في كتابه (سمـط اللآلي في شرح كتاب الأمالي): ١/ ٣.
٥٨– جمهرة الأمثال: ١١.
٥٩– جمهرة الأمثال: ١١.
٦٠– الحيوان: ١/ ٤٧.
٦١– الفقيه والمتفقه: ١/ ٢٠٨.

بغير تصريح»[٦٢]، فعمل على تأليف كتابه في الأمثال ليدوّن ما حفظه منها ومن كلام النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: «وكان مما دعانا إلى تأليف هذا الكتاب وحثنا عليه ما روينا من الأحاديث المأثورة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قد ضربها، وتمثل بها هو ومن بعده من السلف، وقد ذكرنا بعض ذلك ليكون حجة مذهبنا»[٦٣].

لكن الأمثال التي ذكرها في كتابه لم تكن جميعها مما ورد عن النبي الكريم أنه ضربها أو تمثل بها.

ومثله زيد بن رفاعة الهاشمي (ت ٣٧٣هـ)، فقد دفعته أهمية الأمثال في الكلام وما تؤديه من وظائف الكناية إلى تدوين ما اجتمع له منها، فقال: «فالإيجاز في الكلام إذا صادف موقعه حلية، والتشبيه إذا ورد موضعه زينة، والتعريض في كثير منه أبلغ من التصريح، والكناية في أماكنها أوقع من التحقيق»[٦٤]، فلما رأى أن جميع هذه الخلال مجتمعة فيما ضربته العرب من الأمثال جمع للراغبين في الأدب ما رواه عن أكابر السلف مجموعاً في تصانيفهم ومفرقاً في أماليهم.

ومن هذا الباب – باب الرغبة في التدوين والتأريخ – نجد أن أبا هلال العسكري قد أشار إلى أشعار الذين أخذوا المثل إمعاناً منه في التأريخ للمثل بدءاً من قائله وانتهاءً بآخذه شعراً، فيكثر في كتابه أن يقول: «وأخذ ذلك أبو نواس»[٦٥]، و«أخذ أبو تمام معنى المثل»[٦٦]، و«أخذه البحتري»[٦٧]، حتى بلغ عدد المواضع التي أثبت فيها العسكري أخذ المثل لدى الشعراء سبعة وثلاثين موضعًا.

٦٢– كتاب الأمثال لابن سلام: ٣٤.
٦٣– نفسه: ٣٤.
٦٤– كتاب الأمثال المنسوب إلى زيد بن رفاعة: ٣.
٦٥– ينظر: جمهرة الأمثال ١ / ١٨٣، ٢ / ٤٢٧.
٦٦– ينظر نفسه: ١ / ٣١٠، ٢ / ١٣٩.
٦٧– ينظر نفسه: ١ / ٩٢، ٢ / ٢٦٣.

إن نفع التصانيف – كما يرى ابن الجوزي – أكثر من نفع التعليم بالمشافهة، «لأني أشافه في عمري عدداً من المتعلمين، وأشافه بتصنيفي خلقاً لا تحصى ما خُلقوا بعد»[٦٨]. والأمثال خاصة انتقلت بالمشافهة أكثر مما انتقل أي نوع آخر من فنون الأدب، قبل أن يهيئ الله لها من يقيدها بالسطور بعد أن كانت حكراً على الصدور فقط.

ولما وضع القلقشندي (ت ٨٢١هـ) دليلاً يهدف إلى تأسيس كاتب ناجح، بيَّن حاجته إلى النظر في كتب الأمثال القديمة، ليتشبع بالمنثور والمنظوم منها، ويجمع بين القديم والمولد من أنواعها، دفعاً لتهمة التقصير وتحكماً في أعنّة الكلام؛ إذ «إن حاجة الكاتب لا تختص بأحاديث الأحكام ودلائل الفقه، بل تتعلق بما هو أعمّ من ذلك، خصوصاً الحكم والأمثال والسير وما أشبه ذلك مما يكثر الاستشهاد به في الكتابة والاقتباس من معانيه»[٦٩]، فالأمثال لذلك تكفي الكاتب مؤونة التعريض الذي عدّه الجرجاني (ت ٤٧١هـ) أوقع في النفس من التصريح[٧٠]، وتكفيه مؤونة الاحتجاج، لأن المثل مسلم بصحته مقبول عند الناس كافة، وتغنيه عن الإطناب حيث يُستحب الإيجاز، «وقد عُلِم أن كل من لم يُعن بها من الأدباء عناية تبلغه أقصى غاياتها وأبعد نهاياتها كان منقوص الأدب غير تام الآلة فيه ولا موفور الحظّ منه»[٧١].

والمصنفون في الأمثال العربية القديمة –وإن اختلفت الأغراض التي دفعتهم إلى التأليف فيها، وتعددت مقاصدهم في جمعها وتصنيفها– كانوا يعون حاجة كل امرئ ممن اشتغل بالعلم أو لم يشتغل به إلى الأمثال؛ فجاءت مصنفاتهم فيها دليلاً على صحة

٦٨– صيد الخاطر: ٢٤١.
٦٩– صبح الأعشى في صناعة الإنشا: ١ / ٢٠٣.
٧٠– ينظر: دلائل الإعجاز: ٢٣٥.
٧١– جمهرة الأمثال: ١ / ١٠.

مـا ذهب إليـه القلقشندي والجرجـاني، ووضعوا بين أيـدي المتلقين كتبًا كثيرة زانها حسن التبويب وبراعة الترتيـب، وأغناهـا وضـوح المنهـج والمقصـد وكـثرة الفوائد، وميزهـا سلامة الاحتجاج والوفاء للأغراض التي ذكروا معظمها في مقدمات مصنفاتهم.

فهرس المصادر والمراجع

١- أمثال العرب، تأليف: المفضل بن محمد الضبي (ت ١٧٠هـ)، تحقيق: إحسان عباس، دار الرائد العربي - بيروت، لبنان، الطبعة الثانية: ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣م.

٢-تاريـخ الرسل والملوك، تأليف: محمد بن جرير الطـبري أبـي جعفر (ت٣١٠هـ)، تحقيـق: محمد أبو الفضـل إبراهيـم، دار المعـارف - القاهـرة، مصـر، الطبعة الثانية: ١٣٨٧هـ-١٩٦٧م.

٣-التبحير في المعجم الكبير، تأليف: عبد الكريم محمد بن منصـور السمعاني المروزي أبـي سعد (ت:٥٦٢هـ)، تحقيق: منـيرة ناجي سـالم، رئاسة ديـوان الأوقاف - بغداد، العراق، الطبعة الأولى: ١٣٩٥هـ-١٩٧٥م.

٤-التمثيـل والمحاضـرة، تأليـف: أبـي منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي (ت٤٢٩هـ)، تحقيق: عبـد الفتـاح محمد الحلـو، (دار إحياء الكتـب العربية - القاهرة، مصر، الطبعة الأولى: ١٤٠١هـ-١٩٨١م.

٥-ثمـار القلـوب في المضـاف والمنسـوب، تأليف: عبـد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي (ت٤٢٩هـ)، تحقيـق: محمد أبو الفضل إبراهيـم، المكتبة العصرية - بيروت، لبنان، الطبعة الأولى: ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م.

٦-الحيـوان، تأليـف: عمـرو بن بحـر بن محبوب الجاحـظ (ت٢٥٥هـ)، تحقيـق: عبد السـلام هارون، مطبعـة مصطفـى البابـي الحلبي - القاهـرة، مصر، الطبعة الثانية: ١٣٨٤هـ-١٩٦٥م.

٧-دلائـل الإعجاز، تأليف: عبـد القاهر بن عبد عبد الرحمـن الجرجـاني النحـوي أبـي بكـر (ت٤٧١هـ)، تحقيق: محمود محمد شاكر أبي فهر، مطبعة المدني في القاهرة، دار المدني في جُدَّة، السعودية، الطبعة الثالثة: ١٤١٣هـ-١٩٩٢م.

٨-رسائل الجاحظ (رسالة المعاش والمعاد) (الجزء الأول)، تأليـف: أبـي عثمان بن عمـرو بن بحر الجاحظ (٢٥٥ه)، تحقيـق: عبـد السـلام محمـد هـارون، مكتبة الخانجي - القاهرة: مصر، (د.ط): ١٣٨٤هـ-١٩٦٤م.

٩-الزاهر في معاني كلمات الناس، تأليف: أبي بكر محمـد بن القاسم الأنبـاري (ت٣٢٨هـ) تحقيق: حاتم صالح الضامـن، دار الشؤون الثقافية العامة - آفاق عربية، بغداد، العراق، الطبعة الثانية: ١٩٨٧م.

١٠-زهر الآداب وثمر الألباب، تأليف: إبراهيم بن علي الحُصْـرِيّ القيرواني (ت٤٥٣هـ)، تحقيق: زكي مبـارك ومحمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل - بيروت، لبنان، الطبعة الرابعة: (د.ت).

١١-صبـح الأعشى في صناعة الإنشا، تأليف: أحمد بن علي القلقشنـدي (ت٨٢١هـ)، تحقيق: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية - بيروت، لبنان (د.ط): ١٩٨٧م.

١٢-صيـد الخاطـر، تأليـف: جمـال الديـن أبـي الفـرج بن محمد الجـوزي (ت٥٧٩هـ)، تحقيق: حسن السماحـي سويـدان، دار القلـم - دمشـق، سوريـة، الطبعة الأولى: ١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م.

١٣-الفاخر في الأمثـال، تأليف: أبي طالب المفضل بـن سلمة بـن عاصم الكوفي (ت٢٩١هـ)، تحقيق: عبد العليـم الطحـاوي، الهيئـة المصرية العامـة للكتاب - القاهرة، مصر، (د.ط): ١٩٦٠م.

١٤-فصـل المقال في شـرح كتاب الأمثـال، تأليف: أبـي عبيـد عبـد الله بن عبد العزيـز البكـري الأندلسي (ت٤٨٧هـ)، تحقيـق: إحسـان عباس، وعبـد المجيد عابديـن، مؤسسـة الرسالة، ودار الأمانـة - بيروت، لبنان، الطبعة الأولى: ١٣٩١هـ-١٩٧١م.

١٥-فوات الوفيات والذيل عليها، تأليف: محمد بن شاكر الكتبي (ت٧٦٤هـ)، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر – بيروت، لبنان، الطبعة الأولى: ١٩٧٤م.

١٦-كتاب الأمثال المنسوب إلى زيد بن رفاعة الهاشمي (ت٣٧٣هـ)، تحقيق: علي إبراهيم كردي: دار سعد الدين للطباعة – دمشق، سورية، الطبعة الأولى: ١٤٢٣هـ-٢٠٠٣م.

١٧-كتاب الأمثال، تأليف: أبي عبيد القاسم بن سلام (ت٢٢٤هـ)، تحقيق: عبد المجيد قطامش، دار المأمون للتراث – دمشق، سورية، الطبعة الأولى: ١٤٠٠هـ-١٩٨٠م.

١٨-كتاب الفقيه والمتفقه، تأليف: أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي أبي بكر (ت٤٦٣هـ)، تحقيق: عادل بن يوسف العرازي، دار ابن الجوزي – الدمام، السودية، الطبعة الأولى: ١٤١٧هـ-١٩٩٦.

١٩-كتاب جمهرة الأمثال، تأليف: أبي هلال العسكري (ت ٣٩٥هـ)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم وعبد المجيد قطامش، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط٢، (١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م).

٢٠-كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، تأليف: مصطفى بن عبد الله كاتب جلبي المشهور باسم حاجي خليفة (ت١٠٦٧هـ)، تحقيق: محمد أحمد جاد المولى، ومحمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر – بيروت، لبنان، (د.ط): ١٩٨٢م.

٢١-لسان العرب، تأليف: جمال الدين بن منظور الأنصاري (ت٧١١هـ)، تحقيق: أمين محمد عبد الوهاب، ومحمد الصادق العبيدي، دار إحياء التراث العربي، ومؤسسة التاريخ العربي – بيروت، لبنان، الطبعة الأولى: ١٤١٦هـ-١٩٩٥م.

٢٢-مجمع الأمثال، تأليف أبي الفضل أحمد بن محمد بن أحمد بن إبراهيم الميداني (ت٥١٨هـ) تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية – صيدا وبيروت، لبنان، وشركة أبناء شريف الأنصاري للطباعة، الطبعة الأولى: ١٤٢٨هـ-٢٠٠٧م.

٢٣-المستقصى في أمثال العرب، تأليف: محمود بن عمر جار الله الزمخشري (ت٥٣٨هـ) دار الكتب العلمية – بيروت، لبنان، الطبعة الثانية: ١٤٠٨هـ-١٩٨٧م.

٢٤-معجم الأدباء، تأليف: شهاب الدين ياقوت الحموي (ت٦٢٦هـ)، تحقيق: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي – بيروت، لبنان، الطبعة الأولى: ١٤١٤هـ-١٩٩٣م.

٢٥-مقدمة ابن خلدون، تأليف: عبد الرحمن محمد بن خلدون (ت ٨٠٨ هـ)، تحقيق: عبد الله محمد الدرويش، دار يعرب، الطبعة الأولى ١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م.

٢٦-نهاية الأرب في فنون الأدب، تأليف: أحمد بن عبد الوهاب شهاب الدين النويري (ت٧٣٣هـ)، تصحيح: أحمد الزين، دار الكتب المصرية – القاهرة، مصر، (د.ط): ١٩٢٩م.

٢٧-النهاية في غريب الحديث والأثر، تأليف: مجد الدين أبي السعادات المبارك بن الأثير الجزري (ت٦٠٦هـ)، تحقيق: ظاهر أحمد الزاوي، ومحمود محمد الطناحي، المكتبة العلمية ودار الفكر – بيروت، لبنان، الطبعة الثانية: ١٣٩٩هـ-١٩٧٩م.

٢٨-الوسيط في الأمثال، المنسوب إلى أبي الحسن علي بن أحمد الواحدي (ت٤٦٨هـ)، تحقيق: عفيف محمد عبد الرحمن، مؤسسة دار الكتب الثقافة، الكويت (د.ط): ١٣٩٥هـ-١٩٧٥م.

٢٩-يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، تأليف: عبد الملك بن محمد أبي منصور الثعالبي (٤٢٩هـ) تحقيق: مفيد محمد قميحة [؟]، دار الكتب العلمية – بيروت، لبنان، الطبعة الثانية: ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.

الرَّحَّالة مُحيي الدِّين بيري رئيس
رحلاتُهُ ونشاطُهُ البحريُّ

د. عبَّاس مرهج فرج *

يُعدُّ الرَّحَّالة العثمانيُّ محيي الدين بيري رئيس من أشهر البحَّارة والملَّاحين والقادة العسكريين، في القرن السادس عشر الميلادي، فقد جاب البحار حين كانت الدولة العثمانية تشهد أوج قوتها واتساعها، بعد سيطرتها على البحار وإخضاعها لنفوذها، ولا سيَّما البحرين المتوسط والأسود، كما وصلت السُّفن العثمانية إلى البحر الأحمر، والخليج العربي، وبحر عُمان، والمحيط الهندي، وقد تميَّز البحَّار محيي الدين بيري رئيس بثقافته الواسعة، وإتقانه أكثر من لغة، مما مكَّنه من الاطلاع على علوم البحار والجغرافية، فأصبح، فيما بعد، من البارزين في هذا المجال، وترك مخطوطات وخرائط جمعها في كتابه الموسوم بـ «بحرية»، وقد قدَّم فيه معلومات قيِّمة عن تقنيات المِلاحة المبكِّرة وعلم الفلك، إضافة إلى مخطَّطات دقيقة دلَّت على مهارته في رسم الخرائط، ووصف الموانئ والخلجان والرؤوس والجُزُر والمضائق، وقدرته على تقييد معلوماتٍ عن السكان المحلِّيين في البلدان والمدن التي زارها، وما فيها من عادات وأعراف غريبة في ثقافة تلك البلاد.

* مدرِّس في قسم التاريخ – كلّيّة الآداب الثّانية في السُّويداء – جامعة دمشق.

-مولدُه ونشأتُهُ:

وُلِـدَ البحَّارة العثمانيُّ محيي الدين بيري رئيس ما بين عامي ١٤٦٥ – ١٤٧٠ ، إذ ليس هناك تاريخ دقيق لسنة ولادته، في مدينة غاليبولي الواقعة في شبه جزيرة غاليبولي على بحر مرمرة، وقد كانت السلطة العثمانية تستخدم هـذه المدينة بوصفها مركزًا إداريًا للأسطول العثماني آنذاك، وكان معظم سكانها يعملون في البحر.

فنشـأ بـيري رئيس في كنـف والـده حاجي محمد، وخالـه كمـال رئيـس، اللذيـن يُعـدَّان مـن البحـارة المعروفين والمشهورين بركوبهم البحر في تلك الحقبة.

حمـل بـيري رئيـس لقب محيـي الديـن، واختلفت المصـادر التاريخية في أصله، إذ يذكـر بعضها أنه من عائلة قره مانيه التركية، في حين ترجِّح مصادر أخرى نسبته إلى أصول يونانية[١].

وقـد عاش محيـي الدين بـيري رئيس سبـع سنوات مـن حياتـه في مدينة غاليبولي، وتلقَّـى تعليمه فيها، وعند بلوغـه الثانيـة عشـرة من عمـره، التحـق بفريـق خاله البحَّار كمال رئيس، إذ ابتدأ عمله البحري تحت إشراف خالـه، واشترك في مختلف أنـواع العمليات البحرية مدة أربـع عشرة سنـة. سنحاول في هذا المقـال أن نتتبَّع أهم محطات حياته في هذه المرحلة، من خلال ما ورد في كتابه: «بحرية»، الذي سطَّر فيه تجاربه، ومغامراته، ورحلاته، والأماكن التي زارها مع خاله، والأحداث التاريخية التي حدثت في تلك الآونة، بأسلوب عذب سلس جميل.

قضـى، إذن، محيـي الدين بيري رئيـس، مدة أربع عشـرة سنـة برفقـة خاله كمـال ريـس، علـى الساحل الإفريقـي، في الجزائـر وتونس وبونة[٢]، بعـد أن أنشأ لـه قـوة بحرية في غـرب البحر المتوسـط، وهاجم سفن الإسبان والبرتغاليين، التي تتعرَّض للمسلمين النازحين مـن الأندلـس، ونقلهـم إلى المغرب العربـي، وقد شارك بيري رئيـس البحَّارة في المعارك التـي خاضوها بقيادة كمال ريـس ضد صقيلية وسردينيا وكورسيكا، في المدة ما بين عامـي ١٤٩١–١٤٩٢م، وقد دفعت انتصاراتهم المتكـرِّرة السلطـان العثمـاني بيازيـد الثـاني بن محمد الفـاتح(١٤٨١–١٥١٢م)، إلى إدخالهـم في الأسطـول العثمـاني، للاستفادة من خبرتهم ومعارفهـم بالبحَار، وقد شاركا في العمليات الحربية التي خاضـها الأسطول العثمـاني في البحر المتوسط، ولا سيمـا بعد تسلم كمال ريس رئاسـة أركان البحرية لأسطول التابعية الأميرية العليـا للقوات البحريـة كلها، فمَنَحَ كمـالٌ بيري رئيس الإمـارة الرسميـة على بعض السفن في هـذا الأسطول، وقـد بلغت ذروة نشاطه البحري في الأسطول العثماني، في المدة الممتدة ما بين ١٤٩٩– ١٥٠٢م[٣].

وقـد كتـب محيي الديـن بـيري رئيس عـن أسباب دعـوة السلطـان إياهـم للانضمـام لأسطـول الدولـة العثمانيـة، فقـال: «كان كمال ريس علـى معرفة في كل ما يتصـل بالبحر، وكانت لـه السيطـرة المُطلَقة عليه، إذ لم يستطـع أحـد أن يُخضعه، رغـم أن ذلك العهد لم يكـن يخلو مـن البحَّـارة الماهريـن، إلا أنَّ الله سخَّر له أغلـب الانتصارات والفتوحـات، حتى إني أعجب لأمر وأسرار البحار التي يعرفها، ولهذا دعانا بيازيد الثاني ضمـن جيشه، وأن نسخر لصالـح الدولة كل خبراتنا البحريـة، وبعـد أن عدنا إلى الوطـن (غاليبولي) ذهبنا في بعثـات واستطلاعات بناء على أوامر السلطان، وقد حقَّقنا العديد من الانتصارات البحرية»[٤].

١– خضـير رابحة محمد، من أعـلام الجغرافيا البحرية العثمانية محيي الدين بيري ريس، مجلة التربية والعلم، المجلد ١٦، العدد الرابع، جامعة الموصل، ٢٠٠٩، ص ٦٢.

٢– وهـي ميناء عنابـة الآن، من المدن الجزائرية المهمة، تقع شمال شـرق الجزائر على ساحل البحر المتوسـط، حين فتحها المسلمون عام ٧٨ه / ٦٩٧م أسموها: عنابة نسبة إلى أشجار العناب.

٣– أنيـس عبد الخالق محمـود القيسي، النشاط البحري العثماني في البحـر المتوسط خلال القرن السادس عشر، أطروحة دكتوراه، كلية الآداب، جامعة بغداد، ٢٠٠٧، ص ٩٤.

٤– علاوي نسيبة عبد العزيز الحاج، البحار العثماني محيي الدين بـيري ريـس حياته وجهـاده البحـري ١٤٦٥–١٥٥٤م، مجلـة التربية والعلم، المجلد ١٦، العدد الرابع، جامعة الموصل، ص ٧٧–٧٨.

بعد ذلك كلّفت السلطة العثمانية بيري رئيس كثيرًا من المهمات، إذ أُسنِدت إليه، في المدة ما بين عامي ١٥١٦-١٥١٧م، قيادة عدة سفن عبرت نهر النيل، ووصلت إلى القاهرة، وأسهمت في القضاء على حكم المماليك في مصر، ورسم بعد ذلك خريطة عن هذه المنطقة، وسجَّل معلومات مفصَّلة عنها، وقد عرض هذه الخريطة على السلطان العثماني سليم الأول، وبدأ بيري يضع ملاحظاته حول المِلَاحة، جامعًا إياها في كتابه الذي أطلق عليه اسم «بحرية»، وقد ذكر فيه مشاركته في عهد السلطان سليمان القانوني، في الحملة على جزيرة رودس مع الأسطول العثماني، كما ذكر تكليف السلطان العثماني إياه أن يكون مستشارًا للصدر الأعظم إبراهيم باشا، وقد جاء في كتابه: «أن المختصين بشؤون البحر ذكروا السلطان بوجوب وجود دليل ومرشد للرحلة، فقد جرى ترشيحي للمهمة، وذكروا عني للسلطان أن بيري بن محمد بالغ الحرص في عمله، ويعرف متى يتخذ القرار، ويتصرف في الوقت المناسب»[٥].

وهكذا أصبح محيي الدين بيري رئيس قائدًا للسفينة التي يستقلُّها الصدر الأعظم إبراهيم باشا، خلال وجوده في مصر سنة ٩٣١هـ / ١٥٢٤م، وكان مستشاره خلال إصلاحاته التي دامت سنة كاملة، وقد قدَّم بيري رئيس شرحًا مفصَّلًا عن تلك المهمة في كتابه «بحرية». من الواضح أن كتابه على قدر كبير من الأهمية، إذ استُخدم دليلًا بعد تعرض الأسطول العثماني لعاصفة قوية في البحر المتوسط، فتولَّى نتيجة خبرته العلمية قيادة الأسطول، حتى وصل به إلى جزيرة رودس، وقد أثبت نفسه وقيمة كتابه بالتجربة العملية أمام إبراهيم باشا، الذي شجَّعه على وضع ملاحظاته في الكتاب، ونسخه نسخة ثانية، وقد خاطبه قائلًا: «أنت إنسان تعلم كل شيء عن البحر، وهذه موجودة في جوفك، فأخرجْها إلى النور، لتبقى خالدة ليوم القيامة، ورتِّب الكتاب بصورة جيدة لينتفع منها كل إنسان، وأنجز ذلك بأسرع وقت لأقدِّمه للسلطان»[٦].

فاستجاب بيري رئيس لطلبه، وأعاد ترتيبه، ونسخه من جديد، وقدَّمه هدية للسلطان العثماني سليمان القانوني.

ومما تجدر الإشارة إليه أيضًا أن محيي الدين بيري رئيس قد نبَّه في كتابه السلطان العثماني سليمان القانوني على خطورة تزايد النفوذ البرتغالي في المحيط الهندي، مما يؤدي إلى أضرار خطيرة على اقتصاد الدولة العثمانية، ولا سيما تحول طرق التجارة العالمية إلى أيدي أعدائهم.

-إنجازات محيي الدين بيري رئيس:

سنحاول في هذا المقام الإضاءة على جهود بيري رئيس، وخبراته وإنجازاته التي اشتُهِرَ بها، وأولها:

١- رسم الخرائط:

اشتُهِر الملَّاح محيي الدين بيري رئيس، إضافة إلى إنجازاته العسكرية، بإنجازاته العلمية، وتجربته البحرية الملاحية، ولا سيما تفوقه في رسم الخرائط، وقد رُسِمت هذه الخرائط على جلد غزال مرفقة بأشكال وكتابات ملوَّنة ومتنوعة. إذ رسم أول خريطتين للعالم، الأولى في مدينة غاليبولي عام ١٥١٣م، حدَّد فيها كلًا من إسبانيا وغرب إفريقيا والمحيط الأطلسي والسواحل الشرقية للقارة الأمريكية بسواحلها وجزرها وموانئها وحيواناتها وسكانها (أي الهنود

5- Syidi Ali Reis، Mirat – Ül – Memalik، S.1; Afet inan، A. life and work of pire Reis: the oldest Map of America، Translated by: L. Yolac and E. Uzman (Ankara، 1973). P: 14.

٦- الكندري فيصل، الملاح والجغرافي بيري ريس، سلسلة رسائل جغرافية، الطبعة الأولى، الجمعية الجغرافية الكويتية، الكويت، ١٩٩٩، ص٢٢.

الحمـر)، الذين رسمهم وهم يرعـون الغنم، فضلًا عن رسمه لفيلة ونعامات ظهرت في الجزء الخاص بالقارة الإفريقية[٧].

تـدل هـذه الدِّقَّة في رسم الخريطـة وتحديد مختلف التضاريس، علـى براعة محيي الدين بـيري رئيس في المِلَاحة ورسم الخرائط.

الجزء المكتَشَف من خريطة بيري ريّس محفوظة في مكتبة متحف قصر طوب قابي في إستانبول

ذكـر محيـي الدين بـيري رئيس أنه أفاد مـن أربع وثلاثين خريطة، حين وضع خريطته الأولى، التي قدَّمها للسلطان العثماني سليم الأول، في أثناء وجوده في مصر سنـة ١٥١٧م[٨]، وبقيت محفوظة في قصر السلطان إلى أن اكتشفهـا عـالم الآثار التركي خليـل أدهم، الذي عثر عليهـا في مكتبة السراي، في مدينة إستانبول، وهي ذات ألـوان زاهيـة مرسومة على ورق قياس ٦٠×٨٥ سم، وعليها توقيع محيي الدين بيري رئيس.

ويبدو أن بيري رئيس قد اطَّلع على كثير من تفاصيل الكشوف البحرية الإيبيرية[٩]، مما يجعلنا نزعم أنه اطَّلع على تفاصيـل رحلة كريستـوف كولومبوس، ومدوَّنات البحَّارة البرتغاليين والإسبان، فارتسمت في ذهنه فكرة عن الجانـب المكتَشف من القـارة الأمريكية، فقد ذكر في كتابـه: «يوجـد كتـاب وقع في أيـدي المذكـور كولمبوس، مذكـور فيه أنه في نهاية البحر الغربي (المقصود المحيط الأطلسي)، وعلى جانبـه الغربي توجد سواحل وجزر، وكل أنواع المعادن والأحجار الكريمة أيضًا»[١٠].

أمـا خريطته الثانية، فهي موجودة في متحف قابي بإستانبـول، وكانـت بقياس ٦٨×٦٩سـم، وقد حدَّد فيهـا سواحـل الأطلسي، وقد ذكـر في كتابه «بحرية»: «أن بحـر المغرب (المقصود هنا المحيط الأطلسي) بحر عظيم يمتد بعرض ٢٠٠٠ ميل، باتجاه الغرب من سبتة، وفي طرف هذا البحر العظيم توجد قارة أنتيليا»[١١].

رسـم بـيري رئيـس الجـزر هنا علـى نحو أكـثر دقة من الخريطـة الأولى، وتدارك الأخطـاء التي وقع فيها في الخريطـة الأولى، فأثبتها في الخريطـة الثانية مستعينًا في ذلـك بخريطـة كولومبوس، ووضع علـى الخريطة أربع زهـور، استُخدمت بوصفها مؤشرًا بـيَّن بها جهة هبوب الريح وشدتها، ورسم مدار السرطان الذي لم يحدِّده على الخريطة الأولى، وكذلك ظهر على الخريطة الثانية مقياس الرسم بالأميال، وقـد وُضِّحَت كل أقسام الخريطة، التي جـاءت مقسَّمة إلى عشرين جـزءًا، بحيث قُـدِّرَت المسافة بـين هذه الأجزاء بخمسين ميلًا، أما المسافة بين نقطتين، فقدرت بعشرة أميال، مما جعل مقياس الرسم في الخريطة الثانية أكبر مما هو عليه في الخريطة الأولى[١٢].

٢- كتابه المعنون بـ: «بحرية»:

يُعدُّ كتاب «بحرية» من أهم الكتب المِلَاحية، إذ دوَّن محيي الدين بـيري رئيس فيـه كل ملاحظاته وخبرته البحريـة، وكأنـه يمثِّل خلاصة تجربـة عمرها ثلاثون

٧- خضير رابحة محمد، المرجع السابق، ص٦٣.

٨- دائرة المعارف الإسلامية، المجلد الرابع، (مادة بيري ريس)، ص ٤٠٧.

٩- شبه الجزيرة الإيْبيريّة أو إبَارِيَة :كانت تسمى جزيرة الأندلس أو شبـه جزيرة الأندلس أو شبه الجزيـرة الأندلسية أثناء فترة الحكم الإسلامـي للأندلس، تقع في الجزء الجنوبي الغربـي من قارة أوروبا. تتكون من إسبانيا والبرتغال وأندورا ومنطقة جبل طارق.

١٠- الكندري فيصل، المرجع السابق، ص ١٣-١٧.

١١- خضير رابحة محمد، المرجع السابق، ص٦٦.

١٢- المرجع نفسه ص٦٤.

عامًا من البحث العلمي في الشؤون البحرية، والاطلاع الواسع على الآداب الجغرافية العربية والغربية، بدأه بيري رئيس بمقدِّمة شعرية طويلة، وضمَّنه في المتن معلومات عن الأحوال الطبيعية والجوية، وقدم شرحًا تفصيليًا عن موانئ المغرب العربي، ووصفًا لكل السواحل التي شاهدها مع بيان التيارات والشُّعَب والمراسي والخلجان والمرافئ، ومنابع المياه العذبة، والمواضع المحصَّنة والقلاع والمباني والخرائب، كما ذكر فيه الأحداث التاريخية التي عاصرها وشاهدها أثناء رحلته مع خاله كمال رئيس بأسلوب سلس، ولا سيما أن المعلومات التي أوردها مبنية على تجاربه الشخصية، ودراساته الخاصة، وكذلك على ما سمعه من الأشخاص في الأماكن التي زارها.

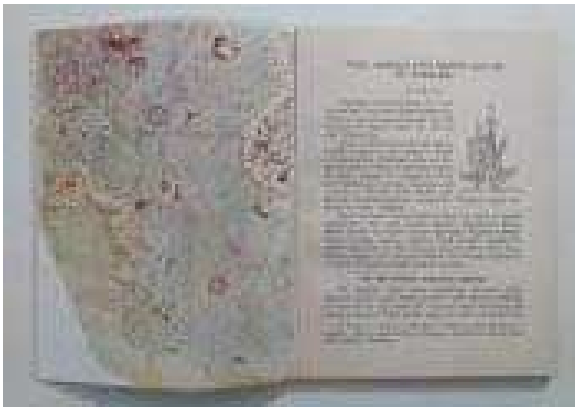

وتحدَّث في كتابه أيضًا عن الاكتشافات الجغرافية الأوروبية الحديثة، ووصولهم إلى جنوب القارة الإفريقية، واكتشافهم طريق رأس الرجاء الصالح، وتوغلهم شرقًا حتى وصولهم للهند، حيث أوضح في مقدِّمته الشعرية أن البرتغاليين تقدَّموا أكثر باتجاه الشرق حتى وصلوا إلى مضيق ملقا[١٣]، ووصف الطريق الذي كانوا يسلكونه من لشبونة وصولًا إلى الهند، وكيف تجنَّبوا المياه الحارَّة وحالات السكون على شواطئ إفريقيا الغربية، وقدرتهم الكبيرة على تحديد مواقع سفنهم في المياه المفتوحة، ونجاحهم في الاعتماد على حركة الرياح من أجل الوصول إلى شواطئ إفريقيا الغربية، ومن ثمَّ اكتشافهم طريق رأس الرجاء الصالح.

كذلك نبَّه، من خلال هذا الكتاب، سلاطين بني عثمان على خطر تزايد النفوذ البرتغالي في المحيط الهندي، وما له من تأثير في اقتصاد الدولة العثمانية، وذلك من خلال تحول التجارة العالمية إلى أيدي أعدائهم، ولفتَ أنظارهم إلى أن البرتغاليين قد استحوذوا شيئًا فشيئًا على تجارة الهند مع أوروبا[١٤].

وقد عُثِر على نسختين للكتاب، ضمَّت النسخة الأولى مئة وثلاثين فصلًا، تطرَّق المؤلف في كل فصل منها إلى موقع جغرافي معين، ثم ختمه بخريطة توضيحية، وجعل كل فصل مستقلًا بمعلوماته عن الفصل الذي يليه، واستخدم أسلوب التتابع الجغرافي للمواقع التي ذكرها، بدءًا من مدينة غاليبولي على طول سواحل البحر المتوسط، فوصف مصر وسواحلها، وقدَّم معلومات مهمة عن سكانها، ورسم خرائط لها تبدأ من شواطئ السلوم، وتنتهي عند غزة، وتحدَّث عن كل مكان بقسم خاص به[١٥]، كذلك وصف الخليج العربي، وخصَّص له فصلًا كاملًا، وأشار إلى أبرز الجزر الموجودة فيه ، كما تحدَّث عن صيد اللؤلؤ في المنطقة، وأوضح أن البرتغاليين سيطروا على جزيرة هرمز.

أما النسخة الثانية من الكتاب فقد بدأ العمل بها

١٣- ممر مائي يقع في جنوب شرق آسيا بين شبه جزيرة ماليزيا وجزيرة سومطرة ، يصل بين بحر أمدان في المحيط الهندي من جهة الشمال الغربي، وبين بحر الصين من جهة الجنوب الشرقي.

١٤- علاوي نسيبة عبد العزيز الحاج، المرجع السابق، ص ٨١.

١٥- المرجع السابق نفسه، ص ٦٨.

بعد مدة من كتابته للنسخة الأولى، وكان ذلك بتشجيع من الصدر الأعظم إبراهيم باشا، كما ذكرنا أعلاه، الذي اكتشف أهمية كتاب محيي الدين بيري رئيس، أثناء الحملة التي قادها إلى مصر، واستفادته منه في لحظات حرجة تعرضوا لها أثناء هذه الحملة، مما دفع إبراهيم باشا لإقناع بيري رئيس بأن يجمع أوراق كتبه المبعثرة، ويصنع منها نسخة ثانية، وقدَّمها هدية للسلطان العثماني سليمان القانوني عن طريق الصدر الأعظم إبراهيم باشا.

ركَّز بيري رئيس في النسخة الثانية من كتابه على الخرائط كثيرًا، فقد وصل عددها إلى مئتين وعشر خرائط، وقد ضمَّت هذه النسخة مقدِّمة منظَّمة تشمل خمسين فصلاً، عالجت موضوعات شتى مما يحتاج إليه الملاحون، مثل الخبرة والتأهب الدائم أثناء مزاولة هذه المهنة، واستعمال البوصلة والخرائط والمعرفة بالجغرافيا الملاحية، وذكر في هذه النسخة أيضًا منابع النيل وجزر زنجبار في المحيط الهندي وبحر عدن والمحيط الأطلسي والاكتشافات الجغرافية، وخطوط الزوال[١٦] والطول، ثم أنهى مقدَّمة كتابه بقصيدة طويلة أشبه ما تكون بخاتمة مؤلَّفة من مئة بيت، يعرض فيها الأسباب التي دعته إلى وضع النسخة الثانية للكتاب.

في الختام لا بد من الإشادة بجهود البحَّار محيي الدين بيري رئيس، وفضله في الملاحة البحرية، وإرساء قواعد الجغرافيا البحرية، ولا سيما إنجازه الأهم ألا وهو كتابه: «بحرية»، الذي حوى خلاصة رحلاته البحرية ومشاهداته في البحر المتوسط والمحيط الأطلسي والمحيط الهندي، وزبدة أسفاره وعلومه ومعارفه، وحفظ خرائطه المهمة في عصره والعصور اللاحقة. من هنا يمكن القول: إن محيي الدين بيري رئيس قد أسدى خدمة كبيرة لعلم الجغرافية والملاحة البحرية من جهة، وخدمة أكبر للحضارة الإسلامية من جهة أخرى، فكان رجلًا من رجالات الأمة الكبار الذين مثَّلوا مثالًا ناصعًا يشهد على مشاركة الحضارة الإسلامية في تقدم الحضارة الإنسانية عامة.

١٦- خط الزوال الرئيس: هو خط وهمي يقسم الكرة الأرضية إلى قسمين شرقي وغربي، ويمر بالأرض من شمالها إلى جنوبها.

المراجع:

١-أنيس عبد الخالق محمود القيسي، النشاط البحري العثماني في البحر المتوسط خلال القرن السادس عشر، أطروحة دكتوراه، كلية الآداب، جامعة بغداد، ٢٠٠٧.

٢-خضير رابحة محمد، من أعلام الجغرافيا البحرية العثمانية محيي الدين بيري ريس، مجلة التربية والعلم، المجلد ١٦، العدد الرابع، جامعة الموصل، ٢٠٠٩.

٣-دائرة المعارف الإسلامية، المجلد الرابع، (مادة بيري ريس).

٤-علاوي نسيبة عبد العزيز الحاج، البحار العثماني محيي الدين بيري ريس حياته وجهاده البحري ١٤٦٥-١٥٥٤م، مجلة التربية والعلم، المجلد ١٦، العدد الرابع، جامعة الموصل.

٥-الكندري فيصل، الملاح والجغرافي بيري ريس، سلسلة رسائل جغرافية، الطبعة الأولى، الجمعية الجغرافية الكويتية، الكويت، ١٩٩٩.

6- Syidi Ali Reis. Mirat – Ul – Memalik. S.1; Afet inan. A. life and work of pireReis: the oldest Map of America. Translated by: L. Yolac and E. Uzman (Ankara. 1973).

عبدُ الوَهَّابِ الزّنجانِيُّ (ت٦٥٥ هـ)، وكتابه «الكافي في شرح الهادي»

د. ساجد الخليف الصالح*

مقدمة

يُعَدُّ عبد الوهاب الزّنجاني من العلماء الذين توسّطوا عصور علماء العربية، فقد عاش في بدايات القرن السابع الهجري، وتوفّي بُعيد منتصفه، فكان له حظ في تحصيل علم من سبقوه من العلماء، ودراسة مؤلفاتهم وآثارهم، وقد ظهرت نتائج تحصيله هذا في مؤلفاته ولا سيما كتاب الكافي في شرح الهادي، وهو الكتاب الذي شرح فيه متن الهادي في النحو والصرف، وقد استوعب هذا الكتاب جميع مواضيع النحو والصرف ومسائلهما، وزاد عليهما مبحثي الضرورة الشعرية والخط، في نهاية الكتاب، وكانت مباحث الصرف في قسمه الثاني، وقد عكفت على تحقيق هذا القسم، وانتهيت منه عام ٢٠١٠، وتقدمت به إلى قسم اللغة العربية في جامعة دمشق لنيل درجة الماجستير، وكان في تلك المدة زميلان من طلبة القسم يعملان في تحقيق قسمي النحو من هذا الكتاب، وانتهيا منه بعد زمان ما، وأردت هنا أن أعرف بالكتاب ولا سيما القسم الصرفي منه الذي كنت قد حققته ودرسته، وأن أعرف كذلك بمؤلفه وحياته العلمية وآثاره ومصادره في كتابه، لعله يكون في ذلك نفع وفائدة للعربية وطلبتها.

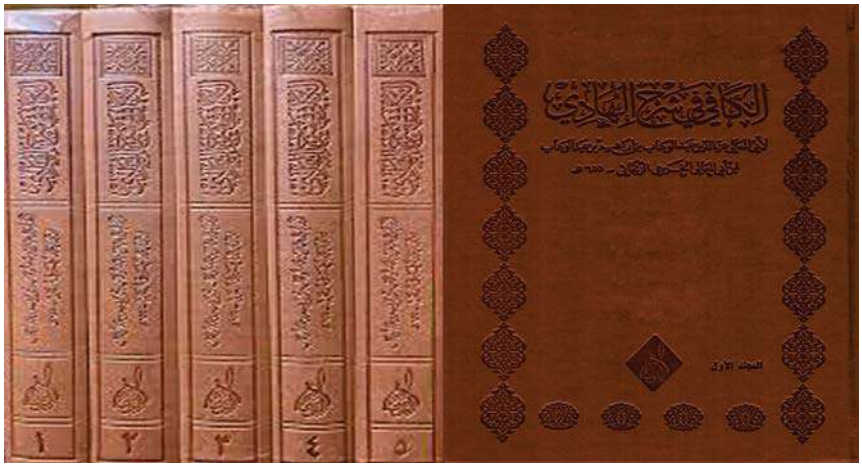

* باحث في شؤون التُّراث العربيّ وتحقيق نصوصه.

أوّلًا- حياته وآثاره

•-اسمه ونسبه:

كتب الزنجاني ترجمة اسمه ونسبه مدوِّنًا ذلك في آخر صفحة من كتابه في النحو والصرف (الكافي في شرح الهادي) إذ فرغ من تأليفه، قائلًا عن نفسه:

أبو المَعالي عبدُ الوَهَّاب بنُ إبراهيمَ بنِ عبدِ الوهَّابِ بنِ أبي المَعالي الخَزْرَجيُّ الزَّنجانيُّ[١].

وأوردَ ابنُ قاضي شهبة[٢] في ترجمته لأبيه إبراهيم بن عبد الوهّاب اسمَ جدِّ أبيه باسم «عليّ». قال: هو إبراهيم بن عبد الوهاب بن عليّ. وهوَ غريبٌ؛ إذ لم يذكرْ أحدٌ أنّ اسمَ جدّ أبيه عليٌّ غيرُه.

واشتهر عبد الوهّاب الزَّنْجانيّ «بعزّ الدين»[٣]، وشاع ذلك في كتب النّحويين والمترجمين، ولغلبة هذا اللقب عليه صار المتنُ الذي صنّفَه في التصريف يُسَمَّى «تصريف العزّي» أو «العزّي في التصريف».

ويُعْرَفُ أيضًا بتاج الدّين[٤]. ولُقِّبَ أيضًا بأبي الفضائل[٥]. ونسبتُه إلى زَنْجان؛ وهي بلد كبير في شمال إيران، تصل إلى حدود أذربيجان، على بحر قزوين. والعجمُ يقولون: «زَنْكان» بالكاف[٦].

•-مولده ونشأته:

لم يُحدّد من ترجم لعبد الوهّاب الزّنْجانيّ زمنَ ميلاده. «وقد تربّى الزّنجاني في بيت علم وفضل، وتمرّسَ على التصنيف مقتديًا بوالده وسائرًا على منواله. نزل «تبريز» واستوطنَ بها، ثمّ قام برحلة إلى خراسان، فبُخارى. أقام بالموصل مُجاورًا المدرسة القاهريّة فيها، ثمّ انتقل إلى بغداد، وأمضى فيها بقيّة عمره»[٧].

ومِمّا يُشير إلى أنّه أقامَ مدّة كبيرة في بغداد أنّه عُرِف بين بعض المترجمين له بالبغداديّ[٨].

•-شيوخه:

١-**أبوه** «عماد الدّين إبراهيم بن عبد الوهّاب الأنصاري الخزرجي الزّنْجاني»، وهو فقيه شافعيٌّ، وإمام لغويّ. له شرح على الوجيز، مختصر من شرح الرافعي، سمّاه «نقاوة العزيز» في فروع الشافعية[٩].

٢-**ابن الخبّاز**، وهو شمس الدين، أحمد بن الحسين بن أحمد بن معالي بن منصور بن علي الإربيلي الموصلي النّحوي.

ذكرَه الزّنجاني في كتابه «الكافي في شرح الهادي» بلقبين: أحدُهما بلقب أبي العبّاس[١٠] والآخر بلقب الشيخ[١١]، وهو المعنيّ بهما.

وهو إمامٌ بارعٌ في النحو واللغة والشعر والعروض.

له تصانيف كثيرة في النحو واللغة، من أشهرها: توجيه اللمع، والغرّة المخفيّة في شرح الدّرّة الألفية لابن معط، والنّهاية في النحو، وغيرها.

كانت وفاته بالموصل سنة ٦٣٧هـ[١٢].

•-مكانته العلميّة:

يعرفُ المطّلعُ على مؤلّفات عبد الوهّاب الزّنجانيّ- ولا سيَّما كتابه الكافي في شرح الهادي- أنّه غزير العلم بالعربيّة نحوها وصرفها.

فقد أفرغَ في كتابه (الكافي في شرح الهادي) من علم النّحو والصّرف كلّ ما حصّلَه وجناه في حياته، حتّى لم يدع شاردة أو واردة في النّحو والصّرف إلاّ ودوّنَها فيه.

١- انظر في ترجمته: بغية الوعاة ٢ / ١٢٢، وكشف الظنون ١ / ٤١٢، ٢ / ١١٣٨- ١١٣٩، وإيضاح المكنون ٢ / ٥١٧، وهدْيَة العارفين ١ / ٦٣٨، ومعجم المؤلفين ٢ / ٣٣٧.

٢- انظر معجم المؤلفين ٢ / ٣٣٧.

٣- انظر كشف الظنون ١ / ٤١٢، ٢ / ١١٣٨، وإيضاح المكنون ٢ / ٥١٧.

٤- ذَكَرَ ذلك صاحبُ هدْيَة العارفين ١ / ٦٣٨.

٥- انظر كشف الظنون ٢ / ١١٣٨.

٦- انظر معجم البلدان (زنجان) ٣ / ١٥٢.

٧- انظر معجم المؤلفين ٢ / ٣٣٧، ومجلّة عالم الكتب، مج ١٧، ع ١، رجب- شعبان ١٩٩٦م.

٨- انظر هدْيَة العارفين ١ / ٦٣٨.

٩- انظر طبقات الشافعية الكبرى للسبكي ٨ / ١١٩، وطبقات الشافعية لابن قاضي شهبة ٢ / ٨٧، وكشف الظنون ٢٠٠٣، ومعجم المؤلفين ١ / ٤٢.

١٠- انظر ص ١٨٦.

١١- انظر في قسم التحقيق ص ٢٤، ١٩٧، ٤٠٢، ٥٨٨، ٧٠٦.

١٢- انظر في ترجمته بغية الوعاة ١ / ٣٠٤، وشذرات الذهب ٧ / ٣٥٠، وفيه توفي سنة ٦٣٩هـ.

وكان ذلك لأنّه ألّفَه في آخر حياته[١٣] بعد أن تمرّس بالعلم، وتقوّى بالمعرفة، فجاء نتاجه شاملًا جلَّ تفاصيله العلميّة.

وممّا يدلّ على علوِّ مكانته العلمية الشهرة الواسعة للمتن الذي صنّفه في التّصريف المعروف بتصريف العِزّي الذي أكسبَه شهرة بفنّ التصريف. وهو أول تآليفه، ألّفه سنة ٥٣٧ هـ[١٤].

وأخذ العلماء تصريف العِزّي، ورأوا فيه مادةً تعليمية جليلة الأثر والفائدة، وتناوله علماء العربية بعده بالشرح ومدّ الحواشي على شروحه، وأول شرح مهم عليه شرح السعد التفتازاني العلامة، سعد الدين: مسعود بن عمر القاضي التفتازاني المتوفى: سنة ٧٩١ هـ، أضاف إليه فوائد شريفة، وزوائد لطيفة[١٥].

والزّنجانيّ لم يقتصر في حياته العلمية على علم النّحو والصرف، بل إنّه قد شُغِف منذ إدراكه الأوّل بكل علوم العربية وآدابها، فضرب في كل علم منها بسهم.

فهو فقيه أديب بلاغيّ عروضيّ لغويّ نحويّ، وعارف بالحساب والرّياضة، وعارف بالمنقول والمعقول[١٦]، فهو ذو علم واسع غزير.

قادتْه سعة علمه إلى التصنيف في جميع علوم العربية وآدابها، فمن كتبه في الأدب: كتاب المضنون به على غير أهله، وهو مختارات شعرية.

ومن كتبه في العروض تصحيح المقياس في تفسير القسطاس، وكتاب معيار النّظّار في علوم الأشعار. ومن كتبه في الحساب والرياضة عمدة الحساب، وقسطاس المعادلة في علم الجبر والمقابلة[١٧].

فكتبُه أصدق شاهد على تمرّسه وتفنّنه بالعلوم، فالزّنجانيّ لا يدع علمًا إلاّ ويأخذ منه نصيبًا.

وخطّه في الكتابة كان بشهادة السيوطي في غاية الجودة[١٨].

•–وفاته:

في وفاته خلافٌ بين المترجمين له، فمنهم من ذكر أنّ وفاته كانت في سنة ٦٦٠هـ ببغداد[١٩].

ومنهم من ذكر أنّ وفاته كانت في سنة ٦٥٥هـ، وهو المشهور في كتب المترجمين[٢٠].

•–آثاره ومصنّفاته.

ترك الزّنجاني مؤلّفات في شتّى علوم العربيّة وغيرها من العلوم، فقد تنوّعتْ مؤلّفاته لتنوّع معارفه وفنونه. فتجده قد ألّفَ في الأدب واللغة والنحو والتصريف والبلاغة والعروض والحساب.

ومؤلّفاته منها ما هو مختصرٌ سهل الفائدة مألوف في مطالعات العلماء والطّلّاب في عصره وبعد عصره ككتاب تصريف العزّي الذي تناوله العلماء بالشرح والتحقيق.

ومنها ما هو جامع شامل عامّ العلم الذي ألّفَه له، ككتاب الكافي في شرح الهادي؛ إذ نجد الزّنجاني فيه ذا نفس عميق طويل هادئ، لا يملّ من تفصيل أيّ شاردة أو واردة، حتّى جاء كتابه هذا محيطًا بكلّ مسألة صغيرة أو كبيرة تخصّ مسائل النحو والصرف.

وأنا هاهنا أذكر مؤلفاته مرتّبة على حروف المعجم:

١–«**التّذكرة في علم الهيئة**»[٢١].

٢– «**التذكرة المجدية**»[٢٢].

٣–«**تصريف العِزّيّ**»، أو «**العِزّيّ في التّصريف**»[٢٣].

وهو متنٌ في التصريف مطبوع وعليه شروح كثيرة.

١٣– أتمّ الزنجاني كتابه الكافي قبل سنة من وفاته، أتمّه سنة ٦٥٤هـ. ذَكرَ ذلك في آخر كلامه في كتابه.

١٤– انظر كشف الظنون ١١٣٩.

١٥– المصدر نفسه.

١٦– انظر هدِيَة العارفين ١ / ٦٣٨، وتلخيص مجمع الآداب ٤ / ٢٣٤، ومعجم المؤلفين ٢ / ٣٣٧.

١٧– انظر ما سيأتي في مبحث آثاره ومصنّفاته.

١٨– في بغية الوعاة ٢ / ١٢٢.

١٩– وهو ابن الفوطي في تلخيص مجمع الآداب ٤ / ٢٣٤، وذكر أيضًا وفاته في هذه السنة صاحب معجم المؤلفين ٢ / ٣٣٧.

٢٠– انظر كشف الظنون ٢ / ١١٣٩، وإيضاح المكنون ٢ / ٥١٧.

٢١– انظر تلخيص مجمع الآداب ٤ / ٢٣٤.

٢٢– المصدر السابق.

٢٣– انظر بغية الوعاة ٢ / ١٢٢، وكشف الظنون ٢ / ١١٣٩–١١٤٠، وإيضاح المكنون ٢ / ١٠٠.

٤-«تلخيص المسائل التي أنشأها نظام الدين أحمد بن محمود الحصري»[٢٤].

٥- **«تصحيح المقياس في تفسير القسطاس»**[٢٥]. وهو شرح لكتاب القسطاس في العروض للزمخشري.

٦- **«رسالة في المربّعات السّحريّة»**[٢٦].

٧- **«شرح الأبيات المشكلة الإعراب»**. التي أنشأها الحسن الفارقي، ومنه صورة في مكتبة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية. رقم الحفظ ف [٢٧]٣٣١٨.

٨- **«عمدة الحساب»**[٢٨].

٩- **«فتح الفتاح في شرح المراح»**[٢٩]. في التّصريف.

١٠-«قسطاس المعادلة في علم الجبر والمعادلة». منه نسخة فريدة في مكتبة شستربيتي- دبلن[٣٠].

١١-«الكافي في شرح الهادي». وهو موضوع دراستنا.

١٢-«الكافي في الحساب». توجد منه نسخة في موقوفة الحاج مولى نوروز علي البسطامي، ومنه نسخة في النّجف[٣١].

١٣-«المختصر في علم الأسطرلاب»[٣٢].

١٤-«المعرب عمّا في الصحاح والمغرب» في اللغة. فيه رموز، أشار فيه بالصاد إلى الصحاح وبالميم إلى المغرب، أتمّه في المدرسة القاهرية بالموصل سنة ٦٣٧هـ[٣٣].

١٥-«المضنون به على غير أهله»[٣٤]. وهو مختارات شعرية. شرحه عبيد الله بن عبد الكافي بن عبد المجيد العُبيدي. نشره إسحاق بن يهودا بالقاهرة سنة ١٩١٥م[٣٥].

٢٤- انظر مجلة عالم الكتب، مج ١٧، ع ١، رجب شعبان ١٤١٦هـ.

٢٥- انظر هدية العارفين ١ / ٦٣٨، ومعجم المؤلفين ٢ / ٣٣٧.

٢٦- انظر مجلة عالم الكتب، مج ١٧، ع ١، رجب شعبان ١٤١٦هـ.

٢٧- المصدر نفسه.

٢٨- انظر معجم المؤلفين ٢ / ٣٣٧.

٢٩- انظر هِدْيَة العارفين ١ / ٦٣٨، ومعجم المؤلفين ٢ / ٣٣٧، والمصدر السابق.

٣٠- انظر مجلة عالم الكتب، مج ١٧، ع ١، رجب شعبان ١٤١٦هـ.

٣١- المصدر نفسه.

٣٢- المصدر نفسه.

٣٣- انظر كشف الظنون ٢ / ١٧٣٨، وهِدْيَة العارفين ١ / ٦٣٨.

٣٤- انظر الأعلام للزركلي ٤ / ١٧٩.

٣٥- انظر مجلة عالم الكتب، مج ١٧، ع ١، رجب شعبان ١٤١٦هـ.

١٦-«معيار النّظّار في علم الأشعار»[٣٦]، **أو «معيار الشعر»**[٣٧]. وهو مختصر مرتب على ثلاثة أقسام: في العروض والقوافي والبديع. وهو مطبوع. توجد منه خمس نسخ خطّيّة[٣٨]:

١- نسخة دار الكتب المصرية بالقاهرة، برقم ١٣٦ م أدب.

٢- نسخة في مكتبة كوبريلي بإستانبول (١٣٩٢) رقم ١.

٣- نسخة في مكتبة شستربيتي: دبلن، وهي نسخة ناقصة.

٤- نسخة في مكتبة الفاتح بإستانبول (٤٠٩٤)، وهي ناقصة.

٥- نسخة في مكتبة الأوقاف ببغداد، برقم ١٧٢٢.

١٧-«الهادي». أو **«مبادئ في التصريف»**[٣٩]. وهو متن في النحو والصرف، وقد شرحه بشرح كبير هو «الكافي».

ثانيًا- كتاب «الكافي في شرح الهادي»

•-قيمة الكتاب العلميّة:

تتَجلّى أهمية كتاب الكافي في مادّته العلميّة الشاملة والغزيرة بين كتب النحو، فهو شرحٌ ذو قيمة علمية كبرى تجعله مرجعًا لا غنى عنه في كثير من الدراسات النحوية والصرفية على اختلاف فروعها وتنوع مسائلها. وممّا يزيده قيمةً سعة مادته وعظمها واشتماله على جُلِّ آراء النحويين الذين سبقوه في المسائل التي بثّها مؤلّفُه فيه.

وهو كتاب اشتمل على جميع أبواب النحو والصرف شرحًا وتذليلًا وتدليلًا، وجعل آخر أقسامه «قسم الصرف»، وهو شامل فيه جميع أبواب

٣٦- انظر معجم المؤلفين ٢ / ٣٣٧، والأعلام ٤ / ١٧٩.

٣٧- ذكره بهذا الاسم حاجي خليفة في كشف الظنون ٢ / ١٧٤٣.

٣٨- انظر مجلة عالم الكتب، مج ١٧، ع ١، رجب شعبان ١٤١٦هـ.

٣٩- ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون ٢ / ١٥٧٨، وصاحب هِدْيَة العارفين ١ / ٦٣٨.

الصـرف ممّـا يجعلُـه سابقًا شـروح الشافيـة؛ إذ إنّ الزّنجـاني أضافَ إليـه فصلـين لم تتضمّنْهما شروح الشافيـة هما «فصل المذكـر والمؤنّث، وفصل ضرورة الشعر»، وفصّلهما أيّما تفصيل.

وممّا يعطي كتاب الكافي – ولا سيَّما قسم الصرف– قيمةً جليلة أنَّ بعضَ شرّاح الشافية جعلوه عَونًا لهم في المسائل الصرفية التي يعرضونها.

فالجارَبـرديّ وهـو أحد شـرّاح الشافيـة استَعان بكتـاب الـكافي، وأكثر مـن النقل عنـه في جميع فصول كتابه. وهذه المواضع مبينـة بالحصر الكامل الشامل والتفصيل الواضح في تحقيـق الأستاذ الدكتور «نبيل أبو عمشة» لشرح الجاربردي للشافية[٤٠].

وقـد اطّلَـعَ السّيوطـي علـى كتـاب الـكافي وشرح الجاربـردي، وأشـار إلى هـذا النقـل الـذي ورد في شـرح الجاربـردي عن كتـاب الـكافي، وقـال[٤١]: أكثر الجاربرديُّ من النّقل عنه في شرح الشافية.

وقـال أيضًـا في كتـاب الـكافي: إنّه شـرح مشهور، وخطّه فيه في غاية الجودة[٤٢].

وليس الجاربرديّ فردًا بالنّقل من كتاب الكافي، بل إنّ السّيوطـيّ أيضًا قد نقل منه مواضع ليست بقليلة، قـال السيوطيّ[٤٣] في كتاب الـكافي: تكرّرَ ذكره في جمع الجوامـع. ويتجلّى نقلُه من كتاب الـكافي واستشهاده بآراء مؤلّفه في كتابه همع الهوامع[٤٤].

وممّـا يزيـدُ كتاب الـكافي قيمـةً أنّه استوعـب كتبًا أُلّفـتْ قبلـه ذاتَ قيمة، منها كتاب المفصـل، فقد تناولَه الزّنجـاني بالنّقـد والتعليـق، والإقـرار والـرّدِّ لبعض المسائـل، على أنّ كتاب المفصل ذو شـأوٍ سابقٍ في بابه تسابـق إليه العلمـاء في شرحه وتعليمـه حتّى اكتسبَ شهرة وقيمةً كبيرتين.

• – صبغة الكتاب التّعليمية.

كانت الطريقة التعليمية في التأليف واضحةً على المؤلّفات التـي سبقت كتاب الكافي وهي كثيرة شائعة، «ككتاب الجمل للزّجّاجي، وكتاب المفصل، وشرحه لابن يعيش».

وكان سبب انتشار هذه الكتب وذيوعها بين العلماء والمتعلّمـين أنّهـا وسيلـة تأليـف يأخذ بهـا المصنّفون لترسيـخ سمات الشـيء في ذهن الدارس، فهي تجعل المؤلّـف يتعقّـب الظّاهـرة وأدقّ تفاصيلهـا ومواضـع استعمالها المختلفة واستقراء ما يتصل بها.

فالطريقـة التّعليمية تجعل المعرفـة بالشيء المراد تعلّمـه ميسّـرَةً سهلةً كافيةً طالب العلـم الذي يريد أن يعرف ما يمرُّ به أو يقرؤُه من مسائل.

والكتـب المصنّفة بطريقـةٍ تعليمية تتميّـزُ بأسلوب واضـح سهـل المأخذ بعيـد عن التعقيد خـال الغموض والحاجـة إلى التفسـير؛ إذ إنّ المؤلّـف لا يـترك شيئًـا يُوردُه تمسُّه الحاجة إلى تفسير إلاَّ يفسّرُه ويُبيّنُه.

وتكـون الكتب التعليمية واضحـة الشواهد شاملة كل الأبـواب في عرض سهل وعبارة واضحـة بيّنة، لا يُرى فيها الأسلوب المتكلّف.

وإن كلّ مـا ذُكـرَ مـن صفـات تحتويهـا الكتـب التّعليميّـة نجـدُه واضحًا جليًّا في كتـاب الكافي في شرح الهـادي. فمؤلّفـه كانَ بارعًـا في احتوائه جـلّ المسائل النّحويّة والصّرفيّة، وعرضها بأسلوب هادئ يسير لا تكلّـف فيه، على دقّة ما يعرضُ وخطورة ما يسلك، ولا ضـير إذ كان المؤلّف غزير العلم واسع المعرفة واضح الاطّلاع على آراء النّحويين المختلفة مذاهبُهم.

فمن قراءة كتاب الكافي يتّضحُ للقارئ أنّ مؤلّفَه كان ذا صبغةٍ تعليميّة، تتجَلّى بدلائل عدّة في كتابه هذا، منها:

٤٠– شرح الشافية، الجاربردي، حققه ودرس ما فيه: د. نبيل أبو عمشة، المجمّع الثقافيّ، أبو ظبي، ط١، ٢٠١٤.

٤١– انظر ٢ / ١٢٢، وكشف الظنون ٢ / ١٥٧٨.

٤٢– المصدر السابق.

٤٣– المصدر السابق.

٤٤– انظر المواضع التي ذكر فيها السيوطي كتاب الكافي في شرح الهـادي، تحقيـق: ساجد الخليـف الصالح، جامعة دمشـق، قسم اللغة العربية ٢٠١٠: ١ / ٧٣، ٧٤، ٢ / ١٤٨، ٣ / ٤٦٢، ٤٦٥، ٤٧٤، ٤٨٧.

١-ذِكْرُه خاتمةً عند انتهائه في آخر الفصل تلخّصُه.

ممّا يجعل القارئ المتعلّم يلمُّ شتات ما مرّ به من أفكار ومسائل، ويُجمل ما طال من تفاصيل أو استطراد. فقد قال في فصل الإدغام[٤٥]: «فقد تلخّص ممَّا ذكرنا أنَّه لا يُدغَمُ في الهمزة ولا في الألف، ويُدغَمُ في الباء الباءُ والفاءُ، وفي التَّاءُ التَّاءُ والثَّاءُ والجيمُ والدَّالُ والذَّالُ والطَّاءُ والظَّاءُ واللاَّمُ، وفي الثَّاء ما أُدغمَ في التَّاء إلاَّ الجيمَ، وفي الجيم ما أُدغمَ في التَّاء إلاَّ اللاَّمَ، وفي الحاء الحاءُ والعينُ ... ومُفصَّلُ ما تقدَّمَ بذلك على هذا المجمَل».

٢-مُراجعتُه لما وردَ في المختصر، بالشرح والتعليق، والتّعليل، وبالرّدّ أحيانًا.

حتّى ينبّه القارئ المتعلّم على ما هو ذو فائدة وما هو خال منها، وما هو مُثْبَت وما هو مُسْتَثْنًى وإن ذُكرَ. قال في فصل جمع التّكسير[٤٦]: «وإنَّما مَثَّلَ في المُختَصَر بعطَاش وصَحَارَى ليُعَلِّلَ أنَّه لا فَرْقَ في هذين الجَمْعَيْن بين الاسم والصِّفَة، وقد نَبَّه عليه بقوله بعدَه: وتَخْتَصُّ الصِّفةُ بكَذا».

وقال أيضًا[٤٧]: «وإنّما أدخلْنا الألفَ واللامَ على الصُّغَر في لفظ المُختَصر؛ لأنَّ فُعْلَى أَفْعَل يَلْزَمُها اللامُ والإضَافَةُ».

وقال في فصل الخطّ[٤٨]: «ونصُّ لفظ المُختَصَر أن يُوصَلَ نحوُ ق وش بما بعدَهما، كقولك: ق زيدًا وش ثوبَكَ، وليسَ كذلك؛ فإنَّ ق وش ونظائرَهما جُمَلٌ تامَّةٌ، والجملةُ لا تُوصَلُ بما بعدَها البتَّة. فإذنْ يكونُ هذا مُستَثنًى من إطلاق لفظ المُختصَر».

وقال أيضًا في فصل الخطّ[٤٩]: «وأجرَوا مُجرَى هذه الواو كلَّ واو جمع في الأسماء نحو بَنُوا زيد وذَوُوا مال وأنتَموا وهُمُوا. ويُوافقُه إطلاقُ لفظ المُختَصَر. والمُختارُ عندنا ألَّا تُثبَتَ لفقد العلَّة المُوجبة لثُبوتها».

٤٥- انظر القسم الصرفي من الكتاب المحقق، ص ٦٢٨.
٤٦- المصدر السابق ص ١١٨.
٤٧- المصدر السابق ص ١١٩.
٤٨- المصدر السابق ص ٦٧٩- ٦٨٠.
٤٩- المصدر السابق ص ٧٠٤.

٣-تنبيهُه على أمر سبقَ ذكرُه.

وهذا فعْلٌ منه فيه خصلتان مُفيْدَتان:

إحداهما أنَّ في فعله هذا اختصارًا للوقت والجهد؛ إذ ينأى بنفسه أن يفصّلَ أمرًا سبق شرحُه أو التّعليق عليه، وينأى بالقارئ أن يقرأ شيئًا سبق أن قرأه.

وثانيهما أنّه يربطُ فصول الكتاب بعضها ببعض؛ إذ إنّه بفعله هذا يُرجعُ القارئ إن تكرّرَ عنده شيءٌ إلى موضع وروده أوّل مرّة، فلا ينسى شيئًا ممّا مرّ به.

قال في فصل حروف الاعتلال[٥٠]: «وأمَّا قلبُ الواو ياءً في نحو ميعاد وميزان، وتُخَمَة فقد سبَقَ في فصل البَدل بما أغنَى عن إعادته».

وفي فصل الخطّ[٥١] قال: «ولمَّا كانَ اصْطلاحُ الكُتَّاب مُسْتَمرًّا على الفرق بين الواويِّ واليائيِّ في الخطِّ لم يكنْ بُدٌّ من التَّنبيه على مَعرفة ذلك من ذكر الأمور الدَّالَّة على كون الألف مُنقلبَةً عن الواو أو عن الياء. وإن كانَ فيما سَبَقَ غُنْيَةٌ عنه».

وقال أيضًا[٥٢]: «كَوَشَيتُ وشَوَيتُ ويَدَيتُ والحَيا، وقد سَبَقَ تعليلُ هذا كلِّه في مَوضعه، لكنَّا أعدْنا تنبيهًا على ما سَلَفَ».

وقال أيضًا[٥٣]: «الأصلُ في الزِّيادة والنُّقصان والبَدَل حروفُ اللِّين، وأُلْحِقَ بها الهاءُ لمُضارعتها على ما سَبَقَ مَرَّات».

٤-لا يحشو شرحَه بما لا يقتضيه لفظ المختصر، وإلاّ نبّه عليه.

قال في فصل الخطّ[٥٤]: «وهذا الذي ذكرْناه لا تعلُّقَ له بالخطِّ، ولكن لمَّا لم تَجُزْ هذه اللَّفظةُ في المُختَصَر إلاَّ في هذا الموضع ذكرْنا ما فيها».

٥٠- المصدر السابق ص ٦٨٥.
٥١- المصدر السابق ص ٦٧٢.
٥٢- المصدر السابق ص ٦٧٣.
٥٣- المصدر السابق ص ٧٠٩.
٥٤- المصدر السابق ص ٧١٢.

ثالثًا- مذهبه النّحويّ وآراؤه وتفرّداتُه في الكتاب.

١- مذهبه النّحويّ:

إنّ القارئ في كتاب الكافي في شرح الهادي يعلم أنّ صاحبَه الزّنجاني بصريّ المذهب، يظهرُ ذلك من مناقشاته للمسائل النّحويّة والصّرفيّة ومواقفه من آراء النّحويين، فتراه يفرّق بين آراء الكوفيين وآراء البصريين، فيسمّي البصريّين ويُوافقهم بقوله: «عندنا»[٥٥] أو «أصحابنا»[٥٦].

وممّا يشهد له أنّه بصريّ المذهب استعماله مصطلحات البصريين، فقد تكرّر عنده مثلًا «الجرّ والظرف والمنصرف والضّمير والمضمر». وردتْ في مواضع كثيرة لا يسعنا المقام أن نوردَها.

على أنّه استعمل مصطلحًا لافتًا للذهن ليُبيّن أمرًا مُثبتًا في كلام العرب إلاّ أنّه لا يُقاسُ عليه، وهو لفظُ «مهجور»، فقد ذكر هذا اللفظ عند ذكره أسلوب النّحت في كلام العرب.

قال في فصل النّسب[٥٧]: «وقد أُولِعَ بعضُ المُحْدَثِينَ بالنَّحت، وهو مذهبٌ مَهْجورٌ، ومثلُه قولُهم في حَضْرَمَوْتَ: حَضْرَمِيٌّ».

وعنَى الزّنجانيّ بقوله: «مذهب مهجور» أنّ النّحتَ مُثبَتٌ في لغة العرب إلاّ أنّه يُوقَف عنده على السّماع ولا يُقاسُ عليه، وهو بذلك مُوافقٌ سيبويه وغيره من النّحويين.

قال سيبويه[٥٨]: «وقد يجعلون للنّسب في الإضافة اسمًا بمنزلة جعفر، ويجعلون فيه من حروف الأوّل والآخر، ولا يخرجونه من حروفهما ليُعرَفَ، كما قالوا سبطرٌ فجعلوا فيه حروف السّبط إذ كان المعنى واحدًا، فمن ذلك عبْشَمِيٌّ وعَبْدَرِيٌّ، وليس هذا بالقياس».

وقال ابن السرّاج[٥٩]: «وقد يُركّبونَ منَ الاسمين المضاف أحدهما إلى الآخر اسمًا إذا خافوا اللبسَ، فيقولونَ: عَبْشَمِيٌّ في عَبد شَمسٍ وعَبْدَرِيٌّ في عَبدِ الدارِ، وليسَ بقياسٍ».

وقال ابن دريد[٦٠]: «وربّما اشتقُّوا من الاسمين اسمًا، فقالوا في عبد القيس: عَبْقَسيّ، وفي عبد شمس: عَبْشَميّ، وفي عبد الدّار: عَبْدَرِيّ».

فممّا سبق يتبيّن أنّه بصريّ المذهب في آرائه ومصطلحاته وردوده.

٢- آراؤه وتفرّداته في الكتاب:

كان الزّنجاني في عرضه للمسائل موافقًا في جُلّ أمورها النّحاة السابقين، وإن عرض له شيءٌ من آرائه يرى فيه عدمَ مناسبة أو نقصًا أو زيادة على أمره فإنّ ينبّه عليه باختصار دون تطويل ولا مبالغة. لكنّنا نُصادف في كتابه بعضًا من الأمور التي خرجت عن موافقة النّحويين وإجماعهم، نستطيع الإشارة إليها بمثالين وردا في كتابه:

١- رأيُه في كتابة «متى» اسم شرط جازم بالياء في حال اتّصالها بـ«ما»، وهو خلاف ما عليه ابن الحاجب في مَتْنِ الشّافية، قال: ولم يصلوا «متى» لما يلزمُ من تغيير الياء، وكذا الرّضي، والجاربردي، والخضر اليزدي[٦١]. قال في فصل الخطّ[٦٢]: «ومَتيما تأتني آتكَ، وكان القياسُ أن تُكتَبَ: مَتَامَا بالألف كما ذكرْنا في عَلامَ وإلامَ، لكنَّ المشهورَ كتابتُها بالياء موصولًا؛ لأنّه تلحقُها الإمالةُ».

٢- إثباته الشّواذّ من القراءات واستشهاده بها يدلّ على موافقته وإقراره إيّاه، وإن لم يُوافقْه فيها أحدٌ إلاّ أن يتفرّد بذلك. فقد قال في فصل الإدغام[٦٣]:

٥٥- المصدر السابق: ص ١٩٣، ٢٤٨، ٢٩٤، ٤٦٣، ٥٧٢، ٥٩٨، ٦٠٠، ٧٠٤، ٧٠٦.

٥٦- المصدر السابق ص ١٧٩، ٢٦١، ٤٠٨، ٤٤١.

٥٧- المصدر السابق ص ٥٧.

٥٨- الكتاب ٣ / ٣٧٦.

٥٩- الأصول ٣ / ٦٩،

٦٠- الاشتقاق ١٧.

٦١- انظر القسم الصرفي المحقق منه، ص ٦٨٢.

٦٢- الموضع نفسه.

٦٣- المصدر نفسه ٦١٥- ٦١٦.

«وروَى عبدُ الوارث عن أبي عُمَرَ الدُّوريِّ عن اليزيديِّ عن أبي عَمْرٍو إدغامَ الضَّاد إذا كانتْ مكسورةً في الذَّال، كقولِه تَعالَى: ﴿مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا﴾ [آل عمران ٩١]، وقوله: ﴿بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾ [المائدة ٤٩]، وقوله تَعالَى: ﴿أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ﴾ [المائدة ٣٣]، و﴿وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ﴾ [الطارق ١٢]، وشبَهِه». وهذا خلافُ ما عليه سيبويه وغيره[٦٤].

رابعًا- مصادر المؤلف في الكتاب

إنّ الزّنجانيّ في أكثر نقوله في كتابه الكافي يُردُّ الأقوال والآراء التي عوّلَ عليها إلى أصحابها وإلى مصادرها، وسار على دأبه هذا في جميع فصول الكتاب إلاّ مصدرين اثنين كان الزّنجانيّ يتعمّدُ إغفالَهما عن القارئ، وهما:

كتاب توجيه اللمع لشيخه ابن الخبّاز، لم يُشرْ إليه على وفرة نقوله منه إلاّ مرّة واحدةً ذكرَ فيها شيخه ابن الخبّاز بلفظ: «قال الشيخ»، ولم يُسمِّ الكتاب[٦٥].

وكتاب شرح المفصّل لابن يعيش، إذ تكاد عبارة الزّنجاني في الكافي تُطابق تمامًا عبارة ابن يعيش في شرح المفصل، ومع ذلك لم يُشرْ إليه ولو مرّة واحدة، إلاّ أن تكتشفَه بدقّة التّمحيص وعمق المقابلة بين لفظي الكتابين.

والزّنجاني أكثرَ في كتابه الكافي من النّقول عن المتقدّمين، سواء بالاطّلاع على كتبهم مباشرةً أم بالاستعانة بكتب مُتأخّرة.

ونظرًا لما سبقَ أرى أن أُرتّب مصادره على النحو الآتي:

١-المصادر التي صرّح بالنّقل عنها:

وهي كثيرة؛ إذ الزّنجانيّ أكثرُ أمره على نسبة الأقوال إلى أصحابها في نقوله واستشهاده. وهو ينسب القول إلى صاحبه بإحدى طريقتين:

إمّا بذكره اسمَ الكتاب الذي أخذ عنه، وإمّا بذكر اسم صاحبه دون اسم كتابه.

وأنا هاهنا أرتّبها على حسب أهمّيّتها وتأثيرها في كتاب الكافي، فتكون على الصّورة الآتية:

أ- كتب شيخه ابن الخبّاز:

وهي من الكتب القريبة المأخذ إليه، وأهمُّها كتاب توجيه اللمع الذي سيأتي الكلام عليه في مصادره التي أغفلَ ذكرها. والزّنجانيّ لم يُسمِّ من كتب شيخه ابن الخبّاز إلاّ كتابًا واحدًا؛ وهو الغرّة المخفيّة في شرح الدّرّة الألفيّة لابن مُعط، نقل عنه الزّنجانيّ مرّة واحدةً مثالَ الحروف الرّخوة، قال[٦٦]: «وما يُوجَدُ في نُسَخِ الغُرَّة: (غَصَّ سَهٌ فخضَعَ حيثُ شَطَّ) فهو خطأٌ من النَّاسخ».

ب-كُتب الزّمخشريّ، وأهمّها كتاب المفصّل:

وهو مقدّمة الكتب التي صرّح بالنّقل عنها والتي اعتمد عليها في بناء مادّة كتابه يدلّ على ذلك كثرة دوَران اسم الزّمخشريّ في الكتاب[٦٧]، وهو بذلك يعني في أغلب المواضع كتاب المفصّل.

ولم يكن الزّنجانيّ ناقلًا من المفصّل فحسب، بل هو إضافةً إلى النّقل عنه يُناقشُه ويستدرك عليه ما أهملَه الزّمخشريّ، ثمّ إنّ الزّنجانيّ ما تعقّب أحدًا في كتابه مثلما تعقّب الزّمخشريَّ في المفصّل، وردَّ عليه أقوالًا قالها، وأنا هاهنا أسوقُ للقارئ أمثلةً تعزّزُ ما ذكرْتُ.

قال في فصل النسب[٦٨]: «وقول الزَّمَخْشَرِيِّ: (وفي كِلْتَا كِلْتِيٌّ وكِلْتَوِيٌّ على المذهبين؛ يعني مذهبي يُونُسَ وسيبويه) سهوٌ منه أو تحريفٌ من النَّاسخِ، والصَّوابُ ما ذكرْناه».

٦٤- المصدر نفسه، ص ٦١٦.

٦٥- المصدر نفسه، ص ٢٣.

٦٦- المصدر نفسه، ص ٥٩١.

٦٧- المصدر نفسه، ص ١٠، ٣١، ٣٤، ٤٢، ٩٠، ١٤٢، ١٨٢، ١٩٤، ٢٠٣، ٢٠٧، ٢٣٥، ٢٥١، ٢٦١، ٢٦٥، ٢٧٧، ٣٠٧، ٣١٣، ٣٢٦، ٣٣٦، ٣٤١، ٣٤٢، ٣٤٦، ٣٥٤، ٣٥٩، ٣٦٥، ٣٧٨، ٣٧٩، ٣٨٢، ٣٩٤، ٤٠٢، ٤١٢، ٤٢٨، ٤٣٧، ٤٦٤، ٤٦٩، ٤٧٤، ٤٧٦، ٤٧٩، ٥٣٣، ٥٤٢، ٥٦٧، ٥٧٠، ٥٨٠، ٥٩١، ٥٩٢، ٦٠٣، ٦٠٩، ٦١٥.

٦٨- المصدر نفسه، ص ٣٤.

وقال في فصل جمع التّكسير[٦٩]: «وقولُ الزَّمَخْشَريِّ: ويُجْمَعُ الجَمْعُ، فيُقالُ في كلِّ أَفْعُل وأَفْعُلَة: أَفَاعِلُ، وفي كلِّ أَفْعَال: أَفَاعِيْلُ تَسَمُّحٌ في العِبَارَة».

وقال في فصل التّصغير[٧٠]: «قالَ الزَّمَخْشَريُّ: ومن المُصَغَّرات ما جاءَ على غيرِ واحده، والصَّوابُ أن يُقالَ: ما جاءَ على غير مُكَبَّره».

وقال في فصل الابتداء بالساكن[٧١]: «وَقَولُ الزَّمَخْشَريِّ: «لأنَّه ليسَ في لُغَتهم الابتداءُ بالسَّاكن» ممَّا يُوْهِمُ أنَّ في غير لُغَة العَرَب ربَّما ابْتُدِئَ بالسَّاكن، وليسَ كذلك؛ فإنَّ ذلك إنَّما امْتَنَعَ لتَعَذُّره، فيَعُمُّ جَميْعَ اللُّغَات».

وقال في فصل حروف البدل[٧٢]: «والزَّمَخْشَريُّ عدَّ السِّينَ من حروف البَدَل، ثمَّ قالَ عندَ ذكر السِّين: والسِّينُ إذا وقعَتْ قبلَ غَين أو خَاء أو قاف أو طَاء جازَ إبدالُها صادًا كقولك: صالِغٌ وأَصْبَغَ، إلى آخره، وكلُّ ذلك غَلَطٌ».

وقال في فصل الإدغام[٧٣]: «وقدَّمَ الزَّمَخْشَريُّ الزَّايَ على السِّين، والصَّحيحُ ما ذكرْناه؛ لأنَّ السِّينَ مُقَدَّمٌ في المَخْرَج؛ لأنَّ الزَّايَ أقربُ على مُقَدَّم الفم من السِّين».

تدلّ هذه الأمثلة على أنّ الزّنجانيّ لم يكن ناقلاً فحسب، بل نراه مُمْتلكًا أسلوبًا نقديًّا أفاد منه ومكّنه من إغناء كتابه بنقد أقوال العلماء والرّدّ عليهم بما هو أهلُه.

هذا ما يتعلّقُ بتعقّبه الزّمخشريّ وردّه عليه في المفصّل، أمّا موافقتُه له فيما ينقلُ عنه فمواضعها كثيرة أيضًا في كتابه، تظهرُ من شرحه كلامَ الزّمخشريّ وتفسيره ما أُبْهِمَ. ونسوق نُتَفًا منها.

قال في فصل الإدغام[٧٤]: «وفي المُفَصَّل: أَوَّلُ حافَة اللِّسان وما يليها من الأضراس، وكلاهما واحدٌ؛ لأنَّه يريدُ بالأوَّل أقربَه إلى الحلق؛ لأنَّ مَبْدَأَ المَخارج من الحلق وهو أقصَى حافته إلى جانبه من جهة الفم. ولهذا قالَ في اللاَّم: لها ما دونَ أوَّل حافة اللِّسان؛ أي أقربُها إلى مُقَدَّم الفم».

ممّا سبق نرى أنّ الزّنجانيّ قد تأثّرَ بكتاب المفصّل؛ إذ سار على منهجه في ترتيب مادّته وعبارته، إضافةً إلى أنّه أغنى به كتابَه مناقشةً وتفسيرًا وتعليقًا وردودًا.

وثانيها: كتاب الكشّاف:

وهو كتاب في تفسير القرآن الكريم حشدَ فيه الزّمخشريّ آراءه اللغويّة والنحويّة والصّرفيّة والبلاغيّة والعقليّة، رأى فيه الزّنجانيّ مادّة جليلة الأثر والفائدة تُكسبُ كتابه قيمةً وفائدة كبيرتين؛ إذ إنّ العلماء مُجمعون على علوّ شأن كتاب الكشّاف في علم العربيّة.

وقد تنوعّت النّقول التي نقلَها الزّنجانيّ عن الزّمخشريّ في الكشّاف تبعًا لتنوّع موضوعاتها، فتراه ينقل عنه أقوالاً في مسائل صرفيّة:

قال الزّنجانيّ في فصل التقاء السّاكنين[٧٥]: «وقالَ الزَّمخشريُّ في الكَشَّاف: إنَّ الفتحةَ في الميم منقولةٌ من حركة الهمزة».

وقال في فصل حروف البدل[٧٦]: «ذهَبَ الزَّمَخْشَريُّ في الكشَّاف، فقالَ: والتَّوْريةُ والإنجيلُ اسمان أعجميَّان، وتَكَلُّفُ اشتقاقهما من الوَرْي والنَّجْل، ووزنُهما تَفْعلةٌ وإفْعيلٌ».

وقال فيه أيضًا[٧٧]: «وقالَ صاحبُ الكشَّاف: التَّاءُ في تَخِذَ أصلٌ كما في تَبِعَ، واتَّخَذَ افْتَعَلَ كاتَّبَعَ من تَبِعَ، وليسَ من الأخذ في شيءٍ».

وكذلك ينقل منه مسائل في القراءات القرآنيّة: قال في فصل الإمالة[٧٨]: «وفي الكَشَّاف: أنَّ الحَسَنَ بنَ عَليٍّ قَرَأَ: ﴿أَنّى صَبَبْنَا الْمَاء صَبًّا﴾[عبس ٢٥]، وهو اسْتفهامٌ على سَبيلِ الاسْتعظام».

٦٩- المصدر نفسه، ص ١٤٢.
٧٠- المصدر نفسه، ص ١٨٢.
٧١- المصدر نفسه، ص ٢٣٥.
٧٢- المصدر نفسه، ص ٤٧٤.
٧٣- المصدر نفسه، ص ٥٨٠.
٧٤- المصدر نفسه، ص ٥٧٩.
٧٥- المصدر نفسه، ص ٢٢٩.
٧٦- المصدر نفسه، ص ٤٦٣.
٧٧- المصدر نفسه، ص ٤٦٥.
٧٨- المصدر نفسه، ص ٢٨٩.

وفي مسائل اللغة: قال في فصل الإدغام[٧٩]: «ومنه القارةُ؛ وهي الأكَمَةُ لاجتماعها. لغةٌ حكاها الزَّمَخْشَريُّ».

وفي مسائل الخطّ: قال في فصل الخطّ[٨٠]: «قالَ الزَّمخْشَريُّ: ورأيتُ في الكتبِ المخطوطة بأيدي الأئمَّة المُتقنينَ هذه الألفَ مرفوضةً لكونها غيرَ ثابتة في اللَّفظ والمعنَى جميعًا». وقال فيه أيضًا[٨١]: «وقالَ الزَّمَخْشَريُّ: وخطُّ المُصحَفِ لم يُراعِ في كثيرٍ منه حدَّ المُصطلَحِ عليه في علم الخطِّ».

ونقل عنه شواهد شعريّة: قال في فصل حروف البدل[٨٢]: وأمَّا قولُ الشَّاعر، أنْشَدَه في الكشَّاف:

يَنْفَعُ الطَّيِّبُ القَلِيْلُ مِنَ الرِّزْ
قِ وَلا يَنْفَعُ الكَثِيْرُ الخَبِيْثُ

وقال في فصل حروف الاعتلال[٨٣]: وأنشَدَ صاحبُ الكشَّاف:

وثَمَّ وَدَعْنَا آلَ عَمْرٍو وعَامِرٍ
فَرَائِسَ أَطْرَافِ المُثَقَّفَةِ السُّمْرِ

وثالثها: كتاب الفائق في غريب الحديث والأثر:

صرّح بالنّقل عنه في موضع واحد، في فصل جمع التكسير، قال[٨٤]: «قالَ الزَّمخْشَريُّ في الفَائق: واحدُ الحُجُوْز حجْزٌ بكسر الحاء؛ وهو بمَعْنَى الحُجْزَة، ويَجُوزُ أن يَكُونَ واحِدُها حُجْز على تقدير إسقاط التَّاء كبُرْجٍ وبُرُوْج».

ورابعها: كتاب ربيع الأبرار:

لم يُسمِّه الزّنجانيّ عندما نقلَ عنه، لكنّه نقلَ عن الزّمخشريّ قولًا في كتابه هذا. قال في فصل الخطّ[٨٥]:

«ونقلَ الزَّمَخْشَريّ عن ابن إسحاقَ أنَّه قالَ: أبو جادٍ وهَوَّازٌ وحُطِّي وكَلَمُنْ وسَعْفَصُ وقُرَيشياتُ بنو المحضِ بن جندَل، كانوا مُلوكًا».

هـ- كتاب الصّحاح للجوهريّ:

وهو من أكثر الكتب التّي عوّل عليها الزّنجانيّ في تركيب مادّته الصّرفيّة، فهو من أصحّ المعاجم لغةً والتزامًا بما جاء عن العرب، وغنيّ بالشّواهد اللغويّة التي تغني أيّ كتاب في اللغة أو التّصريف. والزّنجانيّ في كتابه الكافي كان يرى في الصحاح كتابًا عاليَ الشّأن جامعًا للغة تُطلبُ عنده الفوائد، ولشدّة اعتماده عليه كان يُحيلُ القارئ إلى طلب الحاجة اللغويّة منه، فنراه يقدّمُ لنا نصيحةً علميّة في معرفة أحوال المقصور والممدود، ويقول[٨٦]: «وإذا أردتَ كمالَ معرفته فعليكَ بباب الواو والياء من كتاب الصِّحاح في اللغة». ثمّ إنّ الزّنجانيّ قد اتّكأَ على الصّحاح كثيرًا في جميع أبواب قسم الصرف من كتابه، فقد أكثر من الاستقاء من معينه، والتزوّد من شواهده.

وقد تنوّعت الفوائد التي استقاها الزّنجانيّ من معين الصحاح، فمنها ما يتّصلُ بتفسير الألفاظ اللغويّة، ووقعت كثيرًا في كتابه[٨٧]، ومنها ما يتّصل بنقل آراء العلماء وأقوالهم[٨٨]، ومنها ما يتّصلُ بالشّواهد الشّعريّة؛ إذ إنّ الزّنجانيّ قد أكثر الاستشهاد بها منقولة عن الصحاح[٨٩]، ومنها ما يتّصل بتبيين ألفاظ غريبة[٩٠]، ومنها ما يتّصل بمسائل صرفيّة[٩١] ولغويّة[٩٢].

٧٩- المصدر نفسه، ص ٦٣٠.
٨٠- المصدر نفسه، ص ٧٠٤.
٨١- المصدر نفسه، ص ٧١٣.
٨٢- المصدر نفسه، ص ٤٦٦.
٨٣- المصدر نفسه، ص ٤٨٢.
٨٤- المصدر نفسه، ص ٩٠.
٨٥- المصدر نفسه، ٧٠٣.
٨٦- المصدر نفسه، ص ١٩٨.
٨٧- المصدر نفسه، ص ٤٤، ٦٦، ٤١١، ٥٧٨.
٨٨- المصدر نفسه، ص ٢٩، ٤١٢.
٨٩- المصدر نفسه، ص ٧١، ٧٨، ١٨٧، ٢١٤، ٣٠٧، ٣٦٣، ٣٨٩، ٤٢٢، ٤٤٨، ٥٠٩، ٥٤٤، ٥٧٦، ٦٣٧، ٦٤٣، ٦٦٣، ٧١٥.
٩٠- المصدر نفسه، ص ٩٣، ١٩٧، ٢٨٣.
٩١- المصدر نفسه، ص ٩٨، ١٣٣، ١٨٤، ١٩٩، ٢٥٢، ٤١٠، ٤٣٢، ٤٦٤، ٤٦٦، ٥٠٨، ٥٨٢.
٩٢- المصدر نفسه، ص ٢٢، ٤٧٢، ٤٨٥.

ح-كتب أبي عليّ الفارسيّ:

لم يصرّح الزّنجانيّ باسم كتب أبي عليّ، وقد نقلَ عنها مقتصرًا على ذكر اسم صاحبها. وأكثر كتب أبي عليّ التي نقلَ عنها كتاب التّكملة، فقد أشبع الزّنجانيّ كتابه بمسائل وأقوال نقلَها عن أبي عليّ في كتاب التّكملة، ولكن أوردَ نقولَه دونما ذكر لكتاب التّكملة، بل اكتفى بذكر صاحبه. قال مثلاً في فصل جمع التكسير[٩٣]: أنشدَ أبو عليّ:

مِن فَوْقِه أَنْسُرٌ بِيْضٌ وأغْرِبَةٌ
وتَحْتَهُ أَعْنُزٌ كُلْفٌ وأَتْيَاسُ

وقد ذكر ذلك أبو عليّ في التّكملة. وقال أيضًا[٩٤]: «وحَكَى أبو عَلِيٍّ: ذَفَاري كجَوَاري». وذكر ذلك أبو عليّ في التكملة. ووقع ذكر أبي عليّ في مواضع كثيرة من كتاب الكافي نقل فيها أقواله من كتاب التّكملة، لكنّه لم يصرّح بها مكتفيًا بذكر اسم صاحبها[٩٥]. وربّما أفاد الزّنجانيّ من كتاب توجيه اللمع لشيخه ابن الخبّاز في نقل أقوال أبي عليّ في التّكملة، وقد وقع ذلك في عدّة مواضع من الكتاب لا بأس في ذكر بعضها.

ومن كتب أبي عليّ التي أفاد منها الزّنجانيّ كتاب الحجّة، أورد منه قولاً واحدًا عن أبي عليّ دون ذكر اسم الكتاب. قال في فصل النّسب[٩٦]: «قالَ أبو عليٍّ: همزةُ زَكَرِيَّاءَ ليستْ للإلْحاقِ؛ إذ ليسَ في الأصولِ شيءٌ يكونُ هو مُلحَقًا به». وقد جاء قوله هذا في الحجّة كما بيّنْتُ ثمّة.

ومنها كتاب الشعر، نقل عنه مرّة واحدة دونما تسمية[٩٧]، وكتاب المسائل البصريات، نقل عنه مرّتين دونما تسمية[٩٨].

٩٣- المصدر نفسه، ص ٩٥.
٩٤- المصدر نفسه، ص ١١٧.
٩٥- المصدر نفسه، ص ٨٩، ١٦٧، ١٦٨، ١٧٢، ٢١٨، ٢٢١، ٢٢٢، ٢٩٢، ٣٠٥، ٤٠٧، ٥٣٢، ٥٣٨، ٥٦٤.
٩٦- المصدر نفسه، ص ٢٦.
٩٧- المصدر نفسه، ص ٦٦٥.
٩٨- المصدر نفسه، ص ٦٦٦، ٦٦٧.

ط-كتب ابن جنّي:

منها **كتاب اللمع:** فقد تكرّر ذكره مرّتين في كتاب الكافي.

قال في فصل جمع التكسير[٩٩]: «وقالَ ابنُ جنّيٍّ في اللُّمَع: إن كانَ في الاسم زائدان وأحَدُهما لمعنًى والآخَرُ لغير معنًى حذفْتَ الذي لغير معنًى وأقررْتَ الذي لمعنًى».

وقال في فصل الإمالة[١٠٠]: «وفي نُسَخ اللُّمَع في هذا الموضع شَقى بالشِّين المُعجمة». وربّما نقلَ عنه دونما ذكر له مكتفيًا بذكر صاحبه، قال في فصل الإمالة[١٠١]: «فإذا أسندتَ الفعلَ إلى الضَّمير قلتَ: خِفْتُ، فكسرةُ الخاء هي كسرةُ الواو مُحوَّلةً. وهذا معنى قول ابن جنّي [في اللمع]: يَنْكَسِرُ ما قبلَها في بعض الأحْوَال».

وربّما نقل عنه بالاطّلاع على كتاب توجيه اللمع، فقد نقل منه عن ابن جنّي في اللمع في موضع واحد من كتابه، وقد أشرتُ إليه في موضعه من التّحقيق[١٠٢]، قالَ الزّنجانيّ ناقلاً عن توجيه اللمع: قال ابنُ جنّيٍّ: «وقد تَدَاخَلُ أيْضًا جُمُوعُ الثُّلاثيِّ من حَيْثُ كَانَ هذا العَدَدُ مُنتَظِمًا لجَمِيْعِها».

ومنها: **كتاب تصريف المُلوكي:** لم يُسمِّه الزّنجاني، لكنّه نقل عنه مكتفيًا بذكر صاحبه، قال[١٠٣] قالَ ابنُ جنّيٍّ: وهو يَنْقَسِمُ إلى خَمْسَة أضْرُب: زِيَادةٌ وبَدَلٌ وحَذْفٌ وتَغْيِيْرُ حَرَكَة أو سُكون وإدغامٌ.

ومنها: **كتاب الخصائص:** نقل عنه الزّنجانيّ بإحدى طريقتين: إمّا أن يصرّح به وباسم صاحبه: كقوله في فصل الضّرورة[١٠٤]: وأنشَدَ أبو الفتح في الخصائص:

٩٩- المصدر نفسه، ص ١٣٠.
١٠٠- المصدر نفسه، ص ٢٨٣.
١٠١- المصدر نفسه، ٢٧٦.
١٠٢- المصدر نفسه، ص ٧٠.
١٠٣- المصدر نفسه، ص ٣٣٠.
١٠٤- المصدر نفسه، ص ٦٤٠.

وإنْ رَأَيْتَ الحجَجَ الرَّوادِدَا
قَوَاصِرًا بالعُمْرِ أَوْ مَوادِدَا

وقولـه فيـه أيضًـا[١٠٥]: أنشَـدَ ابـنُ جنِّـيٍّ في الخصائص:

وَكَيْفَ لا أَبْكِيْ عَلَى علّاتي
صَبائِحي غَبائِقي قَيْلّاتي

وإمّـا أن ينقـل عنـه دونمـا ذكـرٍ لـه مكتفيًـا بذكر صاحبـه، قـال في فصـل حـروف الزيـادة[١٠٦]: وفي كَلْتَبَان، قالَ ابنُ جنِّـيٍّ [في الخصائص]: وَزْنُه فَعْتَلانٌ، من الكَلَب؛ وهو القيادةُ.

ومنهـا: **كتـاب المنصـف:** لم يُسمِّـه الزّنجـانيّ، ونقـل عنه مكتفيًا بذكر صاحبـه. قال في فصل حروف الاعتلال[١٠٧]: أنشَدَ ابنُ جنِّيٍّ [في المنصف]:

يا مِسْكَ رُدِّي فُؤَادَ الهَائمِ الكَمِد
مِنْ قَبْلِ أَنْ تُطْلَبِي بالعَقْلِ وَالقَوَدِ

وقال فيـه أيضًا[١٠٨]: قالَ ابنُ جنِّـيٍّ [في المنصف]: وهذا من الشَّواذِّ وأَظنُّه مولَّدًا.

وأنشَدَ أيضًا:

تُوَيِّلُ إذْ مَلأْتُ يَدِي وكَفِّي
وكَـانَتْ لا تُعَلَّلُ بالقَلِيْـلِ

وقال أيضًا[١٠٩]: أنشَدَ ابنُ جِنِّيٍّ [في المنصف]:

تَسْمَعُ لِلْجِنِّ بِهَا زِيْزَيْزَما

وقـال في فصـل الخـطّ[١١٠]: أنشَـدَ ابـنُ جنِّـيٍّ [في المنصف]:

عَمَّرْتُكَ اللهَ الجَلِيْلَ فَإِنَّنِي
أَلْوِي عَلَيْكَ لَوَ انَّ لُبَّكَ يَهْتَدِي

١٠٥– المصدر نفسه، ص ٦٤٦.
١٠٦– المصدر نفسه، ص ٤٢٩.
١٠٧– المصدر نفسه، ص ٥٠٢.
١٠٨– المصدر نفسه، ص ٥٤٤.
١٠٩– المصدر نفسه، ص ٥٤٩.
١١٠– المصدر نفسه، ص ٧١٠.

ومنهـا: **كتـاب سـر الصّناعـة:** كذلـك لم يصرّح بـه، ونقـل عنـه مكتفيًا بذكـر صاحبه. قـال في صفات الحروف[١١١]: «وأوردَ ابنُ جنِّيٍّ القافَ التي كالكاف». وقـد وردَ قول ابـن جنّي هذا في سرّ الصّناعة كما بيّنتُ ثمّة.

ي– أبو سعيد السيرافي، في شرحه الكبير لكتاب سيبويه.

يبـدو أن الزّنجانيّ لم يأخذ جميع أقوال أبي سعيد مـن كتبِـه مباشرةً، بل إنّـه أخذ قسمًا كبـيرًا منها عن كتابين اثنين هما كتاب شيخه ابن الخبّاز توجيه اللمع وشـرح المفصّل لابن يعيش في معرض نقلِه منهما قِطَعًا كبيرة من كلامهما متضمّنةً كلامَ أبي سعيد.

ك– عبد القاهر الجرجاني في كتابه المقتصد:

أفـاد منه في ستّة مواضع، نقلَ عنه مصرّحًا باسمه دون كتابه المقتصد[١١٢].

ومـن المصادر التي ذكرها الزّنجاني في كتابه الكافي ابن السـراج في كتابه الأصول، نقل عنه الزّنجانيّ غيرَ مرّة، ولم يُسمّ كتابه.

وكان الزّنجـاني ينقـل عـن كتـاب الأصـول لابـن السّرّاج إمّا بالأخـذ عنه مباشرة وهو أكثرُ أمره، وقد بيّنْتُ ذلك في مكانه[١١٣]، وإمّا بالأخذ عنه بوسيطٍ، وهو كتابـان شـرح المفصّـل لابن يعيش في معرضِ سلْخه قِطَعًا من كلامه[١١٤]، والصحاح للجوهريّ، وقد صرّح بالنّقل عن أبي بكر بن السّرّاج منه[١١٥]. ومن مصادره أيضًا ابن بابشـاذ، ربّما نقل عنه من كتابه شرح جمل الزّجّاجي، وورد ذكر ابن بابشاذ في الكافي مرّات[١١٦].

١١١– المصدر نفسه، ص ٥٨٨.
١١٢– المصدر نفسه، ص ١٣٥، ٢٢٥، ٢٩٢، ٣٠٥، ٥٦٦، ٥٧٦.
١١٣– المصدر نفسه، ص ١٤٢، ١٦٨، ٢١٢، ٢٦٩.
١١٤– المصدر نفسه، ص ٦٦، ٤٣١، ٤٥٩.
١١٥– المصدر نفسه، ص ٤١٢، ٤٢٦.
١١٦– المصـدر نفسه، صـ ١٩٦، ٥٧١، ٥٨٨، ٥٩٥، ٦٧٦، ٦٩٧، ٧٠٤.

وابن درستويه في كتابه كتاب الكتّاب، فقد وقع ذكر ابـن درستويه في الكافي مرّات ولم يذكر في إحداها اسم كتابه، وقد أحلتُ إلى المواضع التي نقل فيها الزّنجانيّ عن كتاب الكتّاب[١١٧]، واستقرّتْ في فصل الخطّ.

وابـن الدّهّـان في كتـاب بـاب الهجـاء، واستقـرّت نقـول الزّنجـانيّ عن كتاب باب الهجـاء في فصل الخطّ أيضًـا[١١٨]، وقـد وقع الزّنجانيّ في أحـد نقوله عن هذا الكتـاب في غلَطٍ، إذ عزا إلى ابن الدّهّان قولاً، وهو قائلٌ بعكسـه، فقد قال الزّنجـاني: إنّ ابنَ الدّهّـان قد أجازَ حذفَ الألف من مَساجِـدَ ونظائرِها. وابن الدّهّان قال في كتاب بابِ الهجاء: فأمَّا مساجد ومَساكنُ فلا يُحْذَفُ ألفُهـا خوفَ اللبسِ بالواحد منها[١١٩]. وهو أمر غريب يقع به الزّنجانيّ.

وابن خالويه في كتابه ليس في كلام العرب[١٢٠]. ذكر الزّنجانيّ ابن خالوبه ولم يذكر اسم كتابه.

وابـن دريد في كتابه جمهـرة اللغة. ذكره الزنّجاني مرّتين ولم يُسمّ كتابه[١٢١].

والزّجاجـي في كتابـه الجمـل، لم يصـرّح باسـم الكتاب مكتفيًا باسم صاحبه، وقد نقل عنه مرّة واحدة في فصل الخطّ[١٢٢].

والصَّيمـريّ في كتابـه التّبصـرة والتّذكـرة، وقـد صرّح باسم مؤلّفه دونه مرّة واحدة[١٢٣].

ومكّـيّ بـن أبي طالـب في كتابه «الرّعايـة في تجويد القـرآن وتحقيـق لفـظِ التّـلاوة»، فقـد أفاد منـه مرّة واحـدة في أقسـام الحـروف بحسـب صفاتهـا، وقـد ذكـره بقولـه: «ذكـر صاحـب الرّعاية»، قـال في فصل الإدغام: «للحـروف بحسبِ الصِّفاتِ انقساماتٌ كثيرةٌ لكثرةِ أنـواعِ صفاتِها، وقد ذكرَ صاحبُ الرِّعايةِ أربعةً وأربعينَ نوعًا».

والأزهـريّ في كتابـه تهذيـب اللغـة، نقل عنـه مرّة واحدة[١٢٤] دونما تسمية لكتابه.

والحريـريّ في مقاماتـه، نقـل عنـه مواضع في نقط الحروف[١٢٥].

والأصفهـانيّ محمـد بـن داود في كتابـه الزّهـرة، نقـل عنه بيتـين من الشعـر، وقد صرّح باسـم الكتاب وصاحبه[١٢٦].

والحسن بـن أسد الفارقيّ، نقل عنـه مرّة واحدة، ولم يُسـمّ الكتـاب الذي نقلَ عنـه، واكتفـى بذكر اسم مؤلّفـه، وهو كتـاب الإفصـاح في شرح أبيـات مشكلة الإعراب[١٢٧].

وأبو تمّام في ديوانه وكتاب الحماسة، فقد استشهد بشعره ثلاث مرّات، وأغلب الظّنّ أنّه نقل عن ديوانه في مرّتـين[١٢٨]، وفي مرّة واحدة عـن شيخه ابن الخبّاز في توجيه اللمع[١٢٩].

أمّا كتاب الحماسة فنقل عنه في معرض استشهاده بأبيات منه، وهو يذكره بقوله: «ومن أبيات الحماسة كذا»[١٣٠].

٢-المصادر التي نقل منها عن طريق كتاب وسيط.

وهـي كثيرة الـورود في كتابـه، وكان سبيلـه إليها ثلاثة كتـبٍ اعتمد عليها في إغناء كتابـه بأقوال العلماء المتقدّمين، وهي:

كتـاب توجيـه اللمع لشيخـه ابن الخبّـاز، وشرح المفصّل لابن يعيش والصّحاح للجوهري.

١١٧- المصدر نفسه، ص ٧٠٥، ٧٠٧، ٧١٣.
١١٨- المصدر نفسه، ص ٦٧٧، ٦٩٥، ٧٠٠، ٧٠٥.
١١٩- المصدر نفسه، ص ٧٠٠.
١٢٠- المصدر نفسه، ص ٣٦٩.
١٢١- المصدر نفسه، ص ٥٨١، ٥٨٦.
١٢٢- المصدر نفسه، ص ٧١٣.
١٢٣- المصدر نفسه، ص ٩٥.
١٢٤- المصدر نفسه، ص ٢٢.
١٢٥- المصدر نفسه، ص ٤٩٥، ٥٨٣، ٧١٦، ٧١٧.
١٢٦- المصدر نفسه، ص ٧١٨.
١٢٧- المصدر نفسه، ص ٦٥٧.
١٢٨- المصدر نفسه، ص ٨٥، ٧٢٧.
١٢٩- المصدر نفسه، ص ١٨٦.
١٣٠- المصدر نفسه، ص ٦٦٤.

٣-مصادره التي أغفل ذكرها متعمّدًا.

هما كتابان نقل الزّنجاني عنهما، ونقله الشّمس إنارة، والبحر سعة وانتشارًا، ولم يسمهما، بل أغفلَ ذكرَهما ولم يصرّح بهما، وهما: (كتاب توجيه اللمع لشيخه ابن الخبّاز، وشرح المفصّل للزّمخشريّ).

أ-كتاب توجيه اللمع.

وهو كتاب لشيخه ابن الخبّاز ألّفه في شرح كتاب اللمع لابن جنّي، تلبيةً لحاجة الطّلّاب في عصره، إذ إنّهم كانوا يحفظون كتاب اللمع ولا يفهمون أكثر مسائله، فجاء ابن الخبّاز ولبّى لهم هذه الغاية في شرحه وتيسيره لهم.

ومن المتوقّع أن يفيد الزّنجانيّ من كتب شيخه ابن الخبّاز على قرب كتبه منه وسهولة الأخذ منها، وقد كان ذلك، فقد أسهبَ الزّنجانيّ في الأخذ عن كتاب شيخه توجيه اللمع، فملأ كتابه الكافي بمسائله وشواهده وتعليقاته، وكثرت مواضعها في الكافي فلا يقرؤُه أحد إلاّ وتلفتُ انتباهه.

والغريب أنّ الزّنجانيّ لم يذكر كتاب شيخه هذا، أو اسمَ شيخه إلاّ مرّة واحدة لا يُلْتَفَتُ إليها، عندما ذكره بلفظ: «قال الشّيخ»[١٣١].

ولك أن تستدلّ على نقل الزّنجانيّ من كتاب توجيه اللمع من أوّل صفحة تمرّ بك، ويُرافقك النّقل غير المصرّح به في فصول الكتاب الآتية: (فصل النسب، وفصل جمع التكسير، وفصل التصغير، وفصل المقصور والممدود، وفصل الساكن لا يُبتدأ به، وفصل الإمالة).

ب-كتاب شرح المفصّل لابن يعيش.

وهو أهمّ كتاب اتّكأَ عليه الزّنجانيّ في بناء مادّة كتابه، فقد رأى فيه مُعينًا على عرض ما يشرحه من مادة متن الهادي، وهو حقًّا خير مُعين؛ إذ إنّ ابن يعيش لم يدع في شرحه هذا شاردة أو واردة إلاّ وأودعها كتابه بإتقان العالم الفاهم، وبأسلوب جميل يُشعرك أنّ كلامَه مربوط بسلسلة محكمة لا خلل يُصيبُها.

ولا غرابةَ في ذلك إن علمنا أنّ ابن يعيش قد أنجزَ شرحه هذا في السّبعين من عمره[١٣٢] بعد أن اكتملت ونضجتْ قدرته على الصّياغة واستحضار أفكاره حتى لم يدع غائبة أو حاضرة إلاّ وأسكنها فسيح كتابه. فشرحه يشمل أصول النّحو والصّرف والقواعد والعلل والمسائل المتعلّقة بهما كما يشمل آراء النّحويين وخلافاتهم. لهذه الخصال التي اكتسبَها شرح المفصّل كان الزّنجانيّ مُصيبًا في اعتماده إيّاه مُعينًا له في عرض مادّته ومناقشتها. لكن يُؤخذُ عليه عدمُ تصريحه بالنّقولِ عنه، مع كثرتها الباهرة، التي هي الرمل والحصى عددًا. ولعلّ الكلامَ على نقل الزّنجانيّ من شرح المفصّل لابن يعيش يبقى نائيًا عن الحقيقة إن لم تتّضحْ فيه دلائل تقرّبه إلى الحقّ.

وأنا أعرض هاهنا دلائل من كلام الزّنجانيّ نفسه، غير التّطابق الذي بين لفظي الكتابين وسبق ابن يعيش للزّنجاني بالوَفاة باثنتي عشرة سنة، وهي:

١- رؤية الزّنجانيّ وهو ينقل عن شيخه ابن الخبّاز في توجيه اللمع =لا ينقل شيئًا عن ابن يعيش؛ إذ إنّه يكتفي بما نقلَه عن شيخه، وتظهرُ نقولُه عن ابن يعيش عندما لا يُوجَدُ شيءٌ يأخذُه عن ابن الخبّاز، فإنّه حينئذ يأخذه عن ابن يعيش.

٢- مُتابعة الزّنجانيّ للسّهو الذي وقع فيه ابن يعيش في شرح المفصّل؛ إذ إنّ ابن يعيش قد استشهدَ في شرحه في معرض الكلام على الوقف على ضمير الغائب المذكر إن اتّصل به حرف جرّ = بآية قرآنيّة، وقد غلطَ فيها. قال[١٣٣]: فيكون قوله تعالى: (منهو

١٣١- المصدر نفسه، ص ٢٣.

١٣٢- انظر ابن يعيش النّحوي، لعبد الإله نبهان، ص١٥٧.

١٣٣- ٩ / ٨٧.

آيـاتٌ بيِّنات) أوجَهَ القراءتين. ولم ينتبه الزّنجانيّ إلى هـذا السّهو الـذي وقع فيه ابنُ يعيش فسلخ منه هذه الآية وأوردَها كما هي عليه من السّهو[١٣٤].

٣- متابعـة الزّنجـانيّ لابـن يعيش في نقولـه التي ينقلُه عن النّحويين على غير اللفظ الذي قالوه.

مـن ذلـك ما ذكـره ابن يعيش من قـول سيبويه في هاء «هـذه» الثّانية، قال ابنُ يعيش[١٣٥]: قال سيبويه: «ولا أعلـمُ أحَـدًا يضمُّها»، ونقلَ الزّنجـاني هذا القول بلفظـه[١٣٦] على أنّه قـول سيبويه. وقولُ سيبويه بهذا اللفـظ ليس في الكتاب، والـذي فيه قوله[١٣٧]: «لأنَّ هذه الهاءَ لا تحوّلُ عن هذه الكسرة إلى فتحٍ، ولا تصرَّفُ ما تصرّفُ الهاءُ».

٤- إنّ من أهمّ مصادر الزّنجانيّ في الكافي الصّحاح، أخـذ عنه جلَّ مادّتـه اللغويّة. ثمَّ إنَّـه إذا أوردَ مثالًا أو بناءً لم يظفر به في الصحاح سلَخَه من ابن يعيش. جاء ذلك واضحًا في أمثلة «ذكر التصريف»[١٣٨].

٥- ثـمّ إنّه يسير علـى خطا ابن يعيش في كتابه، إن فسَّـر ابن يعيش لفظةً فسّرهـا وإلاّ فلا. وقع ذلك جليًّا في «ذكر التصريف»[١٣٩].

٦- وممّا يُشير إلى اطّلاعه على شرح ابن يعيش أنّه يُلمـحُ بكلامه إلى نقد ابن يعيش في فهمه الخاطئ لكلام الزّمخشـريّ. قـال الزّنجـاني في فصـل الإدغـام[١٤٠]: «وقـولُ الزَّمَخْشَـرِيِّ: «لئـلَّا يجمعوا بينَ حـذف التَّاء الأولَى وإدغـامِ الثَّانيـة» لا يـدلُّ علـى أنَّ التَّاءَينِ إذا لم تُحـذَفْ إحداهما جازَ إدغـامُ إحداهما في الأخرَى، فإنَّ هـذا لا يجـوزُ أصـلًا لما بيَّنَّـا. وإنَّما يُـؤذِنُ بـأنَّ إدغامَ الثَّانية فيمـا بعدَها إنَّما امتَنَعَ لحـذف إحدَى التَّاءَين. حتَّـى إنَّـه لولا الحـذفُ لجازَ هـذا الإدغـامُ، وهو كلامٌ صحيـحٌ». فانظر كيـف قال في آخر كلامـه: وهو كلام صحيح، يشير إلى ردّه على ابن يعيش في قوله: «وليس ذلـك صحيحًـا»[١٤١]؛ إذ إنَّ ابـن يعيش حمـلَ كلامَ الزَّمخشريّ هذا على أنَّه يجوزُ إدغامُ التَّاءين إحداهما بالأخرى إن اجتمعتا في المضارع مثل «تتذكّرون».

٧- ومـن أوضح الأدلّة على اطّـلاع الزّنجانيّ على شرح ابن يعيش أنّه نقلَ كلامَه وافتَتَحه بقوله: «وقيلَ» ثمّ ذكر كلام ابن يعيش كما هو في شرحه. قال في فصل الإدغـام[١٤٢]: «وقيلَ: هذا فاسدٌ لذهاب ما في الضَّاد من الاستطالة ولسكون ما قبلَ الضَّاد، فيُؤدِّي الإدغامُ إلى اجتمـاع السَّاكنَين على غـير شرطه، وإلى هـذا المعنَى أشـارَ الزَّمَخْشَـرِيُّ بقولـه: فما بَرِئَتْ مـن عَيب روايةُ أبـي شُعَيب، والحقُّ أنَّ ذلك إخفـاءٌ واختلاسٌ للحركة ظنَّه الرَّاوي إدغامًا». وهو كلام ابن يعيش[١٤٣].

٨- وآخـر الأدلّـة وخاتمهـا مـا يزيدُنـا يقينًـا بأنّ الزّنجـانيّ اطّلع على شرح ابن يعيش ونقل عنه، وهو أنّ الزّنجـانيّ كاد يُصـرّح بابن يعيش إلاّ شيئًا قليلًا، ذلـك أنّ الزّنجـانيّ أورد ثلاثـة أبيـات مـن قصيـدة الأعشى، يقول فيها[١٤٤]:

فَإِيَّـاكَ وَالمَيْتَـــات لا تَقْرَبَنَّـــهَا
وَلا تَأْخُـذَنْ سَـــهْمًا حَدِيْدًا لِتَفْصِدا
وَذَا النُّصُـبِ المَنْصُـوْبَ لا تَنْسُكَنَّهُ
لِعَاقِبَـــةٍ وَاللهَ رَبَّـــكَ فَاعْبُـــدا

١٣٤- المصدر نفسه، ص ٣٢٣.

١٣٥- انظر شرح المفصل لابن يعيش ٩ / ٨٧.

١٣٦- القسم الصرفي المحقق من كتاب الكافي في شرح الهادي، ص ٣٢٣.

١٣٧- الكتاب ٤ / ١٩٨.

١٣٨- القسم الصرفي المحقق من كتاب الكافي في شرح الهادي، ص ٣٣٠.

١٣٩- انظر مثلًا كيف جرى على تفسير الأبنية جريًا مع ابن يعيش، ثـم لا يُفسر لفظ «السّنّـور» لأنّ ابن يعيش لم يفسّرها في شرحه. انظر ص ٣٤١ من قسم التحقيق. وانظر شرح المفصل لابن يعيش ٦ / ١٢٨.

١٤٠- القسم الصرفي المحقق من كتاب الكافي في شرح الهادي، ص ٦٠٩.

١٤١- انظر شرح ابن يعيش ١٠ / ١٥٢.

١٤٢- القسـم الصـرفي المحقق مـن كتاب الكافي في شـرح الهادي، ص ٦١٥.

١٤٣- انظر شرح المفصل لابن يعيش ١٠ / ١٤٠.

١٤٤- القسـم الصـرفي المحقق مـن كتاب الكافي في شـرح الهادي، ص ٣٢٦.

وَسبِّحْ عَلَى حِيْنِ العَشِيَّاتِ وَالضُّحَى
وَلا تَحْمَدِ المُثْرِيْنَ وَاللهَ فَاحْمَدا

وذكر أنّ الزّمخشري أنشد في المفصّل بيت الأعشى الأوّل، هكذا:

وَلا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ وَاللهَ فَاعْبُدا

وقال: «إنّ شُرّاح المفصّل أَنْشَدوا صَدْرَه المصْراعَ الأوَّلَ من البيتِ الأوَّلِ، والصَّوابُ ما أنشدْناه». وبعد الاطّلاع على شروح المفصّل (شرح ابن يعيش، والتخمير، وشرح ابن الحاجب) أقول: إنّ المعنيَّ بقول الزّنجاني: «شرّاح المفصّل» هو ابن يعيش؛ لأنّه هو الوحيد من بينهم الذي أنشد صدر البيت كما زعم الزّنجاني في ثلاثة مواضع من شرحه[١٤٥].

المصادر والمراجع

-الأعلام، للزركلي، دار العلم للملايين، بيروت، ط٤، ١٩٧٩م.

-الاشتقاق، لابن دريد، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٩٩١م.

-الأصول في النحو، لابن السرَّاج، تحقيق: عبد الحسين الفتلي، مؤسسة الرسالة، ط٣، ١٩٩٦م.

-إيضاح المكنون في الذّيل على كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، لإسماعيل باشا بن مير سليم الباباني البغدادي، عُني به المعلم رفعت بيلكه الكليسى، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

-بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنّحاة، السيوطي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر، ط٢، ١٩٧٩م.

-تلخيص مجمع الآداب في معجم الألقاب، لابن الفوطي، تحقيق: مصطفى جواد، دمشق ١٩٦٥م.

-شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ابن العماد، تحقيق: عبد القادر الأرناؤوط ومحمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق- بيروت، ط١، ١٩٨٨م.

-شرح الشافية، الجاربردي، حققه ودرس ما فيه: د. نبيل أبو عمشة، المجمَّع الثقافيّ، أبو ظبي، ط١، ٢٠١٤.

-شرح المفصل، لابن يعيش، المطبعة المنيرية بمصر، ١٩٢٨م.

-طبقات الشافعية، لابن قاضي شهبة الدمشقي، اعتنى به الدكتور عبد العليم خان، مطبوعات دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد، ١٩٧٩م.

-طبقات الشافعية الكبرى، لتاج الدين السبكي، تحقيق: عبد الفتاح محمد الحلو، ومحمود محمد الطناحي، دار إحياء الكتب العربية.

-الكافي في شرح الهادي، الزنجاني، القسم الصرفي المحقق، تحقيق: ساجد الخليف الصالح، جامعة دمشق، قسم اللغة العربية، ٢٠٠١.

-الكتاب لسيبويه، تحقيق: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي بمصر.

-كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، لحاجي خليفة، عُني به محمد شرف الدين يالتقايا ورفعت بيلكه الكليسى، دار إحياء التراث لعربي، بيرت.

-معجم البلدان، ياقوت الحموي، دار صادر، بيروت، ١٩٧٧م.

-معجم المؤلفين تراجم مُصنّفي الكتب العربية، لعمر كحّالة، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٩٩٣م.

-مجلة عالم الكتب، المجلد السابع عشر، العدد الأول، رجب شعبان ١٤١٦هـ.

-هدْيَة العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنّفين، إسماعيل باشا البغدادي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

١٤٥- انظر شرح ابن يعيش ٩ / ٣٩، ٨٨، ١٠ / ٢٠.

الفراهيدي شاعرًا

بيـــان الصفـــدي*

المكانة التي يحتلها الخليل بن أحمد الفراهيدي (١٠٠-١٧٥هـ) لا يدانيها أحد في تراثنا الثقافي، فقد اجتمعت فيه الريادة الحقَّة في مختلف الفنون، فهو واضع المعجم الأول، والمقعِّد الأكبر لقواعد العربية، وواضع علم العروض، والبادىء في علم الموسيقا، والمؤسس الكبير للإملاء، وصاحب الأثر في الفقه والحساب والنثر والشعر.

لكن من الغريب أن جلَّ ما وضعه وصل إلينا مبثوثًا في كتب غيره، سوى معجمه الذي نشر كاملًا منذ سنوات عديدة، وهو (العين)، وليس غريبًا بعد هذا أن يقال عنه إنَّهُ «أذكى العرب»، وقد ذكر ياقوت الحموي في معجمه أن من مصنفات الخليل: كتاب الإيقاع، وكتاب الجُمَل، وكتاب الشواهد، وكتاب العروض، وكتاب العين، وكتاب فائت العين، وكتاب النغم، وكتاب النقط والشكل.

* شاعر وباحث وناقد.

هـذا أبو الطيـب اللغوي يقـول: «كان الخليـل أعلم الناس وأذكاهم» (مراتب النحويين. ص٤٥). ويُنقَل عن الكسائي هذا الوصف للخليل: «لو رأيتَه لم يعظم في عينك بشرٌ بعده» (مجالس العلماء. الزجاجي ص١٩٧). ويكتـب المرزباني عنـه «كان من أزهد الناس وأعلاهم نفسًا» (نـور القبس. ص٦). ويصفه السيرافي: «وكان مـن الزُّهَّـاد في الدنيـا، والمنقطعـين إلى العلـم» (أخبار النحويـين البصريين. ص ٣٠). وعنـه قال ابن المقفع: «رأيت رجـلًا عقله أكثر من علمـه.» (طبقات النحويين واللغويين. ص٤٩). «وعامة الحكاية في كتاب سيبويه عن الخليل» (أخبار النحويين البصريين. ص ٣١).

وهذا غيض من فيض الثناء على هـذا العالم الفذ، والاعتراف بمنزلته التي فاقت الوصف.

لكـن مـا لا يلتفت إليـه كثـيرون أن الفراهيدي كان شاعرًا له في الشعر جولات جميلة، فصحيح أنه قد نقل عنه قوله: «ما يأتيني منه لا أرتضيه، وما أرتضيه منه لا يأتيني» وما في معناه، ولكن ذلك في رأيي كان لتواضع الخليـل، ومعرفته العميقة بالشعر، فقـد أراد أن يقول إن حلمه الإبداعي في الشعر لم يتحقق كما أراد، فعدَّ ما كتبه مشاركات ومحاولات، قعد عن بلوغ الأقصى فيها موسوعية اهتماماته وانشغالاته التي تثير العجب.

مـع هـذا فلدى الخليـل شعر ضـاع أكـثره على ما نعتقـد، كمـا حصل لكثيرٍ ممَّـا صنَّفـه أو أملاه، وربما كان ذلـك لسببين: الأول قرب عهده مـن التدوين، فقد كان الاعتمـاد علـى المشافهـة والإمـلاء، والثـاني قلـة اهتمامه بأن يكون شاعرًا مشهورًا، إذ لم يُدْخِل شعرَه في الأغراض التي تصنع النجومية بأنواعها في عصره.

الشاعر الحكيم

مـن خـلال مـا انتهـى نلحـظ أن الفراهيـدي عكس في شعـره الحكمـة، فهـي جوهـر شخصيتـه الرصينة والعميقـة والخـيِّرة، فـراح يكثِّـف تأملاتـه في المصائر البشرية، وما ينتابها من تقلبات ومكابدات، كأن يقول:

مـا أَسـمَـجَ النُّسـكَ بسـأّل
وَأَقـبَـحَ البُخـلَ بـذي المـالِ
وأَقـبـحَ الـثَّروةَ مـا لَم تَكُن
عـنـدَ أَخـي جـودٍ وإفـضـالِ
والحِرصُ من شرِّ أَداةِ الفَتى
لا خـيرَ في الحـرصِ عَلى حالِ
مَـن بـاتَ مُحـتـاجًا إلى أَهـلـهِ
هـانَ علـى ابـنِ الـعَـمِّ والخـالِ
مـا وقَـعَ الـواقـعُ في وَرْطَـةٍ
أَزرى بـهِ مِـن رِقَّـةِ الحـالِ

(شعر الخليل. ص١٩)

أو قوله:

سأُلْزِمُ نفسي الصَّفْحَ عن كلِّ مذنبٍ
وإنْ كـثرتْ منـهُ عَـليَّ الجـرائـمُ
ومـا الناسُ إلَّا واحـدٌ من ثلاثةٍ
شـريفٌ ومَشـروفٌ ومِـثْـلٌ مُقاومُ
فأمَّـا الـذي فوقي فـأعـرفُ فضلَه
وأتـبـعُ فيـه الحـقَّ والحـقُّ لازمُ
وأمَّـا الـذي مثلي فـإنْ زَلَّ أو هَفا
تَفضَّلْتُ إنَّ الفضلَ بالعزِّ حاكمُ
وأمَّا الذي دُوني فإنْ قال: صُنتُ عن
إجـابـتـه عِـرْضـي وإنْ لامَ لائـمُ

(شعر الخليل. ص٢١)

أو:

إذا كنتَ لا تـدري ولم تَـكُ كالذي
يُشاوِرُ مَن يدري فكيفَ إذنْ تدري
جـهِلتَ فلم تَـعْـلَـم بـأنَّـكَ جاهلٌ
وأَنَّـكَ لا تـدري بـأَنَّـكَ لا تـدري
ومِـن أَعظمِ البلوى بأَنَّكَ جاهلٌ
فمَن لي بـأن تـدري بـأَنَّـكَ لا تـدري

(شعر الخليل. ص١٠)

أو:

ليس المُسيءُ إذا تَغَيَّبَ سوءُهُ
عنِّي بمنزلةِ المُسيءِ المُعلِنِ
مَن كانَ يُظهِرُ ما أُحِبُّ فإنَّهُ
عندي بمنزلةِ الأَمينِ المُحسنِ
واللهُ أَعلَمُ بالقلوبِ وإنَّما
لكَ ما بَدا لكَ منهُمُ بالأَلسُنِ

(شعر الخليل. ص٢٤)

أو:

تَكَثَّر مِنَ الإِخوانِ ما استَطَعتَ
إِنَّهُم بُطونٌ إِذا استَنجَدتَهُم وَظُهورُ
وَما بِكَثيرٍ أَلفُ خِلٍّ لِعاقِلٍ
وَإِنَّ عَدُوًّا واحِدًا لَكَثيرُ

(شعر الخليل. ص٩)

ويعكس شعر الخليل إرادته القوية، وإيمانه الكبير بالعلم والتحصيل، وبذل أقصى الجهد للوصول إلى الأمل، مع فهم الحياة والقدر والمآل الأخير للإنسان، وقبول الدهر بحلوه ومرِّه:

وعاجِزُ الرأيِ مِضْياعٌ لِفُرصَتِه
حَتى إِذا فاتَ أَمرٌ عاتَبَ القَدَرا

(شعر الخليل. ص٩)

وقبلَكَ داوى المريضَ الطبيبُ
فعاشَ المريضُ ومـاتَ الطبيب
فكُنْ مُستَعِدًّا لداعي الفَناء
فَإِنَّ الذي هُوَ آتٍ قريب

(شعر الخليل. ص٦)

إذا ضَيَّقتَ أَمرًا زادَ ضيقًا
وإن هَوَّنتَ صعبَ الأَمرِ هانا
فَلا تَجزَعْ لِأَمرٍ ضاقَ شَيئًا
فكم صَعبٍ تَشَدَّدَ ثُمَّ لانا

(شعر الخليل. ص٢٣)

غَرَّ جَهولًا أَمَلُهْ حتى يُوافي أَجَلُهْ
ومَن دَنا من حَتفِه لم تُغنِ عنهُ حِيَلُهْ
لا يصحَبُ الإِنسانَ من دُنياهُ إِلَّا عَمَلُهْ

(شعر الخليل. ص٢٠)

وما شَيءٌ أَحَبَّ إِلى لَئيمٍ
إِذا سَبَّ الكِرامَ من الجَوابِ
مُتارَكَةُ اللَئيمِ بِلا جَوابٍ
أَشَدُّ عَلى اللَئيمِ من السِّبابِ

(شعر الخليل. ص٢٠)

اِعمَلْ بِعلمي وإن قصَّرْتُ في عملي
ينفعْكَ علمي ولا يَضرُرْكَ تقصيري
وانظرْ لِنفسكَ فيما أَنت فاعلُهُ
من الأمور وشمِّرْ فوق تشميري

(شعر الخليل. ص١١)

لكن نزعة التفاؤل والعزم هذه قد تصاحبها أحيانًا نظرة فيها تأمُّل آخر، إذ مرارة الواقع الذي يرفع الوضيع ويضع الرفيع تشرَقُ في حلقه، وفي هذا نَفْثَةُ عالم كان يرى سوق العلم يدنِّسها الحكَّام وأصحاب المال:

العلم يُذكي عقولًا حين يصحبُها
وقد يُزيِّدُها طولُ التجاريبِ
وذو التأَدُّبِ في الجُهَّالِ مُغتربٌ
يرى ويسمعُ ألوانَ الأَعاجيبِ

(شعر الخليل. ص٥)

يقولونَ لي: دارُ الأَحبَّةِ قد دَنَتْ
وأَنتَ كئيبٌ إِنَّ ذا لَعجيبُ
فقلتُ: وما تُغْني الديارُ وقُربُها
إِذا لم يكنْ بين القلوبِ قريبُ

(شعر الخليل. ص٤)

أو:

أَنِستُ بوحدتي ولزمتُ بيتي
فطابَ الأُنسُ لي ونما السرورُ
فأَدَّبَني الزمانُ فلا أُبالي
هُجِرتُ فلا أُزارُ ولا أَزورُ
ولستُ بسائلٍ ما دمتُ حيًّا
أَسارَ الجيشُ أَم ركبَ الأَميرُ

(شعر الخليل. ص٩)

وما هي إلّا لَيلَةٌ ثم يومُها
وحَولٌ إلى حَولٍ وشهرٌ إلى شهرِ
مَطايا يُقَرِّبْنَ الجَديدَ إلى البِلى
وَيُدنينَ أَشلاءَ الكَريمِ إلى القَبرِ

(شعر الخليل. ص١١)

وما بقِيَتْ من اللذّات إلا
مُحاوَرةُ الرجالِ ذوي العقولِ
وقد كانوا إذا عُدُّوا قليلا
فقد صاروا أَقلَّ من القليلِ

(شعر الخليل. ص٢٠)

ما ازدَدتُ في أَدبي حرفًا أُسِرُّ به
إلَّا تَبَيَّنْتُ حرفًا تحتهُ شُومُ
إنَّ المُقَدَّمَ في حِذْقٍ بصنعته
أَنَّى توجَّهَ فيها فهو محرومُ

(شعر الخليل. ص٢٧)

رُزِقْتُ جُودًا وَلَم أُرزَقْ مُروءَتَهُ
وَما المُروءَةُ إلَّا كَثرَةُ المالِ
إذا أَردتُ مُساماةً تُقاعِدُني
عَمَّا يُنَوِّهُ بِاسمي رِقَّةُ الحالِ

(شعر الخليل. ص١٨)

في حدود النظم

وفي شعر الخليل مواضع فيها ما يقترب من الهجاء، لكنه أقرب إلى النقد المهذب الذكي، يتناول فيه زوايا من النقص البشري، كالجهل وسوء الفهم، فهو يخاطب من انتقد ما كان يقوم به من تدريبات على العروض:

لو كنتَ تعلمُ ما أَقولُ عذرتَني
أَو كنتَ تعلمُ ما تقولُ عذلتكا
لكن جهلتَ مقالتي فعذلْتَني
وعلِمتُ أَنكَ جاهلٌ فعذرتُكا

(شعر الخليل . ص١٦)

أو يتحدث عن معاناة من ثقلاء، صحبتهم خسارة وضياع، فيقدمهم في تركيب ينضح بالسخرية الذكية:

إني بُلِيتُ بِمَعشرٍ نوكى أَخفُّهم ثقيلُ
نفرٌ إذا جالستَهم نقصتْ بقُربهم العقولُ
فهمُ كثيرٌ بي وأعلم أنني بهمُ قليلُ

(عقلاء المجانين. ص٣٧)

ويعقد مقارنة بين نوعين من الغنى، فيقدم مشهدًا ساخرًا متهكِّمًا آخر:

والفَقرُ في النَّفسِ لا في المالِ نَعرِفُهُ
وَمِثلُ ذاكَ الغِنى في النَّفسِ لا المالِ
والمالُ يَغشى أُناسًا لا خَلاقَ لَهُم
كَالسيلِ يَغشى أُصولَ الدَندَنِ البالي

(شعر الخليل. ص١٨)

أو يخاطب أميرًا تعامل بجفاء مع الشعراء، فيقدم نصيحة لها علاقة بالتجربة العامة للمجتمع العربيّ مع الشعر:

لا تَقبَلَنَّ الشعرَ ثم تَعقُّهُ
وتنامُ والشعراءُ غيرُ نيامِ
واعلمْ بِأَنهمُ إذا لم يُنصَفوا
حَكموا لِأَنفسهمْ على الحكَّامِ
وجِنايةُ الجاني عليهم تنقضي
وعتابُهم يبقى على الأيامِ

(شعر الخليل. ص٢٢)

ونقـع على ما يعبر فيه الفراهيدي عن رأي في كتاب أو مسألـة حياتيـة، كما أعطـى رأيًـا في كتابين لشيخه النحوي عيسى بن عمر المتوفى ١٤٩هـ:

بَـطَـلَ الـنـحـوُ الـذي جمَّـعـتُـمُ
غـيـر مـا أَلَّـفَ عـيـسـى بـنُ عـمـرْ
ذاك (إكـمـالٌ) وهَـذا (جـامِـعٌ)
وهـمـا لِـلـنـاسِ شـمـسٌ وقَـمـرْ

(نور القبس. ص٥٨)

أو نكـون أمـام نظـم تعليمـي محض كمنظومتـه النحوية – إن صحَّتْ نسبتها إليه – أو جمعه لحروف العربية في بيت:

صِفْ خلقَ خَوْدٍ كمثلِ الشمس إذ بَزَغتْ
يحظى الضجيعُ بها نجلاءَ معطارِ

(شعر الخليل. ص١٣)

الشعر فنًّا

يـرى الخليـل في الشعـراء رأيًا يلخص مـا يختص بالفـرادة التـي تمنـح الشاعـر المتمكـن سعـة في اللغة والخيـال، ونهجًـا متوارثًـا مـن التجربـة الشعرية في عُرفها العربي، فيقول قولته الخالدة:

«الشعـراء أمراء الـكلام، يصرِّفونه أنـى شاؤوا، وجـاز لهم فيـه ما لا يجـوز لغيرهم من إطـلاق المعنى وتقييـده، ومن تسهيل اللفظ وتعقيـده، ومدِّ مقصوره وقصـر ممـدوده، والجمـع بـين لغاتـه، والترصيـف بـين صلاتـه، واستخـراج ما كلـت الألسن عـن نعته، والأذهان عن فهمه. يبعِّدون القريب، ويقرِّبون البعيد، يُحتَجُّ بهم ولا يُحْتَجُّ عليهم».

(ربيع الأبرار / ٢١٠)

لم يكـن الشعر عند الخليل جملةً من الحِكم والرؤى بمـا فيهـا من فكـر وتعبـير مباشـر ليس غـير، لا، فلم يخلُ شعره مما يذهـب بعيدًا في لغة تغوص في الوجدان والصور، وبما يفرضه ذلك ممَّا سمَّاه مفكرونا القدماء كابـن رشد وابـن سينا بالتغيـير، أي تحـوُّل اللغة من وظيفة التفهيم إلى التعجيب، أي نقل الكلام من المباشرة إلى التخييل، وفي هذا المكان بعينه يفرد الشعر جناحيه، وينطلق، ويدخل في مجـال الفَرادة واكتناه ما في النفس من مشاعر، وما في اللغة من طاقات، فنقرأ مثلًا:

يـا جـنـةً فـاقـت الجـنـانَ فما
تـبـلـغـهـا قـيـمـةٌ ولا ثـمـنُ
أَلـفَـيـتُـهـا فـاتَّـخـذتـهـا وطـنًـا
إنَّ فـــؤادي لِـحـبِّـهـا وطـنُ

(شعر الخليل. ص٢٨)

ونقرأ للخليل ما قد التقطه الشريف الرضي من الرؤية بالقلب، فدار على هذا المشهد والمعنى مرارًا لما فيه من قوة الإيحاء، وسعة الخيال، ورهافة التعبير، قال الفراهيدي:

إن كنتَ لستَ معي فالذكرُ منكَ هنا
يـراك قلبي وإن غُيِّبتَ عن بصري
العينُ تفقدُ مَن تهوى وتبصِرُه
وناظرُ القلبِ لا يخلو من النظرِ

(شعر الخليل. ص٢٧)

ليولد ذلك في قول الشريف الرضي:

وتـلـفـتـتْ عـيـنـي فـمـذْ خَـفِـيَـتْ
عـنـي الـطُّـلـولُ تـلـفَّـت الـقـلـبُ

والشعـر ليس خيالًا وصورًا حسـب، بل هو كثافةُ معنـى وذكاءُ التقاطـة ولطفُهـا أيضًـا، إذ يستقطـر التجربة الإنسانية، ويسكبها في إيجاز متوهِّج:

يعـيـشُ المـرءُ في أمـلٍ يُـــردِّدُهُ إلى الأبـــدِ
يؤَمِّـلُ ما يؤمِّـلُ من صـنـوفِ المـالِ والـولـدِ
ولا يـدري لعـلَّ المو تَ يـأتـي دون بـعـدِ غدِ
فـلا يُبقـي لِوالـدِه ولا يُـبـقـي عـلـى ولـدِ

(شعر الخليل. ص٩)

ما اتَّسعَتْ أرضٌ إذا كان مَن
تُـبـغِـضُ في شـيءٍ مـن الأرضِ

(شعر الخليل. ص١٤)

كـأَنَّـكَ كـنـتَ قـد خـامـرْتَ قلبي
فـجـئـتَ بـمـا شـفـيـتَ بـه الغليلا
رأَيـتُ بـراعـةَ الإيـجـازِ أَشـفى
فـصـارَ كـثـيرُ غـيـرِكَ لي قليلا

(شعر الخليل. ص١٨)

وأكثر ما يلفت النظر في الشعر الذي انتهى إلينا من الخليل أنه يميل إلى السهولة والبساطة في مفرداته وتراكيبه، على الرغم من سعة معرفته بلغة العرب، وهذا يعكس ما كان للخليل من سعة أفق متجددة في النظر إلى الشعر، أليس الشعراء أمراء الكلام كما قال؟!

وفي شعره ميل إلى فن المقطوعات لا القصيدة، وإلى الأوزان القصيرة الغنية بموسيقا الكلمات:

إِنَّ الخليطَ تَصـدَّعْ فـطِـرْ بِـدائـكَ أَو قَـعْ

(شعر الخليل. ص١٤)

افـخَـرْ وكـاثِـرْ بـالـقَـريـحـة
إِنَّـهـا فـخـرُ المـكـاثِـرْ
واعـلَـمْ بـأَنَّ الـعـلـمَ مـا
أوعـيـتَ في صُـحـفِ الضمائرْ

(شعر الخليل. ص١٢)

إن لـم يكـن لكَ لحمٌ كـفـاكَ خَـلٌّ وزيـتُ
أَو لـم يكـن ذا وهذا فـكـسـرةٌ وبُـيَـيْـتُ
تظلُّ فيـه وتـأوي حـتـى يـجـيـئكَ مـوتُ
هذا عفـافٌ وأَمـنٌ فـلا يـغُـرَّكَ لـيـتُ

(شعر الخليل. ص٧)

وفي شعره نلمس هذا السبك الإيقاعي الخاص، في تركيبات لغوية ذات جرس، فتأتي قافية نادرة هي الياء المشددة المكسورة لتزيده خصوصية:

لا يـكـون الـسَّـريُّ مـثـلَ الـدَّنـيِّ
لا ولا ذو الـذكـاء مـثـل الـغـبـيِّ
لا يـكـون الألـدُّ ذو المِـقْـول المُـرْ
هـف عـنـد الـقـيـاس مـثـلَ الـعـيـيِّ
والخطابُ البليغ عند جواب الـ
ـخـصـم يُـرمـى بمثله في الـنَّـدِيِّ

(شعر الخليل. ص٢٥)

والأغرب والأعجب أن تصادفنا –على قلَّة ما انتهى إلينا من شعره– تلك المحاولات من التمرُّد الفني اللطيف، كهذه القوافي التي تتراكب في جميع الأبيات، وهو ما يسمَّى التضمين في العروض، أي انقسام الجملة بين بيتين، وتعلُّق البيت بالآخر لغويًا، كقوله:

يا ذا الذي في الحبِّ يَلحى أَما
واللهِ لـو حَـمَـلـتَ مـنـهُ كما
حـمـلـتُ مـن حُـبٍّ رَخـيـم لما
لُـمـتَ على الحبِّ فدَعْني وَما
أَطـلُـبُ إِني لسـتُ أَدري بما
أَحـبَـبـتُ إِلَّا أَنـنـي بينما
أَنـا بـبـاب القَصرِ في بعض ما
أَطـلُـبُ مَـن قصرهم إِذْ رَمى
شـبـهُ غـزالٍ بـسـهـام فما
أَخـطـأَ سـهـمَـاهُ ولـكـنَّـما
عـيـنـاهُ سـهـمـانِ لـهُ كلَّما
أَرادَ قـتـلـي بـهـمـا سَـلَّما

(شعر الخليل. ص٢١)

ثم في موضع آخر نكون مع قافية فيها تكرار الكلمة نفسها مما يسمَّى عروضيًا بالإيطاء، وقد توحَّدَ اللفظُ في الكلمات واختلفَ في المعنى، مما يسمى الجناس الكامل بلاغيًا:

يا وَيحَ قلبي من دَواعي الهوى
إِذ رحـلَ الجـيرانُ عند الغُروبْ
أَتـبَـعْـتُـهُـمْ طَـرْفي وقد أَمعنوا
ودمـعُ عـيـنَـيَّ كفَيضِ الـغُـروبْ
بـانـوا وفـيـهـم طـفـلـةٌ حـرَّةٌ
تَـفـتَرُّ عـن مِـثـلِ أَقـاحـي الـغُـروبْ

(شعر الخليل. ص٦)

وإذا ما غادرنا القافية الطريفة صادفنا ما هو أشدُّ نُدْرة من الناحية العروضية في الشعر العربي كلِّه، إذ يقول الفراهيدي مستخدمًا تفعيلة (فَعْلُنْ):

هذا عمرٌو يَستعفي من
زيد عند الفضل القاضي
فانهَوا عمرًا إني أخشى
صولَ الليث العادي الماضي
ليس المرءُ الحامي أنفًا
مثل المرءِ الضَّيمَ الراضي

(شعر الخليل. ص١٣)

ثم ينوِّع على (فَعِلُنْ) في مرة ثانية:

سُئلوا فأبوا فلقد بخلوا
فلبئس لعمرك ما فعلوا
أبكيتَ على طلل طربًا
فشجاك وأحزنك الطللُ

(شعر الخليل. ص١٧)

وفي هذين المثالين نتيقَّن من أن الأخفش –وهو تلميذ الفراهيدي – ادَّعى أنه أضاف إلى البحور الشعرية البحرَ السادس عشر وسماه المتدارَك، وما ذاك إلَّا افتراء كامل، فكيف يستقيم ذلك والخليل نظم فيه؟! لكن الخليل لم يسمِّه لنُدْرته.

وهذه الجرأة في موسيقا الشعر عند الخليل جعلت أبا الطيب اللغوي يقول: «أحدث الخليل أنواعًا من الشعر ليست من أوزان العرب»، فاستنبط المحدَثون منه المخلَّع كما يقول أبو الطيب. (مراتب النحويين. ص٤٨)

وللأمر في رأيي علاقة بمعرفة الخليل بالموسيقا، وليس بالعروض فقط، فهو يجرِّب أولًا في التنوُّع وزنًا وقافية، ولا يغلق الباب أمام اجتهاد المبدعين، وهذا ما جعل ابن عبد ربه في أرجوزته العروضية يقول عن الخليل:

وقد يزلُّ العالم النِّحريرُ
والحَبْرُ قد يخونه التحبيرُ

(العقد الفريد٦ / ٢٥٢)

فعلاقة الخليل بالموسيقا تبلغ درجة عليا، دعك من عدم وصول كتابه في النغم إلينا، فلنتأمل شهادة إسحق الموصلي فيه بحسب الزّبيدي:

«لما صنع إسحق بن إبراهيم كتابه في النغم واللُّحون عرضه على إبراهيم بن المهدي، فقال: أحسنت يا أبا محمد –وكثيرًا ما تحسن– فقال إسحق: بل أحسنَ الخليل، لأنه جعل السبيلَ إلى الإحسان» (طبقات النحويين واللغويين. ص٤٩)

والموصلي كان يَعُدُّ الخليلَ مَثَلَهُ الأعلى، لهذا قال يهجو الأصمعيَّ:

أليس من العجائب أنَّ قردًا
أُصَيمِعَ باهليًّا يستطيلُ
ويزعُمُ أنه قد كان يُفتي
أبا عمرو ويسأله الخليلُ

(نور القبس. ص٥٧)

وأظن أن الفراهيدي كان يحاول مع الشعر محاولات تشبه التجريب مع الأنغام، علَّه يهتدي فيها إلى ما لا عهد للشعر به قبله في الشكل.

شيء لا يغيب عن ذهن قارىء الخليل، فهذا الشاعر أثقلته حمولته الثقافية، وأرهقته المشاريع الضخمة التي أسَّسها في فنون العربية وغيرها، فلم تفسح له ما كان يستحق من شاعرية فذة، كانت تُطِلُّ على استحياء، لكنها كانت تشير إلى شاعر كان يحلم بتجربة شعرية لم تتحقق منها إلَّا تجاربُها السريعة، لكنها جاءت لتؤكِّد موسوعية جدِّنا العربي العظيم: الخليل بن أحمد الفراهيدي.

المصادر والمراجع

– **ابن حبيب، أبو القاسم الحسن بن محمد.**
عقلاء المجانين. تح: الدكتور عمر الأسعد. ط١. دار النفائس. بيروت ١٩٨٧.

– **السيرافي، أبو سعيد الحسن بن عبد الله.**
أخبار النحويين البصريين. تح: طه محمد الزيني ومحمد عبد المنعم خفاجي. شركة.

– **الضامن، حاتم وضياء الدين الحيدري.**
شعر الخليل بن أحمد الفراهيدي. مطبعة المعارف. بغداد ١٩٧٣.

– **الزبيدي، أبو بكر محمد بن الحسن.**
طبقات النحويين واللغويين. تح: محمد أبو الفضل إبراهيم. دار المعارف ط٢. القاهرة ١٩٨٤.

– **الزجاجي، أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحق.**
مجالس العلماء. مكتبة الخانجي. ط٣، تح: عبد السلام هارون. القاهرة ١٩٩٩.

– **الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر**
ربيع الأبرار. مؤسسة الأعلمي للمطبوعات. تح: عبد الأمير مهنا. ط١. بيروت ١٩٩٢.

– **أبو الطيب اللغوي، عبد الواحد بن علي.**
مراتب النحويين. تح: محمد أبو الفضل إبراهيم. المكتبة العصرية. بيروت ٢٠٠٩.

– **ابن عبد ربه، أحمد بن محمد الأندلسي.**
العقد الفريد. تح: محمد سعيد العريان. ط٢ .مكتبة الاستقامة. القاهرة ١٩٥٣.

–**الفراهيدي، الخليل بن أحمد.**
المنظومة النحوية المنسوبة إلى الخليل بن أحمد الفراهيدي. تح: د. أحمد عفيفي. مطبعة الكتب المصرية. القاهرة ١٩٩٥.

– **المرزباني، أبو عبد الله محمد بن عمران.**
نور القبس. اختصار اليغموري. تحقيق: رودلف زلهايم. دار فرانتس شتاينر. فيسبادن. ألمانيا. ١٩٦٤.

– **مصطفى البابي الحلبي. القاهرة ١٩٥٥.**
الخليل بن أحمد الفراهيدي أعماله ومنهجه. د. مهدي المخزومي. مطبعة الزهراء بغداد ١٩٦٠.

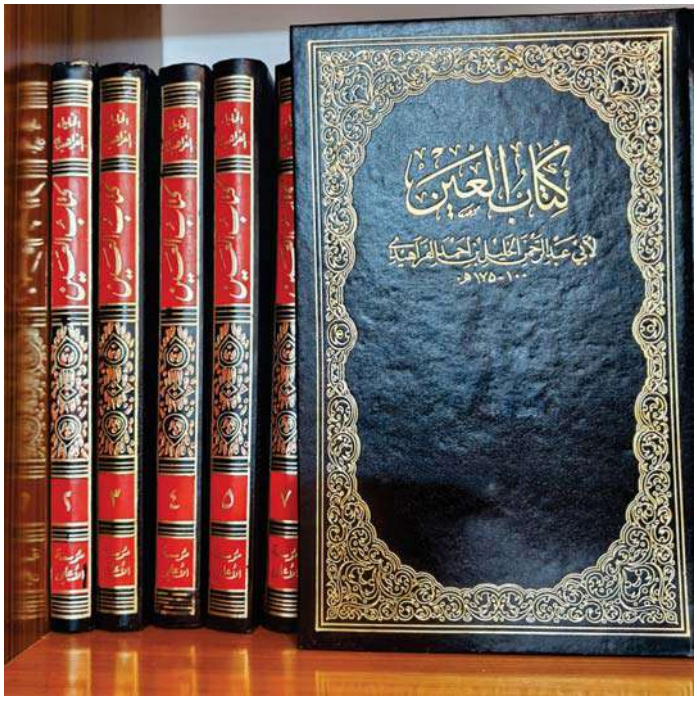

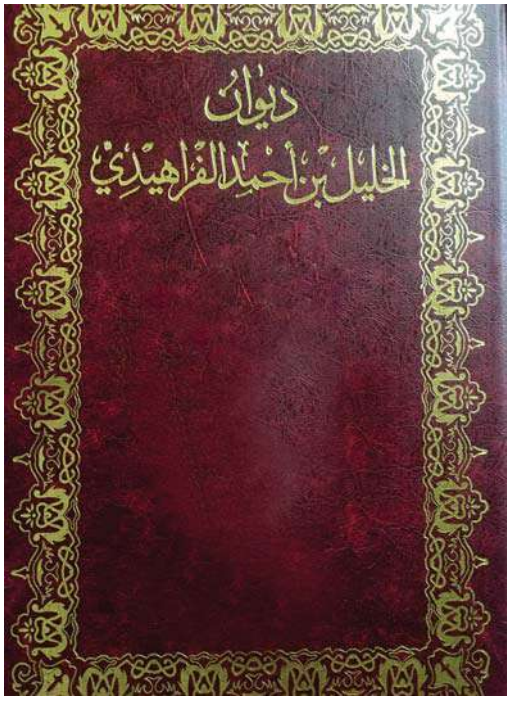

نظرةٌ في كتابِ «الزَّاهرِ في معاني كلماتِ النَّاسِ» لأبي بكرٍ محمَّدِ بنِ القاسمِ الأنباريِّ (ت٣٢٨هـ)

د. ليال سعيد أبو العزّ*

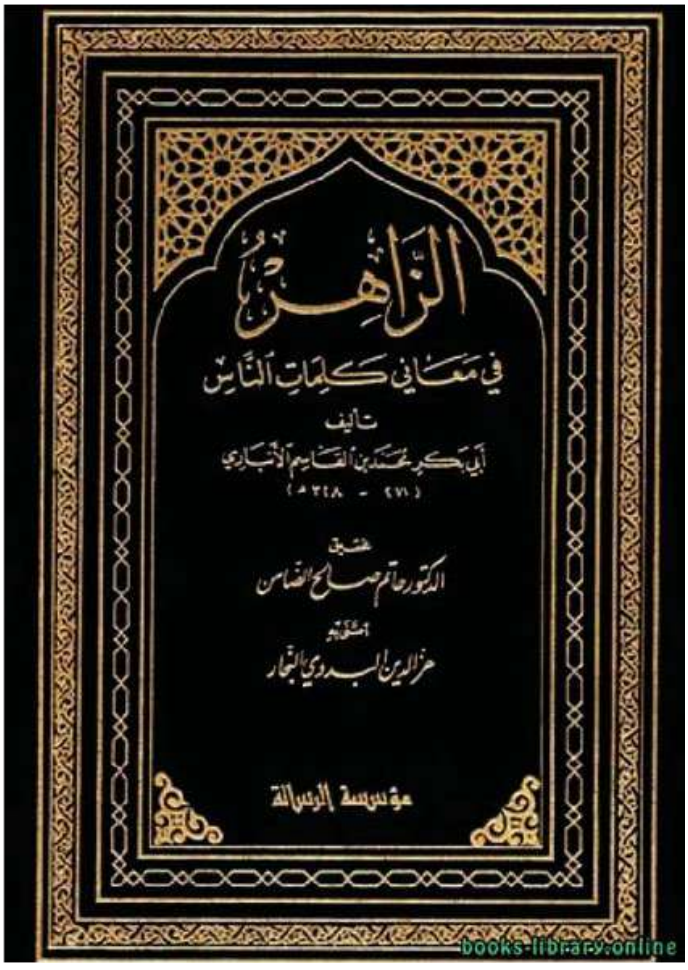

يُعدُّ أبو بكر بن الأنباري أحد رجالات العربية، وأبرز علمائها علماً وحفظاً ودراية، وأغزرهم تأليفاً ومعرفةً، فهو مثال العالم ذي الهمَّة العالية، والقريحة الوقَّادة، والذاكرة اليقظة، قضى عمره ووقته في الحفظ والتأليف، والاشتغال بعلوم العربية وآدابها، لذا وقع اختيارنا هذه المرة عليه، كي نقف في هذا المقال عند هذا الرجل وجهده الذي بذله، ولا سيما في كتابه «الزاهر»، الذي أزهرت به ظلمات اللغة، فتجده زاهراً بمضمونه، مزهراً بصنعته، تزول به غمّة الجهل، وتشعُّ من صفحاته ومضات المعرفة، فيمتلك القارئ لهذا الكتاب ناصية اللغة، وأعنّة نحوها وصرفها ودقائق دلالاتها، التي يزخر بها التراث العربي في القرآن والحديث والشعر والأمثال والأقوال المتداولة بين عامة الناس، وغير ذلك من الأقوال والمفردات التي ازدانت بمعانٍ جديدة فرضتها طبيعة الثقافة الإسلامية، فما أحوجنا إلى مثل هذا الكتاب في عصرنا، كما كانت الحاجة إليه ماسَّة في عصره.

* مدرِّسة في قسم اللُّغة العربيَّة وآدابها – كلّيّة الآداب الثّانية في السُّويداء – جامعة دمشق.

-نبذة عن أبي بكر بن الأنباريّ:

اسمه ونسبه: هو «محمَّد بن القاسم بن محمَّد بن بشَّار بن الحسين، أبو بكر بن الأنباري النحويُّ اللغويُّ الأديب، كان من أعلم الناس بنحو الكوفيين، وأكثرهم حفظاً للّغة، وكان صدوقاً زاهداً متواضعاً فاضلاً أديباً ثقة حَسَن الطريقة»[١].

وقد روى عنه الكثيرون ممّن شهدوا له بالحفظ وسعة العلم وكثرة الاطلاع على الكتب، ومنهم أبو علي إسماعيل بن القاسم القالي، الذي قال: كان أبو بكر بن الأنباري يحفظ ثلاثمئة ألف بيت شاهداً في القرآن، وكان يحفظ مئة وعشرين تفسيراً بأسانيدها.

وقال له أبو الحسن العروضي: قد أكثرَ الناسُ في حفظك، فكم تحفظُ؟ فقال: ثلاثة عشر صندوقاً.

وقال حمزة بن محمد بن طاهر الدقَّاق: كان أبو بكر بن الأنباري يملي كتبه المصنَّفة ومجالسَه المشتملة على الحديث والتفسير والأخبار والأشعار، كل ذلك من حفظه.

وقال محمد بن جعفر التميميّ: أما أبو بكر بن الأنباري، فما رأينا أحفظَ منه، ولا أغزرَ منه علماً، وكان يحفظ ثلاثة عشر صندوقاً، وهذا ممَّا لم يحفظه أحد قبله ولا بعده.

وقال أبو العبَّاس يونس النّحويّ: كان أبو بكر آية من آيات الله تعالى في الحفظ، وكان أحفظ الناس للغة والشعر»[٢].

ومما ذُكرَ عنه أنه «كانت ولادته يوم الأحد إحدى عشرة ليلة خلت من رجب سنة إحدى وسبعين ومئتين. وتُوفِّيَ ليلة عيد النحر سنة ثمان وعشرين، وقيل سنة سبع وعشرين وثلاثمئة»[٣].

١- ياقوت الحموي الرومي، معجم الأدباء إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، تحقيق إحسان عباس، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ط١، ١٩٩٣، ج٦، ص: ٢٦١٤- ٢٦١٥.

٢- المصدر نفسه، ج: ٦، ص: ٢٦١٤- ٢٦١٥.

٣- ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، بيروت، دار صادر، ١٩٧٨، ج٤، ص: ٣٤٢.

وقد وُلِدَ في الأنبار سنة إحدى وسبعين ومئتين، وورد على بغداد، وهو صغير، ونشأ في بيت علم، إذ كان والده من كبار علماء الكوفيين في عصره، وكان آية من آيات الله في الحفظ وطلب العلم وكثرة الاطلاع، لم ينشغل بمتاع الحياة الدُّنيا، ولا بالنساء، ولا بملذَّات المأكل والمشرب، حتى إنه وُصِفَ بالبخل على الرغم من يُسر حاله، وكان وَرِعاً زاهداً[٤].

تنوَّعت معارفه والعلوم التي برع فيها، مثل القرآن الكريم والحديث واللُّغة والنَّحو والشعر، وعُني بمسائل الغريب والرواية عن علماء البصرة والكوفة والأعراب، وكان له شعر لطيف[٥]. وقال عنه الأزهريّ: «وكان واحدَ عصره، وأعلمَ من شاهدتُ بكتاب الله ومعانيه وإعرابه، ومعرفته اختلافَ أهل العلم في مُشكله، وله مؤلَّفات حِسَان في علم القرآن. وكان صائناً لنفسه، مقدَّماً في صناعته، معروفاً بالصدق حافظاً، حسنَ البيان عذبَ الألفاظ، لم يُذكر لنا إلى هذه الغاية من الناشئين بالعراق وغيرها أحد يخلُفُه أو يسدُّ مسدَّه»[٦].

تتلمذ ابن الأنباري على أيدي عدد من شيوخ النَّحو واللُّغة والقُرَّاء والمُحدِّثين والمفسِّرين، من أبرزهم: أبوه القاسم بن محمَّد الأنباري، وأبو العبَّاس أحمد بن يحيى ثعلب، وإسماعيل بن إسحاق القاضي، وأحمد بن الهيثم البزَّاز، وأبو الحسن بن براء، ومحمَّد بن المرزبان، وأبو بكر بن دريد...»[٧].

٤- يُنظر مقدمة المحقِّق، أبو بكر محمد بن القاسم الأنباري، الزاهر في معاني كلمات الناس، تحقيق: حاتم صالح الضامن، دمشق، دار البشائر للطباعة والنشر والتوزيع، ط٣، ٢٠٠٤م، ص: ١٥- ١٦- ١٧.

٥- يُنظر: أبو بكر بن الأنباري، الزاهر في معاني كلمات الناس، مقدِّمة المحقِّق، ص: ٢١.

٦- أبو منصور الأزهري، تهذيب اللغة، تحقيق: عبد السلام هارون، مراجعة: محمد علي النجار، مصر، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والأنباء والنشر، الدار المصرية للتأليف والنشر، ج١، ص: ٢٨.

٧- يُنظر: أبو بكر بن الأنباري، الزاهر في معاني كلمات الناس، مقدِّمة المحقِّق، ج١، ص: ١٧- ١٨- ١٩.

أمـا تلامذته الذين تتلمـذوا على يديـه، فهم علماء كـثر، من أبرزهـم: أبو القاسـم الزَّجَّاجـي، وأبو عليّ القـالي، وأبو الفـرج الأصبهانيّ، وابـن خالوَيْه، وأبو منصـور الأزهريّ، وأبو أحمد العسكريّ، والمَرْزُباني، وأبو الحسن الدارقطني، وغيرهم[٨].

آثاره [٩]:

أما المطبوعة فهي:

الأضـداد، الأمـالي، إيضـاح الوَقْـف والابتـداء، الزاهـر في معاني كلمات الناس، شرح الألفات المبتدآت في الأسمـاء والأفعال، شرح خطبـة عائشة أمِّ المؤمنين في أبيها، شرح ديوان عامر بن الطُّفيل، شرح القصائد السَّبـع الطِّوال الجاهليَّات، شرح قصيدة اللُّغة، المذكَّر والمؤنَّـث، مرسوم الخطّ، مسألـة في التَّعجّب، الهاءات في كتاب الله.

وأمـا المخطوطـة فهـي: شـرح غايـة المقصـود في المقصـور والممـدود لابن دريد، وهـي مخطوطة في دار الكتب المصرية، ضمن مجموع رقمه ٧٥٥ مجاميع.

أما الكتب الأخرى التي نُسبت إليه في كتب التراجم، ولا سيمـا في الفهرست للنَّـديم، ومعجم الأدباء لياقوت الحَمَـويِّ، فهـي: أخبار ابـن الأنبـاري، أدب الكاتب، الحـاء، الـردُّ علـى الملحدين في القـرآن، الـردّ على مَنْ خالف مصحف عثمـان، رسالة في شرح معاني الكذب، شـرح حديث أم زرع، شرح شعر الأعشى، شرح شعر زُهير، شرح شعر النابغة، شرح شعر النابغة الجعدي، شـرح غريـب كلام هنـد بن أبـي هالة التيمـي في صفة رسـول الله صلـى الله عليه وسلم، شـرح قصيدة بانت سعاد، شـرح الكافي، شعر الراعـي، الضمائر الواقعة في القـرآن، غريب الحديث، الـكافي في النحو، اللامات، المجالسـات، المُشـكِل في الـرّدّ علـى أبـي حـاتم وابـن قتيبـة، المُشكِل في معاني القـرآن، المصاحف، المقصور والممدود، الموضَّح في النحو، نقض مسائل ابن شنبوذ، النوادر، الهجاء، الواسط، الواضح في النحو، الناسخ والمنسوخ.

-«الزاهر في معاني كلمات الناس»:

نبتغـي في هذا المقـال أن نضـيء على أبرز كتب أبي بكـر بـن الأنبـاري، ألا وهو الزاهـر، لما لهـذا الكتاب مـن أهميـة في تقييـد عـدد كبـير مـن أقـوال العـرب، وتراكيبهـم اللغويـة، واستعاراتهـم، ودعواتهـم، وأمثالهـم، وشرحها، وبيـان معانيها أي أصل معناها ومـا اكتسبته من تطور دلالي، وكأنَّ هذا الكتاب معجم للتراكيـب اللغويـة العربيـة الدارجـة والمتداولـة، ولا سيمـا بعد مجيء الإسـلام، وما أضفـاه على مفردات اللغة من دلالات جديـدة. لذا سنستعرض في هذا المقام مخطوطات الكتاب، ومنهجه، وخصوصية صاحبه في تأليفه وصنعته.

- مخطوطات الكتاب[١٠]:

١-مخطوطـة أسعد أفندي: كُتِبَت سنة ٣٧٨ ه، بيد الحسين بن سعيد بن المهنَّد الطائي، تلميذ ابن خالويه، خطُّها كبير واضـح، مضبوطة الشكل، على حواشيها بعض التعليقـات، عـدد أوراقهـا ٢٠٤ ورقـة، وفي كل ورقـة ١٨ سطراً، وفي بعضهـا ١٩ سطراً، موجودة في الخزانة السليمانية في إستانبول برقم ٣٢١٥.

٢-مخطوطـة فيضـ الله: كتبهـا مـراد الموصلـي العربي سنة ١٠٨٩ه، خطُّها واضح، مضبوطة الشكل، مقسَّمـة إلى ثلاثة أجزاء، عـدد أوراقها ٢٥٠ ورقة، في كل صفحة ٢٤ إلى ٢٦ سطراً، رقم المخطوطة ١٦٠٨.

٣-مخطوطـة جامعـة بيـل: نسخـة جيـدة، لكنهـا مجهولـة الكاتـب وتاريخ النسـخ، عـدد أوراقها ١٨٧ ورقة، في كل صفحة ١٩ سطراً، رقمها ١٩٥.

٨- يُنظر: المصدر السابق نفسه، ص: ١٩- ٢٠.

٩- يُنظر: نفسه، ص: ٢٣ حتى ٢٩.

١٠- يُنظـر: أبو بكر بـن الأنباري، الزاهر في معاني كلمات الناس، ص: ٧١ وما بعد.

٤–مخطوطة كوبرلي: أيضاً هذه النسخة جيدة، لكنها مجهولة الكاتب وتاريخ النسخ، فيها نقص كثير، وكتابتها رديئة في أوراقها الأخيرة، عدد صفحاتها ٦١٥، في كل صفحة ٢١ سطراً، رقمها ١٢٨٠.

٥–مخطوطة قوله: نسخة حسنة مكتوبة بخط فارسي دقيق، عدد أوراقها ١٢٧ ورقة، في كل ورقة ٢٧ سطراً، رقمها ٢٣ق.

٦–مخطوطة راغب باشا: في إستانبول، نسخة جيدة، كتابتها واضحة كُتِبَت سنة ١١٠٩ه، عدد أوراقها ٣١٤، في كل صفحة ١٩ سطراً.

٧–مخطوطة لا له لي ١٧٨٧، موجودة في المكتبة السليمانية.

٨–مخطوطة بايزيد ٢٥٩٧، كُتِبت سنة ١١٧٥.

٩–مخطوطة فاتح ٣٩١٢ في المكتبة السليمانية.

١٠– مخطوطة أسعد أفندي ٣٢١٦، كُتِبت ٦٢٢ه.

١١– مخطوطة داماد إبراهيم باشا، تضمّ ٣٨٩ ورقة.

–منهج ابن الأنباري في «الزاهر»، وملاحظ عامَّة عليه:

١–البداية بعنوان الكتاب، إذ ذكر محقِّق الكتاب أن للكتاب عدَّة عنوانات، أشهرها هو «الزاهر»، والزاهر في معاني كلمات الناس، والزاهر في معاني الكلام الذي يستعمله الناس، والزاهر في معنى الكلام الذي يستعمله الناس، والزاهر في معاني الكلمات التي يستعملها الناس، والزاهر في اللغة.

تتفق هذه العنوانات في لفظة الزاهر، ولكنها تختلف في اختيار مفردات: الكلمات / الكلام / اللغة، وإن كانت اللسانيات الحديثة تفرِّق بين هذه المفردات، وتميِّز بين دلالتها، فالكلمات تعني: المفردات المفردة المعزولة من سياقها، أما اللغة فهي النظام اللغوي العام المشترك بين أبناء اللغة الواحدة، وأما الكلام فهو الاستعمال الفردي الخاص للغة، أي كيفية استخدام كل إنسان لنظام اللغة العام، فاللغة نظام واحد مشترك، والكلام استخدامات متنوعة خاصة بكل فرد، وعليه يكون الاختيار الأدق هو الكلام أو الكلمات، لأن مضمون الكتاب يعتمد على اختيار الأقوال الخاصة المستخدمة بين الناس في حالات خاصة ومواقف محدَّدة، وليس مناقشة قضايا اللغة في حد ذاتها قبل أن تتلوَّن بتلوينات فردية أو بلاغية أو ثقافية.

٢–وضَّح أبو بكر بن الأنباري أن غايته من تأليف الكتاب هي إيضاح معاني الكلمات التي يتداولها الناس في حياتهم الدينية والدنيوية، فقال في مقدِّمة كتابه: «إن من أشرف العلم منزلة، وأرفعه درجة، وأعلاه رتبة، معرفة معاني الكلام الذي يستعمله الناس في صلواتهم ودعائهم وتسبيحهم (وتقرّبهم إلى ربِّهم) غير عالمين بمعنى ما يتكلَّمون به من ذلك»[١١]. فغرضه تمكين الناس وأصحاب اللغة العربية من لغتهم، وإطلاعهم على معجمها اللغوي، وقواعد نحوها وصرفها، ووجوه الإعراب فيها، واختلاف آراء نحاتها الكوفيين والبصريين، وتأييد ذلك كله بما يناسبه من شواهد القرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف، والشعر الفصيح المحتجّ به. ويضيف: «ومُتْبِع ذلك تبيينَ ما تستعمله العوام في أمثالها، ومحاوراتها من كلام العرب، وهي غير عالمة بتأويله، (و) باختلاف العلماء في تفسيره وشواهده من الشعر، ولن أخليه مما أستحسن إدخاله فيه من النحو والغريب واللغة والمصادر والتثنية والجمع، ليكون مشاكلاً لاسمه، إن شاء الله»[١٢].

١١– أبو بكر بن الأنباري، الزاهر في معاني كلمات الناس، ج ١، ص: ٩٣.

١٢– يُنظر: أبو بكر بن الأنباري، الزاهر في معاني كلمات الناس، ج: ١، ص: ٩٤.

٣-يعتمد ابـن الأنباري في الزاهـر منهجاً واضحاً محـدَّداً، إذ يعرضـ الأقوال والتراكيب مـن غير نظام يقيِّدهـا، ولا ترتيـب ينظِّمهـا، لكـن الملاحَظ أنـه ابتدأ بالتراكيـب اللغويـة الدينيـة، التـي تتعلّـق بـالله عـزَّ وجـلَّ وأسمائـه الحسنـى، وبالإسـلام، وبالفرائض، وبالدعـوات، بعـد ذلـك انتقـل إلى الأقـوال العامـة بموضوعاتها المختلفة.

وكان يبـدأ بذكر القول، يعقبه الشرح واستعراض معانيـه، وكيـف ورد في شواهد من القـرآن الكريم، أو الحديـث النبـوي، أو أشعـار العـرب، أو أمثالهـا، أو أخبارها.

نذكـر مثـالاً علـى ذلـك ﴿**حَسْبُنَـا اللهُ ونِعـمَ الوكيلُ**﴾[سورة آل عمران: ١٧٣][١٣]:

«فمعنـى قولهـم: حسبنـا الله: كافينـا الله، من ذلك قوله تبارك وتعـالى: ﴿**يا أيها النبي حسبك الله ومن اتبعـك من المؤمنين**﴾[سورة الأنفال: ٦٤]، ومن ذلك قول الشاعر:

إذا كانت الهيجاءُ وانشقَّت العصا
فحسبُك والضَّحَّاك سيف مهنَّد

معنـاه: يكفيـك ويكفـي الضحَّاك، ومعنـى الآية: يا أيها النبي كافيـك الله ومَن اتبعك من المؤمنين...». ولا يكتفي بهذا القدر، بـل يستفيض بذكر الآيات القرآنية والأبيـات الشعريـة التـي وردت فيها لفظـة (حسب) بمعنى الكفاية.

من ذلك قول امرئ القيس:

فنملأ بيتنـا أَقِطاً وسَـمْناً
وحسبُك من غنىً شِبَعٌ وريُّ

وقولـه عـزَّ وجـلَّ: ﴿**جـزاءً مـن ربِّـك عطـاءً حساباً**﴾[سورة النبأ: ٣٦].

١٣- يُنظر: نفسه، ج: ١، ص: ٩٤- حتى ٩٥.

وقول الشاعر:

وإذ لا ترى في الناس حسناً يفوقها
وفيهنَّ حسنٌ لو تأمَّلتَ مُحسِبُ

وقول الآخر:

ونُقفي الوليدَ الحيَّ إن كان جائعاً
ونُحسـبُهُ إن كـان ليس بجائعِ

وقول الخنساء:

يكبُّـون العِشـار لمن أتاهـم
إذا لم تُحسِبِ المئةُ الوليـدا

٤- نلحـظ أنه كثيراً ما يستعرض أقوال العلماء في تركيـب ما، أو قول مـا، واختلاف آرائهـم حوله دون تعليل ذلـك، وإنما يكتفي بمجرَّد النقل والرواية. نذكر مثالاً على ذلك:

قول الرجل للرجل: «**حسيبُك اللهُ**»: «قال أبو بكر: قال قوم: الحسيب العالم، ومعنى هذا الكلام التَّهدُّد... وقـال آخـرون: إذا قـال الرجـل للرجـل: حسيبُك الله فمعنـاه: المقتـدر عليـك اللهُ. وقـال آخـرون: الحسيبُ الـكافي... وقـال آخـرون: الحسيبُ المحاسِـب... ومن الحسيـب قـول الله عـزَّ وجـلَّ: ﴿**إنَّ الله كان على كل شـيء حسيباً**﴾[سـورة النسـاء: ٨٦]. قـال أبو بكر: فيه أربعـة أقوال، يقال: عالماً، ويقـال: مقتدِراً، ويقال: كافياً، ويقال: محاسِباً»[١٤].

وأحياناً أخـرى نجد ابن الأنباري لا يكتفي بمجرَّد النقـل واستعراض أقوال العلمـاء، وإنما يبـيِّن رأيه الخاص، ويقيِّـم الآراء محتجّاً بالمنطـق والعقل. نذكر مثالاً على ذلك قولهم: **ونِعْمَ الوكيلُ**[١٥]:

«قـال أبـو بكر: فيـه ثلاثة أقـوال، قال أبـو زكريا يحيى بن زياد الفرَّاء: الوكيل الكافي، كما قال عزَّ وجلّ: ﴿**ألَّا تتَّخِـذُوا من دُوني وَكيلاً**﴾[سورة الإسراء: ٢]،

١٤- يُنظر: المصدر السابق نفسه، ج: ١، ص: ٩٦ حتى ٩٨.
١٥- يُنظر: نفسه، ج: ١، ص: ٩٨- ٩٩.

معناه: أنْ لا تتَّخذوا من دوني كافياً، وقال آخرون: الوكيل الرَّبُّ، فالمعنى عندهم: حسبُنا اللهُ ونعمَ الرَّبّ، وقالوا: معنى قوله عزَّ وجلَّ: ﴿**أَلَّا تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلًا**﴾: ألَّا تتَّخذوا من دُوني ربّاً، وقال آخرون: الوكيل الكفيل، والمعنى عندهم: حسبُنا اللهُ ونعمَ الكفيل بأرزاقنا ...

ثم يبيِّنُ رأيه الخاص فيقول: «والذي أختارُ من هذا مذهب الفرَّاء، وهو أن يكون المعنى: كافينا اللهُ ونعمَ الكافي، فيكون الذي بعد نعم موافقاً للذي قبلها، كما يقول: رازقُنا اللهُ ونعمَ الرازق، وخالقُنا اللهُ ونعمَ الخالق، وراحمُنا اللهُ ونعمَ الراحم، فيكون هذا أحسن في اللفظ من قولك: خالقنا الله ونعم الكفيل، والقولان الآخران غير خارجَين عن الصواب».

–ومنها أيضاً تعليقه على قولهم: **إنَّ عذابَك الجدَّ بالكفَّار مُلْحِقٌ**[16]: «والوجه الثالث: إنَّ عذابَك بالكفَّار لاحِق، قال أبو بكر: ولا نُحبُّ هذا القول، لأنَّه يخالفُ الإجماع».

– ومنها قوله في ختام شرح قولهم: **قد توضَّأ الرجل للصلاة. وقد أخذَ في الوضوء للصلاة**[17]: «فالوُضوء بضمِّ الواو، وبفتح الواو: اسم الماء الذي يُتوضَّأ به، وكذلك السُّحور بضمِّ السِّين، والسَّحور بفتح السين: اسم الذي يُتَسحَّر به، والوَقود: اسم الحطب، والوُقود: التَّلهُّب... وأجاز النحويون أن يكون الوَضوء والسَّحور والوَقود بالفتح مصادر، والأول هو الذي عليه أهل اللغة، وهو المعروف عند الناس».

٥– يستعرض أقوال نحاة البصرة ونحاة الكوفة على حدٍّ سواء، في مختلف الأقوال التي يتوقَّف فيها عند الوجوه الإعرابية، دون أن يتحيّز لإحدى المدرستين، وإن كان أحياناً يؤيِّد رأي إحداها دون الأخرى. نذكر مثالاً على ذلك مسألة «**اللهم**»[18]:

«قال أبو بكر: واختلفوا في معنى (اللَّهمَّ) فقال أبو زكريا يحيى بن زياد الفرَّاء، وأبو العبَّاس أحمد بن يحيى: معنى اللَّهمَّ: يا أله أُمَّنَا بمغفرتك، فتركت العرب الهمزة، فاتصلت الميم بالهاء، وصارا كالحرف الواحد، واكتُفي به من (يا) فأُسقطت، وربما أدخلت العرب (يا) فقالوا: يا اللَّهمَّ اغفر لنا.

وقال الخليل بن أحمد وعمرو بن عثمان سِيبوَيه: اللَّهمَّ معناه: يا أله، قالا: فجعلت العرب الميم بدلاً من (يا)، والدليل على صحَّة قول الفرَّاء وأبي العبَّاس إدخال العرب (يا) على اللَّهمَّ.

٦– يزخر الزاهر بالحديث عن المسائل اللغوية مثل: الأضداد، والإتباع، والإبدال، والتثنية، والتذكير والتأنيث، والمقصور والممدود، وكذلك المسائل النحوية والصرفية، واختلاف الوجوه الإعرابية في قول ما. مثل شرحه لقولهم: **لا حولَ ولا قوةَ إلا بالله**[19]:

«ويقال: قد حَوْلَقَ الرَّجلُ إذا قال: لا حول ولا قوة إلا بالله. وقال أبو جعفر أحمد بن عبيد: يقال حولقَ الرجل وحَوْقَلَ، إذا قال ذلك، ويُقال: بَسْمَلَ الرَّجلُ، إذ قال: بسم الله... ويُقال: قد أخذنا في البسملة والحولقة والحَوقلة، إذا قلنا: بسم الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله... وقال أبو عكرمة الضَّبِّيّ: يقال: قد هَيْلَلَ الرَّجل: إذا قال: لا إله إلا الله، وقد أخذنا في الهيللة، إذا أخذنا في التهليل.

قال الخليل بن أحمد: يقال حَيْعَلَ الرَّجل، إذ قال: حيِّ على الصلاة، وقد أخذنا في الحَيْعَلَة...

وقال: والعرب تفعل هذا كثيراً، إذا كثر استعمالهم الكلمتين ضمُّوا بعض حروف إحداهما إلى بعض

١٦– يُنظر: أبو بكر بن الأنباري، الزاهر في معاني كلمات الناس، ج: ١، ص: ١٦٦– ١٦٧.

١٧– يُنظر: نفسه، ج: ١، ص: ١٣٣– ١٣٤.

١٨– يُنظر، نفسه، ج: ١، ص: ١٤٦.

١٩– يُنظر: المصدر السابق نفسه، ج: ١، ص: ٩٩حتى ١٠٦.

حـروف الأخـرى، من ذلـك قولهـم للرَّجـل: لا تُبَرْقِلْ علينـا، معناه: لا تقصد قصـد كلام لا فعل معه. وكذلك قولهم، قد أخذنا في البَرْقَلَة، أي: في كلام لا يتبعه فعل، وهو مأخوذ من البرق الذي لا يتبعه مطر».

ثـم انتقـل في القول نفسـه إلى استعراض الوجوه الإعرابية الخمسة له:

١–لاحـولَ ولا قوةَ إلا بالله. ٢– لا حولٌ ولا قوةٌ إلا بـالله. ٣– لا حولٌ ولا قوةَ إلا بالله. ٤– لا حولَ ولا قوةٌ إلا بالله. ٥– لا حولَ ولا قوةً إلا بالله.

٧– كثـيراً ما يعتمد ابن الأنبـاري في شرح الأقوال علـى أقوال أهـل التفسير ورواة الحديـث. نذكر مثالاً على ذلك ما جاء في مسألة «**آمين**»[٢٠]:

«قال ابن عبَّاس والحسن: معنى آمين: كذلك يكون، وقال مجاهـد: آمين من أسماء الله تعالى. وفيها لغتان: آمين بالمد، وأمين بالقصر.

٨–تنوَّعـت أقـوال الكتـاب ما بـين أقـوال خاصة بالجانـب الدينـي، مثل التـي ذكرناها أعـلاه، وأخرى عامة تتعلَّق بأخلاق الإنسان وأفعاله وصفاته. مثل:

رجـل فقيه، رجل حكيـم، رجل عاقـل، رجل كيس، رجل ظريـف، فلان شاطر، فلان يشـرب النبيذ، فلان ركيـك، فلانة حليلة فلان، فلانـة ربيبة فلان، قد تغلغل فـلان إلى كـذا وكـذا، قد بجل فـلان فلانـاً، أقبل فلان يتهبى، ... إلخ.

٩– تطـرَّق ابن الأنباري في زاهره إلى بحوث نادرة عـن اشتقـاق الأسمـاء، مثـل اسـم محمَّـد، وقريشـ، وأسمـاء الشعـراء، وأسماء البلدان. نذكـر مثالاً على ذلك ما جاء في معنى **الشام وحمص**[٢١]:

«**ودمشـق**: فِعَـلٌّ، من قـول العـرب: ناقـةٌ دمشقُ اللَّحـم، إذا كانت خفيفة. والشـام: فيه وجهان: يجوز أن يكـون الشـام مأخـوذاً مـن اليـد الشؤمـى، وهـي اليسرى، قال الشاعر:

وأنحى على شُؤمى يديه فذادها
بأظمأ من فرع الذُّؤابة أَسْحَما

ويجوز أن يكون فعلاً من الشَّوْم.

و«أمـا **حمص**: فإنَّها من قول العـرب: قد حمص الجُـرحُ يحمـص حموصـاً، وانحمص ينحمص انحماصاً: إذا ذهب ورمه»[٢٢].

ومما جاء من شرح لأسماء الشعراء نذكر:

«**والمرقِّش**: الشاعـر سُمِّـيَ مُرقِّشـاً لأنـه كان يزيِّـنُ شعره، أُخِذ مـن قولهم: رقَّشتُ الكتـاب أُرقِّشه ترقيشاً»، قال في ذلك:

الدار قَفْرٌ والرسوم كما رقَّش في ظهر الأديم قَلَمْ

–**وزُهَـير**: مأخوذ مـن الزُّهرة، والزُّهـرة الحسنُ والبياض. وقال قطرب: زهير تصغير الأزهر مرخَّماً، كمـا يقـال في تصغير أحمـد على الترخيـم، حُميد، وفي تصغير الأسود سُوَيد»[٢٣].

١٠–اهتـمَّ ابـن الأنبـاري بالأمثال، وذكـر قصتها التـي أُطلقَـت علـى إثرهـا. مثـل قصـة **الحَـور بعـد الكَور**[٢٤]:

«وإذا قال الرجل: اللَّهمَّ إنّا نعوذ بك من الحورِ بعد الكـورِ، فمعنـاه: اللَّهمَّ إنّـا نعوذ بك أن تتغيَّر أمورنا، وتنقصـ كنقصـ العمامـة بعـد كورهـا، وهـو شدها، واحتجُّـوا بـأن الحجَّاج بـن يوسف بعث رجـلاً أميراً علـى جيش ليُقاتل الخـوارج، ثم بعث به بعد مدّة تحت لواء رجل آخر، فقـال للحجّاج: هذا الحَور بعد الكور، فقال له الحجّاج: ما الحورُ بعد الكور؟ قال: «النُّقصان بعد الزِّيادة».

١١– كما أكثرَ من ذكر القراءات القرآنية.

٢٠– يُنظر: نفسه، ج: ١، ص: ١٦١– ١٦٢.
٢١– يُنظر: المصدر السابق نفسه، ج: ٢، ص: ١٢٢.
٢٢– يُنظر: نفسه، ج: ٢، ص: ١٢٥.
٢٣– يُنظر: نفسه، ج: ٢، ص: ١٣٠.
٢٤– يُنظر: نفسه، ج: ١، ص: ١١٧.

١٢–ويُحسَب له أنَّه اهتمَّ بذكر أقوال، وشواهد، وقراءات شاذة ونادرة ولطيفة، مثل شرحه لقولهم: **قد نظرَ في التَّوراة**[٢٥]:

«قال الفرَّاء: التَّوراة معناها الضياء والنور، من قول العرب: قد وَريت بك زنادي، أي أضأتُ بك زنادي، قال: وأصل التَّوراة تَوْرَيَة، على وزن تَفْعَلة، فصارت الياءُ ألفاً، لتحرُّكها وانفتاح ما قبلها، ويجوز أن تكون تَفْعِلة، فيكون أصلها تَوْرِيَة، فينقل من الكسر إلى الفتح، كما تقول العرب: جارية وجاراة، وناصية وناصاة، وباقية وباقاة. قال أبو بكر: ولم يتكلَّم في معنى التَّوراة غير الفرَّاء».

١٣– كما عُنِيَ بتعدُّد اللَّهجات واللُّغات، فحاول استقصاءها وتقييدها، مثل ما ورد في **اللَّهمَّ اغفر لنا ذنوبنا**[٢٦]: «وقال الأصمعي: معنى قولهم: اللَّهمَّ اغفرْ لنا ذنوبنا، اللَّهمَّ استرْ علينا ذنوبنا، قال: والعرب يقول الرَّجل منهم للرَّجل: اصبغْ ثوبك بقرف السِّدر، فإنه أَغْفَرُ للوسخ، أي أسترُ للوسخ، وفي «يصبغ» ثلاث لغات، يقال: قد صَبَغَ الثوب يَصْبَغُهُ ويَصْبِغُهُ ويَصْبُغُهُ، كذلك دَبَغَ الجلدَ يدبغُهُ ويدبَغُهُ ويَدْبُغُهُ، ونَعَقَ الغرابُ ينعُقُ وينعَق وينعِق، وكذلك نَهَقَ الحمارُ ينهُقُ وينهَق وينهِقُ».

وفي موضع آخر: «وفي الأذان لغتان، بقال: سمعت أذان المُؤذِّن، وسمعت أذين المؤذِّن، وسمعت الأذان والأذين، قال الشاعر:

فلم نشعر بضوء الصُّبح حتى
سَمِعْنا في مساجدنا الأذينا

وقال الآخر:

وليلةٍ ناعمٍ قد بتُّ منها
إلى أن راعَني صوتُ الأذينِ[٢٧]

١٤– لكن يُؤخَذُ عليه أنَّه، في مواضع كثيرة، كان يذكر الأقوال دون أن ينسبها إلى أصحابها، بل يكتفي بتعابير عامة مثل قوله:

– في ج:١ / ص: ٣٥: قال بعض نحويي البصرة: وهو المبرِّد. وقال في ج:٢ / ص: ١٤٦: قال بعض أهل اللُّغة: وهو الأصمعي[٢٨]. فكثيراً ما يكتفي بلفظة: قال آخرون، قال قوم، قال بعضهم، قال الشاعر، قال آخر.

١٥– تراوح أسلوبه ما بين ذكر السَّند تارة، وتركه تارة أخرى، وربما ذلك نتيجة العجلة والسرعة في التأليف.

١٦–ويُؤخذ عليه أيضاً أنَّه كثير التكرار، إذ يكرِّر القول أو المثل أكثر من مرة. نذكر مثالاً على ذلك[٢٩]:

–قد داهن فلانٌ فلاناً، في ج١ / ص١٩٦ و في ج٢ / ص١٩٣.

–فلان يهاتر فلاناً، في ج١ / ص١٧٩ وفي ج٢ / ص١٩٤.

–قد داريت الرجل، في ج٢ / ص١٥١ وفي ج٢ / ص١٩٢.

–الحديث ذو شجون، في ج١ / ص١٥٦ وفي ج١ / ص١٩٠ .

١٧– كما وقع في أوهام قليلة أحياناً، ولا سيما في نسبة الشعر إلى صاحبه، أو الحديث[٣٠]. إذ جاء مثلاً :

–في ج١ / ص ١٠٢: قال ذو الرُّمَّة، والصواب الكُمَيت.

–وجاء في ج١ / ص ١٧٦: قال الراعي، وصوابه ذو الرُّمَّة.

–وجاء في ج١ / ص ١٥٥: حديث منسوب إلى النَّبيّ، والقول في الحقيقة للإمام عليّ.

١٨–وغلب على أسلوبه الإطناب في شرح الأقوال، مما أوقعه أحياناً في شراك الخروج عن الموضوع

٢٥– يُنظر: نفسه، ج: ١، ص: ١٦٩.

٢٦– يُنظر: نفسه، ج: ١، ص: ١١٠.

٢٧– ينظر: أبو بكر بن الأنباري، الزاهر في معاني كلمات الناس، ج: ١، ص: ١٢٢.

٢٨– يُنظر: نفسه، مقدمة المحقِّق ص: ٤٨.

٢٩– يُنظر: نفسه، ملحوظات المحقِّق، ص: ٤٨.

٣٠– يُنظر: نفسه، ص: ٤٩.

الرئيس، والاسترسال في أقوال أخرى فرعية، حتى يكاد ينسى القارئ القول الأول، مثل خوضه في المسائل الصرفية التي يخرج بها عن صلب القول الذي يناقشه، وإن كانت هذه الاستطرادات مهمة ومفيدة، فنجده مثلاً[٣١]:

حين يتحدَّث عن معاني كلمة «الجَدّ» يقول: «ويقال: جَدَّ يَجُدُّ إذا قَطعَ، ويقال: قد جُدَّ القميص يجِدُّ بكسر الجيم، ويقال: قميص جديد، وجُبّة جديد بغير هاء، قال أبو بكر: قال الفرَّاء: إنما لم تدخل الهاء في جديد، لأنَّ أصلها: مجدود، فلما صُرِفت عن مفعول إلى فعيل أُلزمت التذكير، كما تقول العرب: كفٌّ خضيبٌ، وعينٌ كحيل، ولحية دهينٌ، فتُحذَف الهاء لأنَّ الأصل فيهنَّ: كفٌّ مخضوبة، وعينٌ مكحولة، ولحيةٌ مدهونة، فلمَّا صُرِفت إلى فعيل أُلزمت التذكير، ليفرق بين ما له الفعل وبين ما الفعل واقع عليه، فالذي له الفعل قولك: امرأة كريمة وأديبة وظريفة، والذي الفعل واقع عليه قد تقدَّم ذكره».

ثم يخوض في وصف القنطرة بالجديد والعتيقة، ثم وصف الجُبّة بالخَلَق، وإفراد لفظة «خَلَق» وتثنيتها وجمعها، ليعود بعد هذا الاستطراد والخروج، إلى إكمال الحديث عن الجِدّ، بكسر الجيم. والأمثلة على مثل هذه الاستطرادات كثيرة في ثنايا الكتاب.

في المجمل امتاز الكتاب بأهمية كبرى نتيجة تقييده أقوال العرب، وتفسيرها، وبيان مختلف معانيها ووجوهها الإعرابية، وما يؤيِّدها من شواهد قرآنية أو شعرية، إضافة إلى غناه بأخبار العرب، وأمثالها، وآراء العلماء والمفسِّرين والقُرّاء والنُّحاة، مما يجعله على قدر كبير من الأهمية في عصره آنذاك، وفي عصرنا الراهن، من جهة حفظه لمسائل اللغة ومفرداتها وتراكيبها، وتنوع موضوعاته، والكم الكبير الذي يحتويه، وهو ما يقارب ألف قول ومثل.

٣١- يُنظر: نفسه، ج: ١، ص: ١١٣- ١١٤.

-أمثلة مُنتقاة من الكتاب:

١-«قد صلّى الرجل[٣٢]:

معناه: قد دعا وسأل ربّه، والصلاة تنقسم في كلام العرب على ثلاثة أقسام: تكون الصلاة المعروفة التي فيها الركوع والسجود، ومنه الحديث الذي رُوي عن ابن أبي أوفى، قال: (أتيت النبي صلَّى الله عليه وسلم بصدقة عامنا، فقال: «اللّهم صلِّ على آل أبي أوفى»، فمعناه: ترحَّم عليه. وتكون الصلاة الدعاء، من ذلك الصلاة على الميت معناه الدعاء له، لأنه لا ركوع ولا سجود فيها».

٢-وقولهم: مَنْ حَبَّ طبَّ[٣٣]:

«قال أبو بكر: معناه: من أحبَّ: فَطِنَ وحَذِقَ واحتال لمن يُحبُّ، والطبُّ معناه في اللغة، الحذق والفطنة، وإنما سُمي طبيباً لفطنته، يقال: رجل طَبٌّ وطبيب، إذا كان حاذقاً.

٣-وقولهم: فلانٌ أبو البَدَوات[٣٤]:

قال أبو بكر: معناه: أبو الآراء التي تظهر له، وواحد البدوات بَدَاة فاعلم، يقال: بداة وبَدَوات، كما يقال: قَطَاة وقَطَوات، وكانت العرب تمدح بهذه اللفظة، فيقولون للرجل الحازم: فلان ذو بَدَوَات أي ذو آراء تظهر، فيختار بعضها، ويسقط بعضها، أنشد الفرَّاء:

من أمرِ ذي بَدَوَات ما تزال له
بَزْلَاءُ يعيا بها الجَثَّامة اللُّبَدُ

٤- وقولهم: لا أراني الله بك غِيَراً[٣٥]:

قال أبو بكر: الغِيَر من تغيُّر الحال، وهو اسم واحد بمنزلة النِّطَع والعنب وما أشبهها، ويجوز أن يكون جمعاً واحدته غِيَرة، قال بعض بني كنانة:

فمن يشكر الله يلقَ المزيد
ومَنْ يكفرِ الله يَلقَ الغِيَرْ

٣٢- يُنظر: نفسه، ج: ١، ص: ١٣٨- ١٣٩.
٣٣- يُنظر: نفسه، ج: ١، ص: ٤٤٣.
٣٤- يُنظر: نفسه، ج: ١، ص: ٦٤٧.
٣٥- يُنظر: نفسه، ج: ٢، ص: ٣٣٠.

ويقـال للدِّيَة: غيَر، لأنها تغيّر مـن القَوَد إلى الرضا بهـا، فسُمِّيت غيراً لذلك. من ذلك الحديث الذي يُروى: (أن رجـلاً قُتِلَ له حميمٌ فطالبَ بالقَوَد، فقال له رسول الله صلَّى الله عليه وسلم: ألا تقبل الغيَرَ؟).

٥-وقولهم: هذه قرية من القرى[٣٦]:

القرية معناها في كلام العرب: الموضع الذي يجتمع الناس فيه، يقال: قد قريتُ الماءَ في الحوض إذا جمعتُه فيـه، ويقال: البعـير يُقري الطعـام في فِيـهِ، أي يجمع العلف في شدقه عند الهرم...

ويُقال لمكَّة: أمُّ القرى، لأنها أصل القرى، وذلك لأن الأرض دُحيت من تحتها، وكذلك يُقال لفاتحة الكتاب: أمُّ الكتاب، لأنها أصل له، قال الراجز:

ما فيهم من الكتاب أمُّ ولا لهم من حَسَبٍ بُكَمُّ

يريـد: ما فيهم من الكتاب أصـل، ويقال لكل مدينة قرية، لاجتماع الناس فيها.

٦-وقولهم: فلانٍ أحمق[٣٧]:

معناه متغيِّر العقل أُخِذَ من الحمق. والحمق عند العرب: الخمر.

-الخاتمة:

نكتفـي بهذا القدر اليسير من الأقوال العربية الفصيحة، التـي أشبعها أبو بكر بـن الأنباري إيضاحـاً وبياناً وشرحاً وتفسـيراً وإحاطـة بمختلـف وجوهـها النحويـة والصرفية والدلالية، شافعاً ذلك كلـه بجميل الأشعار، ولطيف الأخبار، ومتداول الأنثار، ولا سيما أنه عُنيَ بتلك الأقوال الدينية التي ينطـق بها العـرب في صلواتهم ودعواتهـم، وفرائض دينهم، وتلـك التي تجـري مجـرى المثل، وتلـك التي فيهـا شيء من الكنايـة أو المجـاز، وتلك الأقوال السائـرة، وتلك التي تتعلق بأوصـاف الإنسـان وبأفعالـه، ومعـاني أسمـاء الأشخاص والبلـدان، والاستعـارات، وغـير ذلـك. فعسـى أن نكون قد أوجزنـا للقـارئ أبـرز سمـات الكتـاب، وأضأنـا لـه تحفـة موضوعه، وصنعة تأليفه، وسناء مقصوده.

٣٦- يُنظر: المصدر السابق نفسه، ج: ٢، ص: ١١٣ - ١١٤.

٣٧- يُنظر: نفسه، ج: ٢، ص: ٢٥.

أفلاك القمر وحركته مِن « هيئة الأفلاك » لقسطا بن لوقا البعلبكيّ (ت نحو ٣٠٠ هـ)

د. مصطفى موالدي*
أ. ديالا عتو

مقدمة

علم الفلك: هو دراسة علمية لحركة الأجرام السماوية مثل: النجوم والكواكب والمذنبات والمجرات وغيرها من الظواهر التي تحدث خارج الغلاف الجوي.

تميز العرب منذ القدم باهتمامهم، وانجذابهم لمعرفة أسرار الكون، كما تميزوا بتأملاتهم العميقة، واعتكاف كثير منهم في سبيل إشباع رغبتهم في العلم والمعرفة.

ولذلك كان العرب يصرفون كثيرًا من مدخراتهم، وأوقاتهم في سبيل تحصيل المعارف والخبرات.

ومنه فقد نشأ علم الفلك مثله مثل بقية العلوم الأخرى عن طريق استيعاب مؤلفات الحضارات السابقة التي تمثلت في أعمال: الساسانيين، والهيلينيين، والهنود والتي ترجمت وجمعت معًا، وفي المقابل كان لعلم الفلك الإسلامي تأثير واضح في نظيره البيزنطي، والهندي، والأوروبي، فحتى الآن احتفظت بعض النجوم في السماء كالدبران والنسر الطائر بأسمائها العربية، وكذلك بعض المصطلحات الفلكية كالسمت، والعهدة، والمقنطرة.

وقد أثر الإسلام في علم الفلك، فكان الدافع الرئيسي وراء ازدهار علم الفلك هو أن ممارسة العبادات الإسلامية تتطلب حل مشكلات في علم الفلك الرياضي، ولا سيَّما الهندسة الكروية.

فالتقويم الهجري، والشهور الإسلامية التي تبدأ حين يرى الهلال أول مرة في سماء المساء الغربية قاد المسلمين لرصد أدوار القمر في السماء، وأدت جهودهم إلى حسابات رياضية جديدة، وأدوات رصد جديدة فضلًا عن تخصيص علم لرؤية القمر. كما أن واجب المسلمين بالصلاة في اتجاه الكعبة بمكة، وتوجيه مساجدهم نحوها فرض عليهم تحديد اتجاه مكة في أي مكان كان، وثمّة عامل مؤثر آخر هو مواقيت الصلاة، فيجب معرفة الأجرام السماوية بدقة، واستنتاج مواعيد الصلاة منها في وقت الشروق والزوال والعصر والغروب والمساء، وهذه المشكلات لعبت دورًا أساسيًا لتوجيه أنظار كثير من العلماء للاهتمام بدراسة علم الفلك وتطويره، وجعله يخدم مصالح العامة.

* د. مصطفى موالدي: أُستاذ في معهد التُّراث العلْميّ العربيّ – جامعة حلب. أ. ديالا عتو: طالبة دراسات عليا في المعهد نفسه.

وقد قسم مؤرخ العلوم دونالد هيل تاريخ الفلك الإسلامي إلى أربع حقب مختلفة:

-الجمع والتوفيق بين علم الفلك الهندي والساساني والهيليني ٧٠٠م-٨٢٥ م.

-التحقق في نظام بطلميوس وقبوله وتعديله ٨٢٥م-١٠٢٥م.

-ازدهار النظام الإسلامي المميز لعلم الفلك ١٠٢٥م-١٥٥٠م.

-عصر الركود، إذ ظهرت مساهمات قليلة ١٤٥٠م-١٩٠٠م.

ومن أشهر علماء الفلك في الحضارة العربية / الإسلامية:

قسطا بن لوقا (...-ت ٣٠٠هـ / ٩١٢م).

البتاني (٢٤٠هـ / ٨٥٤م-٣١٧هـ / ٩٢٩م).

عبد الرحمن الصوفي (٢٩١هـ / ٩٠٣م-٣٧٦هـ / ٩٨٦م).

أبو الريحان البيروني (٣٦٢هـ / ٩٧٣م-٤٣٧هـ / ١٠٤٨م).

الطوسي (٥٩٧هـ / ١٢٠١م-٦٧٢هـ / ١٢٧٤م).

ابن الشاطر (٧٠٤هـ / ١٣٠٤م-٧٧٧هـ / ١٣٧٥م).

ويعد قسطا بن لوقا من مؤسسي علم الفلك لانشغاله في البداية بترجمة كثير من الكتب، والمؤلفات الغنية بالمعارف والخبرات العلمية، ثم تحوله للنقد والتصحيح والتأليف في هذا المجال، ويعد كتابه «هيئة الأفلاك» من الكتب الأولى التي أسست لعلم الفلك، وكان ركيزة لما بعده من العلماء.

مؤلف المخطوط والتعريف بأهم مؤلفاته ومنهجه:

قسطا بن لوقا البعلبكي فيلسوف شامي، له تصانيف كثيرة[١]، ولد في بعلبك في حدود ٢٠٥هـ / ٨٢٠م، جال في آسيا الصغرى في شبابه دارسًا، ثم استقر في بغداد[٢]، وعاصر يعقوب بن إسحاق الكندي[٣].

في أيام بني العباس دخل إلى بلاد الروم، وحصل من تصانيفهم الكثير، وعاد إلى الشام، واستدعي إلى العراق ليترجم كتبًا من لسان يونان إلى لسان العرب[٤].

كان فصيحًا باليونانية جيد العبارة بالعربية[٥]، فكان جيد النقل فصيح اللسان اليوناني والسرياني والعربي، وقد نقل أشياء، وأصلح نقولًا كثيرة، فقد كان كحنين بن إسحاق يصلح ما ينقله غيره نقلًا رديئًا[٦].

ترجم بعض مؤلفات أوتوليكس، وأرستارخوس، وذيوديس، وهايبكاس، وهيرون وغيرها[٧]، وما وصل إلينا من ترجماته للمؤلفات اليونانية ليس هناك من الأصل إلا القليل[٨].

وقد كان طبيبًا حكيمًا وعالمًا بالهندسة والعلوم الطبيعية[٩].

أما وفاته فقد تُوُفِّيَ في أرمينية[١٠]، واختلف في تاريخها فقيل:

١- الدفاع، علي عبد الله، رواد علم الفلك في الحضارة العربية الإسلامية، دار الكتب العلمية للنشر والتوزيع، مصر، ٢٠٠٠، ص٥٧.

2-BROCKELMANN(C),Gesshichte der Arabischen Literature,SI,Brill,Leiden,1973,P. 365.

٣- القفطي، جمال الدين، إخبار العلماء بأخبار الحكماء، طبعة القاهرة، مطبعة السعادة، مصر،١٩٠٨، ص١٧٣.

٤- ابن العبري، يوحنا بن أهرون، تاريخ مختصر الدول، ط٣، دار الشرق، بيروت،١٩٩٢، ص٢٥٩.

٥- النديم، أبو الفرج محمد بن إسحاق، الفهرست، ج٢، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، لندن،٢٠٠٩م، ص٢٩٣.

٦- بدوي، عبد الرحمن، دور العرب في تكوين الفكر الأوربي، مكتبة الأسرة، مصر،٢٠٠٤.

7 - SMITH(D.E),History of Mathematics,vol I,Dover publication,INC,New-york,1958,P174.

٨- سيزكين، فؤاد، تاريخ التراث العربي، ج٥، حتى سنة ٤٣٠هـ، ترجمه عبد الله عبد الله حجازي، وحسن محيي الدين حميدة، ومحمد عبد المجيد علمي، جامعة الملك سعود، الرياض، المملكة العربية السعودية، ص٣٥٤.

٩- كحالة، عمر، معجم المؤلفين، الجزء الثاني، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ١٩٩٣م، ص٦٥٩.

١٠- الزركلي، خير الدين، الأعلام، الطبعة ١٥، الجزء الخامس، دار الملايين، بيروت، لبنان،٢٠٠٢، ص ص ١٩٦- ١٩٧.

تـوفي سنة ٣٠٠هـ / ٩١٢م وهـو التاريـخ الأشهر والمرجـح، فقـد ذكر ذلـك معظـم المؤلفـين كالقفطي في كتابـه إخبـار العلمـاء بأخبار الحكمـاء، و الزركلي في كتابـه الأعلام[١١]، وابـن أبي أصيبعـة في كتابه عيون الأنباء في طبقات الأطباء[١٢] .

وقيـل سنـة ٢٨٦هـ / ٨٩٩م كمـا جـاء في تـراث الإسـلام، وفي مقـالات كثيرة لمستشرقـين باحثين[١٣]، وقيل سنة ٣١٠هـ / ٩٢٢م[١٤].

من كتبه المطبوعة قديمًا: كتاب أرن في رفع الأشياء الثقيلة اعتنـى بتصحيحـه البـارون كـره دي فـو، وكتـاب الفلاحة الرومية تأليف الحكيم قسطوس بن إسكورا سكينه[١٥].

من أهم مؤلفاته:

كتاب المدخل إلى الهندسة.

كتاب المدخل إلى المنطق.

كتاب الفرق بين النفس والروح.

كتاب المرايا المحرقة.

كتاب الأوزان والمكاييل[١٦].

كتاب المروحة وأسباب الريح.

كتاب قوانين الأغذية

كتاب العمل بالكرة النجومية[١٧].

كتاب «هيئة الأفلاك».

١١– الزركلي، الأعلام، ...، المرجع السابق، ص ص١٩٦ –١٩٧ .

١٢ ابن أبي أصيبعة، أحمد بن القاسم، عيون الأنباء في طبقات الأطبـاء، ج١، تحقيـق الدكتـور نـزار رضـا، مكتبـة الحيـاة، بيروت، ١٩٦٥، ص٢٤٤.

١٣– حميـدان، زهـير، «قسطـا بن لوقـا»، الموسوعـة العربية، هيئة الموسوعة العربية، دمشق، سورية، المجلد الخامس عشر، ٢٠١٦، ص٣٧٦.

١٤– جبـوري، عبد الله، المستدرك علـى الكشاف، مطبعة المعارف، بغداد، ١٩٦٥، ص٢٩٩.

١٥– سركيـس، يوسف إليان، معجم المطبوعات العربية والمعربة، ج٢، مطبعة سركيس، مصر، ١٩٢٨، ص١٥١٠.

١٦– طوقـان، قدري حافظ، تـراث العرب العلمـي في الرياضيات والفلك، مطبعة المقتطف، مصر، ١٩٤١، ص١٧٩.

١٧– القفطي، جمال الديـن، إخبار العلماء بأخبار الحكماء، طبعة القاهرة، مطبعة السعادة، مصر، ١٩٠٨، ص١٧٣.

توثيـق عنـوان المخطـوط ونسبتـه لقسطا بن لوقا:

أشـار القفطـي إلى المخطـوط في كتابـه تاريـخ الحكمـاء[١٨] بعنـوان «المدخـل إلى الهيئـة وحـركات الأفـلاك»، أما إسماعيـل باشا البغـدادي فقد ذكره في كتابه هدْيَة العارفين بأسماء المؤلفين وآثار المصنفين[١٩] بعنـوان كتاب «الهيئة وترتيـب الأفلاك»، وذكره كارل بروكلمـان في كتابـه تاريخ الأدب العربـي[٢٠]، بعنوان «هيئـة الأفـلاك»، وقد اعتمدت هذا العنـوان في تحقيق المخطـوط لأن نسخـة المخطـوط المعتمـدة في التحقيق معنونـة به، وكذلك ذكره خير الديـن الزركلي في كتابه الأعلام[٢١] بعنوان «هيئة الأفلاك»، كما ذكره عمر رضا كحالـة في كتابه معجم المؤلفـين[٢٢] بعنوان «المدخل إلى الهيئة وحركات الأفلاك».

الوصف الظاهري للمخطوط:

بالعـودة إلى كتـاب تاريـخ الأدب العربـي لـكارل بروكلمـان[٢٣] وجـدت أن للمخطـوط نسخـة وحيـدة موجودة في مكتبة بودليان، جامعة أكسفورد في بريطانيا برقم(٤٢٠٦)، ولها نسخة مصورة عنها في معهد التراث العلمـي العربـي بحلـب برقم(١٤٠٠ / مجمـوع)، وهي مؤلفة من / ٥٠ / ورقة، / ٢٢ / سطر، حجم وسط.

أولـه: بسـم الله الرحمـن الرحيم. اللهـم صلِّ على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

١٨– القفطي، تاريخ الحكماء، ليبسك، ١٣٢٠هـ، ص٢٦٢.

١٩– البغـدادي، إسماعيـل باشـا، هدْيَـة العارفـين بأسمـاء المؤلفـين وآثـار المصنفـين، المجلـد الأول، مؤسسـة التاريـخ العربـي، إستانبول، ١٩٥١، ص٨٣٥.

20- BROCKELMANN(C),Gesshichte der Arabischen Literature,SI,BRILL,LEIDEN,1973,P 365.

٢١– الزركلـي، الأعلام، ...، المرجع السابـق، الطبعة ١٥، الجزء الخامس، ص ص١٩٦–١٩٧.

٢٢– كحالة، معجم المؤلفين، ...، المرجع السابق، الجزء الثاني، ص٦٥٩.

٢٣– بروكلمـان، كارل، تاريـخ الأدب العربـي، ج٤، ط٣، دار المعارف، القاهرة، ص٩٩.

الحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيد المرسلين وخاتم النبيين محمد النبي وآله الطيبين الطاهرين وسلم تسليمًا.

نبتدي بمعونة الله بذكر الفلك، فنقول إنه مدور كالكرة، وإن الأرض في وسطه كالمركز.

آخره: وقد وضعنا لمعرفة سيره وإقامته ورجوعه قانونًا، فلينظر فيه من أراد معرفة ذلك إن شاء الله تعالى.

مضمون المخطوط:

ومخطوط «هيئة الأفلاك» هو كتاب يدرس علم الهيئة وحركة الأفلاك لقسطا بن لوقا، ويتضمن عدة موضوعات، منها:

- دائرة الأرض.
- وصف الفلك والبروج الاثني عشر والخلق والكواكب.
- صفة الفلك المستقيم.
- علم جرم الأرض واستدارتها.
- صفة أفلاك الشمس.
- في صفة أفلاك القمر.
- في اختلاف حركة القمر.
- في كسوف القمر وبعده عن الأرض وعظم جرمه وقدر الظل.
- كسوف القمر التام الذي في نفس العقدة.
- في مولد القمر.
- رؤية القمر.
- صفة أفلاك زحل.
- صفة أفلاك المشتري.
- صفة أفلاك المريخ.
- صفة أفلاك الزهرة.
- صفة أفلاك عُطارد.

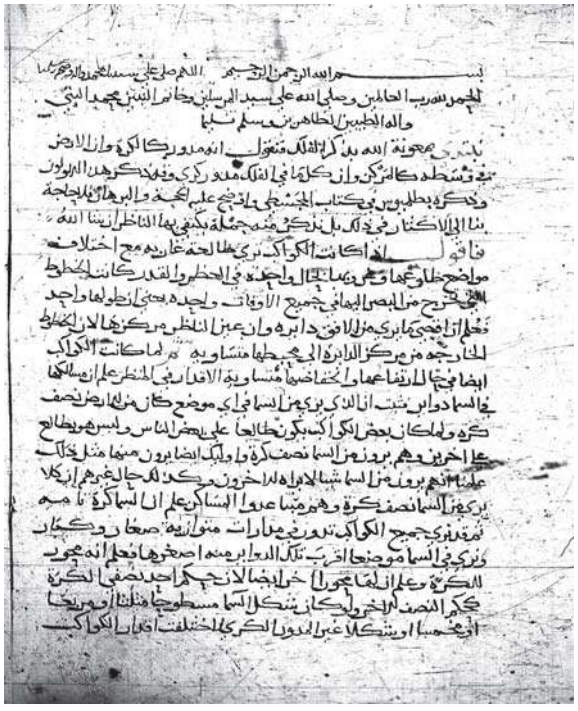

صفحة ١ ظ من مخطوط مكتبة بودليان، جامعة أكسفورد في بريطانيا برقم(٤٢٠٦).

صفحة ٤٨ ظ من مخطوط مكتبة بودليان، جامعة أكسفورد في بريطانيا برقم(٤٢٠٦).

منهج التحقيق

اعتمدت في تحقيق المخطوط على قواعد التحقيق المنهجي للمخطوطات والوثائق التاريخية، وسنثبت النص بطريقة توافق أسلوب العصر معتمدين القواعد الآتية:

الأقواس والرموز:

خ: مخطوطة هيئة الأفلاك لقسطا بن لوقا، مكتبة بودليان، جامعة أكسفورد في بريطانيا برقم(٤٢٠٦).

/ : ابتداء صفحة المخطوط.

و: وجه صفحة المخطوط.

ظ: ظهر صفحة المخطوط.

الكتابة:

صَحَّحْتُ بعض الأحرف، ووضعت الهمزات لأن المؤلف لم يكن يكتبها كما في وقتنا الحالي كما في كلمة «ضوه»، إذ كتبتها «ضوئه»، وكلمة «روسهم» إذ كتبتها «رؤوسهم»، وكلمة «أعلا» إذ كتبتها «أعلى»، وقد صَحَّحْتُ التذكير والتأنيث، وقد استخدم الأرقام الفارسية فكتبتها أرقامًا هندية، ولم أشر إلى ذلك في الحواشي.

علامات الترقيم:

أضفت علامات ترقيم إلى النّصّ مثل: النقطة (.)، والنقطتين (:) ، والفاصلة (،).

تقسيم النص:

حافظنا على تقسيم النص الأصلي.

محتوى الحواشي:

بدايات صفحات المخطوط.

النص المحقق

في صفة أفلاك القمر

ووضع أفلاكه، وحال سيره، وعظم جِرْمه، فالآن نوضح صفة أفلاك القمر، وجميع أموره، ويحكم وضع بعضها في بعض، وكيف تكون حركة / [٢٤] كل فلك له حتى كأنك تراه معاينة إن شاء الله.

اعلم أن للقمر ثلاثة أفلاك كبارًا، وهي مخطوطة في هذه الصورة تقطع بعضها بعضًا، ويكون بعضها داخلًا في بعض، ومن قبل حركة هذه الأفلاك وجهة جرمها تعرف حركة القمر.

فأول أفلاك القمر هو يشبه بفلك البروج، ويكتب عليه أبجد، وعلى مركزه ه، ومركزه وفلك البروج واحد، وهو مثله في السرعة والإبطاء على طريقه لا يتغير ولا ينقص، يجري معه من المشرق إلى المغرب على حال جريه فلك البروج.

والفلك الثاني هو فلك القمر المائل الذي يقال له منتهى الشمال المكتوب عليه زح، وعلى مركزه ه أيضًا، وهو مائل في داخل الفلك الممثل بفلك البروج الذي إلى الشمال والجنوب عن وسط نطاق البروج ٥ أجزاء في الناحيتين جميعًا يقطع هذا في موضع العقدتين، وهو الجوزهر يجري نحو البروج المتقدمة في اليوم والليلة ج دقائق، وفي ل ليلة درجة و ل دقيقة، وفي السنة يط درجة و ك دقيقة، وفي يج سنة ٢٢٢٩يومًا، يدور فلك السماء كلها دورًا واحدًا، ونبدأ من أول الجدي إلى البروج المتقدمة أعني الرامي والعقرب.

والفلك الثالث الفلك الذي يدعى فلك مركز الخارج لأن مركزه خارج من مركز الاثنين، وهو في داخلهما المكتوب عليه ط ي، وعلى مركزه ك، وهو يجري في باطن الفلك المائل متعلقًا به، وهو يجري نحو البرزخ المتقدمة من المشرق إلى المغرب، ويجري في اليوم والليلة يا جزءًا ويب دقيقة، وفي يد ليلة ونصف وربع يسير قسه جزءًا و يب دقيقة.

فعند ذلك يكون الأفيجيون مركز الخارج في مقابلة الشمس، وكذلك في يد ليلة أخرى ونصف وربع يجري قسه جزءًا و يب دقيقة، ونجد الأفيجيون مركز الخارج قد سار في كط يومًا ونصف شل جزءًا و كد دقيقة / [٢٥] نحو ما تقدم من البروج في جريه.

٢٤- بداية ٢١و.

٢٥- بداية ٢١ظ.

وظاهر الفلك المائل في هذه الأيام تجري مع الشمس إلى ما يتلوها كط جزءًا و أربع دقائق، فعند ذلك يكون الأفيجيون مركز الخارج مع الشمس، وذلك هو وقت الاجتماع، يكون القمر مع الشمس في درجة، وذلك رأس كل شهر، فإذا كان قطر الفلك المائل قك جزءًا يكون قطر الفلك الخارج ص إلا شيئًا لا يحسب ارتفاع الأفيجيون من نقطة الأرض جزءًا واحدًا، وبعد الأفريجيون الذي هو أسفل هذا الفلك، وهو لح جزءًا على النحو الذي وصفنا وبين مركزه ومركز الفلك المائل ي أجزاء ونصف.

والفلك الرابع الذي هو فلك مركز التدوير الذي يجري فيه القمر، وهو الفلك الذي يدور على فلك الخارج المركز، ونبدأ في مسيره من الأفيجيون فلك مركز الخارج إلى ما يتلوه من البروج باختلاف فلك مركز الخارج، وهو المكتوب عليه ل م، وعلى مركزه ع، ويكون قطره ي أجزاء و ك دقيقة.

ويجري في اليوم والليلة ظاهر فلك مركز الخارج إلى ما يتلوه من البروج كد درجة و كج دقيقة، وهو في يد يومًا ونصف وربع يوم يسير ٣٦٠جزءًا و يد دقيقة التي تسيرها الشمس في ٣٦٥ يومًا وربع يوم.

(فعند ذلك)[٢٦] يكون مركز التدوير في مقابلة الشمس، ونضع الشمس فوق فلك مركز التدوير، ونجد فلك التدوير يعود إلى الموضع الذي بدأ منه الذي هو أفريجيون مركز الخارج في يد ليلة أخرى ونصف وربع، ويجري فيها أيضًا فلك التدوير ٣٦٠ جزءًا وربعًا، فيعود الثانية إلى الأفيجيون فلك مركز الخارج، فعند ذلك يكون اجتماعه مع الشمس والقمر يجري في مركز فلك التدوير في اليوم والليلة يج جزءًا و ج /[٢٧] دقائق.

٢٦- فعند ذلك: مكررة -خ-.

٢٧- بداية ٢٢و.

ونبدأ من الأفيجيون مركز التدوير، وهو على موضع فيه إلى ما تقدم من البروج باختلاف حركة فلك مركز التدوير، وسوف نوضح فيما يستقبل في الموضع الذي ينبغي علم ذلك فيه إن شاء الله وبه القوة. وهذه صفة ذلك.

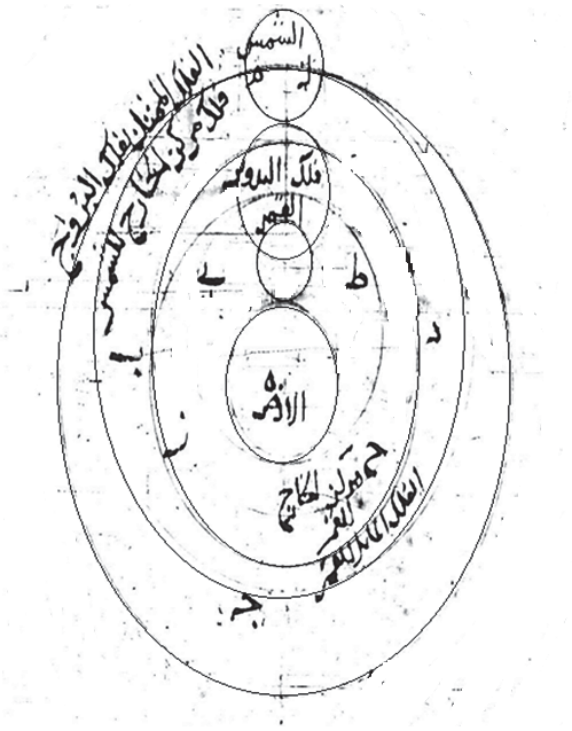

وأيضًا نصور صورة

تشبه الأخرى، ونجعل التدوير في مقابلة الشمس. ونكتب على الفلك الممثل بفلك البروج أبجد، وعلى مركزه ه، وعلى فلك الخارج ط ي، وعلى مركزه د، وعلى مركز فلك التدوير الذي يجري فيه القمر من المشرق إلى المغرب و ن، وعلى مركزه م، وعلى جرم القمر ع ف.

ويبدأ في حركته من أعلى فلك التدوير، ويسير فيه في يوم وليلة يج جزءًا و ج دقائق نحو البروج المتقدمة، فإذا فارق الشمس في موضع الاستواء يب جزءًا يظهر في العشيات، فيرى وهو أول مستهله، ويسير في سبعة أيام من موضع الأفيجيون مركز

التدوير صا جزءًا و كز دقيقة، ويكون حينئذ اختلاف حركته / [٢٨] أكثر ما تكون.

فأما فلك التدوير فإنه يسير في ٧ أيام من موضع الأفيجيون فلك الخارج قع جزءًا و م دقيقة، فعند ذلك يكون القمر في فلك التدوير أقرب ما يكون إلينا، ويكون حينئذ بعد القمر منا ٢٣٠ مرة مثل نصف قطر الأرض.

وكذلك في يد ليلة يسير القمر في فلك التدوير قفب جزءًا و نه دقيقة، ويكون ابتداؤه من أعلى فلك التدوير، فيكون حينئذ في أسفل موضع من فلك التدوير، ويسير فلك التدوير في يد ليلة شما جزءًا و ل دقيقة، فعند ذلك يكون فلك التدوير في الأفيجيون فلك الخارج في مقابلة الشمس، فيكون الأفيجيون فلك الخارج والقمر وفلك التدوير يحاذي الشمس، فحينئذ يستضيء عندنا وجه القمر الذي يلينا كله، وذلك ليلة المقابلة، وهو في كل أوقاته ممتلئ نورًا، فربما كان استضاءته من فوق، وذلك في الاجتماع، وربما كان من أسفل، وذلك في الاستقبال.

وأما بين ذلك فإن استضاءته في الناحيتين على قدر انحرافه من الشمس، وعلى الحال التي كان القمر في اليوم السابع من صفة هذه الأفلاك يكون في اليوم الاثنين والعشرين.

فأما عظم قطر القمر فإنه يكون مثل ربع وجزء من أربعة وعشرين من قطر الأرض، وذلك يز دقيقة ونصف، فإذا كان قطر جرم القمر جزءًا واحدًا كان قطر الأرض ٣ أجزاء و ٢٢ دقيقة.

فأما إحاطة جرم القمر فإنه يكون جزءًا من لط مرة وربع مرة من عظم مقدار إحاطة الأرض.

فأما استدارة الأرض فإنه يكون فيما قسنا مئة وثلاثين ألف إسطانيه يعني من نقطة وسط الأرض إلى منتهى ظهرها، وهو نصف قطرها، وذلك يكون ٢٤٠٠٠ميل، ويكون من قلب الأرض إلى ظاهرها من هذه الأميال ٤٠٠٠ ميل ومن الإسطانيات ٥٣٣ وثلث، وكل ٧ إسطانيات ونصف هي ميل.

وسوف نوضح ونبين ما قلنا بقياس صحيح وعلة معروفة / [٢٩] إن شاء الله.

تفسير الأفيجيون إنه الموضع الذي إذا كان الكوكب فيه كان أقرب ما يكون إلى فلك البروج، وأبعده من الأرض، والأفريجيون الموضع القريب من الأرض البعيد من فلك البروج جدًا.

وهذا الشكل الذي ذكرناه.

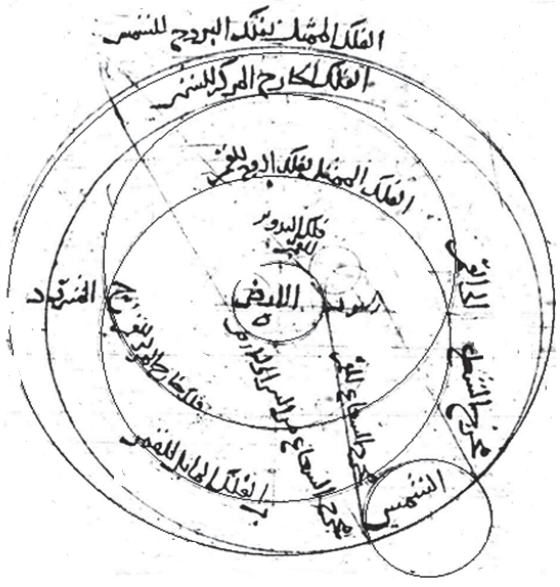

في اختلاف حركة القمر

وأيضًا فإن من ها هنا يعرف اختلاف حركة القمر التي وضعنا في السطر الثالث أنها من زيادة ونقصان، توسعة وضيق انحراف مركز فلك الخارج وفلك مركز التدوير عن الأفيجيون لأن مركز الفلك الخارج هو خارج من نقطة الأرض التي هي مركز البروج، وقد تباعد من النقطة ١٠أجزاء.

فإذا كان فلك التدوير في الأفيجيون أو في الأفريجيون فليس للقمر اختلاف حركة، لأن الخطين

٢٨- بداية ٢٢ظ.

٢٩- بداية ٢٣و.

اللذيـن يخرجان مـن المركز يكونان واحـدًا، فإذا مال التدويـر عن الأفيجيون أو عـن الأفريجيون / [٣٠] فلك الخـارج، فإن الخطـين يفترقان، وعلى قـدر ما يتباعد عنهمـا كذلـك ينتهـي إلى نصف مـا بينهمـا، وعند ذلك يكون بعده منهما ص جزءًا، فثم يكون كثرة الاختلاف حتى ينتهي إلى قف جزءًا، وعلى قدر ما كتب في القانون يكون كثرة الاختلاف يج جزءًا و ح دقائق.

فأمـا السطر الرابع فهو تعديـل موضع القمر من نصف قطر الفلك الخارج، وهو سه.

فأمـا السطر الخامس فهو اختـلاف موضع القمر في فلـك التدويـر، لأنـه إذا كان القمـر في أفيجيون فلك التدويـر، وذلك أعلى موضع فيه، أو في أفريجيون فلك التدويـر، وذلـك أسفل موضع فيه، فعنـد ذلك لا يكون للقمر في السطر الخامس اختلاف.

فـإذا انحـرف عن هذيـن الموضعين في كلتـا الناحيتين يبدأ في الاختلاف حتى ينتهي إلى صه جزءًا منه، فثم يكون الاختلاف كله في السطر الخامس، وذلك ٥ أجزاء و دقيقة.

فأمـا السطـر السادس فهو اختـلاف حركة القمر المضعفة التي تكون من قبل اختلاف حركة فلك الخارج وفلك التدوير، لأن حركتهم مخالفة بعضها بعضًا.

فأمـا مسـير فلك الخـارج فهـو إلى المغـرب، ومسير فلك التدوير فإلى المشرق، ويكون أكثر اختلافه جزأين و م دقيقة.

فإذا كان مركز التدوير في الأفيجيون فلك الخارج، فعنـد ذلـك لا يكون في السطـر السادس اختلاف، ولا الرابـع لا يكـون فيه عـدد لأن ابتداءَهما ثَـمَّ، فإذا مال فلك التدوير عن الأفيجيون فلك الخارج، فعند ذلك يبدأ الاختـلاف حتى ينتهي إلى ص جـزءًا، فعند ذلك يكون أكثر اختلافه جزأين و م دقيقة.

فمـن ص إلى قف الذي هو أفريجيون ينقص وليس لـه في الأفيجيـون اختـلاف، وينظـر كـم اختلافـه من السطـر السادس، فيضـرب في الرابع، فما اجتمع من ذلـك زدناه على الخامس أبدًا، وهذا هو زيادة اختلاف حركته المضعفة.

/ [٣١] فـإذا لم يكـن للقمـر اختـلاف مـن اختلاف حركته المضعفة، فتعدله في السطر الخامس وحده.

فأمـا الأولـون الذيـن قبـل بطليموس فمـا عرفوا اختلاف حركته المضعفة، ولذلك كانوا على الخطأ.

وأما بطليموس فلما عرف هذا الخطأ التمس معرفته واستقصاه، وأثبته على قدر ما وضع في القوانين.

فنصـور الآن فلـك وسـط الـبروج الممثـل بفلـك الـبروج، ونكتب عليه أبجد، وعلـى مركزه ه، ونصور الفلـك المائل أيضًا إلى الشمـال والجنوب، ونكتب عليه زج، وعلـى مركزه ه أيضًا، وميله في الشمال والجنوب ٥ أجزاء، وهو فلك التنين.

ونصـور مركـز فلـك الخـارج، ونجـري ظاهـر الأفيجيـون في باطن فلك التنـين، وحركته من المشرق إلى المغرب، ونكتب عليه ي ك، وعلى مركزه ل، وما بين مركـزه إلى مركـز وسط البروج يكـون ي درجات و م دقيقـة، وفيه يجـري فلك التدوير يبدأ مـن الأفيجيون مركز الخارج إلى ما يتلوه من البروج.

ونكتـب على فلـك التدوير س ع، وعلـى مركزه و، وفي فلـك التدوير يجـري القمر يبتـدي من أعلى الفلـك إلى ما يتقدم من هـذا الفلك، ونضع القمر في فلك التدوير موازيًا للشمـس، ونكتـب عليه ص ق، ونخـرج خطوط الاختلاف مـن مركز الأرض إلى مركـز القمر زد، ومن ظاهر الأرض مـن نقطة س وهو سص يمـر بنقطة القمر، وخط سع يمر بمركز فلك التدوير، وقد وصفنا حركة كل واحد من أفلاك القمـر وحركـة القمـر أيضًـا، وأثبت سطـوره وجداوله، ووضعنـا في ذاك قانونا يُعرف به مـا وصفنا، وهذه صفة الشكل الذي ذكرناه في باطن هذه الورقة. / [٣٢]

٣٠- بداية ٢٣ظ.

٣١- بداية ٢٤و.

٣٢- بداية ٢٤ظ.

في كسوف القمر وبعده من الأرض وعظم جرمه وقدر الظل

نصور صورة أفلاك القمر على الصورة الأولى، فنكتب على الفلك الممثل بفلك البروج أبجد، وعلى مركزه ه، وعلى الفلك المائل زح، وعلى مركزه ه أيضًا، لأن مركزهما واحد، وعلى فلك مركز الخارج ط ي، وعلى مركزه ه.

ونركب فيه مركز فلك التدوير الذي ذكرناه فيما تقدم في إحدى العقدتين، ونكتب عليه رس، وعلى مركزه ه، وفي هذا الفلك يجري القمر.

وينبغي لنا أن نرى معاينة من قبل هذه الصورة كيف يكون الكسوف، وفي عمود ظل الأرض، وكم يكون قطر الظل في موضع الكسوف، فإذا كان قطر جرم القمر / ١٢ / إصبعًا كان قطر الظل في موضع الكسوف / ٣١ / إصبعًا وخمس.

ونضع القمر في فلك التدوير / [٣٣] قريبًا في العقدة ليرى كيف الكسوف، وتكتب على جرم القمر وي، ونضع الشمس في الرأس في العقدة أيضًا بعيدة منها، وهذان الموضعان لا عرض لهما، فلذلك يكون الكسوف لأن حدبة الأرض تستر القمر من رؤية الشمس، ويقع القمر في ظل الأرض فيكون الكسوف.

فنضع في ذلك مثالاً من كسوفات كانت في ذهون الأولين، وقاسوها، وكتبوها، وعرفوا الزمان الذي كان بين الكسوفين.

٣٣- بداية ٢٥و.

فأما الكسوف الأول فزعم الأولون فيما كتبوا أنه انكسف من القمر / ٣ / أصابع، وكان القمر متباعدًا من العقدة في ناحية الشمال ط أجزاء وثلث، وكان ما بينه وبين وسط السماء ونطاق البروج إلى الشمال مح دقيقة و ل ثانية.

وكتبوا في الكسوف الثاني أنه انكسف من القمر نصف قرصه، وذلك ستة أصابع، وكان بعده من العقدة / ٧ / أجزاء و مح دقيقة، وكان اختلاف ما بين الكسوفين في الأصابع، وفي البعد من العقدة جزء وثلث وخمس، ومن أجل هذا الجزء والثلث والخمس زاد في ظلمة الكسوف / ٣ / أصابع.

فأما السبعة الأجزاء والأربعة الأخماس التي من بعد هذا الكسوف الثاني من العقدة فإنه يكون خمسة أضعاف الجزء والثلث والخمس، فإذا ضربنا ثلاثة أصابع في الخمسة الأضعاف كان / ١٥ / إصبعًا، ومن هاهنا تعرف أن هذه الخمسة عشر إصبعًا من البعد من وسط الظل إلى وسطه من حيث العقدة، وهو موضع قطر الفلكين فلك وسط نطاق البروج، والفلك المائل.

ومن ها هنا علمنا أن قطر الظل في موضع الكسوف / ٣١ / إصبعًا وخمس يعدل ذلك على أنه كلما دنا القمر في الطول جزءًا و لب دقيقة كانت زيادته في الدخول في الظلمة / ٣ / أصابع، وكذلك كلما دنا في العرض إلى وسط الظل / ٧ / دقائق و مح ثانية زاد دخوله في الظلمة / ٣ / أصابع، وموضع القمر الذي يمر فيه القمر أحد وثلاثون إصبعًا، وهو مرتان ونصف / [٣٤] ونصف سدس مثل القمر إذا كان القمر في أرفع موضع من فلك تدويره الذي يسمى الأفيجيون، وذلك إذا كان بعده من وجه الأرض سد جزءًا و ي دقائق مثل نصف قطر الأرض، وهذه صفة الشكل لذلك.

٣٤- بداية ٢٥ظ.

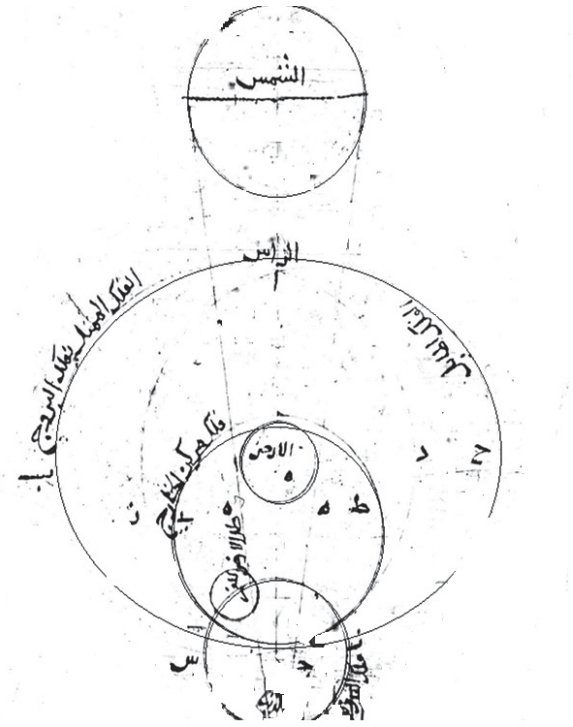

كسوف القمر التام الذي في نفس العقدة

نصور أفلاك القمر على ما صورنا في الكسوف الأول.

نضع لكل فلك علامته من الحروف، فعلامة الفلك الممثل بفلك البروج أبجد، ومركزه ه، وعلامة الفلك المائل زح، ومركزه ه، وعلامة مركز فلك الخارج ط ي، ومركزه ل، وعلامة فلك التدوير ل م، ومركزه في ظل الأرض في وسطه حينئذ، وتضع جرم القمر في فلك / [٣٥] التدوير موازيًا للعقدة التي هي الرأس التي فيها الشمس، وهو في فلك التدوير في الذنب.

فنقول: إن حال القمر في الكسوف على ما نصف إن كان القمر في مقابلة الشمس، وهي في إحدى العقدتين أو قريب منها، وذلك إذا كان القمر في الأفيجيون فلك التدوير، وذلك إذا اجتمع عدد جرم حاصل القمر ومنتهى الشمال، إن كانت الجملة / ٢٨٠ / جزءًا إلى / ٧٨ / جزءًا، أو ما بين / ٢٦٠ / جزءًا إلى / ٢٨٠ / جزءًا، فإنه يقع في حد الظلمة.

٣٥- بداية ٢٦و.

فإذا كانت الجملة ما اجتمع من جرم حاصل القمر وهو منتهى الشمال ص جزءًا أو / ٢٧٠ / جزءًا، فذلك الموضع هو أكثر ما يكون الكسوف، وذلك / ٢١ / إصبعًا وثلث، ويكون أول ما يبتدي من الكسوف إلى أول ما يبدأ الانجلاء أكثر ما يكون نز دقيقة، وأكثر ما يكون المكث كب دقيقة، وتحفظ وسط أعظم ما يكون من الكسوف، وذلك من أول ما يبتدي إلى آخر انجلائه على قدر قربه وبعده من العقدة، كذلك يكون عظم الكسوف وقلته، وبعد موضع الكسوف إذا كان قدره من مركز الأرض إلى ظاهرها واحدًا كان بعد الظل سد إذا كان القمر في أعلى فلك التدوير، وإذا كان قطر القمر واحدًا كان قطر الظل اثنين ونصفًا، وقطر الأرض ثلاثة وخمسين، وقطر الشمس ثماني عشرة وأربعة أخماس بقياس صحيح قاسه الأولون، وهذه صفة ذلك في باطن هذه الورقة. / [٣٦]

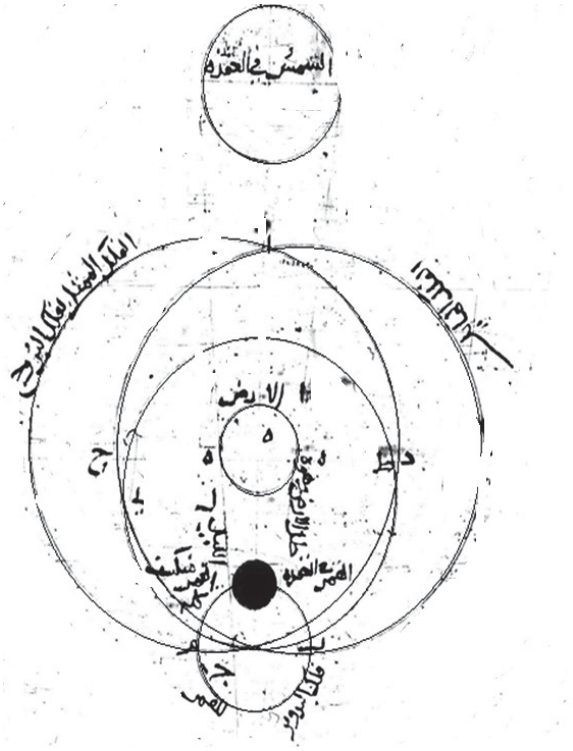

٣٦- بداية ٢٦ظ.

في مولد القمر

قد قلنا في أفلاك القمر، وأخبرنا أن للقمر فلكًا ممثلًا بفلك البروج معتدلًا تحته، وفي داخله، ومركزهما واحد لا يرتفع عنه أبدًا، ولا ينحط عنه، ومسيره كمسيره من المشرق إلى المغرب، وهو المرسوم عليه أبجد، وعلى مركزه ه، وله أيضًا فلك آخر يقال له الفلك المائل، وهو التنين، ومركز هذا الفلك ومركز الفلك الممثل واحد، ومسيره أيضًا من المشرق إلى المغرب في كل يوم ج دقائق، ويعود إلى الموضع الذي ابتدأ منه مرتين في كز سنة مصرية و مح يومًا، ويزيد جزءًا واحدًا، وهو قريب من دقيقة.

ويجري هذا الفلك في باطن فلك البروج متعلقًا / [٣٧] به، ومركزهما واحدًا لا يتغير أبدًا، وميله / ٥ / أجزاء، إذا كان الخطأ الواحد / ٦٠ / جزءًا، وهو المكتوب عليه زح، وعلى مركزه أيضًا، وفي داخل هذا الفلك المائل فلك مركز الخارج وبين مركز فلك الخارج إلى مركز الفلك الممثل بالبروج قريب من / ٥ / أجزاء، وذلك ما يكون / ١٢ / مرة ونصف من / ٦٠ /، وحركة هذا الفلك أيضًا من المشرق إلى المغرب، وفي باطن الفلك المائل يجري فلك مركز الخارج المكتوب عليه ط ي، وعلى مركزه ك يجري من أعلاه إلى ما يتلوه من البروج، وفي فلك مركز الخارج مركز فلك التدوير.

فنديرفلك التدوير ونكتب عليه ل م، وعلى مركزه ن، والقمر يجري في فلك التدوير من أعلاه إلى ما يتقدم من فلك التدوير، فإذا كان اجتماع القمر مع الشمس كان نصفه المتلئ نور المضيء الذي يضيء لنا مما يلي الشمس، لأن ضوء القمر من الشمس كما قلنا نصف جرم القمر أبدًا ممتلئ نورًا، فيكون حينئذ ما يضيء منه بأن الشمس في أعلى مقابلتها، ويكون النصف الذي لا ضياء فيه مما يلينا، فلذلك لا نراه ليلة الاجتماع، لأنه مع الشمس في درجة واحدة، والقمر لا يرى أبدًا حتى يبعد من الشمس / ١٢ / درجة، فإذا فارقها بذلك أهل مولودًا علينا ليس أن النور عليه كما يرى، ولكنا نحن نرى ذلك الخط القليل لانحرافه عن مقابلة الشمس قليلًا، ولأنا قد وازيناه فكلما تباعد ظهر من نصف جرمه النوري أكثر، فرأيناه كذلك، ونقص من نصف جرمه المظلم الذي هو بلونه.

وقد وصفنا هذا فيما تقدم، وفي الشكل المصور عليه عدة عدد أجرام القمر، وكيف يكون هذا الذي وصفناه حتى يمتلئ ثم ينقص.

فإذا كان في اليوم / ٧ / السابع فإنه يرى نصف استدارته التي تلينا مضيئة ونصفها مظلمة، وكلما تباعد زاد في الناحية المضيئة أيضًا، ونقص من الناحية المظلمة حتى ينتهي / [٣٨] إلى المقابلة، فعند ذلك يرى نصف جرمه المضيء كله، ويستر عنا نصف جرمه المظلم كله، وعلى هذا الحساب تنقص الناحية المضيئة، وتزيد المظلمة حتى يرجع فيجتمع مع الشمس كما قلنا، ويصير ضوؤه في أعلاه موازيًا للشمس، ويكون حينئذ الجانب المظلم إلينا. وهذه صفة ذلك.

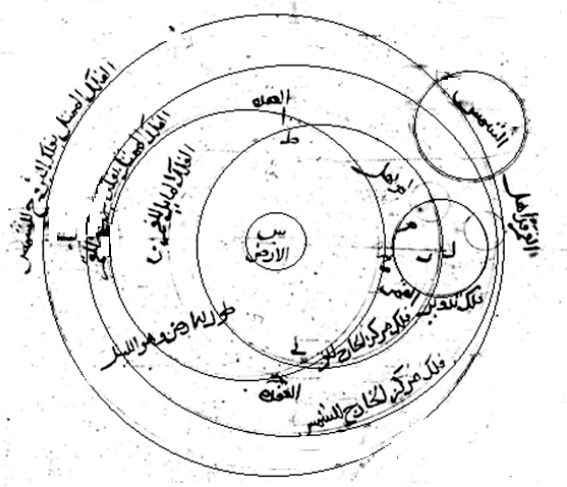

ونقول أيضًا في رؤية القمر

قد قلنا إن القمر إذا كان بينه وبين الشمس أقل من / ١٢ / درجة لم ير حتى يكون بينه وبينها / ١٢ / درجة، فيرى حينئذ مولودًا كما قلنا.

٣٧- بداية ٢٧و.

٣٨- بداية ٢٧ظ.

فنقـول: إن القمر ربما رأيناه مولودًا كبيرًا، وربما رأينـاه مولودًا صغيرًا، ونقـول: إن ذلك لعلة لا يحتاج فيهـا إلى صورة شكل، وذلك أنه ربمـا كان بينه وبين الشمـس / ١١ / درجـة أو / ١٠ / ونصف قبل مغيب الشمـس عنا / [٣٩] بشيء يسير فإلى أن تغيب الشمس عنا قد سار ما بقي عليه حتى يرى، وذلك لتمام / ١٢ / درجـة، فيكون حينئذ يرى مولودًا صغيرًا جدًا لا يكاد يلحقه البصر، فأما إذا رأيناه مولودًا كبيرًا فإنه ربما كان بينـه وبين الشمـس من الـدرج / ١١١ / أو أقل قليـلاً، أو أكثر قليـلاً، وذلك بالنهار بعـد أن يكون قد مضى من النهار ساعتان أو أكثر قليلاً فيسير في باقي ذلـك اليوم مسـيره الذي يسـيره، فيكـون على / ٤ / ساعـات أو أقل أو أكثر يكـون قد جاوز الشمس بقدر ما يرى له، وهو / ١٢ / درجة، ويسير من ذلك الوقت إلى غيبوبـة الشمس زيـادة على / ١٢ / درجة، فيكون يـرى مولـودًا كبيرًا، فهـذه علة كبره وصغـره في أول مستهله ومولده.

ونقـول أيضًـا: إن القمـر ربمـا رآه قـوم ولم يـره آخرون، وإنما يراه من كان طوله أقرب إلى المغرب، وعلة ذلك كان موضع طوله / ٧٠ / وعرضه / ٣٦ / درجة، وموضع آخر طوله / ٦٠ / درجة وعرضه / ٣٠ / فبدا في مغيـب الشمـس على عرض / ٣٠ / وطول / ٥٦ /، وبين القمر والشمس كما قلنا يا درجة ونصف أو أكثر قليـلاً، فـلا يرى القمـر، وفي طول سـتين لم تغب عنهم الشمـس في وقت ما قد غابت عن طول ع، فإلى أن تغيب الشمـس عن طول ع ما قد سـار القمر بقية ما عليه إلى تمام / ١٢ / درجـة، فيرونه ولا يـراه الآخرون الذين قبلهم إلى المشرق.

فلنعـد الصورة ونكتب الحـروف مثل الأول ونرى كيـف ذلـك فخطا عف عص الخارجان مـن عرض لو، فليس يـرون القمـر قد هـل ولم يهـل عندهـم بعد لأن عرض القمر عندهم أقل وخـط سو سز الخارجان من عرض ل قد رأوا القمر لأنه وافاهم مع مغيب الشمس عنهـم، وقد بعد منهـا / ١٢ / درجة وعرض القمر ثم أكـبر منه في الموضـع الأول فقـد أهل القمر عليهم، وقد فرغنـا بحمـد الله من أفـلاك القمر، وهـذه صفة شكل ذلك، / [٤٠] وهذه صفة ذلك».

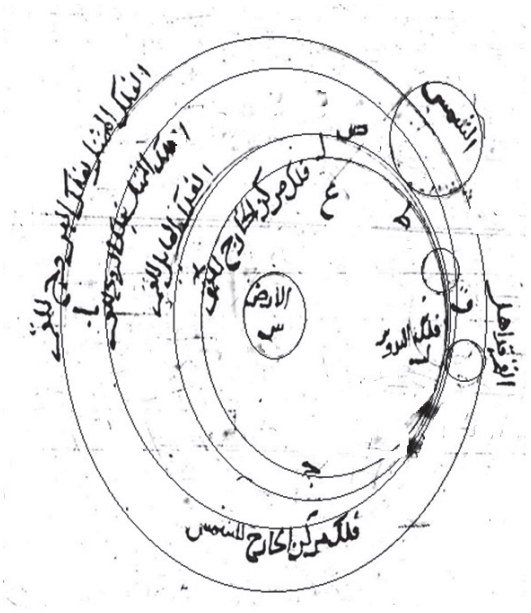

الدراسة العلمية والتاريخية

دراسة علمية: في صفة أفلاك القمر

يوضح قسطا أفلاك القمر، وجميع أحواله، وكيف تكون حركة كل فلك له، فيقول:

إن للقمـر ثلاثة أفلاك كبيرة، إضافة إلى فلك تدوير القمـر، ويكـون بعضهـا داخـلاً في بعض، ومن خلال حركة هذه الأفلاك تعرف حركة القمر.

فـأول أفلاك القمـر هو يشبه فلك الـبروج، ويكتب عليـه أبجـد، وعلـى مركـزه ه، ومركزه وفلـك البروج واحـد، وهـو مثلـه في السرعة والإبطاء علـى طريقه لا يتغير ولا ينقص، يجري معه من المشرق إلى المغرب.

٣٩- بداية ٢٨و.

٤٠- بداية ٢٨ظ.

والفلـك الثـاني هو فلك القمـر المائل الـذي يقال له منتهـى الشمـال المكتـوب عليـه ز ح، وعلـى مركـزه ه أيضًـا، وهـو مائل في داخـل الفلك الممثـل بفلك البروج الـذي إلى الشمـال والجنـوب عن وسط نطـاق البروج ٥ أجـزاء في الناحيتين يقطع هـذا في موضـع العقدتين، وهـو الجوزهر يجري نحـو البروج المتقدمـة في اليوم والليلـة / ٣ / دقائـق، وفي / ٣٠ / ليلة درجة و / ٣٠ / دقيقـة، وفي السنـة / ١٩ / درجـة و / ٢٠ / دقيقـة، وفي / ١٣ / سنـة / ٢٢٢٩ / يومًـا، يدور فلـك السماء كلهـا دورًا واحدًا، ونبـدأ من أول الجـدي إلى البروج المتقدمة القوس والعقرب.

والفلـك الثالث الفلك الذي يدعى فلك مركز الخارج لأن مركـزه خارج من مركز الاثنـين، وهو في داخلهما المكتـوب عليـه ط ي، وعلـى مركزه ك، وهـو يجري في باطـن الفلك المائل متعلقًا بـه، وهو يجري نحو البروج المتقدمـة مـن المشـرق إلى المغـرب، ويجـري في اليـوم والليلـة / ١١ / جزءًا و / ١٢ / دقيقة، وفي / ١٤ / ليلة ونصف وربع يسير / ١٦٥ / جزءًا و / ١٢ / دقيقة.

فعنـد ذلـك يكـون أوج مركـز الخـارج في مقابلـة الشمـس، وكذلك في / ١٤ / ليلة أخـرى ونصف وربع يجـري / ١٦٥ / جـزءًا و / ١٢ / دقيقـة، ونجـد أوج مركز الخارج قد سار في / ٢٩ / يومًا ونصف / ٣٣٠ / جزءًا و / ٢٤ / دقيقة نحو ما يتقدم من البروج.

والفلـك المائـل في هـذه الأيـام يجري مـع الشمس إلى ما يتلوهـا / ٢٩ / جزءًا وأربـع دقائق، فعند ذلك يكـون أوج مركـز الخـارج مـع الشمـس، وذلـك هو وقـت الاجتمـاع، حيـث يكون القمـر مـع الشمس في درجـة، وذلـك رأس كل شهر، فـإذا كان قطـر الفلك المائل / ١٢٠ / جزءًا يكون قطر الفلك الخارج / ٩٠ / إلا شيئًـا، فـلا يحسب ارتفـاع الحضيض من نقطة الأرض جـزءًا واحـدًا، والبعد بـين الحضيض الذي هـو أسفل هذا الفلـك، وهو / ٣٨ / جزءًا وبين مركزه ومركز الفلك المائل / ١٠ / أجزاء ونصف.

والفلك الرابع الذي هو فلك مركز التدوير الذي يجري فيه القمر، وهو الفلك الذي يدور على فلك الخارج المركز، ونبدأ في مسيره من أوج فلك مركز الخارج إلى ما يليه من الـبروج بخلاف فلك مركز الخـارج، وهو المكتوب عليه ل م، وعلى مركزه ع، ويكون قطره / ١٠ / أجزاء و / ٢٠ / دقيقة، ويجري في اليـوم والليلة فلك مركز الخارج إلى ما يليـه مـن الـبروج / ٢٤ / درجـة و / ٢٣ / دقيقة، وهو في / ١٤ / يومًـا ونصـف وربـع يـوم يسـير / ٣٦٠ / جـزءًا و / ١٤ / دقيقة التـي تسيرها الشمس في / ٣٦٥ / يومًـا وربع يوم، وعندئـذ يكون مركز التدويـر في مقابلة الشمـس، ونضـع الشمس فوق فلك مركز التدوير، ونجد فلـك التدويـر يعـود إلى الموضـع الـذي بدأ منـه الذي هو موضـع حضيـض مركز الخـارج في / ١٤ / ليلـة أخرى ونصف وربع، ويجري فيها أيضًا فلك التدوير / ٣٦٠ / جزءًا وربعًا، فيعود ثانية إلى حضيض فلك مركز الخارج، فعنـد ذلك يكـون اجتماعه مع الشمـس، والقمر يجري في مركـز فلك التدوير في اليوم والليلة / ١٣ / جزءًا و / ٣ / دقائـق، ونبدأ من أوج مركـز التدوير، وهو أعلى موضع فيه بخلاف حركة فلك مركز التدوير.

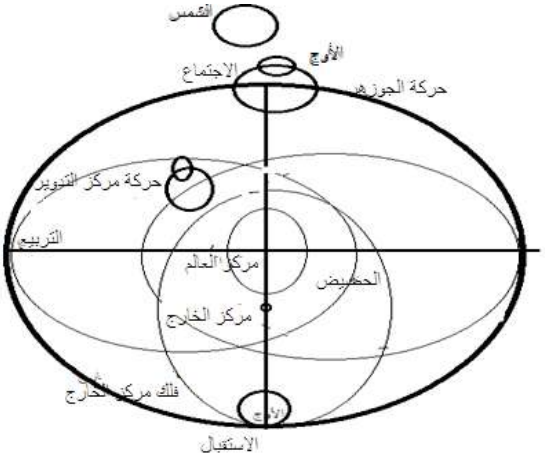

أفلاك القمر، رسم الباحثة.

وبطريقة أخرى: نجعل التدوير في مقابلة الشمس.

ونكتب على الفلك الممثل بفلك البروج أبجد، وعلى مركزه ه، وعلى فلك الخارج ط ي، وعلى مركزه د، وعلى مركز فلك التدوير الذي يجري فيه القمر من المشرق إلى المغرب و ن، وعلى مركزه م، وعلى جرم القمر ع ف.

ويبدأ في حركته من أعلى فلك التدوير، ويسير فيه في يوم وليلة / ١٣ / جزءًا و / ١٠ / دقائق نحو البروج المتقدمة، فإذا فارق الشمس في موضع الاستواء / ١٢ / جزءًا يظهر في العشيات، فيرى وهو أول مستهله، ويسير في سبعة أيام من موضع أوج مركز التدوير / ٩١ / جزءًا و / ٢٧ / دقيقة، ويكون عندئذ أكبر اختلاف لحركته.

أما فلك التدوير فإنه يسير في / ٧ / أيام من موضع أوج فلك الخارج / ١٧٠ / جزءًا و / ٤٠ / دقيقة، فعند ذلك يكون القمر في فلك التدوير أقرب ما يكون إلينا، ويكون حينئذ بعد القمر منا / ٢٣٠ / مرة مثل نصف قطر الأرض.

وكذلك في / ١٤ / ليلة يسير القمر في فلك التدوير / ١٨٢ / جزءًا و / ٥٥ / دقيقة، ويكون ابتداؤه من أعلى فلك التدوير، فيكون حينئذ في أسفل موضع من فلك التدوير، ويسير فلك التدوير في / ١٤ / ليلة / ٣٤١ / جزءًا و / ٣٠ / دقيقة، فعند ذلك يكون فلك التدوير في أوج فلك الخارج في مقابلة الشمس، فيكون أوج فلك الخارج والقمر وفلك التدوير يحاذي الشمس، فحينئذ يستضيء عندنا وجه القمر المقابل لنا كله، وتلك ليلة المقابلة، وهو في كل أوقاته ممتلئ نورًا، فربما كان استضاءته من فوق، وذلك في الاجتماع، وربما كان من أسفل، وذلك في الاستقبال.

وأما بين ذلك فإن استضاءته في الناحيتين على قدر انحرافه من الشمس، وعلى الحال التي كان القمر في اليوم السابع من صفة هذه الأفلاك يكون في اليوم الاثنين والعشرين.

فأما عظم قطر القمر فإنه يكون مثل ربع وجزء من أربعة وعشرين من قطر الأرض، وذلك / ١٧ / دقيقة ونصفًا.

فإذا كان قطر جرم القمر جزءًا واحدًا كان قطر الأرض / ٣ / أجزاء و / ٢٢ / دقيقة.

فأما محيط جرم القمر فإنه يكون جزءًا من / ٣٩ / مرة وربع مرة من عظم مقدار محيط الأرض.

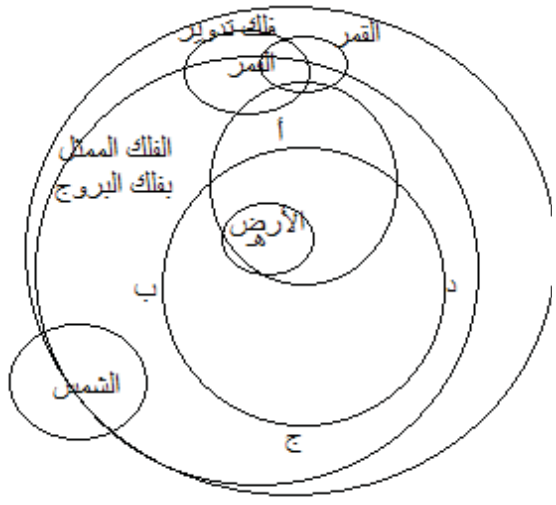

فلك القمر، رسم الباحثة.

دراسة تاريخية

يقول قسطا: «اعلم أن للقمر ثلاثة أفلاك كبارًا...، فأول أفلاك القمر هو يشبه بفلك البروج...، والفلك الثاني هو فلك القمر...، والفلك الثالث الفلك الذي يدعى فلك مركز الخارج...، والفلك الرابع الذي هو فلك مركز التدوير...». (ص ٢١و، ص ٢١ظ).

يقول البتاني: «إن القمر لما افتقدت حركاته وجد له اختلافان: أحدهما مفرد بذاته يظهر فيه على انفراده عند أوقات الاجتماعات والمقابلات الشمسية التي تكون بمسير الشمس والقمر الأوسط بحسب موضع القمر من فلك تدويره.

والاختلاف الثاني يظهر من قبل أبعاده عن الشمس، فيتركب مع الاختلاف الأول، فيصيران معًا، ويحاط بمعرفة ذلك بالبرهان بالخطوط المساحية.

وذلك بأن يتوهم أن للقمر أربعة أفلاك: أحدها ممثل بفلك البروج معتدل تحته يتحرك بحركته لا يزيغ عنه، ومركزه مركز فلك البروج.

والفلك الثاني مائل عنه إلى جهة الشمال والجنوب، وسعته مثل سعة هذا الفلك الممثل بفلك البروج، ومركزها واحد، وأكثر ميله إلى كل جهة خمسة أجزاء بالتقريب، وهو مقدار بعد القمر عن نطاق البروج في العرض.

وحركة هذا الفلك المائل إلى خلاف توالي البروج في اليوم قريبة من ثلاث دقائق، وهي حركة العقدتين، وهاتان العقدتان هما موضع تقاطع الفلك المائل والفلك الممثل بفلك البروج.

وفي داخل هذا الفلك المائل فلك ثالث مركزه خارج عن مركزي الفلكين يتعلق بالفلك المائل، ويلاصقه على نقطة هي أرفع موضع منه.

وفلك رابع يسمى فلك التدوير الخاص للقمر، ومركزه على دائرة الفلك الخارج إلى جهة توالي البروج قريبًا من أربعة وعشرين جزءًا وثلاث وعشرين دقيقة.

ويبتدئ في الحركة من نقطة البعد الأبعد من الفلك الخارج المفروضة مع موضع الشمس الأوسط، ولذلك يقع مركز فلك التدوير على نقطة البعد الأبعد مرتين في الشهر القمري عند الاجتماع الأوسط مرة وعند المقابلة أخرى، والقمر يتحرك على دائرة فلك التدوير في اليوم قريبًا من ثلاث عشرة درجة وأربع دقائق، ويبتدئ من نقطة البعد الأبعد التي ترى على مركز الفلك الخارج إلى خلاف توالي البروج في فلك التدوير»[٤١].

يقول البيروني: «فلك القمر هو الكرة الحاوية في ضمن ثخنها جميع الكرات المتداخلة، التي من حركاتها تنتظم حركة القمر المرتبة، فلا يتجاوز شيء منها أحد سطحيها الأدنى من الأرض والأقصى.

أحدها متحركة على قطبي فلك البروج إلى خلاف تواليها بمقدار حركة الرأس، والثانية في داخلها وقطباها في الأولى متباعدين عن قطبيها بمقدار عرض القمر الأعظم ومنطقتها، وهي الفلك المائل مقاطعة لمنطقة الأولى وبحركتها محاذاة لدرج فلك البروج فتنسب الحركة الأولى إليهما.

ثم إن الكرة الثانية المائلة تدور على نفسها أعني على قطبيها، وتدير ما في جوفها من الكرات إلى خلاف التوالي حركة تعود بها إلى الشمس في مدة الشهر القمري، وهي الحركة المستوية إلى أوج القمر.

وذلك أن في جوف الكرة المائلة كرة مماسة لها نقطة لخروج مركزها عن مركز العالم تديرها مع نفسها، وقطبا هذه الداخلة من أجل خروج مركزها متباعدان عن قطبي المائلة في جهة واحدة، ...، وهذه الكرة الخارجة المركز تتحرك على قطبيها إلى التوالي الحركة المسماة حركة العرض مع ثبات موضع مماستها مع المائل على حاله أعني بها الأوج.

وفي ثخن الكرة الخارجة المركز عن منطقة حركتها كرة صغيرة مغرفة فيه مركوزة تسمى فلك التدوير يلزم مكانها من تلك، ولا تزال تستدير على نفسها بمحور قائم على سطح الفلك المائل.

ثم القمر جسم كروي مركوز في جرم فلك التدوير كالفص في الخاتم، ومركز القمر في سطح منطقة حركته فتدير القمر بالحركة المسماة خاصة، وتكون في أعاليه إلى خلاف توالي البروج وفي أسافله إلى التوالي»[٤٢].

٤١- البتاني، محمد بن جابر، زيج الصابئ، ترجمة وتحقيق كرلو نالينو، دار ومكتبة بيبليون، لبنان، ٢٠١٩، ص٦٨.

٤٢- البيروني، محمد بن أحمد أبي الريحان، القانون المسعودي، ج١، ط١، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن، الهند، ١٩٥٦، ص١٥٠ظ.

أما الطوسي(٥٩٧هـ / ١٢٠١م-٦٧٢هـ / ١٢٧٤م) فقد خالف هيئة بطليموس التي اعتمدها قسطا، وفرض مزدوجة كروية توضح حركة القمر، «وقد فرض الطوسي أن فلك تدوير القمر محتوى ضمن كرتين مماثلتين، وجعل المركز الأصلي للتدوير مطابقًا لنقطة التماس الأصلية.

وهذا يسمح لمركز فلك تدوير القمر أن يتردد على طول قطر الدائرة الكبرى، ومن ثَمَّ لم تعد هناك حاجة للفلك الحامل الخارج المركز في هيئة بطليموس وللآلية التي أضافها.

لأن استخدامها كان قد تم لتقريب فلك تدوير القمر من الأرض في حال التربيع، ولإبعاده عنها في الاجتماع والاستقبال، ولو نسبنا إلى هاتين الكرتين حركات مماثلة لتلك التي وجدها بطليموس بالرصد لاستطاع المرء أن يجد هيئة يتحرك فيها الفلك الحامل للقمر بحركة مستوية حول مركز العالم»[٤٣].

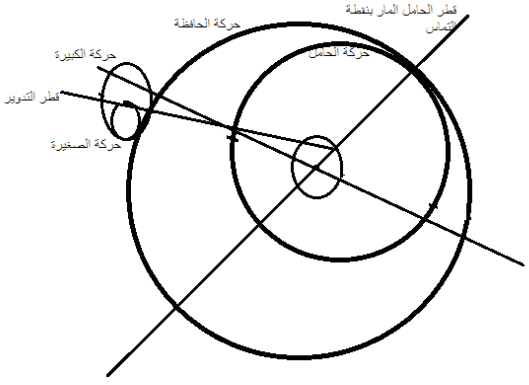

مزدوجة الطوسي، «نظريات حركات الكواكب في علم الفلك العربي بعد القرن الحادي عشر»، موسوعة تاريخ العلوم العربية[٤٤].

نجد أن البتاني والبيروني اتفقا مع قسطا في تحديد أفلاك القمر ومِن ثَمَّ وصف حركة القمر من خلال أربعة أفلاك، ولكن اختلفت طرق التعبير عن هذه الحركة، وقد شرح قسطا أفلاك القمر بطريقة علمية فقد ذكر لهذه الأفلاك أرقام تبين حركتها ومسيرها في اليوم والليلة.

إلا أن الطوسي استخدم مزدوجة كروية تمكن طرفي قطر التدوير من التردد باتجاهين مختلفين، فخالف بذلك هيئة بطلميوس.

دراسة علمية: في اختلاف حركة القمر

يقول قسطا: إنَّ اختلاف حركة القمر ينتج عن اختلاف انحراف مركز فلك الخارج وفلك مركز التدوير عن الأوج لأن مركز الفلك الخارج هو خارج عن نقطة من الأرض التي هي مركز البروج، وتبعد عن النقطة / ١٠ / أجزاء.

فإذا كان فلك التدوير في الأوج أو في الحضيض فلا يوجد اختلاف لحركة القمر، لأن الخطين اللذين يخرجان من المركز يكونان واحدًا، فإذا مال التدوير عن موضع الأوج أو عن موضع الحضيض للفلك الخارج، فإن الخطين يفترقان، وعلى قدر ما يتباعد عنهما كذلك ينتهي إلى نصف ما بينهما، وعند ذلك يكون بعده منهما / ٩٠ / جزءًا، ويكون أكبر الاختلاف حين ينتهي إلى / ١٨٠ / جزءًا.

ويقول قسطا إن الأولين الذين قبل بطليموس فما عرفوا اختلاف حركته المضعفة، ولذلك كانوا على الخطأ، وأما بطليموس فلما عرف هذا الخطأ التمس معرفته واستقصاه، وأثبته على قدر ما وضع في القوانين.

٤٣- صليبا، جورج، «نظريات حركات الكواكب في علم الفلك العربي بعد القرن الحادي عشر»، موسوعة تاريخ العلوم العربية، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية،٢٠٠٥، ص١٣٦.

٤٤- صليبا، «نظريات حركات الكواكب في علم الفلك العربي بعد القرن الحادي عشر»، موسوعة تاريخ العلوم العربية، ....، المرجع السابق، ص١٣٦.

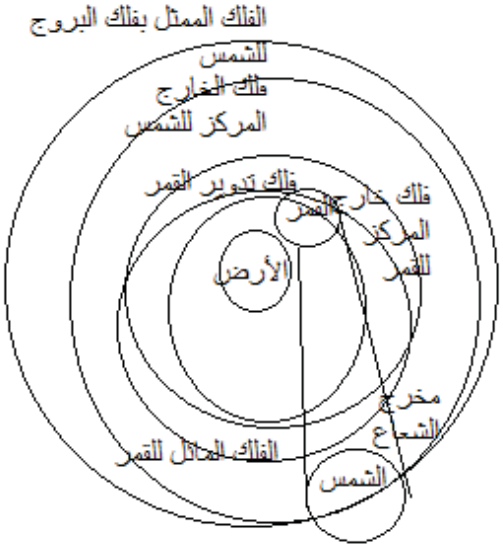

اختلاف حركة القمر، رسم الباحثة.

دراسة تاريخية

يقول قسطا: «من ها هنا يعرف اختلاف حركة القمر».(ص ٢٣ظ)

يقول البتاني: «وأكثر ما يبلغ اختلاف القمر المفرد هذا الذي ذكرناه هو خمسة أجزاء ودقيقة واحدة، ووتره المنصف الذي هو نصف قطر فلك التدوير خمسة أجزاء وربع جزء بالتقريب»[٤٥].

يقول البيروني: «إن حركة الشمس والقمر إلى توالي البروج لما لم يلحق بها من مقدار البطء ما يحيل لهما نحو المغرب، وخلاف التوالي حركة، صفتهما بالتحير في المسير، وقد بين بطليموس أن اختلاف حركة الشمس ممكن أن تحل على فلك التدوير كما يمكن أن تحمل على فلك أوج محيط به مسار الفلك المثل أو أصغر منه أو أعظم منه، وكذلك اختلاف مسير القمر على مثله لما شابه اختلاف مسير الشمس في فصل زمان بطئه على زمان سرعته»[٤٦].

٤٥- البتاني، زيج الصابئ، ...، المصدر السابق، ص٧٠.

٤٦- البيروني، القانون المسعودي، ...، المصدر السابق، ص١٣١ظ.

وفي العصر الحديث فمقدار الميل المداري للقمر بالنسبة لمسار الشمس هو 5.145°[47].

لقد عرف قسطا والبيروني اختلاف حركة القمر من خلال رصده إلا أن البتاني حدد مقدار الاختلاف في حركة القمر فلا يتجاوز الخمسة أجزاء ودقيقة، وهذا يتوافق مع العلم الحديث فعند بداية أو نهاية الشهر القمري فإن القمر يتوسط بين الأرض والشمس، ولو كان القمر يدور في نفس مستوى دوران الأرض حول الشمس لكان الخسوف والكسوف يحدثان كل شهر، ولكن لأن مستوى دوران القمر حول الشمس يميل بزاوية مقدارها خمس درجات تقريبًا.

لذلك السبب لا يحدث الكسوف أو الخسوف إلا عندما تمر الشمس(بسبب دوران الأرض حول الشمس) في نقطة التقاء المستويين أو ما تسميان بالعقدتين.

وتمر الشمس مرتين كل سنة فيهما، لذلك تحدث تلك الظاهرة بمعدل مرتين كل سنة مثل ظاهرة خسوف القمر.

دراسة علمية: في كسوف القمر وبعده من الأرض وعظم جرمه وقدر الظل

يوضح قسطا صورة أفلاك القمر فيرسم الفلك الممثل بفلك البروج أبجد، ومركزه ه، والفلك المائل ز ح، ومركزه ه، لأن مركزهما واحد، و فلك مركز الخارج ط ي، و مركزه ه.

ويرسم فيه مركز فلك التدوير في إحدى العقدتين، ويكتب عليه ر س، وعلى مركزه، وفي هذا الفلك يجري القمر، فإذا كان قطر جرم القمر / ١٢ / إصبعًا كان قطر الظل في موضع الكسوف / ٣١ / إصبعًا وخمس.

ونضع القمر في فلك التدوير قريبًا في العقدة ليرى كيف الكسوف، ويكتب على جرم القمر وي، ويضع

٤٧- www.ar.m.wikpedia.org مدار القمر-ويكيبيديا.

الشمس في الرأس في العقدة أيضًا بعيدة منها، وهذان الموضعان لا عرض لهما، فلذلك يكون الكسوف، لأن حدبة الأرض تستر القمر من رؤية الشمس، ويقع القمر في ظل الأرض فيكون الكسوف.

ويضع في ذلك مثالًا من كسوفات كانت في ذهون الأولين، وقاسوها، وكتبوها، وعرفوا الزمان الذي كان بين الكسوفين.

فأما الكسوف الأول فزعم الأولون فيما كتبوا أنه انكسف من القمر / ٣ / أصابع، وكان القمر متباعدًا من العقدة في ناحية الشمال / ٩ / أجزاء وثلث، وكان ما بينه وبين وسط السماء ونطاق البروج إلى الشمال / ٤٨ / دقيقة و / ٣٠ / ثانية.

وكتبوا في الكسوف الثاني أنه انكسف من القمر نصف قرصه، وذلك ٦ أصابع، وكان بعده من العقدة / ٧ / أجزاء و / ٤٨ / دقيقة.

وكان الاختلاف ما بين الكسوفين في الأصابع، وفي البعد من العقدة جزء وثلث وخمس، ومن أجل هذا الجزء والثلث والخمس زاد في ظلمة الكسوف / ٣ / أصابع.

فأما السبعة الأجزاء والأربعة الأخماس التي من بعد هذا الكسوف الثاني من العقدة فإنه يكون خمسة أضعاف الجزء والثلث والخمس، فإذا ضربنا ثلاثة أصابع في الخمسة الأضعاف كان / ١٥ / إصبعًا، ومن هنا تعرف أن هذه الخمسة عشر إصبعًا من البعد من وسط الظل إلى وسطه من حيث العقدة، وهو موضع قطر الفلكين فلك وسط نطاق البروج، والفلك المائل.

ومن هنا أيضًا علمنا أن قطر الظل في موضع الكسوف / ٣١ / إصبعًا وخمس يعدل ذلك على أنه كلما دنا القمر في الطول جزءًا و / ٣٢ / دقيقة كانت زيادته في الدخول في الظلمة / ٣ / أصابع، وكذلك كلما دنا في العرض إلى وسط الظل / ٧ / دقائق و / ٤٨ / ثانية زاد دخوله في الظلمة / ٣ / أصابع.

وموضع القمر الذي يمر فيه القمر أحد وثلاثون إصبعًا، وهو مرتان ونصف ونصف سدس مثل القمر إذا كان القمر في أعلى موضع من فلك تدويره الذي يسمى الأوج، وذلك إذا كان بعده من وجه الأرض / ٦٤ / جزءًا و / ١٠ / دقائق مثل نصف قطر الأرض.

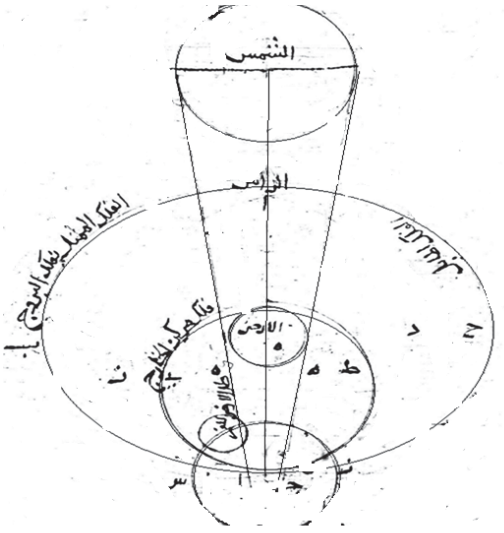

كسوف القمر، رسم الباحثة

دراسة علمية: كسوف القمر التام الذي في نفس العقدة

يقول قسطا: إن حال القمر في الكسوف إذا كان القمر في مقابلة الشمس، وهي في إحدى العقدتين أو قريب منها، وذلك إذا كان القمر في أوج فلك التدوير، وذلك إذا اجتمع عدد جرم حاصل القمر ومنتهى الشمال، فإن كانت الجملة / ٢٨٠ / جزءًا إلى / ٧٨ / جزءًا، أو ما بين / ٢٦٠ / جزءًا إلى / ٢٨٠ / جزءًا، فإنه يقع في حد الظلمة.

فإذا كانت الجملة ما اجتمع من جرم حاصل القمر وهو منتهى الشمال / ٩٠ / جزءًا أو / ٢٧٠ / جزءًا،

فذلك الموضع هو أكثر ما يكون الكسوف، وذلك / ٢١ / إصبعًا وثلث، ويكون أول ما يبدأ من الكسوف إلى أول ما يبدأ بالانجلاء أكثر ما يكون / ٥٧ / دقيقة، وأكثر ما يكون المكث / ٢٢ / دقيقة، وتحفظ وسط أعظم ما يكون من الكسوف، وذلك من أول ما يبدأ إلى آخر انجلائه على قدر قربه وبعده من العقدة، كذلك يكون عظم الكسوف وقلته.

وبعد موضع الكسوف إذا كان قدره من مركز الأرض إلى محيطها واحدًا كان بعد الظل / ٦٤ / إذا كان القمر في أعلى فلك التدوير، وإذا كان قطر القمر واحدًا كان قطر الظل / ٢,٥ / ، وقطر الأرض / ٥٣ / ، وقطر الشمس / ١٨,٨ / بقياس صحيح قاسه الأولون.

يقول البتاني: «إذا أردت أن تعرف كسوف القمر فتفقد حركة العرض الوسطى في الاستقبالات، فإن كنت فيما بين الحدود الكسوفية المرسومة في صفح شهور الاجتماعات والمقابلات، فإنه قد يمكن أن ينكسف، وإن زاد على تلك الأقدار أو نقص عنها لم يمكن أن ينكسف، فانظر إلى حركة العرض المعدلة لوقت الاستقبال فإن كانت شس درجة سواء فالقمر في نفس عقدة الرأس، وإن كانت قف درجة سواء فالقمر في نفس عقدة الذنب، فإن زاد على أحد هذين العددين فقد جاوز العقدة بقدر الزيادة، وإن كان أقل فهو دون العقد وبقدر النقصان، فإذا كان القمر في نفس العقد كان الكسوف»[٤٨].

الجدول الآتي يقارن بين كسوف الشمس وخسوف القمر:

الاختلاف	خسوف القمر	كسوف الشمس
طور القمر	طور البدر	طور المحاق
زمن الخسوف والكسوف الكامل	٦ ساعات تقريبًا	٧,٥ دقيقة تقريبًا
المناطق التي يغطيها كل منهما	يغطي كلّ مناطق نصف الكرة الأرضية ليلًا لأن القمر يكون مغمورًا بالكامل في ظل الأرض	يغطي المنطقة المغطاة بظل القمر فقط
تكرار حدوث الخسوف أو الكسوف الكامل	مرة كلّ ٣ سنوات تقريباً	مرة كل ٣٦٠ سنة
إمكانية مشاهدة كل منهما بأمان	يمكن مشاهدته بالعين المجردة دون الحاجة لنظارات خاصة	يمكن مشاهدة الكسوف الكلي بالعين المجردة بأمان عند تغطية الشمس بالكامل، بينما يحتاج الشخص إلى مشاهدة الكسوف الجزئي بأمان إلى ارتداء نظارات خاصة

دراسة تاريخية

يقول قسطا: «حال القمر في الكسوف على ما نصف إن كان القمر في مقابلة الشمس، وهي في إحدى العقدتين، أو قريب منها».(ص ٢٦و)

ويقول البتاني: «فإن لم ينكسف القمر كله، وأردت أن تعدد أصابع الكسوف بالحساب فتعلم تكسير ما يقع في دائرة الظل من دائرة القمر»[٤٩].

٤٨- البتاني، زيج الصابئ، ...، المصدر السابق، ص١٢٨.

٤٩- البتاني، زيج الصابئ، ...، المصدر السابق، ص١٣٠.

يقول البيروني: «الأوقات المذكورة في كسوف القمر حول وسطه إن اتفقت كلها نهارًا لم نحتج إليها أصلًا، وإن اتفقت كلها ليلًا فقد وضح الطريق إلى معرفتها، فإن اتفق بعضها ليلًا وبعضها نهارًا احتيج إلى معرفة ليلياتها بعد تصحيح مبدأ الليل باختلاف منظر القمر الأعظم في البعد الذي هو فيه عن الأرض حينئذ، وذلك أن القمر في مقاطرة الشمس لا يطلع مع غروبها، ولكن يتأخر بمقدار أعظم اختلاف منظره في بعده لو كان ساكنًا، وإذ ليس بساكن فسينضاف إليه سبق القمر في مدة دوران اختلاف المنظر، وربما قارب مقدار ذلك زمانين ونصف عشر زمان، ومتى كان الاستقبال مع غروب الشمس سواء أو حوله غير بعيد عنه أمكن أن يرى القمر في المشرق ببعض أحوال كسوفه».

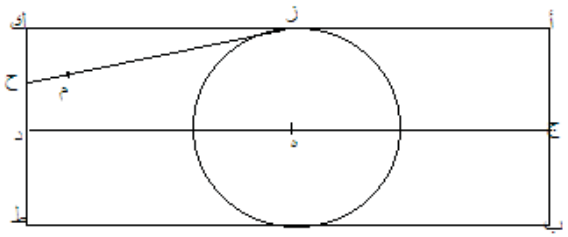

البيروني، محمد بن أحمد أبي الريحان، القانون المسعودي،ج٢، قدمه وصححه عبد الكريم سامي الجندي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان،٢٠٠٢، ص٣٢٩.

فليكن ه مركز العالم، ز حدبة الأرض، أ ب قطر الشمس وهي على أفق الغرب وسه مخروط الظل ج ه د، وقطر الظل في موضع ممر القمر د ج ط، ونخرج زك على موازاة ه د، ومنه طلوع القمر، وليكن م موضعه للبدء إذا كان الاستقبال مع غروب الشمس، فإذا بلغ القمر ك طلع وقت ابتداء كسوفه وقت ٧غيبته عن البصر ثم رؤي في سائر أوقاته.

فإن كان الاستقبال بعد الغروب قليلًا بحيث ارتفع السهم قليلًا ووقع م فوق خط ز ك رؤي في البدء في سائر الأوقات بعده، وإن كان قبل الغروب قليلًا بحيث انحط السهم فلم ير البدء وطلع بعض الأحوال التي بعده أو بما بينها، وعلى هذا يكون الأمر في الاستقبال الكائن مع طلوع الشمس أو حوله قليلًا فمنه التصور بإبدال الجهات.

فإذا كان البدء نهارًا والوسط ليلًا فلم يكن الظلام في كل الجرم كانت نسبة الباقي من النهار من لدن البدء إلى أزمان السقوط كنسبة المنكسف للطلوع إلى أعظم مقداره.

فإذا ضربنا ذلك الباقي من النهار في أصابع الكسوف، وقسمنا المبلغ على أزمان السقوط خرج أصابع الكسوف لوقت طلوعه، وإن كان الكسوف في كل الجرم، وبدأ المكث ليلًا ضربنا الباقي من النهار للبدء في اثني عشر، وقسنا المبلغ على فضل ما بين أزماني السقوط والمكث، فيخرج مقدار المنكسف للطلوع.

وإن كان بدء المكث نهارًا طلع منكسفًا كله فإن لم يكن من أوقات الكسوف ليلًا غير تمام الانجلاء ضربنا الباقي من النهار لبدء الانجلاء في اثني عشر، وقسمنا المبلغ على فضل ما بين أزماني المكث والسقوط، ونقصنا الخارج من القسمة من اثني عشر فيبقى أصابع الكسوف وقت الطلوع، ومن تصور هذا في الشرق لأول الليل لم يخف عليه من المغرب لآخر الليل، وفي هذا الوضع يصير هذا النور هلالي الشكل مرتين إحداهما قبل وسط الكسوف على محاذاة بدء المكث، والأخرى بعده على مثال أول الانجلاء[٥٠].

لقد أطلق بعض العلماء المسلمين تسمية الكسوف على كسوف الشمس وخسوف القمر.

نجد توافق ما قاله قسطا والبتاني والبيروني مع العلم الحديث الذي صنف خسوف القمر في ثلاثة أنواع:

٥٠- البيروني، القانون المسعودي، ...، المصدر السابق، ص٣٢٩.

خسوف كلي: ويحدث حين يدخل القمر كله منطقة ظل الأرض، وفي هذه الحالة ينخسف كامل قرص القمر، مما يؤدي إلى فقدان الرؤية نهائيًا في أوقات منتصف الليل.

خسوف جزئي: ويحدث حين يدخل جزء من قرص القمر، ويبدو ظل الأرض على وجه القمر.

خسوف شبه الظل: ويحدث حين يدخل القمر منطقة شبه الظل فقط، وفي هذه الحالة يصبح ضوء القمر باهتًا من دون أن ينخسف[٥١].

ومنطقة شبه الظل: هي المنطقة التي ينحجب فيها جزء من ضوء الشمس عن القمر، أي إن المراقب للشمس من على سطح القمر يراها منكسفة جزئيًا.

ومِن ثَمَّ فقد عرف العلماء العرب خسوف القمر وأنواعه، إلا أن العلم الحديث أضاف أنه في بداية الخسوف الكلي فإن لون القمر يميل للحمرة بسبب الأشعة الحمراء التي لا يمكن امتصاصها من أعلى الغلاف الجوي للأرض، وقد أطلق على القمر تسمية القمر الدامي.

دراسة علمية: في مولد القمر

يقول قسطا إن للقمر فلكًا ممثلًا بفلك البروج معتدلًا تحته، وفي داخله، ومركزهما واحد لا يرتفع عنه أبدًا، ولا ينخفض عنه، ومسيره كمسيره من المشرق إلى المغرب، وهو المرسوم عليه أبجد، وعلى مركزه ه، وله أيضًا فلك آخر يقال له الفلك المائل، وهو التنين.

ومركز هذا الفلك ومركز الفلك الممثل واحد، ومسيره أيضًا من المشرق إلى المغرب في كل يوم / ١٠ / دقائق، ويعود إلى الموضع الذي ابتدأ منه مرتين في / ٢٧ / سنة مصرية و / ٤٨ / يومًا، ويزيد جزءًا واحدًا، وهو قريب من دقيقة.

ويجري هذا الفلك في باطن فلك البروج متعلقًا به، ومركزهما واحدًا لا يتغير أبدًا، وميله / ٥ / أجزاء، إذا كان الخط الواحد / ٦٠ / جزءًا، وفي داخل هذا الفلك المائل فلك مركز الخارج وبين مركز فلك الخارج إلى مركز الفلك الممثل بالبروج قريب من ٥ أجزاء، وذلك ما يكون ١٢ مرة ونصف من / ٦٠ / .

وحركة هذا الفلك أيضًا من المشرق إلى المغرب، وفي باطن الفلك المائل يجري فلك مركز الخارج يجري من أعلاه إلى ما يليه من البروج، وفي فلك مركز الخارج مركز فلك التدوير.

فإذا كان اجتماع القمر مع الشمس كان نصفه المتلئ نور المضيء الذي يضيء لنا هو المقابل للشمس، لأن ضوء القمر من الشمس، فيكون حينئذ ما يضيء منه بأن الشمس في أعلى مقابلتها، ويكون النصف الذي لا ضياء فيه هو المقابل لنا، فلذلك لا نراه ليلة الاجتماع، لأنه مع الشمس في درجة واحدة، والقمر لا يرى أبدًا حتى يبعد من الشمس / ١٢ / درجة، فإذا فارقها بذلك أهل مولودًا علينا، و نحن نرى ذلك الخط القليل لانحرافه عن مقابلة الشمس قليلًا، ولأننا قد وازيناه، فكلما تباعد ظهر من نصف جرمه النوري أكثر، فرأيناه كذلك، ونقص من نصف جرمه المظلم الذي هو بلونه.

فإذا كان في اليوم السابع فإنه يرى نصف استدارته التي تقابلنا مضيئة ونصفها مظلمة، وكلما تباعد زاد في الناحية المضيئة أيضًا، ونقص من الناحية المظلمة حتى ينتهي إلى المقابلة، فعند ذلك يرى نصف جرمه المضيء كله، ويستر عنا نصف جرمه المظلم كله، وعلى هذا الحساب تنقص الناحية المضيئة، وتزيد الناحية المظلمة حتى يرجع فيجتمع مع الشمس كما قلنا، ويصير ضوؤه في أعلاه موازيًا للشمس، ويكون حينئذ الجانب المظلم مقابل لنا، ومِن ثَمَّ فنجد أنه إذا

٥١- خسوف القمر-ويكيبيديا www.m.wikpedia.org.

كان بين القمر و الشمس أقل من / ١٢ / درجة لم ير حتى يكون بينه وبينها ١٢ درجة، فيرى حينئذ مولودًا كما قلنا.

دراسة تاريخية

يقول قسطا: «فعند ذلك يرى نصف جرمه المضيء كله. ويستر عنا نصف جرمه كله، وعلى هذا الحساب تنقص الناحية المضيئة، وتزيد المظلمة حتى يرجع فيجتمع مع الشمس، ويصير ضوؤه في أعلاه موازيًا للشمس». (ص ٢٧ظ)

يقول البتاني: «لمعرفة اختلاف منظر القمر فتخرجها من حد سمت طالع وسط الكسوف إلى خلاف جهة عرض القمر إذا كان القمر فيما يلي المشرق، وإذا كان فيما يلي المغرب أخرجتها من حد سمت غارب وسط الكسوف إلى خلاف جهة عرض القمر أيضًا.

فحيث انتهى بك العدد من دائرة الأفق فإلى ذلك الجزء منها يجوز ميل سمت الظلمة في وسط الكسوف هذا إذا كان عرض القمر في الشمال، وأما إذا كان في الجنوب، وكان في ناحية المشرق أخرجت الزاوية من سمت الغارب، وإن كان في ناحية المغرب فمن سمت الطالع إلى خلاف جهة عرض القمر»[٥٢].

يقول البيروني: «وأما القمر فإنه لما تسافل عن الشمس وقع شعاعها منه وقت الاجتماع على القطعة التي لا نراها، فحصل له ظل منخرط نحونا، وبحسب قرب سهمه من أبصارنا ستر الشمس عنا وكسفها، فكان أول المقادير التي أمدت البصر على إدراكه هو الهلال، ثم ازداد النور في جرمه بازدياد ذلك المشترك، وتبعه تطاول مدة إضاءته بعد غروب الشمس، وتناوبت الأشكال النورية في جرمه متزايدة إلى الاستقبال، فعنده اتحدت القطعتان واشتركتا بأسرهما، فتم النور في جرمه، وأضاء في كل ليلة، ثم عاد بعده على تلك الأشكال بالتناقص وعكس مدد الإضاءة بعد غروب الشمس بالإظلام إلى استتمام ذلك»[٥٣].

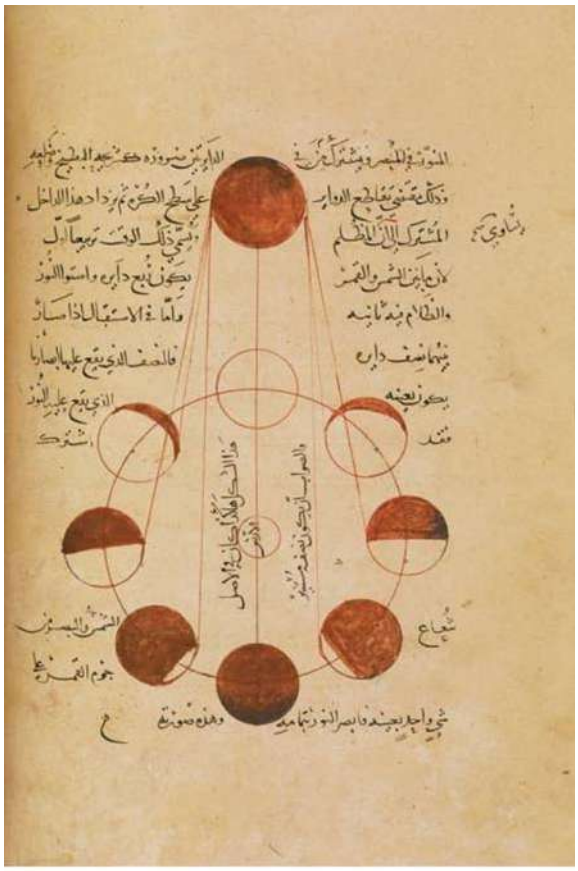

رسم إيضاحي لأطوار القمر في كتاب التفهيم للبيروني. Or. 8349، ص. ٣١ظ

دراسة علمية: رؤية القمر

ويقول قسطا: إن القمر ربما رأيناه مولودًا كبيرًا، وربما رأيناه مولودًا صغيرًا، وذلك أنه ربما كان بينه وبين الشمس / ١١ / درجة أو / ١٠ / ونصف قبل مغيب الشمس عنا بشيء يسير فإلى أن تغيب الشمس عنا يكون قد سار ما بقي عليه حتى يرى، وذلك لتمام / ١٢ / درجة، فيكون حينئذ يرى مولودًا صغيرًا جدًا لا يكاد يدركه البصر.

٥٢- البتاني، زيج الصابئ، ...، المصدر السابق، ص١٣٣.

٥٣- البيروني، القانون المسعودي، ...، المصدر السابق، ص١٦٢و.

فأمـا إذا رأينـاه مولودًا كبيرًا فإنـه ربما كان بينه وبـين الشمس مـن الدرجات / ١١ / أو أقـل قليلًا، أو أكـثر قليلًا، وذلـك بالنهار بعد أن يكـون قد مضى من النهـار ساعتـان أو أكـثر قليـلًا، فيسـير في باقي ذلك اليوم مسـيره الذي يسيره فيكون علـى / ٤ / ساعات أو أقل أو أكثر يكون قد جاوز الشمس بقدر ما يرى له وهو / ١٢ / درجة، ويسـير من ذلك الوقت إلى غيبوبة الشمس زيادة على / ١٢ / درجة، فيكون يرى مولودًا كبيرًا، فهذه علة كبره وصغره في أول مستهله ومولده.

ويقـول أيضًـا: إن القمـر ربمـا رآه قـوم ولم يـره آخـرون، وإنما يـراه من كان طوله أقـرب إلى المغرب، فـإذا كان موضـع طولـه / ٧٠ / وعرضـه / ٣٦ / درجـة، وموضـع آخر طولـه / ٦٠ / درجـة وعرضه / ٣٠ / فيبـدأ في مغيـب الشمـس علـى عرض / ٣٠ / وطول / ٥٦ / ، وبـين القمر والشمس / ١٠ / درجات ونصف أو أكثر قليلًا، فلا يرى القمر، وفي طول / ٦٠ / لم تغـب عنهـم الشمس في الوقت الـذي غابت عن طول / ٧٠ / ، فإلى أن تغيب الشمس عن طول / ٧٠ / يكون قـد سـار القمر بقية مـا عليه إلى تمـام / ١٢ / درجة، فيرونه ولا يراه الآخرون الذين قبلهم في المشرق.

دراسة تاريخية

يقـول قسطـا: «إن القمـر يستمـد ضـوؤه مـن الشمـس، وذلـك لأن جسم القمر جسـم كثيف صقيل، ضبابـي، وفيه بقع سوداء كاللطـخ، مثل الصدأ الذي يحدث للحديد الصقيل، وبرهان ذلك أننا لا نرى حدبة القمـر مضيئة إلا عندما يقابـل الشمس منذ طلوعه إلى كمالـه، ثم زواله، ونراه مكتمـلًا أي مكتسيًا بالنور في ليلة الأربع عشر، ثم يتناقص». (ص ٢٧و)

يقول ARISTARCHO في صدر كتابه في جرمي النيرين و وبعديهما: «نضع أن القمر يقبل الضوء من الشمس»[٥٤].

ونجـد من ذلـك أن الفلاسفـة اليونانيين ومـن بعدهم العـرب قد أدركوا أن القمر هو مجرد جرم سماوي معتم، ولكنـه يعكـس ضـوء الشمس، وظنـوا أنه يشبـه كوكب الأرض في طبيعته بسبب البقع الداكنة التي ظنوها بحارًا ومحيطات، وهذا ما يقولـه العلم الحديث، إذ يتغير مظهر القمـر خلال الشهر حسب الطريقـة التي تضيئه الشمس بها، فعندما تنعكس أشعتها من الجانب نرى نصف قمر.

وعندمـا تنعكـس أشعتها مـن الأمام وهـي النقطة في المـدار التي تقـف فيها الشمس والقمـر على جانبي الأرض يظهر القمر كاملًا (بدرًا).

وعندمـا يكون القمـر والشمس علـى نفس الجانب من الأرض، فالشمس تنير القمر من الخلف، وفي هذه الحالة لا يكون القمر مرئيًا (محاقًا) على الإطلاق.

كمـا أن قسطا وضح سبب اختلاف رؤية القمر الذي يعود إلى الاختلاف في خطوط الطول والعرض، وتأثير ذلك في غروب الشمس والقمر في مواقع مختلفة، وهذا ما أكده العلم الحديث.

خاتمة

تعـد الاستفـادة مـن الـتراث الفلكـي للحضـارات السابقـة العامـل الأساسـي في تطور علـم الفلك، ومن ثَـمَّ فقـد كان لمؤلفـات قسطا بـن لوقا أثرٌ كبـيرٌ في هذا التطـور، وذلك مـن خلال ترجمته لأهـم الكتب الفلكية اليونانيـة، ونقلهـا وشرحهـا، إضافـةً إلى إسـهاماته الفلكيـة كتصحيـح الأخطـاء وتنقيحهـا، وكذلك نحت المصطلحـات الفلكية باللغة العربية، كما كان الوصول إلى استنتاجاته العلمية حافزًا مهمًا لتطور علم الفلك.

المصادر والمراجع العربية

١) ابـن أبـي أصيبعـة، أحمد بـن القاسـم، عيون الأنبـاء في طبقـات الأطباء، ج١، تحقيـق الدكتور نزار رضـا، مكتبة الحياة، بيروت،١٩٦٥، ص٢٤٤.

٢) ابن العبري، يوحنا بن أهرون، تاريخ مختصر الدول، ط٣، دار الشرق، بيروت،١٩٩٢، ص٢٥٩.

٣) النديم، أبو الفرج محمد بن إسحاق، الفهرست، ج٢، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، لندن،٢٠٠٩م، ص٢٩٣.

٤) أرسطرخـس، في جرمـي النيريـن وبعديهمـا، المكتبة البريطانية، مخطوطـات شرقية،IO Islamic 923.ff52v69rkW، ص٥٢ظ.

٥٤- أرسطرخس، في جرمي النيرين وبعديهما، المكتبة البريطانية، مخطوطات شرقية،IO Islamic 923.ff52v69rkW، ص٥٢ظ.

٥) البتاني، محمد بن جابر، زيج الصابئ، ترجمة وتحقيق كرلو نالينو، دار ومكتبة بيبليون، لبنان،٢٠١٩.

٦) بدوي، عبد الرحمن، دور العرب في تكوين الفكر الأوربي، مكتبة الأسرة، مصر،٢٠٠٤.

٧) بروكلمان، كارل، تاريخ الأدب العربي، ج٤، ط٣ ، دار المعارف، القاهرة، ص٩٩.

٨) بطليموس، المجسطي، المكتبة البريطانية، مخطوطات شرقية، ترجمة الحجاج بن يوسف بن مطر،Add Ms7474 .

٩) البغدادي، إسماعيل باشا، هدِيَة العارفين بأسماء المؤلفين وآثار المصنفين، المجلد الأول، مؤسسة التاريخ العربي، إستانبول،١٩٥١، ص٨٣٥.

١٠)البيروني، محمد بن أحمد أبي الريحان، التفهيم لأوائل صناعة التنجيم، المكتبة البريطانية، مخطوطات شرقية، رقم Or8349.

١١) البيروني، محمد بن أحمد أبي الريحان، القانون المسعودي، ج١، ط١، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن، الهند،١٩٥٦، ص٧١.

١٢) جبوري، عبد الله، المستدرك على الكشاف، مطبعة المعارف، بغداد، ١٩٦٥، ص٢٩٩.

١٣) حميدان، زهير، «قسطا بن لوقا»، الموسوعة العربية، هيئة الموسوعة العربية، دمشق، سورية، المجلد الخامس عشر، ٢٠١٦، ص٣٧٦.

١٤) الدفاع، علي عبدالله، رواد علم الفلك في الحضارة العربية الإسلامية، دار الكتب العلمية للنشر والتوزيع، مصر،٢٠٠٠، ص٥٧.

١٥) الرازي، فخر الدين ابن ضياء الدين عمر، تفسير الفخر الرازي المشهور بالكبير، دار الفكر،ج٤، ط١، ١٩٨١،ص٢١٢.

١٦) الزركلي، خير الدين، الأعلام، الطبعة ١٥، الجزء الخامس، دار الملايين، بيروت، لبنان،٢٠٠٢، ص١٩٧،١٩٦.

١٧) سركيس، يوسف اليان، معجم المطبوعات العربية والمعربة،ج٢، مطبعة سركيس، مصر، ١٩٢٨، ص١٥١٠.

١٨) سيزكين، فؤاد، تاريخ التراث العربي، ج٥، حتى سنة ٤٣٠هـ، ترجمه عبد الله عبد الله حجازي، وحسن محيي الدين حميدة، ومحمد عبد المجيد علمي، جامعة الملك سعود، الرياض، المملكة العربية السعودية، ص٣٥٤.

١٩) سيزكين، فؤاد، تاريخ التراث العربي، ج٦، جامعة الملك سعود، الرياض، المملكة العربية السعودية، ص٨٩.

٢٠) الشيرازي، محمود بن مسعود، نهاية الإدراك في دراية الأفلاك، مخطوط(staas bibliothk pet-674) مصورة بمعهد التراث بحلب برقم(١٥٩)، ص٢١و.

٢١) صليبا، جورج، تاريخ علم الفلك العربي، مؤيد الدين العرضي، كتاب الهيئة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٩٠، ص٣١.

٢٢) طوقان، قدري حافظ، تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك، مطبعة المقتطف، مصر،١٩٤١، ص١٧٩.

٢٣) قسطا بن لوقا، هيئة الأفلاك، مكتبة دوبلن، أوكسفورد، برقم٤٢٠٦، ويوجد نسخة مصورة عنها في معهد التراث العلمي العربي، حلب، رقم(١٤٠٠ / مجموع).

٢٤) القفطي، جمال الدين، إخبار العلماء بأخبار الحكماء، طبعة القاهرة، مطبعة السعادة، مصر،١٩٠٨، ص١٧٣.

٢٥) القفطي، جمال الدين، تاريخ الحكماء، ليبسك،١٣٢٠هـ، ص٢٦٢.

٢٦) كحالة، عمر، معجم المؤلفين، الجزء الثاني، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ١٩٩٣م، ص٦٥٩.

المراجع الأجنبية

BROCKELMANN(C). Gesshichte der Arabischen Literature. SI. Brill. Leiden.1973.P.365.

SMITH(D.E).History of Mathematics. vol I. Dover publication.INC.New-york.1958.P.174.

المواقع الإلكترونية

www.ar.m.wikpedia.org خسوف القمر–ويكيبيديا

www.ar.m.wikpedia.org مدار القمر–ويكيبيديا

التربية والتعليم في التراث العربي الإسلامي

نبيـــل تللـــو*
سوزان أبو حمزة

التربية والتعليم مصطلحٌ يشير في معناه الواسع إلى الطرائق والأساليب التي يكتسب بها الناس المهارات والمعارف، ومِن ثَمَّ يتوصلون بها إلى الفهم الصحيح لكلِّ ما يحيط بهم. وهاتان الكلمتان ليستا كلمتين مترادفتين، بل بينهما عمومٌ وخصوصٌ، فالتربية أشمل من التعليم الذي هو جزءٌ من التربية، وفي حين يكون فيه التعليم محدودًا بما يقدِّمه المعلم من معلومات ومهارات واتجاهات داخل غرفة الصف، فإنَّ التربية تأخذ مكانتها داخل غرفة الصف وخارجها، ويقوم بها المعلِّم وغير المعلِّم، وفي هذه المقالة سوف نستعمل مصطلح التربية للإشارة إلى كليهما.

اشتقَّ مصطلح التربية لغويًا من الاسم «ربّ» الذي يعني «السيد» و«المالك»، ومنه «ربُّ العالمين» و«ربُّ الأسرة» و«ربُّ القوم». أمَّا الفعل «ربَّى» فيستخدم للدلالة على أفعال «غذَّى» و«نمَّى» و«أدَّب» و«طبَّب» و«أجاد»، و«رعى»، ولذلك تشمل عملية التربية مجموع هذه الأفعال، للوصول بها إلى منتهى الكمال والإتقان.

وتكون التربية بأساليب جذَّابة ومنفِّرة، كالثواب والعقاب، والترغيب والترهيب، وما شابه من العمليات المشوِّقة والنابذة، وتستخدم طرائق وأساليب وتقنيات وقنوات متعدِّدة لتحقيق أهداف المنظَّمة التربوية. وما يزال الجدل قائمًا حول فنّ التربية، أو عِلم التربية، أو تقنيات التربية، لاختلاف المدارس النفسية والتربوية في فلسفتها، وكذلك لتعقُّد المتغيِّرات التي تعمل في العلوم التربوية.

* نبيل تللو: باحثٌ في تراث دمشق، وسوزان أبو حمزة: مديرة خدمات المستفيدين في مكتبة الأسد الوطنيَّة بدمشق.

هـذه النظرة العامة على التربية تنطبق على مسيرة التربية في تاريخنا العربي الإسلامي، بما مارسه الآباء لتربيـة أولادهم، وبما كتبه المربُّون السابقون من كتبٍ عالجت التربية بمختلف وجوهها واتجاهاتها، وفي هذه المقالـة سنتعرَّف بعض هذه الممارسـات، والكتب التي تركهـا لنا السلـف، راجـين أن يتذكَّر كـرام القارئات والقـراء ما نسـوه، وأن يتعرَّفوا ما لا يعرفونه، آملين أن نكون قد قدَّمنا لهم المعلومة المفيدة والمهمة.

ـ التربية العربية الإسلامية:

تُعَـدُّ التربية العربيـة الإسلامية جـزءًا من التربية العالمية، وهـي مجموعةٌ من المفاهيـم والأسس العَقَديَّة والفكريـة والخلقيـة والسلوكيـة والقيـم الروحيـة والجسديـة، المترابطة فيما بينها في إطارٍ فكريٍّ واحد، مستنـدةً في مبادئها وقيمهـا إلى القرآن الكريم والسنَّة النبوية الشريفـة، ويتربَّى الإنسان مـن خلالها تربيةً كاملـة متوازنة مـن الجوانب كلّهـا، دون تضحيةٍ بأيِّ نـوعٍ منهـا علـى حسـاب الآخـر، وذلـك بُغيـة تكوين الإنسـان المسلم المؤمن بالله ورسولـه، وإحياء شعائر الإسـلام، وتزويده بالعلوم والمعارف المختلفة، وجرت على مراحـل شبيهة بمراحل التعليـم الحالي، فالتعليم الابتدائـي كان يجـري في الكتَّـاب، حيـث كان الأطفال يتلقـون معـارف عامـة تفيدهـم في حياتهـم الدينيـة والدنيويـة، وكانـت هذه الكتاتيـب في البداية جزءًا من المسجـد، ثم استقلت في أبنية خاصة، كذلك كان التعليم الثانوي يجري في المساجد والمدارس، حيث كان العلماء ينقلـون علومهـم وأفكارهـم إلى طلبة العِلـم، وظهرت المدارس التي كانت بمنزلة الجامعـات، مثل دار العِلم في القاهـرة، وبيت الحكمة في بغداد. أما طرائق التعليم فقـد تراوحت بين التلقين والتكـرار والحفظ والإملاء والنقاش والمناظرات، ولكلٍّ من هذه الطرائق جوانبها الإيجابية والسلبية.

ـ تطوُّر التربية العربية الإسلامية:

تطوَّرت التربية في التاريخ العربي الإسلامي حسب الظروف الطارئة في كلِّ مرحلة من مراحله:

١ ـ مرحلة ظهور الإسلام:

بدأت هذه المرحلة بظهور الإسلام في شبه الجزيرة العربية في القرن السابع الميلادي، وامتدَّت حتى نهاية عصـر الخلفـاء الراشديـن، وُضِعـت خلالهـا الأسس والمبـادئ الرئيسيـة السياسية والدينيـة والاجتماعية والخلقيـة، ممَّا كان له أثرٌ عميق في حياة المسلمين طيلة قـرون، وما تزال الشعوب العربيـة والإسلامية تتأثَّر بها إلى اليوم.

بـدأت هذه المرحلة بـ: ﴿**اقـرأ**﴾ [سورة العلق: ٣]، التي هي أول كلمة نزلت في القرآن الكريم على الرسول محمد عليـه الصلاة والسـلام، فكانت أمـرًا بالقراءة وتمجيـدًا للعلـم، مـا مهَّـد الطريـق للبـدء ببنـاء كيان الدولة السياسي والاجتماعي، واتحاد القبائل العربية المتنازعـة لأول مـرة تحـت قيـادة زعيم واحـد، وتبنِّي مبادئ واحدة، يأتي في مقدمتها عبادة إلٰه واحد.

وترسَّخت أهمية التربية بقسم الله عزَّ وجل بالقلم: ﴿**ن والقلم وما يسطرون**﴾ [سورة القلم: ١]، لتأكيد مكانـة القلم الـذي تُكتب بـه العلوم والمعـارف، محوًا للجهل والتخلُّف والقضاء عليهما.

وبـرزت أهمية التربيـة بقول الله عزَّ وجـل في الآية ١٥١ مـن سورة البقـرة: ﴿**كما أرسلنـا فيكم رسولًا منكـم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكـم ويعلمكم الكتاب والحكمـة ويعلمكـم مـا لم تكونـوا تعلمـون**﴾، في إشـارةٍ من الله عزَّ وجل لعباده أنَّ مهمة الرسول كانت مهمة تربوية بالدرجة الأولى، وأنَّه هو نفسه كان المعلم الأول في الإسلام. ويقول أيضًا في الآية ١٦٤ من سورة آل عمـران: ﴿**لقد منَّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسـولًا مـن أنفسهـم يتلـو عليهـم آياتـه ويزكيهم**

ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلالٍ مبين﴾.

ووردت كلمة التربية في القرآن الكريم في موضعين اثنين، الأول في الآية ٢٤ من سورة الإسراء: ﴿**وقل ربِّ ارحمهما كما ربَّياني صغيرًا**﴾، والثاني في الآية ١٨ من سورة الشعراء: ﴿**ألم نُرَبِّكَ فينا وليدًا ولبثتَ فينا من عُمُرِك سنين**﴾. وتبيِّن هاتان الآيتان أنَّ المقصود بالتربية هو «عملية الإعداد والرعاية في مرحلة النشأة الأولى للإنسان»، أو ما يُقال عنه اليوم «مرحلة الطفولة المبكِّرة».

وكان الرسول يعلِّم أصحابه القرآن فور نزوله، كما قال: «إنَّما بعثت معلِّمًا»، وأخبرهم أنَّ خيرهم من تعلَّم القرآن وعلَّمه، وفي ذلك كثير من الآيات الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة.

وقد شدَّد رسول الله صلى الله عليه وسلم على تأكيد مهمة التربية وواجب التعليم، فخطب يومًا يلوم المتعلمين الذين لا يعلمون الجاهلين، كما لام الجاهلين الذين لا يسعون لتعلم العلم من العالمين.

وتمثَّل حرص الإسلام على تعليم المسلمين ونشر الكتابة والقراءة عندما سمح الرسول الكريم عقب انتصاره على المشركين في معركة بدر بإطلاق سراح الأسير المشرك إذا علَّم عشرةً من أطفال المسلمين القراءة والكتابة، ما يعني السماح للمسلمين أن يتلقوا العلوم النافعة لهم من أيِّ مصدرٍ كان، طالما أنَّ ذلك لا يؤثِّر في عقيدتهم الإسلامية، فالتربية صفة أساسية من مميزات العصر الإسلامي.

ولقد تميَّزت مكَّة المكرَّمة ـ الموطن الأول للإسلام ـ عبر العصور الإسلامية بنشاطها العلمي والثقافي، فكان حرمها الشريف المدرسة والجامعة التي تخرَّج فيها كثير من العلماء والشيوخ الكِبار الذين أخذوا علومهم من بداية العصر الإسلامي على كبار الصحابة والتابعين، ومع الزمن ظهرت في مكة أسرٌ علمية تبوأت لأجيالٍ مناصب علمية كبيرة، وأقام رجالها الندوات والحلقات العلمية جيلًا بعد جيل.

وما إن ترسَّخت جذور الدولة الإسلامية، ومع اتساع حركة الفتوح الإسلامية في هذه المرحلة، وانتشار الإسلام، قام الخليفة عمر بن الخطَّاب بإرسال المعلمين والقضاة للقيام بتعليم الناس الذين دخلوا في الإسلام حديثًا، ونشر التعليم في جميع البقاع التي امتدَّ إليها الإسلام، فكان لذلك أثرٌ بارزٌ في بناء الدولة الإسلامية المزدهرة.

٢ ـ مرحلة البناء والفتوحات:

وتمتدُّ من نهاية عصر الخلفاء الراشدين حتى أواخر عهد الدولة الأموية، بين سنتي ٤١ ـ ١٣٢ هـ، ٦٦١ ـ ٧٥٠ م، إذ امتدت الدولة الإسلامية من الهند شرقًا إلى المحيط الأطلسي غربًا، ومن بحر الخزر (قزوين) شمالًا إلى السودان جنوبًا، ضامَّةً بذلك أغنى بقاع العالم القديم وأقدمها حضارةً، كالفارسية والإغريقية والقبطية.

اتَّصل العرب المسلمون في هذه المرحلة بالحضارات العريقة المختلفة، ومهَّدوا الطريق لامتزاج الشعوب والحضارات، فتأثَّروا بالأنظمة السياسية والاجتماعية والتربوية، كما بقيت جامعتا الإسكندرية ونيسابور في العصر الأموي فترةً طويلة، فقد كان يُدرَّس فيهما الفلك والفلسفة وعلوم الإغريق الأخرى. وقد طرأ تطوُّرٌ مهمٌّ على التربية في هذه المرحلة، وجاءت التطوُّرات لتلبي الأهداف الآتية:

ـ المحافظة على الهوية العربية للدولة، فوضع العلماء مناهج التعلُّم، واهتموا بتاريخ الشعوب الأخرى.

ـ تأكيد الهوية الإسلامية للدولة، وتدريس علوم القرآن والحديث والفقه.

ـ مواكبة التطوُّر وتلبية حاجات المجتمع، وتنظيم مؤسَّسات الدولة الإدارية والاقتصادية، فعُرِّبت الدواوين، وجرى الخروج من هيمنة الفرس والروم.

٣ ـ مرحلة الإبداع:

وتغطِّي فترة الخلافة العبَّاسية من القرن الثاني الهجري / الثامن الميلادي، إلى أواسط القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي، نشأت نتيجة تفرُّغ الحكَّام لشؤون الرعية بعد تراجع الفتوحات، فامتزجت الشعوب والحضارات، وهذا ما ساعد على الانتعاش الفكري، وأصبحت اللغة العربية لغة التعبير الثقافي والعلم والتفاهم والتخاطب، فكانت إضافةً إلى الدين من أقوى عوامل الوحدة الثقافية، وكان من ثمرات تطوُّر حركة النقل والترجمة من اللغات اليونانية والفارسية والهندية إلى العربية، وما أضافوا إليها، ظهور الفروع الجديدة كالفلسفة والمنطق والهندسة والفلك والرياضيات والحساب والموسيقا والطب والصيدلة والكيمياء والفيزياء والجغرافيا، إضافةً إلى ما أخذوا عنهم من قصص وحكم وأمثال وأقوال مأثورة، وهذا ما جعل العرب والمسلمين يعتلون قمة العلم والمعرفة في ذاك الوقت.

وإذا كان من الثابت اهتمام الدولة بالتربية، فلا شكَّ أن ذلك يتطلَّب تمويلاً كافيًا، وهذا ما قامت به الدولة والأفراد، وما قام به الوقف الذي كان ملازمًا لكلِّ المنشآت التعليمية.

ومن أبرز مظاهر التربية في هذه المرحلة ـ في سياق هذه المقالة ـ هو ظهور مدارس تربوية مختلفة تستند إلى أسس فكرية خاصة بها، منها:

ـ **إخوان الصفا**: وهم جماعة فلسفية لها ميول سياسية باطنية تكوَّنت في القرن الرابع الهجري، العاشر الميلادي، ونظروا إلى التربية نظرة عقلية، فحدَّدوا أنواع المعارف وطرائق اكتسابها وشرائطها، وتحدثوا عن أثر العادة في اكتساب الأخلاق والمعارف والعلوم، وأثر البيئة والمحاكاة في تطبيع السلوك، وأثر المعلمين في تلاميذهم، وكانت آراؤهم متأثرة إلى حدٍّ بعيد بآراء أفلاطون، ولا سيما في موضوع العلم والتذكرة والجهل والنسيان.

ـ **مدرسة الفقهاء والمحدِّثين**: مرَّت هذه المدرسة بمرحلتين، الأولى مرحلة اتفاق بين المحدِّثين والفقهاء حول نصوص القرآن والسنَّة. والثانية مرحلة تباين في المذاهب ومحتوى مناهج التعليم والبحث.

ـ **مدرسة الصوفيين**: ظهرت في نهاية القرن الثاني ومطلع القرن الثالث الهجري، إذ اهتمَّ رجال الصوفية في مؤلفاتهم بأساليب تربية المريد وأحوال النفس ومسألة الخير والشر.

ـ **مدرسة الفلاسفة**: ازدهرت هذه المدرسة بصورة مميَّزة بعد الاطلاع على الفكر الفلسفي للحضارات الأخرى وتمثُّله وإعادة تكوينه، بما يتلاءم مع روح الحضارة العربية الإسلامية، فوقفت بين الدين والفلسفة.

٤ ـ مرحلة التقهقر:

وتمتد من أواسط القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي، وهي مرحلة ضعف الدولة العربية الإسلامية نتيجة الغزوات المغولية والصليبية والحروب الداخلية، ثم الاحتلال التركي للبلاد العربية، ممَّا أودى بالاستقرار السياسي والاجتماعي والاقتصادي، وقضى على دور العِلم ومعاهد التعليم، فغفا الفكر، ووقفت حركة التعليم حتى باتت مفقودة في الأرياف نادرة في المدن، فتفشَّى الجهل والأمية، وظهرت السلبية واللامبالاة.

٥ ـ مرحلة اليقظة:

بدأت مع ظهور الحركات الوطنية والقومية في القرن التاسع عشر الميلادي، التي أكَّدت أهمية التربية

في تحقيق النهضة، وكان من مظاهر ذلك هو إنشاء الوالي محمد علي باشا المدارس الحديثة المجانية في أرجاء مصر، وأقام معهدًا لإعداد المعلمين، وأوفد إلى أوروبا نخبة المتعلمين، وسار ابنه إبراهيم باشا على خطاه، إذ أقام في سورية مدارس كثيرة.

ـ ومن أبرز الكتَّاب والتربويين الذين ظهروا في تلك المراحل:

ـ عبد الحميد الكاتب (توفِّيَ سنة ١٣٥ هـ / ٧٥٠ م):

له عدة رسائل كتبها في العصر الأموي، تتناول مباشرةً أمورًا تربوية وموضوعات إصلاحية، وعالج بها قضايا تقريرية ومستقبلية لإنسان عصره ولمجتمع زمانه.

ـ ابن المقفَّع (١٠٦ ـ ١٤٢ هـ / ٧٢٤ ـ ٧٥٩ م):

فارسي الأصل، عاش أيام الدولتين الأموية والعباسية، صنَّفه بعض الدارسين في عداد كتَّاب «الوصايا والمرايا» الذين عنوا بالأخلاق وبآداب النفس، وعدَّه آخرون من المصلحين الاجتماعيين الذين أعطوا ما أمكنهم كتابةً وعملًا لإقامة نظام اجتماعي وسياسي على أسسٍ صحيحة، ومن أجل غاياتٍ شريفة وأغراضٍ سامية، إذ إنَّ كتبه تزخر بهذا النوع من الأدب، ومشبَّعة بالنصائح والإرشادات، وبالحكم والمواعظ، موجَّهة لإصلاح الفرد والجماعة.

ـ الكِندي (١٨٥ ـ ٢٦٠ هـ / ٨٠١ ـ ٨٧٣ م):

فيلسوف ومربٍّ، وُلِدَ في البصرة وتوفِّيَ ببغداد، تناول في آرائه التربوية الإنسان في جميع جوانب الحياة، إذ دعا إلى العناية بتربيته منذ ولادته، وإلى تأديبه وتعويده اتباع السلوك الحسن بالترغيب تارةً والترهيب تارةً أخرى، وقد تجلَّى ذلك في ثنايا مؤلفاته الكثيرة التي قدَّرها بعضهم بـ ٣٠٠ كتاب، موزَّعة على مختلف العلوم التي كانت سائدة في ذاك الوقت.

ـ الفارابي (٢٦٠ ـ ٣٣٩ هـ / ٨٧٤ ـ ٩٥١ م):

ينتمي إلى بلاد فارس أو تركيا، تنقَّل بين بغداد والقاهرة وحلب، توفِّيَ بدمشق، يُعَدُّ علامة مميَّزة في تاريخ الفكر البشري، وعُدَّ المعلم الثاني بعد أرسطو المعلم الأول، فقد كان نابغة في مختلف ميادين الفلسفة، إضافةً إلى العلوم والموسيقا، وأخذ عنه الفلاسفة والمفكِّرون اللاحقون كثيرًا من الأفكار والنظريات، وأفادوا من تأليفاته وشروحه وتعليقاته، حتى أصبح بالإمكان القول إنَّ له دورًا مهمًا في صياغة ملامح الفكر والوعي والثقافة في الحضارة العربية الإسلامية في مرحلته والمراحل التالية.

ـ ابن سينا (٣٧٠ ـ ٤٢٨ هـ / ٩٨١ ـ ١٠٣٧ م):

وُلِدَ بقرية «أفشنة» قرب «بخارى» (أوزبكستان اليوم)، توفِّيَ في «همذان» ببلاد فارس، وله ضريحٌ هناك، كان في عصره من أقطاب الفكر، فأعطى الإنسانية في شتَّى مجالات الفلسفة والعلوم والفنون، حتى إنَّه لم يترك فنًا إلا وترك فيه مؤلفًا أو كتابًا أو رسالةً، فاستحقَّ لقب المعلم الثالث بعد أرسطو والفارابي، وما يهمنا في سياق هذه المقالة هو فكره التربوي، الذي ينبغي برأيه أن تحتضنه فلسفة عامة تجمع المعطيات المتغيِّرة التي تقدمها جميع العلوم، ليؤلِّف هذا الفكر فلسفة عملية تكون جزءًا من فلسفةٍ عامة ليكملها ويتممها، باعتباره ضروريًا لها، فهو كالأخلاق باعتبارها مجال العمل والتطبيق لما هو نظري، والمذهب التربوي هو المجال التطبيقي لكلِّ مذهبٍ فلسفي، وهذه الفلسفة موزَّعة في تلافيف مجلداته، ومتفرِّعة خلال موضوعاتٍ عدة، وجاءت متداخلة ومتفرعة، وذلك لدرجة يصعب فيها الفصل بين ما هو نظري وما هو عملي، وأيهما الأصل وأيهما الفرع، أيهما السبب وأيهما النتيجة.

وكما أنَّ العمل التربوي كفيلٌ بإخراج ما هو موجود بالقوة لدى الكائن إلى وجودٍ بالفعل، فإنَّ الفكر التربوي هو الكفيل بإخراج ما هو موجود بالقوة داخل الفكر إلى وجودٍ بالفعل خارجه.

تضمَّنت السياسة التربوية عنده أفكارًا وقواعد عملية صالحة لأن يطلق عليها: «التربية السيناوية»، التي تتناول حياة الإنسان منذ مرحلة الطفولة، التي قسَّمها إلى ثلاث مراحل: ما قبل المدرسة، سن المدرسة، التعليم المهني أو الصناعة، ولكلٍّ مرحلة شروطها واستحقاقاتها، وحتى مرحلة إفراد الرجل وقيام الأسرة المخوَّل بتدبيرها وتربيتها. وتحدَّث عن التربية الأخلاقية وطرائق اكتساب الأخلاق، وعن التربية الدينية، وكل ذلك هو ممَّا يجعله من أصحاب المذاهب التربوية الجديرة بالدراسة والاهتمام.

ـ ابن مسكويه: توفِّي سنة ٤٢١ هـ، ١٠٣٠ م:

هو أحمد بن محمد بن يعقوب بن مسكويه، من الفلاسفة الذين تأثروا بالفلسفة أكثر من الدين، وتحدَّث في كتابه: « تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق» عن الحق والخير والجمال، والنفس والعقل والذكاء، كما تحدَّث عن التربية، ورتَّب المواد التعليمية، فيأخذ الولد أدب الشريعة، ثمَّ ينتقل إلى الحساب والهندسة حتَّى يتعوَّد صحة البرهان، ثم يتحدث عن طريقة التأديب وأنواع العقوبات التي تقع على الولد.

ـ أبو حامد الغزَّاليُّ (٤٥٠ ـ ٥٠٥ هـ / ١٠٥٨ ـ ١١١١ م):

عالمٌ فقيه وفيلسوف ومربٍّ، أحد أعظم أعلام الفكر في التاريخ العربي الإسلامي، فارسي الأصل، وُلِدَ وتوفِّيَ بمدينة «طوس» بخراسان، أقام في عدة بلدان، عُرِفَ بـ: «حجة الإسلام» لتمكنه من العقيدة الإسلامية ودفاعه المستميت عنها، لُقِّبَ بـ: «الغزالي» نسبة إلى «غزالة» إحدى قرى «طوس»، أو بـ: «الغزَّالي» نسبة إلى أبيه الذي كان يعمل بغزل الصوف.

احتلَّت مسألة العلم مكانًا بارزًا في نظرية المعرفة عنده، فخصَّص لها بعضًا من رسائله، مثل «رسالة العلم» و«عين العلم» و«الرسالة اللدنية» و«منهاج المتعلِّم»، وصدَّر بها جملة من كتبه، أبرزها «إحياء علوم الدين»، إذ جعل العلم أول كتبه الأربعين، ثم بثَّها في جميع مؤلَّفاته، إذ لم تفته الإشارة إلى مسألة العلم حدًا أو تعريفًا أو تصنيفًا، وذكر فضيلة العلم، وفضل العلماء ومراتبهم وآداب صحبتهم والتعلم بين أيديهم، ومراتب المعرفة والتصديق واليقين، إلى ما سوى ذلك من مسائل وأبحاث تتفرَّع عن مسألة العلم أو تتعلق بها نوعًا من التعلق.

كما تحدَّث عن قوى الحواس والعقل والقلب، بصفتها من وسائل تحصيل العلم، ويرى أنَّ تحصيل العلم في القلب يتمُّ بطريقين، الأول هو طريق العلم في الخارج بآلات العلم، أما الثاني فهو طريق تحصيل العلم من الباطن، أي بتفجير ينابيع العلم من أعماق القلب في معرض حديثه عن جنود القلب، الذين هم بمنزلة خدمه وأعوانه، ويقسِّم الجنود جندين، جندًا يرى بالإبصار، وجندًا يُرى بالبصائر، أي جندًا ظاهرًا وجندًا باطنًا، في حين يرى أنَّ الناس يختلفون في حدِّ العقل وحقيقته، كما أشار إلى أنَّ العلم الإنساني يتمُّ تحصيله بطريقين هما التعلُّم الإنساني والتعلُّم الربَّاني.

وهكذا نلحظ أنَّ مفهوم العلم ونظريته حول طرائق تحصيل العلوم، قد أسَّس لأفكاره التعليمية والتربوية ومناهج التعليم، خدمةً للعلوم والمعارف كلَّها.

ـ عبد الكريم بن محمد السمعاني (٥٠٦ ـ ٥٦٢ هـ / ١١١٣ ـ ١١٦٧ م):

نسبه «السمعاني» نسبةً إلى «سمعان» بطن من بطون قبيلة تميم الواسعة الانتشار في المنطقة العربية، وُلِدَ وتوفِّيَ في «مرو» بخراسان، من حُفَّاظ الحديث ومؤرِّخ ورحَّالة، قيل إنَّ له خمسين مصنَّفًا، ولكن

لم يصل منها إلا القليل، ومنها كتاب: «أدب الإملاء والاستملاء» الذي هو مجموعة من الآداب الموجَّهة إلى الأستاذ، والأستاذ المساعد (المستملي أو المعيد)، والكاتب أو الطالب، والذي يُعَدُّ تبويبًا للنظام التربوي السائد في عصره، وقواعد للسلوك الأمثل، وما لا يستغني عنه الأستاذ الألمعي، والطالب الذكي، ويحتاج إليه غيرهما ممَّن يريد معرفة آداب النفس، واستعمالها في الخلوة والمجالس.

تحدَّث الكاتب عن الآداب الشكلية في التربية، ومنها ضرورة أن يعتني الأستاذ بحسن هندامه ومتطيِّبًا، وأن يبدأ بالسلام على من يلقاهم في طريقه إلى الدرس، وأن يمنع من كان جالسًا القيام، وأن يجلس على منصَّة مرتفعة، وعند حديثه عدم رفع صوته إلا بقدر ما يُسمع الحاضرين، وألَّا يتحدَّث إلا من كتابه، وأن يستشهد بأكثر من كتاب، والتنبُّه إلى قدرات الطلاب المتفاوتة على الاستيعاب، والاعتدال في الفترة التدريسية تجنُّبًا للملل والضجر، والسعي لإبقاء الدرس نشطًا بإلقاء الحكايات والنوادر في معرِض الكلام، وعند الانتهاء يسبِّح بحمد ربه ويتوب إليه.

وعلى الطالب أن يصل قبل الوقت المحدَّد للدرس، وأن يراجع ويصحِّح ما كتبه خطًا، ولا مانع من أن يستوضِحَ ما صعب عليه فهمه.

وهكذا نرى أنَّ هذا المنهج بشكلٍ عام هو ما يطبَّق الآن في النظام التربوي المعاصر.

ـ ابن طفيل (٥٠٥ ـ ٥٨١ هـ / ١١١٢ ـ ١١٨٥ م):

وُلِدَ في الأندلس، وتوفِّيَ في مُرَّاكش، قاضٍ وطبيب، قدَّم من خلال قصة «حي بن يقظان» التي أودعها خلاصة أفكاره، مذهبًا طبيعيًا للفلسفة، إضافةً إلى الشائع والمتداول في عصره من علوم وأفكار وفلسفات.

ـ ياقوت الحموي (٥٧٥ ـ ٦٢٦ هـ، ١١٧٩ ـ ١٢٢٩ م):

حظي موضوع العلم والعلماء بأهمية كبيرة في كتابه: «معجم الأدباء»، وأعطى أهمية كبيرة لتعلم اللغة العربية وتعليمها، فالعلم كما يرى مرتبط بالعقل والحياء والطبع والفصاحة والأدب والنحو والأخبار، وهذه الموضوعات تتكامل وتتآزر، لتقدِّم المعرفة الحقيقية والعلم الصحيح.

والأخبار تحتضن العلم، وتقدِّمه لمن يطلبه، والنحو وسيلة مهمة لاستخراج غوامض العلم ومسائله، والعلم هو علم اللغة العربية وآدابها، فيقول: «وحسبك من شرف هذا العلم أنَّ كلَّ علم على الإطلاق مفتقر إلى معرفته، محتاج إلى استعماله في محاورته، فإنَّ العلم إنَّما هو باللسان، فإذا كان اللسان معوجًّا، فمتى يستقيم ما هو به».

ويدعو إلى التخصُّص في دراسة العلم، لأنَّ فروعه وفنونه كثيرة، فمن أراد أن يكون رأسًا في علمه، متفوِّقًا في فنِّه، فلا بدَّ أن يتخصَّص في واحد من العلوم: «والعلم أكثر من أن يُحصى، فخذوا من كلِّ شيءٍ أحسنه».

ويظهر في فكره التربوي ميله نحو العلم وتقديره للمعرفة، ويعقد لذلك فصلًا في كتابه يبرز فيه مكانة العلم وفضل أهله، ويتناول بعض مصطلحاته ومفاهيمه، ويحثُّ على طلبه ونشره ومذاكرة مسائله، ويستشهد على ذلك بالأقوال المأثورة من الصحابة، فيذكر للإمام علي قوله: «كفى بالعلم شرفًا أن يدَّعيه من لا يحسنه، ويفرح إذا نُسِبَ إليه من ليس من أهله، وكفى بالجهل خمولًا أنَّه يتبرَّأ منه من هو فيه، ويغضب إذا نُسِبَ إليه من ليس من أهله».

ـ ابن جماعة (توفِّيَ سنة ٧٧٣ هـ / ١٣٧٢ م):

هو إبراهيم بن عبد الرحيم بن جماعة، حموي الأصل، نشأ بدمشق، وسكن القدس، ووُلِّيَ قضاء الديار المصرية مرارًا، ثم ولِّيَ قضاء دمشق والخطابة

بهـا ومشيخـة الشيـوخ، تنسـب إليـه أعمـالٌ جليلة، وخدمات كثيرة للناس، وهو من بين الفقهاء التربويين الذيـن قدَّمـوا أفكارهـم في نسـقٍ، وبشكل عـام موحَّدٍ وكلِّي تتآلـف فيه العناصر وتتضامـن لتعطي التربية تعريفًـا واضحًا، وأهدافًـا أو مقاصد تنصبُّ على بناء الإنسان السليم، في الأمة القوية، والمجتمع المعافى.

يُعَـدُّ كتابـه «تذكـرة السامـع والمتكلِّـم في آداب العَـالِم والمتعلِّم» حَسَـنَ الجودة في التنظيـم والتبويب والصِياغات، وثمرة من الثمار التربوية، فقد بدأ بآداب المعلـم في نفسه، ثم آدابه مع طلابه، ثم آدابه في درسه. ثمَّ عالج آداب المتعلِّم، بدءًا من مرحلة الطفولة في الكتَّاب والكتاتيـب، ثـم مرحلـة الشبـاب التـي يُعِدُّهـا أفضل مرحلـة لطلب العلم وتحصيله، فيتحـدَّث عن آدابه مع شيخـه، أي معلِّمه، وضرورة طاعتـه وإجلاله واتباع قواعـد سلوكيـة تجاهـه، وآداب الجلوس والسـؤال والإصغـاء والانتباه، ويوصي بضـرورة الانصراف عـن مشاغل الدنيا والقناعة منها بالضروري، واغتنام جميـع الأوقـات طلبًـا لتحصيـل الأسـرع والأفضل، وتعامـل الطلاب فيما بينهم، وضـرورة المحافظة على الكتـب، وغير ذلك كثيرٌ ممَّا يتَّصـل بالعملية التربوية، وما يزال يُطبَّق حتى الآن في المؤسَّسات التعليمية.

ـ ابن خلدون (٧٣٢ ـ ٨٠٨ هـ / ١٣٣٢ ـ ١٤٠٦ م):

مفكِّـر اجتمـاع وتربيـة تونسـي المولـد مصـري الوفـاة، تلقَّـى تعليمًـا متنوِّعًا عنـد أفضـل المعلِّمين في عصـره، وكان علـى معرفـة بمؤلَّفـات كبـار مفكِّـري الإسلام، لهذا تميَّزت نظريته الاجتماعية بعمق الفكرة وموضوعية التحليل والواقعية، وقدَّم فكرة رائدة عن دور التربيـة في تطور المجتمع مفادها أن تقدم المجتمع مرتبـط ارتباطًـا وثيقًا بدرجـة تعليم المجتمـع وتربية أفـراده، ويرى أنَّ عامل التربية بالإمكان أن ينظر إليه كمؤشِّر على مستوى تطور الحضارة في المجتمع.

فالفكرة الرئيسية التي نادى بها في مقدِّمته: «كتاب العِـبَر وديـوان المبتدأ والخـبر في أيام العـرب والعجم والبربـر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر» هي عـن دور التربيـة في تطـوُّر المجتمع، ما قـاده إلى إعادة النظر في محتوى التعليم ومبادئه وطرائقه، وبالمقارنة مـع التقاليد التربوية السائدة، فقـد نهج نهجًا خاصًا باعتبـاره أنَّ التربيـة لا يمكنهـا أن تكـون دينية فقط، بـل عليها إعـداد الأجيـال الناشئـة للحيـاة وتعليمهم العلـوم الطبيعية والإنسانية، ابتداءً بالقراءة والكتابة من خلال حفـظ الأشعار، وبعد أن يتقنـوا هذا التعلم، يصبـح بإمكانهـم دراسة علـم اللغة والشعـر، ثم علم الحساب، أما تعلم القرآن فيجب أن يكون بعد ذلك كله كي يتمكنوا من فهمه.

ودعـا إلى اعتبـار العلـوم الطبيعيـة وعلـم النفس والطب والفلك ودراسة ظواهر الطبيعة الحيَّة يجب أن تشكِّل محتوى التعليم في المراحل اللاحقة.

ووقـف موقفًـا معارضًـا لتعليـم الأطفـال تعليمًـا تقليديًا، معتبرًا أنَّ العمل التعليمي هو فن وخبرة مهنية تراكمـت منـذ أجيالٍ بعيـدة، ويجب أن يلـمَّ بها المعلم، بمـا في ذلك معرفتـه بخصائص نمو الأطفـال ومبادئ التعليـم وطرائقه المناسبـة، مثل التدرج من السهل إلى الصعـب، واستخدام الأمثلة الحسيَّة لتسهيل الانتقال في الإدراك مـن الحسِّي إلى المجرَّد، واستخدام الطريقة الاستقرائيـة، وهـذا من الأمـور التي لا تـزال تناسب وتطبَّق في مدارسنا اليوم.

ودعـا إلى عـدم ممارسـة أيِّ ضغـط أو قسـوة على المتعلمـين، سـواء أكانـت جسديـة أم نفسيـة، فقـد عدَّ العقوبـة والقسـوة ظاهرة تحـطُّ من مكانـة المتعلمين، وهذا ما يؤدي إلى ضررٍ في أخلاقهم وصفاتهم النفسية.

ومِمَّـا اهتـمَّ بـه ابـن خلـدون في مقدمتـه هـو «تعليم الصنائـع»، فالتربيـة في المجتمـع الشرقـي قـد قلَّـت

مـن أهميـة العمل اليـدوي أو المهنـي، ومن ثَـمَّ من قيمة الأشخاص المنتجين، ومن ثم نجد معاناة في نقص شديد في العمالـة الماهـرة في مختلـف التخصصـات، وقد فطن لذلـك، فعقد فصلًا في مقدمته بعنـوان: «إنَّ الأماصر إذا قاربت الخراب انتقصت منها الصنائع»، وخصَّص ستة عشر فصلًا عن الصنائع: علمًا وتعلمًا وأثرًا ونتيجةً.

ـ محمـد الشوكاني (١١٧٣ ـ ١٢٥٠ هـ / ١٧٦٠ ـ ١٨٣٤ م):

مـربٍّ يمني الولادة والوفاة، تـرك كثيرًا من الكتب في مجالات مختلفة، منها كتاب: «أدب الطلب ومنتهى الأرب» المنشور سنة ١٩٧٩، ويتضمَّن كثيرًا من آرائه التربوية.

ـ بطرس البستاني (١٢٣٥ ـ ١٣٠١ هـ / ١٨١٩ ـ ١٨٨٣):

لبناني المولد والوفاة، قدَّم أفكارًا تربوية عصرية، وطبَّقها في مدرسته الوطنية، واهتمَّ بشكلٍ خاص في تربيـة الطفـل والمـرأة لكونهمـا أساس بنـاء المجتمع الصالـح، ودعـا إلى امتـلاك الأمـة العربيـة العلـوم الحديثة.

ـ عبد الرحمـن الكواكبي (١٢٦٦ ـ ١٣٢٠ هـ / ١٨٤٩ ـ ١٩٠٢ م):

وُلِدَ في حلب وتوفِّيَ في القاهرة، عرَّف التربية، وحدَّد أهدافهـا، وشـرح أهميتهـا ومراحلهـا، كمـا بحث في الإدارة التربويـة والتخصُّص في مجال العلوم وتعميم التعليم ومجَّانيته والمناهج وطرائق التدريس والمعلِّم.

ـ طاهر الجزائري (١٢٦٨ ـ ١٣٣٩ هـ / ١٨٥١ ـ ١٩٢٠ م):

مصلح اجتماعـي ومربٍّ، وُلِدَ بدمشـق وتوفِّي فيها، عَمِـلَ على الجمع والتوفيق بـين القديم والحديث، ودعا إلى الاستفـادة من تجـارب الدول المتقدِّمة مـع التمسُّك بالـتراث العربـي الإسلامي، وقدَّم أفـكارًا تربوية، ولا سيمـا في مجـال تقـديم النصائـح فيمـا يخصُّ طرائق التدريـس، كمـا وجَّه بعض النصائح للتلاميـذ، وأدلى بدلوه في موضوع المنهاج الذي يجب أن يدرسه التلاميذ في المدارس، وجاء ذلك في كتابه: «إرشاد الألبَّا إلى طريقة تعليم ألف با»، المنشور سنة ١٩٠٣م، ويُعَدُّ دليلًا للمعلم في طرائق التدريس، وأسلوب التعامل مع التلاميذ، وقد ألَّفـه بعـد مـا زار المدارس، واطَّلع على جهـل المعلمين بأساليب التدريس، ومعاملتهم السيئة للتلاميذ.

ـ محمد ماضي أبو العزائم (١٢٨٦ ـ ١٣٥٦ هـ / ١٨٦٩ ـ ١٩٣٧):

من علماء مصـر التربويين، التربية عنده هي حياة القـرون الأولى بأسلـوب العصـر الحديـث، ومنهـج التربيـة عنـده واضـحٌ، سـهلٌ ميسَّرٌ، يقبـل القاصي والـداني بأسلوب يأخـذ الجميع بسلاسته وعذوبته، وهـي عنـده أيضًا بلـوغ الإنسان درجة مـن الكمالات النفسانيـة اعتقـادًا وخلقًـا وعمـلًا وحـالًا، وسبيـل الإنسان لذلك هو استقامة الطريق.

ـ عبد الحميد بن باديس (١٣٠٦ ـ ١٣٥٦ هـ / ١٨٨٩ ـ ١٩٤٠):

تربوي جزائري المولد والوفاة، أسهم إسهامًا فعالًا في الحركـة التربوية والتعليمية إبان الاحتلال الفرنسي للجزائـر، مـن أجل المحافظـة على الشخصيـة القومية للشعـب الجزائـري، وقـد كانـت حركتـه الـدرع التي وَقَـت الجزائر من خطر الاندمـاج والذوبان في فرنسا، مـع محاولاتهـا العديدة مـن أجل فرض الفرنسة على الجزائريين، كي تسلخهم من عروبتهم وإسلامهم.

ـ ساطع الحصري (١٢٩٧ ـ ١٣٨٨ هـ / ١٨٨٠ ـ ١٩٦٨ م):

مفكِّـر قومي وتربوي، وُلِـدَ بصنعاء وتوفِّيَ بالعراق، ترك كثيرًا من المؤلفات التربوية، منها: آراء وأحاديث في التربية والتعليم، أحاديث في التربية والاجتماع، تقارير عن حالة المعارف في سورية واقتراحات لإصلاحها.

ـ طه حسين (١٣٠٧ ـ ١٣٩٣ هـ / ١٨٨٩ ـ ١٩٧٣ م):

مفكِّر مصري الولادة والوفاة، له آراء تربوية كثيرة في مجال أهداف التربية وعلاقة الدولة بالتعليم، والتعليم الديني، وكثافة الفصول، وتعليم اللغات الأجنبية، والامتحانات، وفي إعداد المعلِّم.

ـ جميل صليبا (١٣٢٠ ـ ١٣٩٦ هـ / ١٩٠٢ ـ ١٩٧٦ م):

مفكِّر ومربٍّ، وُلِدَ في لبنان وتوفِّيَ فيه، شغلَ عدة مناصب تربوية في وزارة المعارف السورية، وفي لبنان، ترك كثيرًا من المؤلفات التربوية، منها: مستقبل التربية في الشرق العربي، مشاهير الرجال في التربية العربية، مشاهير الرجال في التربية العربية الحديثة.

ـ الصروح العمرانية التي أسهمت في ترسيخ الأسس التربوية:

كان من مظاهر الاهتمام بالتربية في تاريخنا العربي والإسلامي هو إنشاء المباني الدراسية، ومن أبرزها:

ـ **الجامع الأموي**: بناه بدمشق الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك، الذي حكم بين سنتي ٨٦ ـ ٩٧ هـ / ٧٠٥ ـ ٧١٥ م، ويُعَدُّ أحد أقدم المؤسسات التربوية في تاريخ الحضارة العربية الإسلامية وأبرزها، متجاوزًا وظيفته الدينية لاحتضانه العلماء والطلبة والإنفاق عليهم.

ـ **بيمارستان الوليد**: البيمارستان هو بيت المرضى باللغة الفارسية، بناه الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك بدمشق أول بيمارستانٍ في الإسلام سنة ٨٨ هـ / ٧٠٦ م، وعيَّن فيه الأطباء، وأجرى عليهم وعلى المرضى الأرزاق، وجعل لكلِّ مقعدٍ خادمًا، ولكلِّ ضريرٍ قائدًا، وسرعان ما عمت أرجاء البلاد، فلا تكاد مدينة تخلو منها، وكانت جامعات طبية تلقى فيها الدروس النظرية والعملية، فأسهمت إسهامًا عظيمًا في تطوير مهنة الطب وتنظيمها وإرساء أسسها العلمية.

ـ **جامع الزيتونة**: يتوسط مدينة تونس، يعود تاريخ تشييده إلى سنة ١١٦ هـ / ٧٣٤ م أيام الوالي الأموي عبيد الله بن الحبحاب، وفيه جرى تدريس العلوم الدينية إضافةً إلى الطب والرياضيات وعلوم اللغة وغيرها، ولكنَّ دوره التعليمي ينحصر اليوم بثلاثة معاهد: أصول الدين، الشريعة، الحضارة، إلا أنَّه بقي معلمًا حضاريًا وصرحًا معماريًا إسلاميًا تونسيًا.

ـ **بيت الحكمة**: أسَّسه في بغداد خامس خلفاء الدولة العباسية هارون الرشيد (١٤٩ ـ ١٩٣ هـ / ٧٦٦ ـ ٨٠٩ م)، الذي حكم بين عامي ١٧٠ ـ ١٩٣ هـ / ٧٨٧ ـ ٨٠٩ م، وازدهر في عصر المأمون سابع الخلفاء العباسيين (١٧٠ ـ ٢١٨ هـ / ٧٨٦ ـ ٨٣٣ م)، الذي حكم بين عامي ١٩٨ ـ ٢١٨ هـ / ٨١٤ ـ ٨٣٣ م)، وكان بمنزلة معهد علمي يضمُّ خزانة كتبٍ زادت على ٣٠٠ ألف كتاب، ومكتبة لنسخ الكتب، ودارًا لترجمتها إلى العربية، وكان لها مديرون ومترجمون ومجلِّدون للكتب، غير أنَّ الغزو المغولي قد أحرقها سنة ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م، ولم يعد لها أيُّ أثر، ولا يُعرف حتَّى مكان وجودها.

وفي وقتنا الحالي أعاد العراقيون تشييده سنة ١٩٩٥ م في جانب الرصافة من بغداد، مؤسسة ذات استقلالٍ مالي وإداري، ويضمُّ ثمانية أقسام: الدراسات الإسلامية، القانونية، السياسية والإستراتيجية، الأديان، الاقتصادية، التاريخية، اللغوية والترجمة، الفلسفية.

ـ **الجامع الكبير**: ويُعرف أيضًا باسم: «الجامع الأموي»، و«المسجد الجامع»، يقع في مدينة قرطبة في الأندلس، إسبانيا اليوم، يُعَدُّ من أهم معالم قرطبة وآثارها الباقية حتى الآن، وواحدًا من أكبر وأضخم العمارات الإسلامية، بُنِيَ في عهد عبد الرحمن الداخل «صقر قريش» سنة ١٦٩ هـ / ٧٨٥ م، واستغرقت المرحلة الأولى منه ثلاثة أعوام، في حين استغرق بناؤه في شكله النهائي نحو قرنين من الزمن، إذ استكمل البناء سنة ٣٧٧ هـ / ٩٨٧ م.

احتلَّ هذا المسجد الجامع مكانة علمية مرموقة، وأصبح جامعة لتدريس العلوم المختلفة، وكان له الأثر الكبير في انتقال العلوم العربية إلى أوروبا، وصار طلاب العلم يفدون إليه من الشرق والغرب، وهم مسلمون ومسيحيون.

لكنَّ سقوط قرطبة سنة ٦٣٣ هـ / ١٢٣٦ م بيد الإسبان، كان بدايةً لمحو كل ما يرتبط بالإسلام بصلة في الأندلس، فتحوَّل هذا المسجد بعد عامين إلى كاتدرائية كريستينا، ولكنَّه ما يزال يحتفظ حتى يومنا الحالي باسمه الأصلي، ويسمِّيه الإسبان «ميزكيتا دي كوردوبا» «LA MEZQUITA CORDOBA»، ومعناها «مسجد قرطبة»، كما يُعرف أيضًا باسم «المسجد ــ الكاتدرائية»، ولا يُنظر إليه باعتباره مسجدًا، وإنما بوصفه أثرًا تاريخيًا وفنيًا على غرار منارة إشبيليا وقصر الحمراء في غرناطة.

ــ **الجامع الأزهر**: بُنِيَ في القاهرة أيام الحاكم جوهر الصقلي سنة ٣٦١ هـ / ٩٧٢ م، بدأ جامعًا تُقام فيه الصلوات، وأصبح جامعة تضمُّ معاهد التدريس والكليات في مختلف فروع المعرفة والاختصاصات، فأسهم إسهامًا كبيرًا في حفظ الثقافة العربية الإسلامية.

ــ **دار العلم**: تأسَّست في القاهرة زمن الحاكم بأمر الله الذي حكم بين سنتي ٣٨٦ ـ ٤١١ هـ / ٩٩٦ ـ ١٠٢١ م، وزُوِّدَتْ بالكتب القيِّمة الكثيرة، وأُنفقت عليها الأموال، وجُلِبَ لها أفضل الدعاة والمدرسين، وقُسِّمت إلى قسم للفقهاء، وآخر لقراءة القرآن الكريم، وقسم لعلوم اللغة العربية، وآخر للأطباء. كما ضمَّت قاعاتٍ للمحاضرات والمناظرات.

ــ **المدرسة المستنصرية**: التي تُعَدُّ أول جامعة في العالم الإسلامي، أنشأها في بغداد الخليفة أبو جعفر المنصور، الذي حكم بين سنتي ٦٢٣ ـ ٦٤٠ هـ / ١٢٢٦ ــ ١٢٤٣ م، وكان ببنائه هذه المدرسة أول من ابتكر فكرة جمع المذاهب الفقهية الأربعة في بناءٍ واحد، وفي جواره بناءٌ خاص لكلٍّ من القرآن الكريم والسنَّة الشريفة والطب ومختلف العلوم. وهذا الأمر هو ما احتذى به حكام البلدان الإسلامية فيما بعد.

ـ ما قبل الختام:

وعلى كثرة مَنْ كتب في شؤون التربية في تاريخنا العربي الإسلامي، وقد اطلعنا على جزءٍ يسير من كتاباتهم، ما يزال الطريق طويلًا لتحقيق كلِّ هذا التراث التربوي ونشره، ونورد بعضًا من المخطوطات التربوية التي كتبها السلف، وهي بانتظار جهود المحقِّقين الأَكْفَاء الذين سيعيدون إحياءَها بجهودهم ودعم المؤسسات المعنية:

ـ آداب المتعلم لمؤلفٍ مجهول ودون تاريخ.

ـ آداب المتعلمين لمؤلفٍ مجهول ودون تاريخ.

ـ آداب المؤلفين والمتعلمين لمؤلفٍ مجهول، ١٢٣٥ هـ.

ـ تحرير المقال في آداب وأحكام وفوائد يحتاج إليها مؤدبة الأطفال، أحمد الهيتمي، ٩٧٤ هـ / ١٥٦٧ م.

ـ تعليم المتعلِّم، محرم بن محمد، ١٠١٠ هـ / ١٦٠١ م.

ــ الدر النضيد في آداب المفيد والمستفيد، محمد بن محمد، ٩٨٤ هـ / ١٥٧٧ م.

ــ رسالة السيد الشريف في بيان مقدمة الشروع في العِلم، علي بن محمد، ٨١٦ هـ / ١٤١٣ م.

ــ رسالة عن الكتَّاب أيام مدحت باشا، دون مؤلف ودون تاريخ.

ـ رسالة في آداب المطالعة، يحيى، ١٢٠٣ هـ.

ـ رسالة في التربية، توفيق غريب، دون تاريخ.

ــ رسالة في تعليم ملوك اليونان لأولادهم الحكمة والفلسفة والآداب، حُنين بن إسحق، ٢٦٠ هـ / ٨٧٣ م.

ــ رسالة القيصري في بيان مقدمة الشروع بالعلم، إبراهيم القيصري، ١٢٥٣ هـ / ١٨٣٧ م.

ـ شرح تعليم المتعلِّم للزرنوجي، إبراهيم بن إسماعيل، ٩٩٦ هـ / ١٥٨٧ م.

ـ العالم والمتعلم في العقائد والنصائح، النعمان بن ثابت، ١٥٠ هـ / ٧٦٧ م.

ـ مقالات في التربية والتعليم، ماري عجمي، ١٣٨٥ هـ / ١٩٦٦ م.

ـ مقدمة العلوم، مجهولة المؤلف، ١٢٣٣ هـ.

ـ منهاج المتعلم، أبو حامد الغزَّاليّ، ٥٠٥ هـ / ١١١١ م.

يُشار إلى أنَّ كلَّ هذه المخطوطات هي من محفوظات مكتبة الأسد الوطنية بدمشق.

ـ **ختامًا نقول:** نرجو أن تكون هذه المقالة، التي أشارت إلى بعض يسير ممَّا احتواه تراثنا العريق في مجال التربية العربية الإسلامية، في زمنه الممتد الطويل، فكرًا وممارسة وأعلامًا وتنوُّع أماكن، قد سدَّت حاجة فكرية عند أبناء اليوم، عمَّا كتبه أبناء الأمس، واتَّخذوه نهجًا، وطبَّقوه أسلوبًا، لتكوين أجيال واعية بكلِّ ما يدور حولها، ومتعلِّمة لكلِّ ما يساعدهم في مسيرة حياتهم.

ـ المراجع:

ـ سلسلة كتب عنوانها: موسوعة التربية والتعليم الإسلامية، كتبها الدكتور عبد الأمير شمس الدين، أستاذ التربية في الجامعة اللبنانية ببيروت، نُشرت تباعًا في عدة دور نشر بين عامي ١٩٨٠ ـ ٢٠٠٠.

ـ الفكر التربوي العربي الإسلامي الأصول والمبادئ، إعداد ونشر المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس ١٩٨٧.

ـ الشيخ عبد الحميد بن باديس فلسفته وجهوده في التربية والتعليم، زكي رابح، الحركة الوطنية للنشر والتوزيع بالجزائر، ١٩٧٤.

ـ منهج التربية عند الإمام أبي العزائم، محمد حمودة، دار المدينة المنورة للنشر بالقاهرة، ١٩٨٩.

ـ الجوانب التربوية في معجم الأدباء لياقوت الحموي، محمد البحتري، دار البشائر بدمشق ٢٠٠١.

ـ المعرفة عند الغزَّاليّ، حسن بزون، منشورات مؤسسة الانتشار العربي ببيروت، ١٩٩٧.

ـ فكر طه حسين التربوي بين النظرية والتطبيق، مصطفى رجب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٥.

ـ الإمام الشوكاني حياته وفكره، عبد الغني الشرجي، مؤسسة الرسالة ببيروت، ١٩٨٨.

ـ الفكر التربوي عند الكِندي، محمود عبد اللطيف، اتحاد الكتَّاب العرب بدمشق، ٢٠١٢.

ـ الفكر التربوي عند الفارابي، محمود عبد اللطيف، الهيئة العامة السورية للكتاب، ٢٠٠٧.

ـ فهرس المخطوطات العربية المحفوظة في مكتبة الأسد الوطنية، المخطوطات العربية، متفرِّقات، إعداد ونشر مكتبة الأسد الوطنية بدمشق، ٢٠٢١.

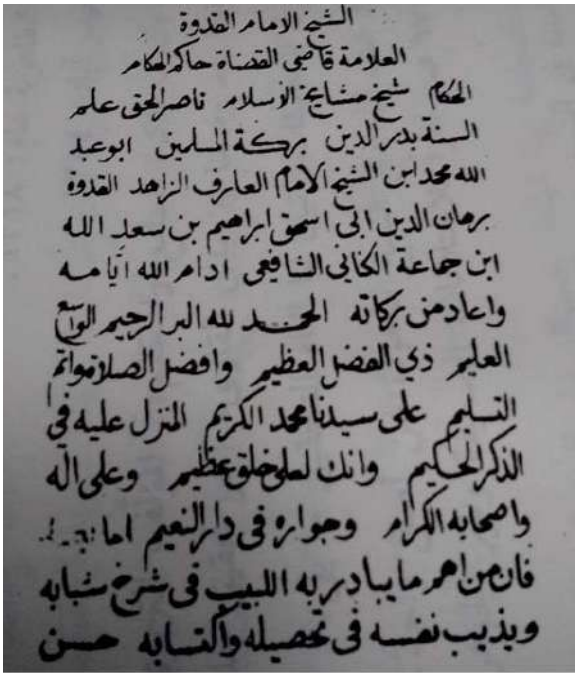
الشيخ الامام القدوة
العلامة قاضي القضاة حاكم الحكام
شيخ مشايخ الاسلام ناصر الحق علم
السنة بدر الدين بركة السالكين ابو عبد
الله محمد ابن الشيخ الامام العارف الزاهد القدوة
برهان الدين ابي اسحق ابراهيم بن سعد الله
ابن جماعة الكناني الشافعي ادام الله ايامه
واعاد من بركاته الحمد لله البر الرحيم الواسع
العليم ذي الفضل العظيم وافضل الصلوات
التسليم على سيدنا محمد الكريم المنزل عليه في
الذكر الحكيم وانك لعلى خلق عظيم وعلى آله
واصحابه الكرام وجواره في دار النعيم اما بعد
فان من اهم ما يبادر به اللبيب في شرخ شبابه
ويذيب نفسه في تحصيله واكتسابه حسن

الصفحة الأولى من مخطوط «ابن جماعة»: تذكرة السامع والمتكلِّم في آداب العالم والمتعلِّم.

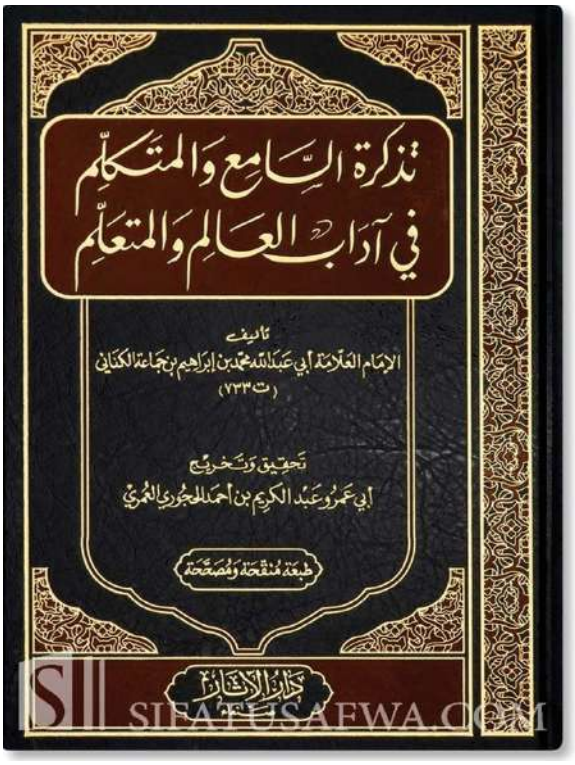

تذكرة السامع والمتكلم محقَّقًا.

مخطوط «إحياء علوم الدين» للغزَّاليّ.

إحياء علوم الدين محقَّقًا.

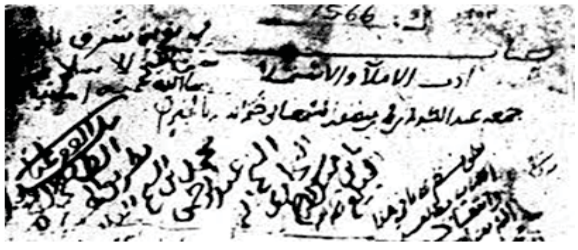

مخطوط «أدب الإملاء والاستملاء» للسمعاني.

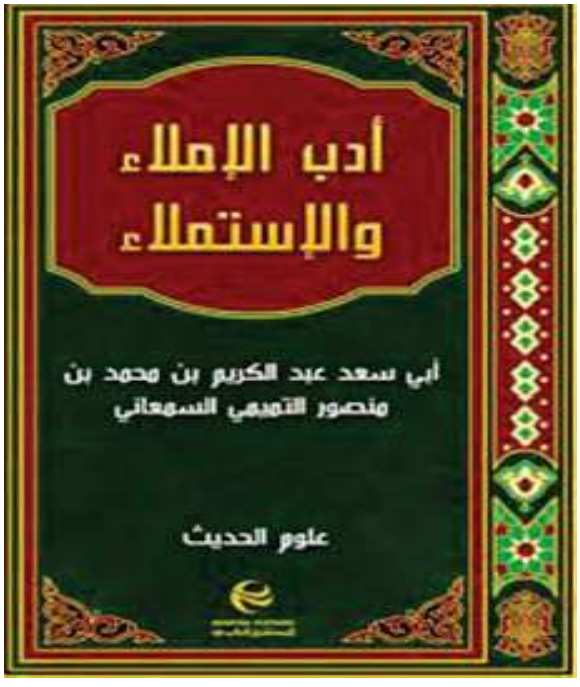

«أدب الإملاء والاستملاء» محقَّقًا.

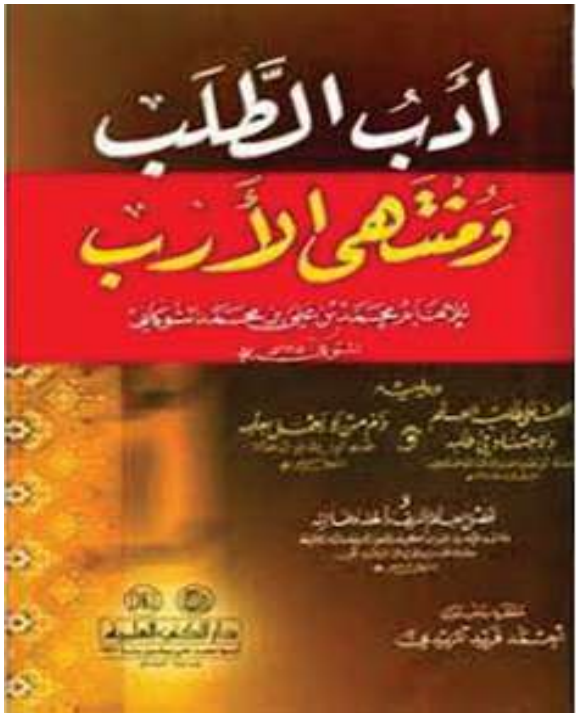

«أدب الطلب ومنتهى الأرب» للشوكاني محقَّقًا.

معجم الأدباء لياقوتٍ الحموي محقَّقًا.

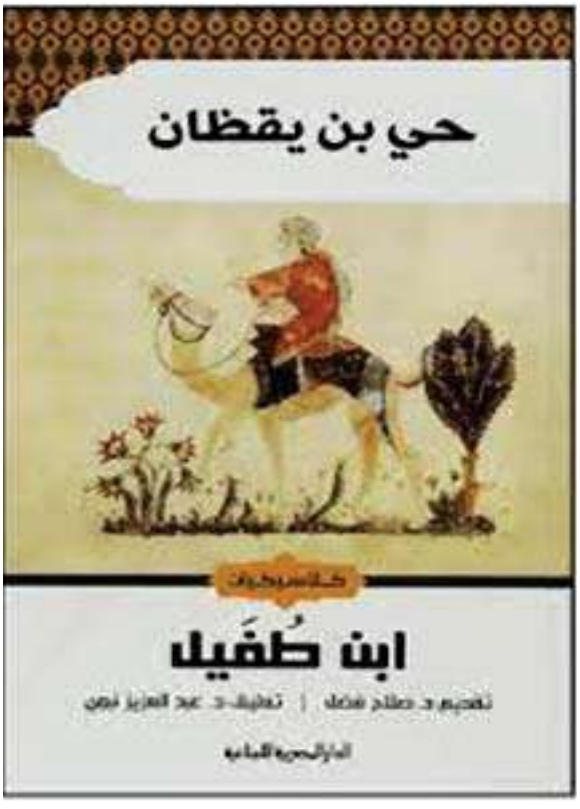

«حي بن يقظان» لابن طفيل محققًا.

صفحة من مخطوط مقدمة ابن خلدون.

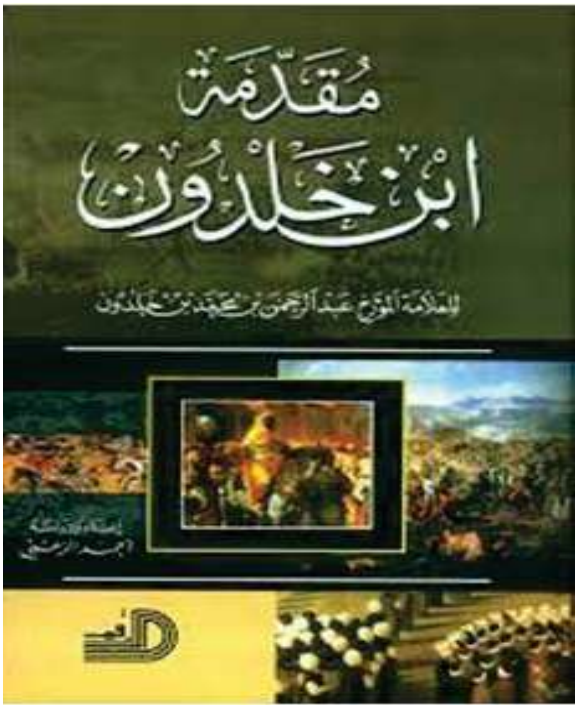

كتاب مقدمة ابن خلدون محقَّقًا.

من كتب طه حسين.

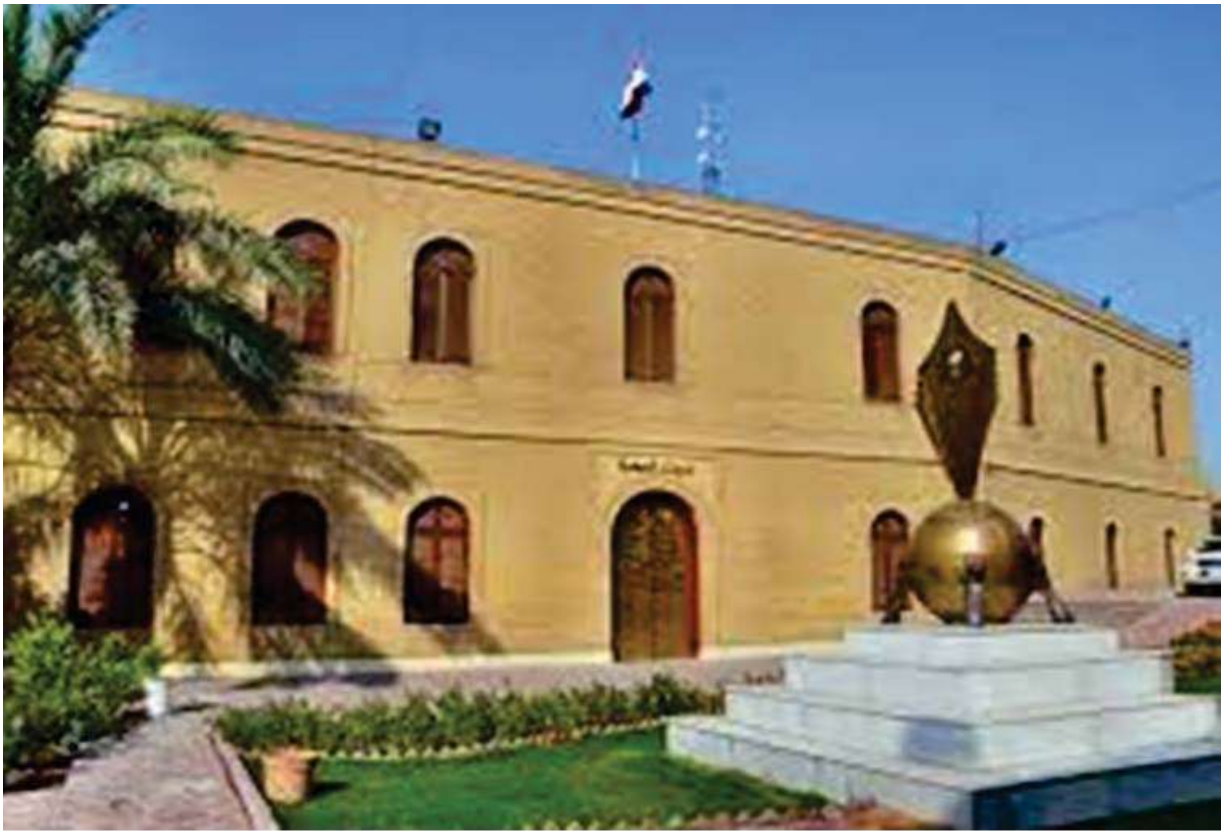

بيت الحكمة الحالي في بغداد.

شكري فيصل

المجمعيُّ المحقِّقُ، والأستاذُ الجامعيُّ المرموق

د.محمّد عطا موعد*

ولد الأستاذ الدكتور شكري بن عمر فيصل في مدينة دمشق سنة ١٩١٨م، ودرج في (حيّ العقيبة) أحد أحياء دمشق القديمة.

وحيّ العُقيبة كان من أحياء الشام التي يُشار إليها بالبنان في تحصيل العلم، فقد استقرّ به غير عالم، ويأتي في طليعتهم الإمام أبو عمرو الأوزاعي (ت ١٥٧هـ)، وإليه لمّا تزل تُسند رواية العلم إلى يومنا هذا.

وممن طاب له المُقام في هذا الحيّ خاله العلامة الفقيه المحدث الشيخ محمود بن أحمد بن ياسين الذي كانت له حظوة لدى الشيخ بدر الدين الحسني، وقد ألفى فيه خاله حبّ العلم، فمنحه من مفاتحه الأولى ما جعله نهماً إليه محبّاً، ولم يلبث الشيخ محمود أن كلّفه صنع فهارس تفصيلية للمجلات والجرائد التي كانت تنتهي إليه.

وإلى هذا يُلمح الدكتور شكري فيصل فيقول: «في بيت خالي الشيخ محمود ياسين كانت نشأتي، وعلى يديه كانت تربيتي، وفي مجاله كان تفتحي، وفي مكتبته كانت مطالعاتي».

وكان خاله معجباً به، فساق في كتابه (الرحلة إلى المدينة المنورة) « أنّ ابنَ أختي السيد شكري فيصل فتًى لا كالفتيان، وشابٌّ بزَّ الأقران، يتوقّد ذكاء، ويشعّ ظَرْفاً ولُطفاً. درس العلومَ الأدبية، فعُدَّ في مهرة نجبائها، وحذقَ الفنون العصرية، فكان من نبغاء طلابها، له براعةٌ في الكتابة ساحرةٌ، وأسلوبٌ سهلٌ ممتنع. وهو بَعدَ أنْ أحرز الشهادة الثانوية نجمٌ يتألّقُ في سماء كلية الآداب المصرية، وكوكبٌ يلمعُ في كلية الحقوق السّورية... ».

* أُستاذ النَّحو والصَّرف في قسم اللُّغة العربيَّة وآدابها في جامعة دمشق.

على أنّ دراسته الأكاديمية الأولى أبصرت النور في مدرستي التهذيب الإسلامي، وأنموذج البحصة، ثم انتقل إلى مكتب عنبر.

وتتلمذ في هذه المرحلة على كلٍّ مِنَ الأشياخ: زين العابدين التونسي، وأبو الخير القواس، ومحمد البزم، ومحمد سليم الجندي، وعبد القادر المبارك.

حصل على شهادة الدراسة الثانوية العلمية سنة ١٩٣٦، ثم شهادة الدراسة الفلسفية سنة ١٩٣٨م.

بدأ تعليمه الجامعي سنة ١٩٣٨م فسافر إلى القاهرة، ودرس اللغة العربيّة في جامعة فؤاد الأول، وتتلمذ على طه حسين وأحمد أمين وعبد الحميد العبادي وأمين الخولي وعبد الوهاب عزام وإبراهيم مصطفى وزكي محمد حسن ومصطفى عامر وإبراهيم مدكور وسليمان حزين وسواهم، وكان ممن شاركه التلمذة على هؤلاء الأعلام سهير القلماوي وعائشة عبد الرحمن وشوقي ضيف وغيرهم، وتخرّج فيها سنة ١٩٤٢م بتقدير ممتاز، وكان الأول على دفعته، ثم قفل عائداً إلى دمشق، فدرّس في عدد من مدارسها كالمعهد العربي، ودوحة الأدب، والثانوية الشرعية، وثانوية السعادة.

وحبّه للعلم جعله ينتسب إلى كليّة الحقوق بالجامعة السورية، فأطاق نيل إجازة الحقوق سنة ١٩٤٦م.

وفي العام نفسه أوفد إلى القاهرة، فنال شهادة الماجستير في الآداب من جامعة القاهرة بدرجة جيد جداً سنة ١٩٤٨م، وعنوانها: مناهج الدراسة الأدبية عرض ونقد واقتراح، وقد طبعت بالقاهرة سنة ١٩٥٢م، وفي سنة ١٩٤٩م نال دبلوم معهد اللهجات العربية، قسم اللغات الشرقية، وهو معادل الماجستير في ذلك الوقت، ثم نال سنة ١٩٥١ شهادة الدكتوراه بدرجة جيد جدّاً، وعنوانها: المجتمعات الإسلامية في القرن الأول وتطورها اللغوي والأدبي، وأطاق في أثنائها أن يعمل ملحقاً ثقافياً في جامعة الدول العربيّة.

ولدى عودته إلى الشام بعد حصوله على المؤهل العلمي عُيّن عضواً في لجنة تخطيط التعليم ومراقبة الكتب، ثم انتقل إلى جامعة دمشق سنة ١٩٥٢م فعيّن فيها، ورقّي إلى درجة الأستاذيّة سنة ١٩٥٦م.

درّس الأدب والنقد والنحو والبلاغة في عدد من الجامعات، منها: دمشق وبيروت وعمّان واليرموك وطرابلس والجزائر وجدة ومراكش وفاس والرياض والمدينة المنورة.

توفي الدكتور شكري فيصل يوم السبت في ١٦ ذي القَعْدة ١٤٠٥هـ الموافق ٣ آب ١٩٨٥م في جنيف، ودفن بالبقيع في المدينة المنورة.

الدكتور شكري فيصل المجمعي:

انتُخب الدكتور شكري فيصل عضوًا عاملًا في المجمع العلمي العربي بدمشق في ١٤ / ١ / ١٩٦١م خلفًا للأستاذ خليل مردم بك، وأُقيم حفل استقباله في الأول من شهر شباط ١٩٦٢م، وانتُخب أمينًا للمجمع في ٢٠ / ١٢ / ١٩٧١م. ولما تولّى أمانة المجمع لم يكن يترك لأحد من الموظفين وقت فراغ حتى في غيابه؛ فكان إذا سافر ترك لكل موظف ورقة صغيرة مملوءة بقائمة أعمال لا ينتهي من إنجازها إلا حين عودته من سفره، فيطالبه بها.

عُين عضوًا في (لجنة المخطوطات وإحياء التراث) سنة ١٩٧٥م، و(لجنة ألفاظ الحضارة) سنة ١٩٧٧م، و(لجنة اللغة العربية والأصول) سنة ١٩٧٧م، و(لجنة مخطوطات دار الكتب الظاهرية) سنة ١٩٧٩م، و(لجنة المجلة والمطبوعات) سنة ١٩٨٠م.

كلَّفه المجمعُ الإشرافَ على التحرير العلمي والإنتاج الفكري لمجلة المجمع سنة ١٩٧٩م، وكلَّفه أيضًا الإشراف على تحقيق (موسوعة تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر)، وحقَّق بعض أجزائها. وألقى

بحوثًـا عديدة في نـدوات اتحـاد المجامع العربية.

ونشـر في (مجلة المجمع) ٤١ مقالًا في المـدة (١٩٥٢ – ١٩٨٠م) ضمَّنها بحوثه وكلماتـه وتقاريره وتراجمـه وتعريفاته لبعض الكتب الواردة إلى المجمع.

فمـن بحوثـه: (نـثر شوقـي)، و(المصطلـح المعـرب وتدريـس العلـوم بالعربية)، و(ثغور على الخريطة اللغوية العربيـة)، و(اللغـة العربيـة خـلال ربع قرن).

ومن تراجمه: (ابن جدار)، و(محمد كـرد علي مـن خلال المقتبس)، و(محمد جميـل بيهـم ومجمـع اللغـة العربيـة)، و(فقيد المجمع شفيق جبري)، و(مجمعي افتقدناه: ميشيل حنا الخوري).

ومن تعريفه للكتب: (مقدمة المرزوقي في شرحـه لحماسة أبي تمام)، و(النبوغ المغربـي في الأدب العربـي)، و(تهذيـب الأخـلاق لابـن مسكويـه)، و(خطـط الشـام)، و(الدعائـم الخلقيـة للقوانـين الشرعيـة)، و(دلائل النظـام)، و(كلمات وأحاديـث)، و(نظام الحكـم في الشريعة والتاريخ)، و(ولَّادة وأثرها في حياة ابن زيدون).

وصـدر للدكتور شكـري فيصل ضمـن مطبوعات المجمع:

خريدة القصر وجريدة العصر للعماد الأصفهاني – قسم شعراء الشام، ج١، ١٩٥٥م.

خريدة القصر وجريدة العصر للعماد الأصفهاني – قسم شعراء الشام، ج٢، ١٩٥٩م.

خريدة القصر وجريدة العصر للعماد الأصفهاني – قسم شعراء الشام، ج٣، ١٩٦٤م.

خريدة القصر وجريدة العصر للعماد الأصفهاني – قسم شعراء الشام، ج٤، ١٩٦٨م.

تاريـخ مدينـة دمشـق لابـن عساكـر – المجلد ٣١، ١٩٧٧م.

تاريـخ مدينـة دمشـق لابـن عساكـر – المجلـد ٣٣ (بالمشاركة)، ١٩٨١م.

تاريـخ مدينـة دمشـق لابـن عساكـر – المجلـد ٣٢ (بالمشاركة)، ١٩٨٢م.

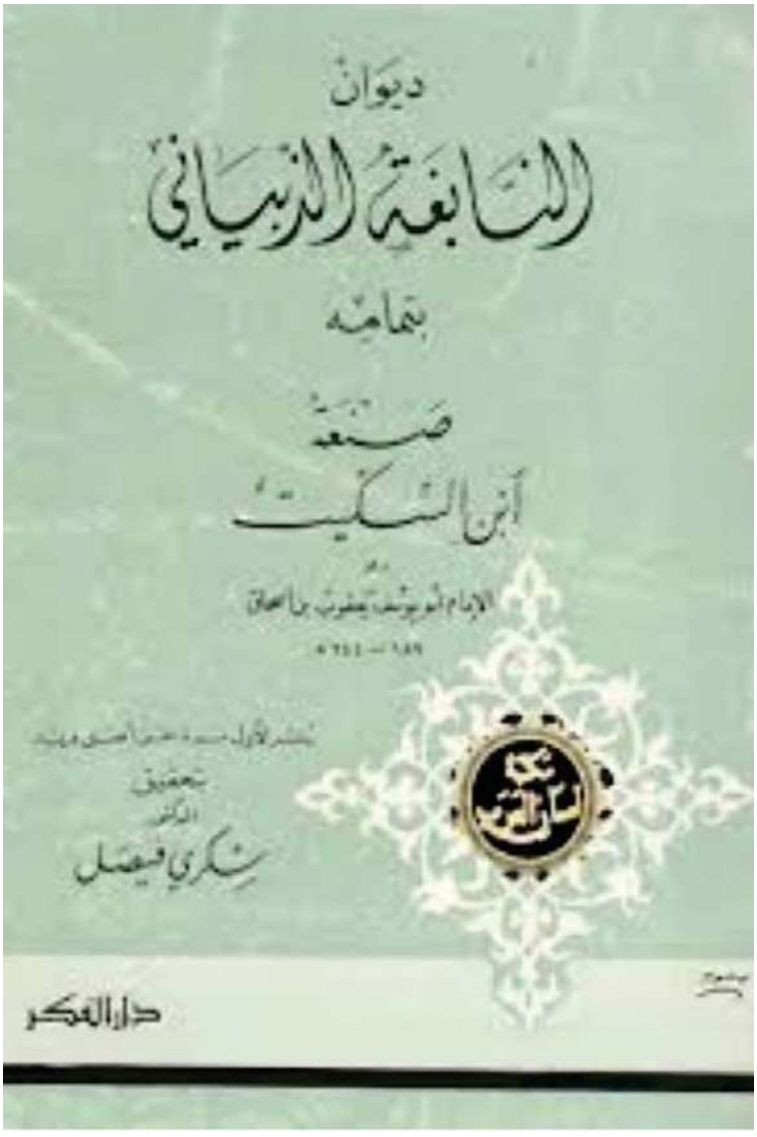

انتُخب الدكتور شكري فيصل عضوًا مراسلًا في مجمع اللغة العربية في القاهرة وفي المجمع العراقي، وعضوًا مؤازرًا في مجمع الأردن، وعضوًا في المجمع الملكي الأردني لبحوث الحضارة الإسلامية، وفي بيت الحكمة في تونس، وفي المجمع الهندي العربي.

مؤلفاته:

أولًا: الكتب المؤلَّفة والمحققة:

الزاد من الأدب العربي (كتاب مدرسي بالمشاركة)، مكتبة عرفة، دمشق، ١٩٤٦م.

المجتمعات الإسلامية في القرن الأول: نشأتها ومقوماتها وتطورها اللغوي والأدبي (رسالته الأصلية لنيل درجة الدكتوراه)، القاهرة، ١٩٥٢م.

حركة الفتح الإسلامي في القرن الأول: دراسة تمهيدية لنشأة المجتمعات الإسلامية، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٥٢م، مكتبة المثنى، بغداد، ١٩٥٢م، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٥٢م، ط٣، ١٩٧٤م، ط٥، ١٩٨٠م.

مقدمة المرزوقي في شرحه لحماسة أبي تمام (تحقيق)، ١٩٥٢م.

نثر شوقي (بحث)، ١٩٥٨م.

تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام: من امرئ القيس إلى ابن أبي ربيعة، مطبعة جامعة دمشق، ط١، ١٩٥٩م، ط٢، ١٩٦٤م، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٦٩م.

الشاعر القروي (دراسة)، ١٩٥٩م.

الصحافة الأدبية: وجهة جديدة في دراسة الأدب المعاصر وتاريخه، معهد الدراسات العربية العالية، القاهرة، ١٩٦٠م.

مناهج الدراسة الأدبية في الأدب العربي، المكتبة العربية، دمشق، ١٩٦٥م، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٧٣م.

أبو العتاهية: أشعاره وأخباره، مطبعة جامعة دمشق، ١٩٦٥م.

ديوان النابغة الذبياني لابن السكيت (تحقيق)، دار الفكر، دمشق، ط١، ١٩٦٨م، دار الفكر الإسلامي الحديث، ٢٠٠١م.

تاريخ مدينة دمشق (تحقيق)، المجلد ٣١، ١٩٧٧م، المجلد ٣٢، ١٩٨٢، المجلد ٣٣، ١٩٨١م.

الوافي بالوفيات للصفدي–الجزء ١١ (تحقيق)، منشورات المعهد الألماني للأبحاث، ١٩٨١م.

الحركة اللغوية في الوطن العربي (١٩١٨ – ١٩٧٥م): أدلة بكتبها وأبحاثها ودراساتها، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق، ط١، ١٩٩٢م.

ثانيًا: المحاضرات:

ألقى الدكتور شكري فيصل محاضرات في عدد من المهرجانات والاحتفالات والمؤتمرات الأدبية والفكرية؛ منها: مهرجان الكواكبي، ومهرجان الشاعر القروي، ومهرجان ابن عساكر، والملتقى السادس عشر للفكر الإسلامي في الجزائر، وندوة ابن عربي في بلنسية.

ثالثًا: المقالات:

نشر الدكتور شكري فيصل أكثر من ١٠٠ مقال في (مجلة الآداب)، و(مجلة الأديب)، و(مجلة الأقلام)، و(مجلة البيان–الكويتية)، و(مجلة التراث العربي)، و(مجلة الثقافة)، و(مجلة الرسالة)، و(مجلة العرب)، و(مجلة العربي)، و(مجلة الفكر)، و(مجلة المعرفة)، إضافة إلى ما نشره في (مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق).

رابعًا: نشاطات أخرى:

شارك الدكتور شكري فيصل في وضع مشروع (وثيقة حقوق الإنسان في الإسلام) المؤلف من ١٢٥ مادة والمقدَّم إلى منظمة المؤتمر الإسلامي.

وأجرى مراجعة لغوية لمعجم مصطلحات العلم والتكنولوجيا الذي أصدره معهد الإنماء العربي في بيروت سنة ١٩٨٢م.

منهجه في تحقيق مخطوطات التراث العربي:

يسوق الدكتور شكري فيصل في مقدمة الجزء الثالث من الخريدة في نظرته إلى تحقيق نصوص التراث ما نصّه:

«فقد كان إخراجُ هذا الجزء على هذا النحو مصحوباً بهذه التمهيدات التي تبشّر به، والجداول التي تُيسِّر الإفادةَ منه، والتعليقات والهوامش التي تنيرُ جانباً منه، أو تثير أمراً مشكلاً فيه = أحدَ طريقين يذهبُ فيهما العاملون في هذا التراث، يقابله هذا الطريقُ الآخر، الذي يرى أنْ يُقتصرَ على إخراج النص مصحَّحاً، مجرّدًا من كلِّ هذه المَلاحظ، خلواً من كلِّ هذه الهوامش والتعليقات والتمهيدات، وهو ما دعا إليه في المدّة الأخيرة كثرة من المحققين، وأخذوا به، وجهدوا في إشاعته ومتابعته، وحرصوا على أن يكونَ وحدَه طريقَ التراث إلى الظهور. ولقد ارتضيتُ الطريقَ الأول الذي سلكته، إيماناً منّي بجدواه، واطمئناناً إلى عائدته على الفكر العربي المعاصر، الذي يحاولُ أن يكشف ذاته، وأن يدرسَ تاريخه، في النطاق الفني، وفي النطاق الاجتماعي، في سير الحياة الأدبية بوجدان الأمة، وفي سير الحياة العامة بأحداثها وأقدارها. وبين هذين الاتجاهين يدورُ شيء من حوار، وطرف من حديث، ويتجاوز الأمرُ أحياناً الحديثَ والحوارَ إلى شيءٍ من النقاش، وما يجرُّ إليه النقاشُ من نقدٍ أو حُكم أو تقييم.

مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق

تاريخ

مدينة دمشق

حماها الله

وذكر فضلها وتسمية من حلها من الأماثل أو اجتاز بنواحيها من وارديها واهلها

تصنيف

الامام العالم الحافظ أبي القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله الشافعي المعروف بابن عساكر

٤٩٩ - ٥٧١ هـ

عبادة بن أوفى - عبد الله بن ثوب

تحقيق

الدكتور شكري فيصل

رياض عبد الحميد مراد

روحية النحاس

ولعلّي كنتُ استمعتُ إلى بعض النقدات والإشارات حين أخرجتُ الجزء الأول والثاني، وربّما كنتُ أشيرُ إليها، من غير قصد مني إلى ذلك، في طرف مما قلته في مقدمة الجزء الثاني حين تحدّثتُ عن تجنُّب الجهد، وإيثار العافية، في نشر تراثنا القديم.

والحق أنه كان في نفسي منذُ حين، من أمر تفضيل واحد من هذين الاتجاهين أو تغليبه، شيء لا أكادُ أنتهي فيه إلى رأي...

وقد ظللتُ أراودُه وأحاورُه، لا أكشفه ولا أسرّه، ولا أبينُ عنه ولا أسكتُ عليه...

حتى إذا كانت الخريدة في جزأيها الأولَيْن، بدا لي في هذا الاتجاه رأي، لم أتردد في الأخذ به، وفي الاستجابة إليه، ثم استحكم هذا الرأيُ مع الممارسة المتصلة، والنظر في التراث المنشور...

فلمّا كانت تجربةُ هذا الجزء الثالث من الخريدة أضحى من واجبي أن أقول، في غير ما تردد: إنّ كثرةً من تراثنا الذي نخرجه في حاجةٍ إلى أن تتظاهرَ عليه هذه الأعمالُ المختلفة، من التعليقات والتمهيدات والجداول والهوامش والفهارس، بل لعلّه في حاجةٍ إلى أن يُثْقَل بذلك، حتى يأتيَ عملُنا كاملاً، أعني حتى يؤدّي عملنا غايتَه الأصيلةَ من نشر النصوص، وتمهيدِ السبيل لدراستها.

إنّ الذين يدعون إلى الاكتفاء بتقديم نصٍّ صحيح إلى القارىء العربي، يثيرون الجدلَ حول طائفةٍ من النقاط... حول إثبات الخلافات بين النسخ أو إغفالها، وحول ترجمة الأعلام أو إهمالها، وحولَ الإشارة إلى بعض الأحداث أو السكوت عنها، وحولَ شرحِ بعضِ الأبيات أو تجاوز شرحها... وهم يؤثرون أن يتخلّوْا عن ذلك، مكتفينَ بما يسمونه النصّ الصحيح؛ ولكنْ من المؤكّد أن هذه الأشياء كلَّها هي الطريقُ إلى سلامة النص، إلى استبانة هذه السلامة، وإلى تأكيدِها، وإلى معرفتها، وإلى الاطمئنان إليها... ثم هي الطريقُ إلى تيسير الإفادة من النصّ، حتى لا تكونَ قاصرةً على القلّة القليلة من العلماء، وإنّما تتجاوزهم إلى الكثرة الكاثرة من العلماء والباحثين، والدارسينَ الذين يقفون اليوم على عتبة الحياة العلمية، وينشدون الوسائل لاجتيازها.

إن محورَ المناقشة في هذا الموضوع يدورُ حول الجواب عن السؤال التالي : لِمَنْ نقدِّمُ هذا التراثَ الذي ننشرهُ؟ أنحنُ نقدّمُهُ للمتخصصين المتعمّقين وحسبُ، أم نحن نقدّمه للدارسين بوجه عام، في المستويات المختلفة التي يقفون عليها؟

الواقع أننا، في هذه المدّة من تاريخنا الأدبي خاصة، إنّما نقدّم هذا التراث للدارسين جميعاً، نطلعهم عليه، ونعرّفهم به، ونضعُه بين أيديهم، ليكونَ زادَهم في المطالعةِ والتثقُّف والمعاناة، وما ينبني على ذلك بعد، من دراسةٍ أو تقييم أو استنتاج، أو استكمالٍ لمناحي التأريخ الأدبي، أو سدّ لبعض الثغرات فيه.

هذا فضلاً عن أنَّ الزعم بأن المختصين في غير حاجةٍ إلى هذه التعليقات زعمٌ خاطىء.. فخدمةُ النصّ تجعل صاحبه الذي عُنِيَ بإخراجه أقدرَ في كثير من المرات، على أن يكشفَ بعضَ جوانبه، وأن يجلِّيَه ببعضِ ملاحظاته، وكلُّنا – في أحيان كثيرة – عالةٌ على المحققين في النصوص التي يعملون فيها، نستفيدُ مما ينتهون إليه، ونُشارِكُ فيما أتيحَ لهم أن يطّلعوا عليه.

من أجلِ هذا لا يبدو أن من الخير أن نكره العملَ في إخـراج النصوص علـى أنْ يتّخذَ طريقاً واحداً لا يجـاوِزُه، هو هذا الطريقُ الذي يؤثر إخراج التراث مجـرّداً من كل هذه الأعمـال الأساسية في الهوامش والتعليقات والمقارنات والملاحظات.

فهـذه المقارنـاتُ التـي تـردُّ بعضَ الروايـات إلى أصولهـا، وتنبّـه إلى مـا يكـون مـن تداخلها أو تضاربها؛ وهذه التعليقـاتُ التي تقفُ عند الأسماء في تشابكهـا واختلافها، وتوضّحُ ما يكونُ من خطأ نسبتها أو صوابها؛ وهذه الهوامشُ التي تشيرُ إلى تمازج القصائد واضطرابهـا، وتتمهّل عند إيضاح بعضِ أبياتها، وتثبت ما تجـاوزه المؤلِّفُ، أو تشيرُ إلى مـا أهملـه –كلُّها عملٌ أساسـيٌّ في فهم النص– وهـي لذلك عمـل أساسيٌّ مـن واجـب المحقّق حتى يستقيـمَ لـه التحقيقُ، وحتـى يستقيمَ لنـا نحنُ أن نفيدَ من عمله في ذلك، فنشارِكَه جهده، ننتفع بالذي لا نعْرِفُ، ونؤكّـد ما نعرِف، ونحاوِلُ أن نحلَّ العُقَدَ التي استوقفته.

أمّـا أن نـتركَ ذلـك في مكانه ومناسبتـه، آخذينَ بمبدأ الاقتصار على إخراجِ النصِّ مجرّداً، مهملين كلَّ إثـارة يبعثُهـا، أو مشكلـةٍ يطرحُهـا، أو سؤالٍ يوحي به، أو موقف يدعو إلى معالجته= فأمرٌ يبدو أنّـه مخالفةٌ لطبيعةِ المرحلةِ التي نمرُّ بها، وتحريفٌ لطبيعة التحقيق العلمي الذي ندعو إليه.

فأمّا أنـه مخالفةٌ لطبيعة المرحلـة التي نمرُّ بها، فذلك لأنَّ هذه المرحلة تقتضينا أن نضعَ هذا التراث مجلوّاً، ومجرّداً، مُيسَّراً له كلُّ سبيلٍ إلى الفهم، بين يـدي الجيل الجديـد، الذي يستلم مفاتيـحَ الدراسة الأدبية، وتتفتح له ميادينها، وتتجه إليها جهوده في طريقه إلى التخصص بها والاقتصار عليها.

والذيـن يرقبـون حركـة تراثنـا القـديم، نشراً ودراسـة، يلمحـون أنَّ هنالك –لا شـكّ – شيئاً من تخلّـفٍ عـن معانـاة النصوص الأدبيـة، وقعودٍ عن ممارستهـا، ورغبـةٍ عـن مشقاتهـا؛ وأنَّ هناك – لا شـكّ أيضاً – شيئاً من إقبالٍ على الدراسات الأدبية النظرية، ورغبـةٍ فيها، وحرصٍ على تعجّل الأحكام العامة حولها.

وهنـاك نوعٌ من الانصـراف إلى واحدٍ من هذين الشقين؛ فالذين يُعْنَوْن بالنصوص إخراجاً ونشراً – أو كـثرة منهـم – لا يتفرّغـون للدراسـة الأدبية، والذين يقصـرون جهودهم علـى الدراسة الأدبية، يتجـاوزون المراحـلَ التـي لَم تُنْشَـرْ نصوصُهـا، والشعـراء والأدبـاء الذيـن لم تتـح لدواوينهـم أو آثارهم فرصة جلائها وعرضها.

ومـن هنـا كان مـن الخـير لمصلحـة الدراسات نفسهـا، ولمصلحـة تراثنـا ذاتـه، أن نُعنـى بتقدمة نصوصـه على خيرِ ما يكونُ التقديمُ، وأن نخرجَها علـى أكمـلِ مـا يكـونُ الإخـراجُ، صحـة وضبطاً، وشرحـاً وتعليقاً، وتمهيداً وتذييلاً، وتوقفاً عند كل مـا يحسُنُ التوقّـفُ عنده، وإشـارة إلى كلِّ ما تجبُ الإشارة إليه.

وأمّـا أنّـه تحريـف لطبيعـة التحقيـق العلمـي واستقامته، فذلـك لأنَّ الأصلَ في إخراج النصِّ، أن ينظـر المحقّقُ فيه وفيما حوله، في بيئته الأدبية، وفي بيئتـه الاجتماعيـة، وأن يكشـفَ إثاراته، وأن يبين عن إشاراته، وأن يدلّ على المنازع التي صدر عنها، وأن يتعـرفَ إلى الناس الذين قيل فيهم.. ومثل هذا الجهـد الذي لا بـدّ منـه في التحقيق، لا بـد منه بعد ذلك في الدراسـة... فمن الخير إذنْ أن يندمج هذان الجهـدان معـاً، فيتولى محققـو النصوص بالذات

عمليـاتِ الشـروح الأولى هذه، لكي تصبـحَ جاهزةً للبحـث الأدبـي الصـرف، أو للبحـث التاريخـي الصـرف، أو لهمـا معـاً.. فتُجلى مضيئـةً من غيرِ عتمـة، نيّرةً من غير لبسٍ، مخدومةً خدمةً محرزةً، تتيحُ للبحثِ أن ينطلقَ بعد ذلك منها، دونَ أن يضطر لمعاودةِ الجهد الذي بذله المحققون.

ولو كُنّا على شيء من هذا التنظيم والتقسيم في معالجة التراث، إحياءً ودراسةً، أعني لو كان هنالك هـؤلاء الفرقاء الذيـن يقتسمون هـذا العمل : منهم من يجمعُ الأصـولَ ويعارضُها، ومنهم من يجلوها ويشرحُها، ومنهم مـن يدرسُها ويستنتجُ منها..لو كانـت عندنا مثلُ هذه الفِرق التـي تنهضُ بذلك كلّه، على نهجٍ متصلٍ، وتعاونٍ متكاملٍ، وعلى جهدٍ يلحقُ بعضُه بعضاً، ويتم بعضُـه بعضاً، لكان من الممكنِ أن نجتـزىء بنشر النصـ، وأن نحلَّ رأي أصحاب الطريـق الآخر محلّه.. ولكننا نعلـم أنّهم قِلَّة أولئك الذي ينذرون أنفسهم وضياءَ أعينهم لهذه المهمات، قِلَّـة أولئـكَ الذيـن يفوّتون عـن عَمْدٍ فُرَصَ الحياة المزخرفـة، يتجاهلـون كل إغراءاتهـا الملوّنة، طيّبةً بذلـك نفوسُـهم، ليقفـوا جهدَهم على هـذه الوعور، حتى يحيلوها دِماثاً لينةً، خالصةً لأدبهم وتاريخهم ولغتهم وتراثهم.

ألا تبـدو الحاجـةُ بعدَ هـذا ماسّـةً إلى أن نعاودَ النظـرَ في الطريقة التي يريـدُ بها طائفة من محققي النصوص أن يأخـذوا بها أنفسَهم وزملاءهم، وأن نفسـحَ لواقـع الـتراث نفسـه ولطبيعـة النصوص المنشـورةِ أن تلـوِّن أعمالنـا، وأن تكيّفهـا، وأن تمنـحَ هذه الأعمال الحريةَ التـي يُخرَجُ بها كلّ نصّ علـى النحو الـذي يحقِّقُ أكبر الفائـدةِ منه، ويجنّب تكرار الجهـد فيه، ويؤدّي إلى سـهولةِ الكشف عنه، ويساعـد على أن يصلَ به إلى مرحلةِ الدراسةِ، دونَ أن يحتاجَ إلى جهودٍ مكرورة أخرى».

هذا ما سطّـره الأستاذ الدكتـور شكري فيصل بشـأن نظرته إلى تحقيق نصوص التراث، ومنهجه في ذلك.

وهذه النظرات، وهذا المنهج يراه المرء مبسوطاً في تحقيقه للمخطوطات التي نشرها، ويمكن الكلام على نماذج منها.

–تاريـخ مدينـة دمشـق للحافـظ ابـن عساكـر (تراجـم حرف العـين المتلوة بالألـف من عاصم – عايذ):

فهـذا الكتاب في رأي الدكتـور شكري فيصل لم يقتصر على تاريخ دمشق فحسب؛ بل أراد مؤلفه أن يقدّم تاريخاً حضارياً لبلاد الشام، على أنّه أنموذج فريـد متكـرر، لا يخصّ دمشـق وحدهـا، أو بـلاد الشام وحدها، فحيث توجّه بك المُقام في البلاد التي ضمّـت في كنفها حضـارة العـرب والمسلمين ألفيت حضارة لم يعرف التأريخ لها نظيراً على المستويات كلّهـا سواء أكانت حضاريـة أم فكرية أم سياسية، وهذا ما استدعى مجمع دمشق أن يُحقق هذا السفر الخالـد من تأريخ دمشق ليرسلـه في الناس؛ فأعلام المجمع الذيـن وقفوا على تحقيقـه أرادوا أن يُكْتَبَ التأريـخ الحضـاري والفكـري والسياسـي لبـلاد الشـام من خلال هذه المصادر التي ضاعت ، وأطاق هـذا السفـر النفيس الاحتفـاظ بجلّهـا، أو بأقسامٍ كثـيرةٍ منها في نقوله عنها؛ بل إنهم تطلّعوا إلى أبعدَ منـه، فتجديدُ كتابـة التأريخ لهـذه الأقطار العربية والإسلاميـة لا يمكـن أن يمضيَ علـى أساس سليمٍ مضـيءٍ مـا لم يظهر تاريـخُ ابن عساكـر إلى النور، وأن يوضَـعَ موضعَ المدارسةِ والممارسةِ.

نظـرات عميقات ثاقبـات البعد صـدرت عـن هـذا النفر مـن أعلام المجمـع لم تـبرح خاطـر الدكتـور شكـري فيصل وهـو يتصدّى لهذا المصـدر التأريخـي؛ فلا غـرو إذن أن يُفـرغ وسعـه في ضبـط نصّـه، والتعليق عليه، وتتبع ما أشكل منه، وهذا هو المنهج العلمي القويم الذي مضـى عليه رحمـه الله، وهو الذي يُعوّل عليـه في تحقيق المخطوطات، وليس كمـا تشـهـد أيّامنا هـذه، إذ تجـد نصوصـاً مضطربـة مفعمـة بالتحريـف والتصحيـف والسّقط تزيّنها الحواشي البعيدة كلّ البعد عـن ضبط النّصـ؛ قوامها تخريج آيـة أو قـراءة أو بيـت شعـر مـن عشـرات المصادر؛ وقـد تلقى قول الشّاعـر نفسـه يعتريـه الخلـل في الوزن أو الضبط أو الفهم.

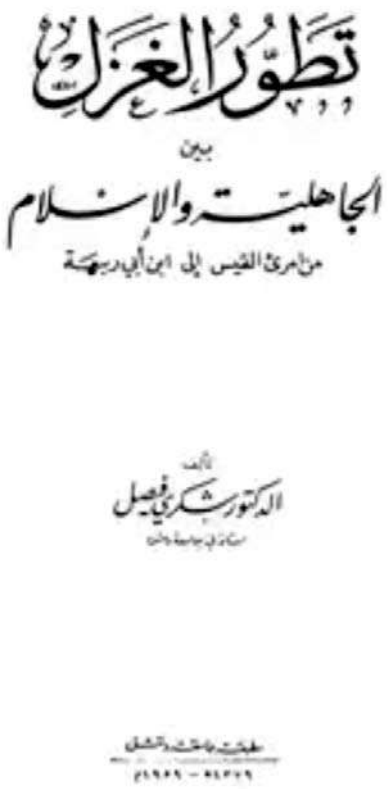

من مصادر ترجمته:

-إتمـام الأعـلام، نـزار أباظـة ومحمـد رياض المالـح، دار صادر، بيروت، ١٩٩٩م.

-أدبـاء معاصـرون: سـير ودراسـات، عيسى فتوح، دار كيـوان للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ط١، ٢٠٠٦م.

-إضبـارة الدكتـور شكـري فيصـل المحفوظـة في مجمع اللغة العربية بدمشق.

-بعض السمات البارزة في المنهج التربوي للأستاذ الدكتور شكري فيصل، محمود السيد، ط١، ٢٠٠١م.

-تتمـة الأعـلام للزركلـي، محمـد خـير رمضـان يوسف، دار ابن حزم، بيروت، ط٢، ٢٠٠٢م.

-تكملـة معجـم المؤلفـين، محمـد خـير رمضـان يوسف، دار ابن حزم، بيروت، ١٩٩٧م.

-الدكتـور شكري فيصل وصداقـة خمسين عامًا، عدنـان الخطيب، مجلـة مجمع اللغـة العربية بدمشق، مج٦٠، ج٤، ١٩٨٥م.

-ذيل الأعلام، أحمد العلاونة، دار المنارة للنشر والتوزيع، جُدَّة، ط١، ١٩٩٨م.

-شخصيات وصور أدبية، إبراهيم الكيلاني، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ١٩٩٣م.

-شكري فيصل: الأديب العالم والمجمعي الخالد، عبد الغني العطري في كتابه (عبقريات من بلادي)، دار البشائر، ١٩٩٥م.

-شكري فيصل: العالم الأديب المجمعي، محمد مطيع الحافظ، دار القلم، دمشق، ٢٠١٠م.

-شكري فيصل، خير الله الشريف، الموسوعة العربية، المجلد الخامس عشر.

-شكري فيصل، خير الله الشريف، موقع أندلسيات، ٢٠١٦م.

-شكري فيصل، عيسى فتوح، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، مج٨٨، ج٣، ٢٠١٥م.

-شكري فيصل، موقع اتحاد الكتّاب العرب-دمشق.

-شكري فيصل، موقع أرشيف المجلات الأدبية والثقافية العربية.

-عالمنا العربي، نعمة زيدان، بيروت، ١٩٥٦م.

-كلمة جعفر الحسني في استقبال شكري فيصل، مجلة المجمع العلمي العربي، مج٣٧، ج٢، ١٩٦٢م.

-كلمة عبد الوهاب حومد في حفلة استقباله يتحدث فيها عن سلفه شكري فيصل، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، مج٦٧، ج١، ١٩٩٢م.

-معجم الأدباء من العصر الجاهليِّ حتى سنة ٢٠٠٢م، كامل سلمان جاسم الجبوري، دار الكتب العلمية، ٢٠٠٢م.

-معجم المؤلفين السوريين في القرن العشرين، عبد القادر عياش، دار الفكر، دمشق، ١٩٨٥م.

-معجم مؤلفات الأعلام، عادل الحجاج، دار المعتز للنشر والتوزيع، الأردن، ط١، ٢٠١٣م.

-من هم في العالم العربي، الجزء الأول: سورية، جورج فارس، مكتب الدراسات السورية والعربية، دمشق، ١٩٥٧م.

-من هو في سورية، جورج فارس، مكتب الدراسات السورية والعربية، دمشق، ط١، ١٩٤٩م، ط٢، ١٩٥١م.

-موسوعة أعلام سورية في القرن العشرين (ج٣)، سليمان سليم البواب، مؤسسة المنارة، دمشق، ط١، ٢٠٠٠م.

-نثر الجواهر والدرر في علماء القرن الرابع عشر، يوسف بن عبد الرحمن المرعشلي، دار المعرفة، بيروت، ط١، ٢٠٠٦م.

-مصادر الشّابكة:

-موقع مجمع اللغة العربيّة بدمشق:

http://www.arabacademy.gov.sy/ar/page16253/%D8%A7%D9%84%D8%AF%D9%83%D8%AA%D9%88%D8%B1_%D8%B4%D9%83%D8%B1%D9%8A_%D9%81%D9%8A%D8%B5%D9%84

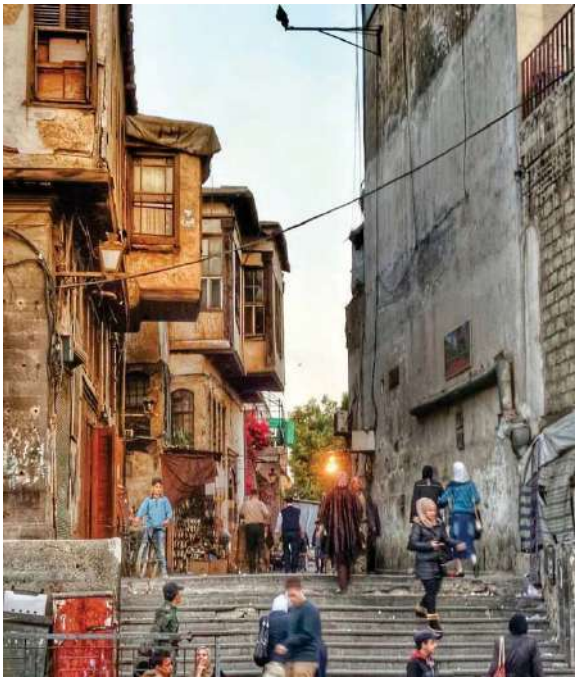

مِن التَّصحيف والتَّحريف في مطبوعة «الحُجَّة» لأبي عليٍّ الفارسيِّ (ت ٣٧٧ هـ)

محمَّـــد قاســـم

«الحُجَّة» لأبي عليٍّ الحسن بن أحمد الفارسيّ (ت ٣٧٧ هـ) أَثَرٌ غَالٍ نفيسٌ وَضَعَهُ أبو عليّ في الاحتجاج للقُرَّاء السَّبعة أئمّة الأمصار بالحجاز و العراق والشّام الّذين ذكرهم أبو بكر أحمد بن موسى بن مجاهد (ت ٣٢٤ هـ) شيخ الصَّنعة وأوّل مَنْ سبّع السَّبعة في كتابه «السّبعة».

وقد صال أبو عليّ في احتجاجه وجال واستطرد وملأ الحُجَّة بالشواهد و المسائل حتى غدا كتابه في بابة الاحتجاج للقراءات ككتاب سيبويه في بابة النّحو. وقد نُشِرَ كتابه مُنَجَّمًا في دمشق ١٩٨٤ – ١٩٩٧ م في سبعة أجزاء.

وكنتُ إبّانَ عكوفي عليه أستخرجُ منه ما احتكم إليه أبو عليٍّ من أُصُولٍ قَيَّدْتُ مواضع أُزِيْلَتْ عن وَجْهِها، وغدا الكلامُ بها مُسْتغلقًا أو مُحالًا، وفيما يأْتي أمثلةٌ من ذلك دَالَّةٌ على ما وراءَها:

• ١ / ٢٤٨: سُوى: وهو المكان النِّصف [كذا] فيما بين الفريقين [كذا].

صوابه: وهو المكان النَّصَفُ فيما بين القَرْيَتَيْن.

• ١ / ٣٦٨: جازت فيها الإمالة كما جازت في: مررت ببابه؛ لمكان كثرة [كذا] الإعراب.

صوابه: لمكان كسرة الإعراب.

• ٢ / ٧: ومن ثَمَّ قرأ مَنْ قرأ: ﴿**هنالك تبلو** [كذا] **كلُّ نفسٍ ما أسلفت**﴾ [سورة يونس : ٣٠] بالتاء، فهذه الآي في معنى إخبار الإنسان بأعماله وتوقيفه عليها.

صوابه: ﴿**هنالك تَتْلُو**﴾.

• ٢ / ١٧٠: ولا نعلم أحدًا ممّن يُؤْخَذُ بقَوْلِهِ يذهب إلى أَنَّ الألفاظ [كذا] في الحروف زائدة، فكذلك ينبغي أن تكون الألف في هذا الحرف.

صوابه: ولا نعلم أحدًا ممّن يُؤخَذُ بقوله يذهب إلى أنَّ الألفات في الحروف زائدة...

• ٢ / ٣٣٦: الإتيان: المَأْتِيّ، ممّا يُبَدَّلُ [كذا] بسَوْقٍ أو نَقْدٍ.

صوابه: ممّا يُبْذَلُ.

• ٣ / ٤٩: وإنْ شئت جعلته لاحقًا للجماعة [كذا] بدلالة قولهم هَلُمَّ....

صوابه: لاحقًا للجملة.

• ٣ / ١٠٦: وممّا يدلُّك على ذلك قُبْحُ دخول اليقين [كذا] عليها، لو قلت: أظنّ نفسي تفعل كذا لَمْ يحسنْ كما يحسنُ أَظُنُّني فاعلًا.

صوابه: ومِمّا يدُّلك على ذلك قُبْحُ دخول النَّفْس...

• ٤ / ٢٦٠: ومنه الدَّرِيَّة في قول أكثر النّاس في الحَجَلِ [كذا] الذي يستترُ به الصَّائدُ مِنَ الوحش.

صوابه: ومنه الدَّرِيَّة في قول أكثر النَّاس في الجَمَلِ...

• ٤ / ٣٣٤: ألا ترى أَنَّ مَنْ خَفَّفَ الهمزةَ السَّاكن ما قبلَها، نحو ﴿**الخَبْءَ**﴾ [سورة النمل: ٢٥] لَمْ يفعل ذلك في الهمزة في نحو: أفياء [كذا]، إنما تبدل من الهمزة ياء، ويدغم فيها ياء التحقير...

صوابه: أُفَيِّس.

• ٤ / ٣٣٥: فلو لَمْ تردّ اللام مع ياء التحقير وجعلتَها محذوفة في التحقير، كما حذفتها في التكسير [كذا] ...

صوابه: التكبير.

• ٥ / ٩٤: أفّ لّما كان اسمًا لأتكرَّهُ وأتفجَّر [كذا]...

صوابه: وأَتَضَجَّرُ.

• ٥ / ١١٢: أعمى في الكلمة الثانية عبارة عن العوارف [كذا] الجارحة.

صوابه: المَؤُوْف الجارحة.

• ٥ / ١٩٣: لأنّهم قد غيّروا أيضًا في باب النصب [كذا] لتغيير واحد، فقالوا: قُرَشيّ...

صوابه: النَّسب.

• ٥ / ٢٧١: فنُوَّاره مِيْلٌ إلى الشَّمْسِ زاهرُهُ

فلولا أنَّ النُّون [كذا] كاسم الفاعل لم يكسّره تكسيره...

صوابه: فلولا أنَّ النَّوْرَ...

• ٥ / ٤٥٥: يُهدي إليّ حَيَاةَ ثانيَ الجِيْدِ

في الهامش: لم نظفر له على تتمّةٍ أَوْ قائلٍ.

صوابه: يُهدي إليَّ خَنَاهُ ثانيَ الجِيْدِ

وهو عَجُزُ بيت للشَّمَّاخ في ديوانه ١١٥، صدره:

نُبِّئْتُ أَنَّ رُبَيْعًا أَنْ رَعَى إِبِلا

• ٦ / ٥٧: وتكون ترى على هذا التي معناها الرَّأي ، وليس إدراك الحاجة [كذا]...

صوابه: إدراك الجارحة أو الحاسّة.

• ٦ / ١٣١: إلا أن ما ينصب في العطف على جزاء الشّرط أمثلُ مِن ذلك، لأنَّه ليس يوقع فعلًا إلَّا بأَنْ يكونَ مِنْ غيره فعلٌ ، فصار بمنزلة الهواجس [كذا]...

صوابه: بمنزلة غير الواجب.

• ٦ / ٢٣٢: قسمة ضيزى، ومشيةٌ حُبْلى [كذا] ...

صوابه: حِيْكى.

• ٦ / ٢٧٢: كقولهم للمرأة [كذا]: راوية ، وكقولهم للفِناء: عَذِرَة...

صوابه: للمزادة.

• ٦ / ٣٤٤: وكما لم تلحق النون مع الفعل في الآي [كذا]...

صوابه: في الآتي. وهو الفعل المضارع.

• ٦ / ٣٧٥: ونحو ذلك ممّا جاء على لفظ الأمر كافّة [كذا]، والمراد به الانفصال.

صوابه: على لَفْظِ الإضافة، والمراد به الانفصال.

• ٦ / ٤٦٢: لو قلت : زيدًا لا [كذا] منطلقٌ، لم يكنْ كلامًا.

صوابه: زيدٌ إلَّا منطلقٌ، لَمْ يكنْ كلامًا.

• ٦ / ٤٦٣: أكلَّ يوم لك ذُنُوْبٌ [كذا].

صوابه: ثَوْبٌ. وهو مِن أمثلةِ كتابِ سيبويه المشهورة.